

انوراضا روي

الأرض المطويّة

ترجمة: د. محمد درويش

رواية

دار الآداب

أنورادا روي

الأرض المطويّة

ترجمة د. محمّد درويش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

الأرض المطويّة

الأرض المطويّة

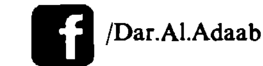
أنورادا روي / كاتبة هنديّة

الطبعة الأولى عام 2014
ISBN 978-9953-89-294-8

Originally entitled The Folded Earth
Published by Arrangement with Maclechose Press,
an imprint of Quercus Editions Ltd (UK)

تمّت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض
الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123 - 11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com







الإهداء

إلى أمّي

التي تسلّقتُ وإيّاها أوّل تلالي،

وإلى روكان وبسكوت

اللذين نذرا نفسيهما ألّا يمارسا التسلّق!

مقدّمة المترجم

قرية تختزل شبه قارّة

الخيال الجامح والمهارات اللغويّة العالية والإرادة في خلق الوهم الذاتي هي في كلّ الأحوال العناصر الأساسيّة الثلاثة، التي ترى أنورادا روي أنّ الروائي المعاصر لا بدَّ له من امتلاكها كي يبدأ سباق المسافات الطويلة رفقة غيره من الروائيين. وتؤكّد هذه الروائيّة الهنديّة، التي لم تكتب قبل رواية «الأرض المطويّة» سوى رواية واحدة باللغة الإنكليزيّة، أصدرتها دار الآداب بترجمتنا بعنوان «خرائط الحنين المستحيل»، ونُشرت في ثمانية عشر بلدًا وتُرجمت إلى ستّ عشرة لغة! إنّ الروائي الناجح في حاجة إلى الصبر والتأنّي والمثابرة، والأهمّ من هذا كلّه الإحساس بالسعادة في العزلة التي يفرضها على نفسه من أجل مواصلة إبداعه الروائي. ربّما كان في ذهن أنورادا روي الروائي المعروف هاروكي موراكامي الذي يمارس هواية الركض والكتابة، ثم

يكتب عن الركض في «ما الذي أقوله عندما أتكلّم عن الركض!».

غير أنّ هذه الأديبة، التي تلقّت علومها الأوّليّة في مدينة حيدر أباد، وانتقلت على أثر ذلك إلى كلكتا وكيمبردج لمواصلة دراستها، لا تعرف حتى اللحظة السبب الذي يدفعها إلى ممارسة كتابة الفنّ الروائي، وإن كانت تلاحظ أنّها مضطرّة إلى ذلك اضطرارًا لأنّها إذا ما توقّفت عن الكتابة تجدها، بحسب قولها، منزعجة ومتذمّرة وقلقة ومحبطة. كما أنّ الكتابة وحدها هي التي تجعل كلّ ما في حياتها يكتسب معنًى. غير أنّ الكاتبة توضح أنّها ما تزال غير متأكّدة إن كانت تهوى الكتابة حقًّا، خاصّة الكتابة الروائيّة. بل تتمنّى لو كان في وسعها ممارسة أيّ مهنة أخرى أقلّ استنزافًا لطاقاتها العاطفيّة والوجدانيّة والعقليّة. غير أنّ الملاحظ أنّها تستمدّ قدرًا هائلاً من الرضا في الإنهاك الذي يُسبّبه لها مثل هذا النمط الكتابي الإبداعي، وهو إحساس يطغى على بقيّة مشاعرها بعد الانتهاء من كلّ جلسة من جلسات التأليف الذي تتقن صنعه، والذي جعل روايتها الأولى «خرائط الحنين المستحيل» واحدة من أهمّ ستّين كتابًا عن الهند المعاصرة؛ ورشّحت رواية «الأرض المطويّة» لنيل عدد آخر من الجوائز لعلّ أهمّها حتى الوقت الحاضر جائزة مان اشيا ليترري أوارد.

وقد قادتها صنعة الإبداع إلى تنويع كتاباتها الأدبيّة المختلفة، فراحت تنشر المقالات الصحافيّة ومراجعات الكتب في عدد من الصحف والمجلّات المعروفة، مثل: إنديان إكسبريس وإنديا اليوم وآوت لوك وآوت لوك ترافيلر وبيبليو والهندوس والتلغراف. وفي العام ٢٠٠٠ أسّست، هي وزوجها روكان أدفاني، بيرمانينت بلاك وهي دار نشر مستقلّة ومتخصّصة في نشر الكتب عن تاريخ جنوب شرقي آسيا عامّة والهند وسياستها وتاريخها خاصّة. وقد أصدرت الدار منذ

تأسيسها في ذلك العام ما يربو على المئتين والخمسين كتابًا، وتستقطب كتّابًا ومفكّرين من شتّى بقاع العالم ممّن تخصّصوا في الكتابة والتأليف في ميادين التاريخ والعلوم الاجتماعيّة والسياسة والثقافة فضلاً عن الآداب المترجمة.

هذا التطوّر الكبير في الصنعة الأدبيّة، الروائيّة وغير الروائيّة، له جذوره العميقة في مراحل أنورادا روي الكتابيّة المبكرة. المدهش أنّها تؤكّد أنّ هذه البدايات ترجع إلى زمن طفولتها الذي بدأت فيه كتابة القصص القصيرة، ويبدأ هذا الزمن تحديدًا عند تعلّمها حروف الهجاء، وكانت قصصها القصيرة تنحو منحى «كان يا ما كان». وما إن اجتازت مرحلة الطفولة وبدأت مرحلة المراهقة حتى وجدت إحدى الصحف تنشر قصصها القصيرة، انتقلت بعدها انتقالة مؤثّرة وكبيرة نحو عالم الصحافة والنشر الواسع الذي ما تزال منهمكة فيه. وإذا كان العمل في دار النشر قد استغرق منها وقتًا طويلاً في السنوات التي أعقبت تأسيسها، فإنّها تؤكّد اليوم أنّ ثمّة صعوبات هائلة تعترض طريقها في الإبداع الروائي عندما تراجع وتحرّر الكتب المطروحة أمامها للنشر، وأنّ مثل هذه العمليّة تفوق في كثير من الأحيان صعوبة الكتابة والتأليف، ما جعلها تقتصر في الوقت الراهن على التأليف وتصميم أغلفة الكتب ولقاء الكتّاب والمؤلّفين الذين يتردّدون على الدار، في حين يتولّى زوجها الآن متابعة عمليّة النشر والتحرير وبيع الحقوق وشرائها وكلّ ما يخصّ الأمور الماليّة.

وهذا ينقل الأديبة إلى عالم الأدب الرحيب لا سيّما في الهند وجنوب شرقي آسيا، تلك المنطقة من العالم التي لا يعرف القارئ العربي عن أدبها إلّا لمامًا. فهي توضح أنّ عدد الكتّاب الهنود، روائيين أم غير روائيين، أكبر من أن يتّسع المجال لذكرهم؛ وذلك

مرجعه ثراء الأدب المكتوب بلغات مستعملة في شبه القارّة الهنديّة، ولا سيّما اللغات البنغاليّة والأوردو (وهي اللغة الرسميّة في الباكستان وأجزاء واسعة من الهند) والهنديّة والتاميليّة ولغة المالايالام (وهي لغة منطقة كيرالا في جنوب غربي الهند).

وتضرب أنورادا روي بعض الأمثلة على نماذج أدبيّة خضعت أصلاً لذائقتها الأدبيّة، فأصدرت ترجماتها. . ومنها شعر التاميل الكلاسي بترجمة أي. كي. رامانوجان؛ وفي الرواية مؤلّفات الأديب البنغالي بيبهوتيبهوشان باندوبادوهياي وبخاصّة روايته «أغنية الطريق» التي اقتبسها للسينما المخرج ساتيا جيت راي. أمّا في المسرح، فتذكر روي أنّها أصدرت عن دار نشرها مسرحيّات مذهلة تثير القلق لكلّ من فيجاي تيندولكار وجيريش كارناد. أمّا في ميدان الملاحم، فأصدرت ترجمة جون دي. سمث لملحمة ماهابهاراتا التي ترى أنّها تستحقّ القراءة حتى إذا لم يكن في وسع المرء تحمّل الفارق الزمني الذي كُتبت فيه.

إلّا أنّ رؤية الكاتبة في الأدب والأدباء على وجه العموم تتمثّل في أنّها لا تفضّل أديبًا على آخر، وإنّما لديها عدد من الأعمال الأدبيّة المفضّلة التي تتغيّر بدورها ذائقتها لها بتغيّر الزمان، وتؤكّد أنّها غالبًا ما تمرّ في حالات نفسيّة تجعلها تمتعض من أيّ كتاب تبدأ في قراءته، وإذا ما صادفتها مثل هذه الحالة، فإنّها تقنع نفسها بقراءة الروايات البوليسيّة وقصص الجريمة التي تبعث على متعتها.

وإذا كانت انورادا روي ترى أنّها تفضّل نشر الكتب المترجمة بالدرجة الأساس، فإنّها لا تنسى ذكر روايتين قصيرتين، أولاهما للكاتب الروسي أنطون تشيخوف وهي «المبارزة»، والثانية للكاتب الياباني ياسوناري كاواباتا المعروفة «صوت الجبل». وتشيد الروائيّة بهذين الكتابين مؤكّدة أنّها تعود إليهما بين حين وآخر عندما تشعر أنّها

أصيبت بالجفاف والنضوب.

وفي رواية «الأرض المطويّة»، يمتزج الواقعي بالخيالي، والسياسي بالاجتماعي، والذاكرة الفرديّة بالذاكرة الجماعيّة، والعنف السياسي باللاعنف، في صورة بانوراميّة تعيد الاعتبار للمكان، وأيّ مكان؟ إنّه القرية التي أخذت تتوارى وتضمحل من كتابات الأدباء المعاصرين الذين باتوا يعالجون موضوعات هي أصلاً من سمات كبريات المدن، لا سيّما المدن الأوروبيّة والأميركيّة، وما فيها من مؤثّرات في ميدان الأعمال والسياسة والمجتمع والاقتصاد والصحافة وغيرها. لقد آثرت أنورادا روي الكتابة عن بلدة صغيرة منعزلة عن العالم كلّه وليس عن الهند وحدها، كونها تقع على سفح من سفوح الهملايا، تنظر إلى العلاقات التي تشدّ أواصر سكّانها وأهلها وتفرّقهم في الوقت نفسه بعين خبير ماهر، وهي التي تقطن وزوجها في تلك البلدة، ونقصد بها بلدة رانيكهت، التي جعلتها المهاد الذي تدور فيه أحداث الرواية التي قدحت زناد فكرها، كما تقول، صورة فوتوغرافيّة لبحيرة روبكوند الواقعة في منطقة جبال الهملايا وعلى ارتفاع يزيد عن ستّة عشر ألف قدم، حيث اكتُشفت فيها العام ١٩٤٢ هياكل عظميّة تربو على خمسمائة هيكل عظمي، وما يزال بعضها موجودًا حتى اليوم، ما جعل الناس يطلقون عليها اسم: بحيرة الهياكل العظميّة، ويقال إنّ زمنها يعود إلى القرن السادس الميلادي. الغريب في أمر هذه الهياكل هو أنّ سبب موت هذا العدد الكبير من الناس في تلك المنطقة غير المأهولة بالسكّان، بل سبب ذهابهم إلى ذلك الموقع، ما يزال مجهولاً وإن ظلّ يدور في باب التكّهنات. وتشير الكاتبة إلى أنّ عددًا من أصدقائها شدَّ الرحال إلى تلك البقعة النائية، وبعضهم أفلح في الوصول إليها، في حين أخفق البعض الآخر في الوصول إلى النقطة

الأخيرة، ولكنّها منذ اللحظة التي رأت فيها صور الهياكل العظميّة أدركت أنّ البحيرة ستظلّ تطرق مخيّلتها إلى أن وجدت طريقها في هذه الرواية.

الانتخابات البرلمانيّة وتنامي القوميّة الهندوسيّة، الديانات ونظام الطبقات الاجتماعيّة في الهند، البراري والطبيعة المتلاشية بفعل العوامل الجوّيّة والحرائق والسيول الجارفة والجفاف، والإحساس بالذعر والهلع من تفجّر العنف الطائفي الذي يتوارى من تحت طبقات هشّة من علاقات اجتماعيّة تفتقر إلى العمق والصدق والصراحة، كلّها تنويعات لثيمة أساسيّة هي الهند بكلّ ما فيها من أصالة ومعاصرة، خرافة وديانة، عادات وتقاليد، لملايين البشر أغلبهم في أسفل السلّم الاجتماعي، في القرية كانوا أم في المدن الكبيرة، تسحقهم الفاقة ويفتك بهم المرض بعد أن يكون التعصّب نفسه قد جعلهم فريسة سهلة أمام موت لا يرحم، وسجن كبير هو سجن الحياة نفسها بما فيها من بؤس وتشرّد وحنين وشوق وزوال واندثار من بعد انكسار في الروح والعزيمة وتخبّط في المجهول وإصرار على المضيّ في طريق محفوف بالمخاطر، هو في أقلّ تقدير الطريق الذي وطّنت فيه بطلة الرواية العزم على السير فيه حتى النهاية.

الدكتور محمّد درويش

القســــم الأوّل

١

اعتادت الفتاة أن تأتي في وقتها المحدّد صيفًا أو شتاءً، وكان يطرق سمعي صوت اقترابها في صباح كلّ يوم، منتعلة نعالاً مطّاطيًّا، في ما كان صوت الصفيح يرنّ من فوق الحجارة. ثم يبدأ وقع خطواتها بالتلاشي، بيد أنّها كانت مبكرة في ذلك الصباح على غير عادتها، إذْ لم تكن حتى طيور السمان قد سقسقت بعد، ولم ينفخ الجنود الرماة أبواقهم في ميدان الرمي الممتدّ في الجانب الآخر من الوادي. وبخلاف كلّ يوم، لم أسمعها تنصرف بعد أن تكون قد وضعت على الأرض وعاء حليبي اليومي.

كما أنّها لم تطرق الباب ولم تناديني، بل وقفت منتظرة، في حين خيّم سكون مطبق في زرقة السماء قبيل ظهور نور الشمس. ثم بدأت همهمات المحلّة المهدّئة في باكورة ذلك الصباح: فؤوس الحطّابين تضرب من فوق الخشب، والكلاب تجرّب أصواتها في النباح، وصاح أحد الديكة، وتسلّل دخان الحطب من نافذتي المفتوحة. أسبلت جفنيّ من جديد، وخبّأت نفسي عميقًا من تحت بطّانيّتي، ولم أستيقظ إلّا بعد

أن سمعت الجنرال ينزّه كلبه، معنّفًا إيّاه لتمرّده المعتاد، وكأنّه متعجّب من أمره بعد كلّ هذه السنين، وقال في صوته الجهوري المألوف:

ـ ما السبب يا بوزو؟ بوزو، ما السبب؟

كان الجنرال يمرّ من أمام البيت في الساعة السادسة والنصف من صباح كلّ يوم ما يعني أنّني سوف أتأخّر ما لم أقطع الطريق ركضًا.

مشيت على غير هدى، وحاولت أن أعدّل من هيأتي وأن أُعدَّ القهوة وأعثر على ثياب أرتديها قبل الذهاب للعمل، وأجمع سجلّات الحسابات التي أحتاج إلى أن أحملها معي. وهنا تموّج الحليب في قهوتي وأزبد حتى انسكب من الوعاء فوق الموقد قبل أن أتمكّن من مدِّ يدي إليه. ينبغي لهذا المشهد أن ينتظر التنظيف، فأمسكت بالأشياء وأنا أحتسي قهوتي بين هذا الشيء وذاك. وفي ما كنت أربط شريط حذائي، محنيةً على ساق واحدة قرب الباب الرئيس، شاهدتها من زاوية عيني: ما تزال شارو منتظرة إيّاي ترسم الدوائر عند أسفل الدرجات بإصبع قدم حافٍ.

كانت شارو فتاة قرويّة تجاوزت سنّ السابعة عشرة بقليل وتقطن في المسكن المجاور لي. وكما هو شأن كلّ سكّان التلّ، كانت عظام وجنتيها بارزة، بشرتها متألّقة بحمرة من أثر الشمس. وكانت تنسى أن تمشّط شعرها حتى وقت متأخّر من النهار، فتتركه ينسدل أسفل كتفيها في ضفيرتين مجعّدتين. وكانت تشبه معظم أهالي التلّ من حيث إنّها لم تكن فارعة القدّ، بل يمكن أن يتخيّل كلّ من ينظر إليها من الخلف أنّها طفلة صغيرة إذْ كانت نحيفة، ضعيفة الجسم، ترتدي قميصًا طويلاً وسروالاً فضفاضًا مستعملين ورخيصين. وبدلاً من قطعة ألماس، كانت تزيّن أنفها بحلية فضِّيّة صغيرة.

ومع هذا، فقد لاحت عليها حشمة وفتنة أميرة من أميرات النيبال ـ حتى لو تطلّب منها الأمر ثانية واحدة كي ترجع إلى مراهقتها المرتبكة التي أعرفها عنها. ولمّا أدركت أنّني أوشك أن أخرج، نهضت واقفة على قدميها في عجالة ومسحت إصبع قدمها بقطعة آجر. حاولت أن تبتسم من تحت طائلة الألم وهي تقول لي في صوت لا يكاد يُسمع: مرحبًا، وشبكت يديها.

أدركت بعد ذلك سبب انتظارها إيّاي وقتًا طويلاً، فهرولت إلى الطبقة العليا وحملت رسالة كنت قد تسلّمتها بالأمس، وكانت موجّهة إليَّ، ولكن عندما فضضتها، اتّضح لي أنّها مرسلة إلى شارو، دسستها في جيبي وخطوت خارج الباب الرئيس.

كانت حديقة منزلي قطعة من سفح التلّ من غير انتظام، ولكنّها تحتشد بأزهار بريّة في هذا الصبح الذهبي والأزرق. وكانت زهور الزنبق بحجم كوب الشاي قد انبثقت من بين الصخور، فيما تحوّلت قصاصات الورق المتطايرة إلى فراشات بيض لدى اقترابها منّي. وفاحت رائحة الرطوبة والبرودة والنقاوة من كلّ شيء على أثر زخّة مطر خفيفة هطلت وقت الفجر، وكانت تلك أوّل زخّة بعد أيّام من الجوّ الحارّ. أحسست أنّني بدأت أخفض من سرعتي، وأنّ العجالة من أمري قد تلاشت.

على أيّ حال، كنت متأخّرة. ما الفرق إن تأخّرت بضع دقائق أخرى؟ التقطت ثمرة خوخ وأكلتها، ووجدت متعة في الفراشات وتجاذبت أطراف الحديث مع شارو.

لم أنبس بكلمة عن الرسالة. وانتابني حبّ فضول غريب لمعرفة الأسلوب الذي سوفْ تخبرني به عمّا تريد، إذْ طالما انساب إلى سمعي

صوت تنهّدها عندما تريد الكلام، ولكنّها ربّما شعرت أنّ المستحسن أن تقول:

ـ أمطرت السماء بعد جفاف دام ثلاثة أسابيع.

أو ربّما كان ذلك هو كلّ ما فطنت إلى قوله. غير أنّها أضافت:

ـ أكلت القرود كلّ ثمار الدرّاق من على شجرتنا.

ساورني إحساس بالعطف والشفقة عليها، فأخرجت الرسالة من جيبي، وكان عنواني واسمي مكتوبين عليها باللغة الهنديّة وبخطّ طفولي كبير الحروف.

سألتها:

ـ أتريدين أن اقرأها عليك؟

قالت:

ـ نعم، لا بأس.

وبدأت تعبث بوردة وكأنّ الرسالة لا أهمّيّة لها، ولكنّها على الرّغم من ذلك، رمقتها بنظرات خاطفة عندما ظنت أنّني كنت منشغلة عنها. وارتسمت على ملامحها أمارات الارتياح والفرح.

كانت الرسالة تشير إلى ما يأتي:

صديقتي شاور

كيف حالك؟ وكيف حال أسرتك؟ أرجو أن يكون كلّ فرد في خير. أمّا أنا، ففي حالة حسنة. هذا هو يومي العاشر في مدينة دلهي. ومنذ يومي الأوّل، شرعت أبحث عن دائرة بريد لأشتري رسالة داخليّة. يصعب العثور على الأماكن هنا، فالمدينة كبيرة وفيها أعداد كبيرة من السيّارات وعربات الركشة والحافلات. أحيانًا، أشاهد فِيَلة

على الطريق. هذا ويبلغ الازدحام في هذه المدينة درجة من الشدّة حتى إنّني أعجز عن رؤية ما هو قائم بعد البيت المجاور. أشعر أنّني لا أطيق التنفّس، والروائح فيها كريهة. أتذكّر رائحة التلال التي تشبه رائحة العشب المجزوز. ولا يمكنك سماع تغريد الطيور هنا أو الأبقار أو الماعز، لكنّ الغرفة التي وفّرها لي السيّد على ما يرام، وهي مشيّدة فوق مرآب السيّارة، وتطلّ على الشارع. وإذا ما خلوت بنفسي بعد أن أنهي إعداد الطعام في النهار، فإنّ في وسعي أن أطلّ من النافذة وأرى كلّ شيء. لديّ اليوم مال أكثر من السابق، أدّخره ليكون مهرًا لأختي ولأسدّد قرض أبي. وبعد ذلك يمكنني أن أنفّذ ما يتمنّاه قلبي. أرسلي إليَّ صورة كفّك ردًا على هذه الرسالة، وسأكون ممتنّة وسأكتب لك مجدّدًا.

صديقتك

سألتُ شارو:

ـ من أرسل هذه الرسالة؟ أتعرفين أحدًا ما في مدينة دلهي؟ أم أنّ الرسالة جاءت إلينا من طريق الخطأ؟

قالت من دون أن تنظر إليَّ نظرة مباشرة:

ـ إنّها من صديقة، بنت اسمها سونيا.

ثم تردّدت قليلاً قبل أن تستأنف الكلام:

ـ طلبت منها أن ترسل رسائلها إليك، لأنّ ساعي البريد يعرف عنوان منزلك على نحو أفضل.

ثم أشاحت بوجهها جانبًا. لا بدّ أنّها أدركت أنّ كذبتها بالغة الشفافيّة.

سلّمتها الرسالة فخطفتها، وما هي إلّا لحظات حتى وصلت منتصف سفح التلّ الموصل بين منزلي ومنزلها، وذلك قبل أن أضمّ قبضتي.

صحت بأعلى صوتي من ورائها:

ـ ظننت أنّني علّمتك كيف توجّهين الشكر.

توقّفت، فتغلغل النسيم في وشاحها الطويل عندما تسمّرت في مكانها لا تعرف ما تفعل. ثم أسرعت في هبوط السفح في اتّجاهي، وتكلّمت كلامًا سريعًا، فاختلطت كلماتها الواحدة بالأخرى:

ـ لو أتيتكِ كلّ يوم بكمّيّة إضافيّة من الحليب... فهل تعلّميني القراءة والكتابة؟

* * *

٢

لم تكن غريمتي في الحبّ امرأة، بل سلسلة جبال، وهذا ما اكتشفته على أثر زواجي مباشرة. فقد صمدنا في وجه أسرتينا من أجل أن نكون معًا، وكنّا في الأشهر الأولى منبوذيْن متهلّليْن، وضعا الكون كلّه في حجرتين مؤجّرتين وسرير واحد ضيّق. ولم يكن النهار سوى انتظار للمساء الذي يلتمّ فيه شملنا. ولم تكن ليالينا مخصّصة للنوم. وكنّا نودّع بعضنا بعضًا مرّات ومرّات قبل أن نقدر على الفراق ويمضي كلّ واحد منّا في سبيله في صباح كلّ يوم، لكن هذا الحال لم يدم طويلاً.

بدأ كلّ شيء رويدًا رويدًا: حالات صمت وإنعام النظر في الخرائط وإخراج الأحذية الثقيلة والسترات المحشورة في حقيبة ملابس من تحت سريرنا ـ لكنّ القلق البطيء الذي تملّك مايكل سرعان ما تحوّل إلى قلق جامح لا سبيل إلى مقاومته. فقد كان معي في جسده لا في عقله. وكانت قدماه تطآن أرضًا مسطّحة ولكنّهما تنحنيان من فوق أرض مائلة. وكان يستلقي مفتوح العينين مستغرقًا في أحلام يقظة،

ويدرس تقارير الأنواء الجوّيّة عن مناطق لم أسمع بها في حياتي.

لم يكن مايكل متسلّق جبال، بل كان مصوّرًا صحافيًّا. وتمكّن بوساطة رفيق من رفاق المدرسة، يعمل والده رئيس تحرير إحدى الصحف، من العثور على وظيفة في الصحيفة على أثر زواجه. ولم نكن نقدر على القيام بأكثر من رحلة سنويّة واحدة في الجبال. وكانت تلك الرحلة هي الأمل الذي يعيشه طوال السنة.

كانت حالات الحنين الطاغي المستبدّ بمايكل هي التي جعلتني أفهم السبب الذي يجعل بعض الناس مهووسين بالجبال والبعض الآخر مهووسين بالبحر. وكانت المحيطات تمارس تأثيرها القويّ وجاذبيّتها على أهل البحر حيثما كانوا ـ في مدينة بعيدة عن الساحل أو في وسط صحراء ميتة ـ وعندما يشعرون بقوّة الجذب، لا يجدون أمامهم أيّ خيار سوى الوصول إليها والوقوف عند حافّتها الترابيّة الهائلة والمتحلّلة وقد هدأت تمامًا. أمّا أهل التلال، فهم لا يستطيعون مفارقة الجبال زمنًا طويلاً حتى لو كانت ولاداتهم في أراضي منبسطة، وما عدا ذلك فهو منفًى، وما عدا ذلك فهو ليس سوى أرض منبسطة، كثيفة الهواء وأشجارها تفتقر إلى الجمال بسبب ضخامة أوراقها. أمّا لون الضياء فقبيح، والأصوات ليست سوى ضوضاء.

كنت أعلم من أيّام دراستنا معًا أنّ مايكل كان يتسلّق الجبال، ولكنّ الشيء الذي لم أعرف به هو أنّ حاجته إلى الجبال كانت تتساوى في شدّتها وحاجته إليَّ.

كنّا بعيدَيْن عن القمم العالية، إذْ كنّا نقطن في مدينة حيدرأباد. وكانت الرحلة إلى أقدام التلال في منطقة الهملايا تستغرق ليلتين بالقطار والسيّارات، وتستغرق أيّامًا من أجل الوصول إلى القمم. ولم

يكن أيّ تلّ من التلال القريبة بذي جدوى أو نفع، ولا حتى نيلغيريس أو الغوطة الغربيّة، بل لا بدّ أن تكون الهملايا نفسها. وكان يستحيل عليَّ أن أفهم سبب ذلك إلّا بعد أن أعيش تجربتها. هكذا كان مايكل يردّد أمامي، ويضيف أنّني سوف أمرّ بتلك التجربة. في أثناء ذلك، كانت حقيبة الظهر وحقيبة النوم تظهران، ويبقى جسده في زاوية من زوايا تفكيره الذي ارتقى إلى ارتفاع تسعة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر وهو آخذ بالتسلّق.

وفي إحدى السنوات، عزم مايكل على الذهاب في رحلة إلى بحيرة روبكوند في منطقة الهملايا يبلغ ارتفاعها ستّة عشر ألف قدم، ويمكن الوصول إليها بعد القيام بعمليّة تسلّق شاقّ وطويل في اتّجاه قمّة تريشول المكسوّة بالثلوج، والتي يبلغ ارتفاعها أكثر من اثنين وعشرين ألف قدم، وتظلّ المياه فيها متجمّدة معظم أيّام السنة. وقد عثر حارس في المنطقة على البحيرة في العام ١٩٤٢، ولكنّها ظلّت لغزًا منذ ذلك الحين. فهي بحيرة فيها عظام وجماجم محفوظة بفعل البرودة لما يقرب من ستمائة شخص تُوفّوا فيها في القرن التاسع، أو السادس على حدّ قول آخرين. وكانت أعداد كبيرة من الهياكل العظميّة مزدانة بخلاخل وأساور وقلائد من ذهب. ستمائة مسافر في ذلك المكان الشاهق وفي تلك البرّيّة الجرداء ـ إلى أين كانت وجهتهم؟ تستحيل معرفة ذلك: إذْ ما من طريق معروف يربط روبكوند بالتيبت أو بأيّ مكان آخر. كيف ماتوا؟ يعتقد علماء الآثار أنّهم راحوا ضحيّة انهيار جليدي، أو ضربتهم عاصفة ثلجيّة: فثمّة انبعاجات بحجم كرة المضرب في عديد الجماجم.

وكانت العظام مجرّدة من مجوهراتها، وترك معظمها في مكانه، وظلّت على ذلك الحال على الرّغم من أنّ الباحثين عن التذكارات

أخذوا منها قطعًا تذكاريّة. وحتى يومنا هذا، وكلّما ذاب جليد البحيرة أثناء الرياح الموسميّة، فإنّك تشاهد العظام والجماجم طافية في الماء، تغتسل عند حافّته.

حاول مايكل الوصول في إحدى المرّات إلى روبكوند، ولكنّه أخفق بسبب سوء الأحوال الجوّيّة وقلّة التجربة. أمّا في هذه المرّة، فقد كان يمتلك معدّات أفضل بحسب وصفه، وأنّ توقيتها بحسب رأيه مختلف وأنّه يعرف ما يحدث. ولكنّني على الرّغم من ذلك، لبثت أشعر بسحابة من الخوف تظلّلني وتزداد حلكة مع اقتراب يوم سفره. ووجدت نفسي أنظر إليه نظرات قويّة نسيتها أثناء السنوات الستّ التي انقضت من عمر زواجي به: رائحته التي كنت أتنشّقها في عمق وكأنّني أريد خزنها في أعماقي، وذلك الكسر الظاهر على أنفه عندما كان فتًى صغيرًا، وخطوط الشعر الرماديّة وطريقته في التنحنح وهو لم يكمل جملته بعد، وقيامه بجذب شحمة أذنه عندما يستغرق في تفكير عميق.

كان يعلم أنّني قلقة. وفي الليلة التي سبقت رحلته، كنت مستلقية على بطني وأصابع يده تداعب ظهري المتشنّج ورقبتي المؤلمة، فأخبرني بصوت لا يزيد عن همس خافت بطريق رحلته وقال: الرحلة ليست شاقّة حقًّا، بل هي تبدو في ظاهرها شاقّة لا غير. كانت أصابعه تمرّ إلى أسفل عمودي الفقري ثم تصعد إلى رقبتي في حين ازداد ثقل كرة الخوف في داخلي. وأكّد أنّ الكثيرين سبق لهم أن قاموا بتلك الرحلة. وحين كانوا يصلون إلى ذلك الارتفاع، تكون الأمطار والثلوج قد انحسرت؛ وستكون المروج العالية مكسوّة بزهور بريّة وهم يشقّون طريقهم فيها! وسارت يداه من ساقيَّ وحتى كتفيَّ، وعندما تعثّرتا بعضلاتي، داعبتهما قبل أن تكرّا عائدتين إلى ظهري. وكان قد فحص كلّ شيء وتأكّد من سلامته: الحذاء الثقيل وحقيبة النوم والخيمة وكلّ

زمام وكلّ حبل. وكانت البطّاريّات والمصابيح في الضوء الرأسي جديدة. قال إنّه سيشتري نظّارات حديثة في دلهي. وبدا وكأنّه يقرأ قائمة مشتريات في رأسه!

ذكّرتني كلّ مادّة من الموادّ التي أتى على ذكرها بأشياء يمكن أن تخطئ. الحقّ أنّني لم أرغب في معرفة ما هو أكثر من ذلك. لمست لحيته القصيرة التي تنمو سريعًا، وأظنّني قلت:

ـ في الوقت الذي ترجع إلى البيت ستنمو لحيتك مجدّدًا كما في كلّ مرّة.

ثم أمسكت أصابعي بالبوصة أو البوصتين من الشحم الذي ازداد سمْكًا في خاصرته، وأردفت:

ـ وسوف تفقد من وزنك هذا الشحم، وسوف تكون نحيلاً ومتضوّرًا من الجوع.

قال:

ـ متضوّرًا من الجوع إلى أقصى حدّ. هزيلاً وجائعًا.

والتقطت أسنانه شحمة أذني وجذبتها، واستلقى من فوقي لينتقل بعدئذٍ إلى جهة المصباح القائم بجانب سريرنا ولاحق بعينيه كلّ انحناءة في وجهي والرصعة في ذقني. وقال في صوت قلّد فيه الأقرباء الأكبر سنًّا:

ـ ما الذي دفعه إلى الزواج بهذه الفتاة؟ لماذا تزوّج بهذا الفتاة النحيلة كالعصا، ذات البشرة السمراء كملمّع الأحذية؟ كلّ ما يمكنك رؤيته من وجهها هو تينك العينين الواسعتين!

ثم مرّر أصابعهُ من كتلة شعري الكثيف، وأضاف:

ـ يكاد يصل إلى خصرك يا مايا. كم سيبلغ طول شعرك عندما أعود إليكِ؟

كان في وسعي أن أشمّ رائحة البصل المقلي على الرّغم من أنّ الوقت كان يقترب من منتصف الليل. وتناهى إلى سمعنا صوت قادم من مذياع جارنا ينقل أنباء الفيضانات والغشّ وحوادث القطارات وتسجيل الأهداف في لعبة الكريكت. هبطت يد مايكل إلى أسفل حتى وصلت ردفيَّ وقال:

ـ سيصل شعرك إلى هنا ـ أو ربّما أطول من ذلك. ربّما إلى هنا؟

وهنا أطفأت النور.

* * *

وصلني الخبر بوساطة صاحب المنزل الذي كان يملك هاتفًا. فبعد ثلاثة أيّام من البحث، عثروا على جثّة مايكل، على مقربة من البحيرة. وقيل لي إنّه كاد أن يفلح في مسعاه للوصول إلى غايته لولا الأمطار والانهيارات الأرضيّة والعواصف الجليديّة التي فصلت مايكل عن الآخرين الذين كانوا يرافقونه. وكان مكسور الكاحل ما يفسّر عدم قدرته على الحركة إلى منطقة أكثر أمنًا. أمّا وجهه فكان مشوّهًا، يصعب التعرّف عليه، مسودًّا من شدّة البرودة.

هبطوا به أسفل التلّ وأخذوه إلى قرية صغيرة تقع إلى جانب الطريق وأحرقوا جثّته فيها. وأحضروا معهم حقيبة الظهر التي عثروا عليها بجانبه، فأرسلها معهد تسلّق الجبال إلى حيدرأباد رفقة رماد مايكل الذي وضعوه في علبة سمن فارغة. حاولت أن أقلّب محتويات الحقيبة، ولكن بعد أن أخرجت الكنزتين الفضفاضتين الأوليين اللتين ما زالتا معبقتين برائحته، تأمّلت كثيرًا ولم أعد أقوى على إخراج

غيرهما من الحقيبة، فأودعتهما مرّة أخرى في الحقيبة الكبيرة حيث كان قد أخرجهما منها، ودفعتها تحت السرير.

في اليوم الذي وصلتني حقيبة الظهر، سرت نحو وادينا حيث الدكّان الصغير الذي يبيع الأعشاب، وكان يحتوي على هاتف اعتدنا أن نستخدمه مرّات ومرّات. وشاهدت عددًا من الناس متجمهرين من حول المكان يدخّنون ويثرثرون منتظرين صاحب الدكّان كي يهيّئ لهم أعشابهم أو كي يتحدّثوا هاتفيًّا. فانتظرت بدوري. وفي نهاية المطاف حان دوري. ولمّا كنت متوجّسة من كلّ الأذان التي تسترق السمع من حولي، تمتمت بأسئلتي من خلال الهاتف. كان معهد تسلّق الجبال يقع فوق التلال وعلى بعد مئات الأميال. وبدا لي أنّني كنت أتحدّث في خضمّ عاصفة هوجاء.. وصاح الصوت من الجانب الآخر:

ـ ماذا؟ ماذا؟

فتكلّمت في صوت أعلى فأعلى، من فوق الجلبة والضوضاء، ولكنّ الصوت ظلّ يصيح:

ـ ماذا؟ من المتكلّم؟

فبدأت أصرخ بأعلى صوتي:

ـ لقد لقي زوجي مصرعه في ذلك الحادث. هل في إمكانك تزويدي بتفاصيل أكثر؟

وهنا اقترب حشد الناس من الدكّان، وحملقوا فيَّ من دون أن يرفّ لهم طرف. وانبعثت من الدكّان رائحة ثقيلة قوامها التبغ الممضوغ قديمًا ودخان السكائر والبخور. ربتت سيّدة مسنّة على كتفي وقالت بنبرة تشي بالعطف:

ـ أيّتها المسكينة! أيّتها المسكينة!

فما كان منّي إلّا أن دفعت يدها بعيدًا عنّي. وبعد أن فرغت من شرح كلّ الحقائق للصوت البعيد، قال لي بإنكليزيّة ذات لكنة هنديّة:

ـ إنّني لست مخوّلاً بذكر أيّ شيء أيّتها السيّدة. لحظة من فضلك!

وبعد صمت طويل، جاءني صوت آخر يقول بلهجة حذرة:

ـ هل أنا على صواب أيّتها السيّدة؟ أنت...

فكرّرت كلامي من جديد:

ـ توفّي زوجي في تلك الرحلة. قل لي ماذا حدث؟ أريد أن أعرف ماذا حدث!

وعلا الصوت وانخفض في أذني وازدادت حدّة العاصفة وأثّرت في الاتّصال الهاتفي، ولم يعد في مقدوري سماع أيّ شيء.

لم يعد في إمكاني أن أرى أو أقول أيّ شيء بعد أن فاضت دموعي، فدفعت بسمّاعة الهاتف إلى أقرب يد وابتعدت عن المكان.

لم أستطع مواجهة فكرة نداء آخر من ذلك الدكّان المزدحم. وفي اليوم التالي، بدأت بكتابة رسالة إلى معهد تسلّق الجبال:

سيّدتي أو سيّدي.

إنّني أكتب هذه الرسالة لكي أعرف...

لكنّني تركت الورقة جانبًا وأمسكت بالقلم مرّة أخرى بعد أسبوع. كنت مضطرّة لأن أعرف كيف توفي مايكل. كيف؟ كان لديّ مئة سؤال وسؤال. فهل في وسعي الحصول على أجوبة؟ حدّقت إلى الورقة البيضاء غير المخطّطة، فلاحت أمامي وجوه متجمّدة ومسودّة من شدّة

البرد، وتناهى إلى مسامعي صوت عظم كاحل مايكل وهو يتصدّع. فتركت القلم جانبًا مرّة أخرى.

استلقيت على السرير، فرأيت أنسجة العناكب معلّقة في السقف، في تلك الزاوية التي لا يستطيع أحد الوصول إليها إلّا مايكل بمكنسته، إذ كان يقف على كرسي! كانت العناكب تعيش في ذلك المكان آمنة في الوقت الراهن. وكنت أعلم أنّ ثمّة رسائل في الخزانة مرسلة إليه من صديقة قديمة. سوف أحرقها من دون أن أقرأها. هل أحبّها يا ترى كما أحبّني؟

كنت أخشى معرفة ذلك، لذا فأنا لست مضطرّة إلى أن أعرف الحقيقة.

لم أفرغ من كتابة رسالتي إلى معهد تسلّق الجبال قطّ، كما لم أتّصل هاتفيًّا بعد ذلك. واستبدّ بي قلق عظيم. فبدأت أخرج من غرفتنا عند انبلاج الصبح لأتجوّل في المدينة وكأنّني سوف أصادفه في مكان ما. أحسست أنّني مضطرّة إلى الإقدام على هذا العمل. وفي الليل تساءلت عن سبب الألم في ساقيَّ وعن التعرّق في ثيابي، وكنت أستغرق وقتًا طويلاً كي أتذكّر أنّني كنت خارج المنزل أطوف في الشوارع طوال النهار، سائرة على غير هدًى، أستقلّ الحافلات من دون أن أنظر إلى اللوحة التي تعلن عن وجهتها، ثم أتوقّف أمام الحدائق والدكاكين لأواصل سيري بعد ذلك حتى تغلق المحلّات أبوابها ويخفّ زحام السيّارات وتخلو الشوارع من المارّة فيشقّ على امرأة السير وحدها. وفي إحدى المرّات، انتهى بي المطاف إلى أطلال قلعة غولكوندا حيث أمكنني أن أسمع بأعجوبة من أعاجيب الصوتيّات، صوت يديْن تصفّقان قرب البوّابة ـ بعد توقّف قصير ـ وتسمعان من جهة سور القلعة البعيد. وكان مايكل قد أخبرني ضاحكًا

عندما ذهبنا إلى هناك ذات مرّة قبل بضعة شهور قائلاً:

ـ ما رأيك لو صفّقت يديّ لأسقط ميتًا بعد لحظة؟ سوف تظلّين تسمعين صوت الصدى يتردّد من تلك الصفقة. صفقة أشباح!

قلت منزعجة:

ـ ما هذا الكلام الفارغ؟

ـ ثم رفع يده إلى وجنتي ليطمئنني بدفئها أنّه غير ميت.

كنت وحيدة. لا صلة لي بالأصدقاء: فقد ضيّعتهم بعد أن أمضيت سنوات مستغرقة في مايكل. الحقّ، ليس لديّ أيّ أسرة على الرّغم من أنّ والديَّ كانا يقطنان في المدينة نفسها. فبعد زواجي تبرّأ منّي أبي لأنّ الزواج من ديانة مختلفة أمر يثير الاشمئزاز. وكانت أمّي تخشاه خشية كبيرة، فلم تفعل شيئًا أكثر من الخروج أحيانًا من البيت لنلتقي أنا وإيّاها في أحد المعابد. ولم يكن لديها سبيل لسماع أخباري ما لم أتّصل بها شخصيًّا، ولكنّني لم أتّصل. ليس الآن. ما الذي أقوله لها؟ إنّ الألم سوف يسحق فؤادها. لديّ وظيفة، ولكن لم يعنّ على خاطري أن أخبر دائرتي سبب توقّفي عن الذهاب إليها. وكانت علبة الصفيح المحتوية على رماد على سريري، وقد حلّت في المكان الذي ينبغي أن يكون فيه مايكل مستلقيًا. كنت في الخامسة والعشرين وشعرت أنّ حياتي قد انتهت.

* * *

٣

لا أستطيع أن أتذكّر كم من الأسابيع أنفقتها في الطواف في الشوارع على هذا النحو، أو لماذا وطّنت العزم على أن يكون الكاهن ـ الأب جوزيف هو أوّل شخص ينبغي لي أن أكلّمه على وفاة مايكل. انتظرت الحافلة التي كانت تقلّني دومًا إلى مقرّ عملي، وجلست قرب النافذة الثالثة بجوار الفتاة التي كانت تحجز لي مقعدي بجانبها. وتحدّثت الفتاة من جديد عن خطيبها وكانت تدعوه «زوج المستقبل». كان المزمع أن يتزوّجا في ذلك العام، وكانت رغبته تتمثّل في أن يأتي إليها راكبًا فوق فيل، ولكنّ مشكلتها هي أنّها كانت تحلم منذ نعومة أظفارها أن يأتي عريسها على ظهر جواد أبيض، تمامًا على النحو الذي كانت تشاهده في الأشرطة السينمائيّة.

سألتها:

ـ هل ثمّة فِيَلة في مدينة حيدرأباد؟

قالت مبتسمة:

ـ ربّما ليست فيها فِيَلة، لكن زوج المستقبل يعتقد أنّ جلوسه في مكان عال سوف يجعله في مأمن من حوادث الطرق.

كانت تتكلّم وتقرّب فمها من أذني كي أسمع ما تقول وسط ضجيج أبواق السيّارات. حاولت أن أستوعب كلامها، ولكن كلماتها كانت تضيع في خضمّ الأفكار المرعبة التي استبدّت بي: لقد ضاع مايكل منّي إلى الأبد، ولن يلتمّ شملي به من جديد أبدًا ـ لا في النهارات ولا في الليالي أو الأماسي ولا أثناء وجبات الطعام ولا في الفراش أو في الشارع. ماذا تعني هذه المدينة لي في ظلّ غيابه، ومن دونه؟ لقد كان هو المدينة نفسها، وهو معنى مبانيها وشوارعها.

كنّا نمرّ من أمام المنائر ومروج مدرسة حيدرأباد الحكوميّة التي كانت قصرًا منيفًا طويلاً وعريق البناء. وهنا تشبّثت الفتاة بيدي كي تجذب اهتمامي وأشارت إلى المدرسة، وقالت ضاحكة:

ـ الحقّ أنّ ما يريده زوج المستقبل هو إنارة ذلك المبنى، أن يكون الزفاف فيه. إنّه يريدني أن أشعر أنّني أميرة.

في هذه اللحظة، فكّرت في الناس القليلين الذي حضروا زفافي، وكانوا غرباء عنّي تمامًا. فقد آثرت أسرتي عدم الحضور. وكانت تمتعض من ديانة الآخرين امتعاضًا شديدًا. كما رفض والدا مايكل مقابلتي، ولهذا لم يحضر سوى اثنين من الأقرباء المتمرّدين، جاءا لالتقاط الصور ـ كلّ واحد يصوّر مجموعة مختلفة منّا نحن الأربعة ـ إضافة إلى مسجّل عقد الزواج الذي كشف شارباه المتهدّلان وعيناه الناعستان عن أمارات وجهه الدالّة على الإجهاد طوال النهار. وبعد إجراء المراسم الخاصّة بالتسجيل توجّهنا برفقة القريبين إلى مطعم يقدّم وجبات البرياني في منطقة شارمينار. كان أحد جدران المطعم مكسوًّا كلّه تقريبًا بمعرض للأحياء المائيّة مؤطّر بإطار من قماش عسليّ لمّاع.

وكان هذا المعرض مملوءًا بماء مضبّب ونباتات بلاستيكيّة، ولكنّه كان خلوًّا من الأسماك.. وكلّفتنا وجبة الطعام ثلاثمئة وثمان وسبعين روبيّة، لكنّ الزفاف كلّه كلّفنا على وجه العموم أقلّ من خمسمئة روبيّة، وهو مبلغ زهيد مقارنة بما كلّفته حفلات زفاف صديقاتي وقريباتي المفعم بمظاهر الثراء والترف، ولكن حسبي أنّني اكتفيت بألق السعادة الذي كان يشعّ من عينيْ مايكل وعبق الورود في الإكليل الذي أحضره ليزيّن رأسي ورقبتي، والطريقة التي ضغط فيها عليَّ ونحن نجلس في عربة الركشة في طريقنا إلى غرفتينا اللتين استأجرناهما مؤخّرًا.

كان ثوبي الساري مصنوعًا من الحرير الأخضر الغامق، ثوبَ أمّي، أعطتني إيّاه في الليلة التي هربت فيها من المنزل. لم تقل كلمة في ذلك الوقت، ولكنّها طبعت قبلة على شعري وعلى وجهي الذي حدّقت إليه وكأنّها لن تراه من جديد. وانتزعت قرطيها الزمرّديين وحشرتهما في شحمتيّ أذنيَّ. ثم أسدلت زاوية من زوايا ثوبها الساري العزيز عليها من فوق رأسي كي ترى كيف أبدو من تحته. لبثت تحدّق إلى وجهي المغطّى نصفه، ثم وضعت إصبعًا في كحل عينيها ودفعته على جبيني لتقيني من الأرواح الشرّيرة. تكلّمنا بالإشارات، ولزمنا جانب الحيطة والحذر كي لا نتفوّه بكلمة: كنّا نعرف أنّ أبي كان في مكان ما من المنزل، مستيقظًا ومتنبّهًا لكلّ همسة وحركة.

لبث أبي متحفّزًا مثل حيوان ينتظر الانقضاض على فريسته منذ اليوم الذي سمع بمايكل. فكان يجوس في أنحاء المنزل من دون أن يصدر عنه أيّ صوت، على الرّغم من العصا التي كان يستخدمها عكّازًا معوّضًا عن قصر ساقه اليسرى. لم يقل شيئًا، ولكنّه لم يسمح لي بالخروج من البيت، ولا حتى بالذهاب إلى الكلّيّة. كنت يومئذٍ في سنّ التاسعة عشرة، طالبة في المرحلة الأوّليّة من الدراسة الجامعيّة

بحاجة إلى حضور الصفوف الدراسيّة. وأخبر الناس أجمعين أنّني مصابة بمرض جدري الماء، وأنّ هذا المرض ينتقل سريعًا إلى الزوّار من طريق العدوى، وفبرك شهادة طبّيّة لعميد كلّيّتي، ومنع زيارة الصديقات والخروج إلى النزهات والمكالمات الهاتفيّة. وكنت أشعر أحيانًا بعينيه غير الوديّتين تحملقان على امتداد جسدي كلّه، وكأنّه يحاول أن يستدلّ على الجزء الذي يحتمل أن يكون مايكل قد مسَّه، لكنّني ابنته، إذْ كان قد درَّبني على أن يكون قدوة لي قبيل سقطتي: أن أكون قاسية في الحصول على بغيتي، وأن أخاطر مخاطرات محسوبة في عناية. لا بدّ أنّ جهوده أثمرت، فقد هربت منه بعد مرور أسبوعين، مدركة أنّني لن أعود أدراجي إلى البيت من جديد.

وصلت زميلتي الجالسة في الحافلة في ذلك الصباح إلى وجهتها وهي ما تزال تثرثر عن زوج المستقبل. وقالت باسمة:

ـ سوف أحضر لك بطاقة في الغد. يجب عليكِ حضور مراسم زفافي!

وبعد موقفين اثنين من مواقف الحافلة، ترجّلت ومشيت إلى مكتب الأب جوزيف، يساورني إحساس عارم بتحرّر روحي عن جسدي وبالضعف والوهن، والنعاس، وكأنّني سوف أضطرّ إلى الجلوس على حافّة الرصيف ولا أدري كيف أنهض بعدئذٍ. وجدت نفسي خارج مبنى فندق مطليّ بطلاء ورديّ وأصفر، فاجتزت بوّابته واتّجهت نحو حوض سباحة في الجزء الخلفيّ منه. ثمّة درجات سلّم مزوّدة بوقاء على مقربة من الحوض. جلست على إحدى تلك الدرجات، قبالة زرقة الماء اللامعة والبلاط الأخضر المحيط به والمنشفة المبلّلة المرميّة على إحدى الكراسي. ثمّة صفّ من نوافذ زجاجيّة تمتدّ على الجهة الأخرى تنعكس عليها صور كلّ ما أراه

أمامي. ومرق طائر من فوق رأسي، على ارتفاع منخفض جدًّا، يكفي لأن ينعكس ظلّه على الماء الرقراق من أمامي. وفي الجانب الآخر من حوض السباحة، رأيت فتاة صغيرة يحثّها مدرّبها على القفز من فوق منصّة القفز، تصرخ كأنّها في شريط سينمائي:

ـ دعني وشأني! دعني وشأني! أريد أن أعيش! أريد أن أعيش!

كست غشاوة عينيَّ، وبدأت أرى جماجم وعظامًا بشريّة على حافّات حوض السباحة، ومن فوق البلاط الأخضر: جماجم وعظام ترقوة وقصبات السيقان الصغرى وعظام السيقان الكبرى وعظام الأفخاذ وعظام الفكّ السفلي، وأضلاعًا، وقدمًا وسلاميّات وخواتم ذهبيّة، وقلائد ذات خرز ذهبي متشابكة بالفقرات. وشاهدت جماجم في قاع حوض السباحة، تحوّل من تحديقتها العمياء هنا وهناك من تحت الماء الرقراق، وقد ازدادت حجمًا وكبرت. وكانت تقترب أحيانًا من السطح، بل إنّ إحداها نشرت رذاذ الماء على حافّة الحوض على مقربة من قدميَّ، وكان الوجه الذي ابتعد بعد ذلك في أشرطة متحلّلة هو وجه مايكل!

وتلاشت النوافذ والمناشف وتلك الطفلة التي كانت تصرخ، والبلاط الأخضر والسماء الزرقاء الساطعة وظلال طيورها. وتهاوت الدرجة التي كنت جالسة من فوقها، وشعرت بالدوار وهويت وسط سماء شاسعة، مترامية الأطراف، كما في الأحلام. ولم أدرك أنّ وجهي مبلّل بدموعي التي فاضت من عينيَّ وأنّ أنفي كان يسيل منه المخاط وأنّ شعري أشعث، وأنّني تأخّرت عن زيارة كاهن مايكل، إلّا عندما ظهر وجه من تحت الماء على مقربة من قدميَّ يكلّمني بلكنة فرنسيّة ويقول:

ـ هل أنتِ بخير؟

ارتقيت درجات السلّم مسرعة إلى غرفة الأب جوزيف واقتحمتها من دون أن أطرق الباب، ثم توقّفت وأمسكت بظهر كرسي كي أثبت في مستقرّي. كان مايكل قد قال: بيت ذو قمّة ثلاثيّة مؤطّرة بإطار في نافذته، بيت يطلّ على تريشول وفي مستقرّه روبكوند، تلك البحيرة ـ الشبح. كان قد رأى مثل ذلك البيت ذات مرّة، وأخبرني عن مكانه. وراوده حلم أنّنا سوف نعيش فيه ونستيقظ في صباح كلّ يوم لنطلّ على تريشول وهي تزيّن السماء بعد أن تضيء الشمس أطرافها الثلاثة المستدقّة، طرفًا إثر طرف.

قلت:

ـ أبتاه! اعثر لي على عمل في رانيكهت، من فضلك، فأنا لم أعد أطيق البقاء في هذا المكان بعد اليوم.

* * *

بعد مرور أربعة أشهر على وفاة مايكل، ركبت القطار الذي سلبني منه. وكان القطار يتّجه من حيدرأباد إلى دلهي، في رحلة شماليّة تستغرق نهارًا وليلة. وأنفقت ليلة أخرى في قطار مختلف ليقلّني إلى نقطة أبعد في الشمال، إلى كاثغودام حيث نهاية خطوط سكّة الحديد، فتبدأ بعدها التلال. ثم أمضيت ثلاث ساعات أخرى في الحافلة لتقلّني من فوق طرقات ملتوية أشدّ انحدارًا باتّجاه رانيكهت، البلدة الصغيرة في أعماق الهملايا. كنت أحتفظ في حقيبتي بعنوان المدرسة التي وجد لي فيها الأب جوزيف وظيفة. وبهذا سوف أكون على بعد ألفي كيلومتر من أقرب مكان أعرفه، لكن هذا ليس سوى رقم من الأرقام لأنّ المسافة كانت حقًّا لا تقاس.

* * *

٤

ليست للسماء الممتدّة من فوق رؤوسنا في هذه المنطقة الجبليّة تلك السعة التي نشأت تحتها في ديكان، حيث كانت تغطّي الكوكب برمّته، ولا تحجبها سوى تلك الجلاميد الضخمة بحجم النباتات الجاثمة هنا وهناك على السهول المستوية والمفتوحة، وكأنّ طفلاً عملاقًا جمعها من نهر العملاق وألقى بها مثل كرات رخاميّة على ميدان ألعاب. أمّا في التلال فتبدو السماء دائريّة، زرقتها السائلة في كفّ يدٍ أصابعها هي الجبال المحيطة بنا. ونحن أيضًا في كفّ.. وإذا كان ثمّة إحساس بمسافات لا تحدّها حدود، فإنّ ما يراودنا في الوقت نفسه أنّ الحياة تبدأ هنا على هضبتنا وتنتهي فيها. السماء تبدأ هنا وتنتهي، وإذا كانت ثمّة أماكن أخرى فإنّ سماواتها تختلف عن سمائنا.

تمتدّ بلدتنا من فوق ثلاث تلال، بعيدة عن كلّ شيء وصغيرة جدًّا. وإذا ما نظرت إليها ليلاً من الجانب الآخر من الوادي، فسوف تشاهد الظلمة المنتشرة هنا وهناك وقد زيّنتها أضواء صفر متوارية إلى

حدٍّ ما من وراء الأشجار. وتنتشر الجبال والغابات في كلّ جانب، ممتدّة على مسافة أميال تتخلّلها قرّى صغيرة جدًّا، قد لا تتألّف إلّا من خمسة منازل لا يربط بينها وبين الطريق العامّ سوى درب طرقته الأقدام ويقع على بعد أميال. أمّا في الجهة الشماليّة من بلدتنا، فتمتدّ قمم جبال الهملايا الشاهقة، وهي قمم ناصعة البياض تمتدّ على الجانب الآخر منها التيبت والصين. ويمكن للمرء أن يشاهد شرقًا في أيّام الصحو الأهرامات الخمسة لبانشاشولي القريبة من نيبال.

وإذا ما وفدت إلى بلدتنا من منطقة السهول، تبدأ الأرض المستوية المكسوّة بالرمال بالصعود إلى أعلى في منطقة كاثغودام، وتنثني بعد ذلك داخل سفوح التلال، وفي غضون أقلّ من ساعتين تحلّ أشجار الأرز والسرو والبلّوط والصنوبر محلّ أشجار التين والمانغو والموز. ويبدو كلّ شيء قاسيًا من تحت الأجواء الصافية وكأنّ ضعف بصرك قد شفي شفاءً يتعذّر تفسيره. وكانت السرخسيّات تنمو فوق الصخور والأزهار، تنمو على الحجارة. أمّا في المناطق الخصبة، فإنّ التلال تمتدّ مستوية في حلقات خضر وبنّيّة في حقول قمح ذات مربّعات بيض شيّدت من فوقها أكواخ الفلّاحين ذات السقوف المعدنيّة. وسرعان ما تغدو هذه البلدات الصغيرة غير المنتظمة في الوراء، وعندئذٍ تجتاز أنهارًا جبليّة متدفّقة المياه وسفوحًا جرداء تتخلّلها أشجار الصبّير وبحيرات ماء راكد، زرقاء ورماديّة اللون. وفي الوقت الذي تصل فيه رانيكهت، تكون قد سافرت من المنطقة المداريّة إلى الأراضي معتدلة المناخ.

هذه هي البلدة التي أتيت إليها بعد أن فقدت مايكل! وقد لجأ الأب جوزيف إلى شبكة معارفه ليحصل لي على وظيفة في سانت هيلدا، المدرسة التي تديرها الكنيسة. وعثرت على بيت للإيجار على

بقعة من الأرض ويدعى لايت هاوس (البيت المنير)، لأنّ الجزء الواقع منه على أرض أكثر ارتفاعًا هو الذي يتخلّل نوافذه الشرقيّة أوّل شعاع من أشعّة الشمس، في حين يأفل آخر شعاع منها على عشبة في الجانب الغربي. وكان صاحب المنزل الذي يدعوه الناس بالاسم صاحب ديوان، يعيش وحيدًا في هذا البيت الآيل للسقوط. وإلى أسفل السفح، مجموعة من الغرف المشيّدة بالطين والآجرّ من حول فناء من أرض مطروقة وزرائب حيوانات. كانت شارو تعيش في هذه المنطقة رفقة جدّتها وعمّها بوران الذي غالبًا ما كان الناس يدعونه بالاسم سانكي بوران، أي بوران الأحمق لأنّه يتصرّف في حماقة في أغلب الأحيان.

كان المنزل الذي أسكن فيه، والقريب من منزل شارو، إصطبلاً في يوم من الأيّام، يؤوي رعاة القطعان في غرفة مشيّدة من فوق مرابط الخيل والأبقار. وبات المنزل يحتوي اليوم على غرفتين مشيّدتين بالحجارة ومطليّتين بماء الكلس، إحداهما من فوق الأخرى، تضاف إليهما شرفة صغيرة. وكانت الألواح الخشبيّة المرصوفة على الأرضيّة تصدر صريرًا وقلقلة بسبب عمرها الطويل. أمّا المطبخ والحمّام، المشيّدان في وقت لاحق، فكانا في زاويتين غريبتين إحداهما عن الأخرى وعن البيت أيضًا. ولم يكن أيّ من النوافذ أو الأبواب مثبّتًا تثبيتًا حسنًا، فكانت التيّارات الثلجيّة الباردة تهجم من بين الفجوات شتاءً، في حين تجد الحشرات الموسميّة مستقرًّا دائمًا لها في أركان الغرفتين: كالعقارب السود البطيئة الحركة والعثّ المضطرب الذي يرتطم بالإنارة، والعناكب ذوات العيون الخضر التي يمكن لأرجلها أن تمتدّ إلى أطباق وجبات العشاء.

كان منزلي يقع على حافّة المرتفع الذي شُيّد عليه لايت هاوس.

وعندما أستلقي في فراشي، فإنّ في إمكاني أن أشاهد تريشول مؤطّرة من خلل النافذة، وفي الجانب الأسفل منها البحيرة التي لا يمكن رؤيتها من هذه المسافة البعيدة، وهي البحيرة التي أنفق مايكل ساعاته الأخيرة فيها، لا تفصل بيننا سوى أميال من الغابات وموجة إثر موجة من تلال زرق وخضر.

* * *

٥

ليس مبنى القدّيسة هيلدا ديرًا للراهبات، ولكن بما أنّ الأهالي يظنّون الأديرة أماكن سوف يتقن فيها أطفالهم اللغة الإنكليزيّة، فقد ارتأت الكنيسة المالكة له أن تدعوه بهذا الاسم. واعتقد هؤلاء الناس أنّ الأطفال سوف يأتون لتعلم اللغة الإنكليزيّة، وسوف يُلقّنون قدرًا يسيرًا من المعلومات عن يسوع، يمكنهم أن يحتفظوا بها أو يتخلّوا عنها بحسب مشيئتهم.

كانت شارو واحدة من تلميذاتي، في سنّ العاشرة عندما التقيتها، تأتي إلى المدرسة مصفّفة شعرها بهيأة ذيل الحصان، متألّقة الوجه والملامح، تفوح من شعرها رائحة زيت الخردل، مرتدية ثيابًا باللونين الأبيض والأزرق، غاية في النظافة، تحمل في يدها أحلام يقظة طوال النهار، لهذا نادرًا ما تعلّمت كتابة الحروف الأبجديّة نفسها، بل وصل بها الأمر إلى عدم الحضور أيامًا من الأسبوع. وفي وقت لاحق، كنت ألمحها وأنا راجعة إلى البيت عصرًا ترعى أبقار جدّتها، أو كنت أسمع صوتها العالي على مُقربة من التل وهي تنادي: غوري! غوووووري!

وفي أشهر الصيف، كنت متأكّدة من مشاهدتي تنّورتها الزرقاء فوق شجرة، وإذا ما ناديتها: لماذا لم تذهبي إلى المدرسة؟ فإنّها تهبط من أعلى الشجرة وتقدّم لي حفنة من ثمارها الحمر التي قطفتها قبل قليل لتتوارى بعدئذٍ داخل الغابة.

وفي وقت متأخّر من عصر أحد الأيّام، وكنت في سنتي الأولى في بلدة رانيكهت، شاهدت جدّة شارو جالسة خارج منزلها تتشمّس تحت أشعّة الشمس من فوق حصيرة. كانت امرأة نحيفة، غائرة الخدّين، مزرقّة البشرة بعد سنين طويلة من العمل الشاقّ تحت أشعّة الشمس. تحيط الخطوط الغائرة بزوايا عينيها.. وكان الناس ينادونها «عمَّة»، واشتهرت بأنّها أجمل امرأة في رانيكهت. لم تكن تخشى شيئًا أو أحدًا، وطردت والد شارو، وهو ابنها الأصغر، من البيت لأنّه كان يتعاطى الخمرة في كلّ يوم ويضرب زوجته ضربًا مبرحًا في نوبة من نوبات السكر. قالت إنّها سوف تربّي حفيدتها بمفردها وأنّها ليست في حاجة إلى رجل في البيت إن كان مثل ابنها. وعلى الرّغم من ذلك، ظلّ الابن يزورها، وهو شديد النحول والهزال، ألمّت به عاديّات الدهر وعفت عليه يد الزمان، يضع من فوق كلّ أذن سيكارة رخيصة التبغ. وكان يتّخذ مكانه في الفناء، كالح الوجه، متجهّمًا، مدخّنًا سيكارته، في حين تعنّفه والدته لاتّخاذه عشيقة، وتطالبه بالمال لتنفقه على ابنته. وفي أثناء ذلك، كانت توفّر الملجأ والمأكل لأقارب أشدّ فقرًا منها، يأتون إليها من قرًى بعيدة من دون سابق إنذار، ويلبثون أيّامًا بل أسابيع في بعض الأحيان.

كانت العمّة تمتلك صوتًا جهوريًّا يمكنه أن يعبر الوديان، وضحكة يمكنني غالبًا أن أسمعها من مكاني في بيتي الصغير المجاور. وتمكّنت من التقاط عبارات وكلمات إنكليزيّة من هنا وهناك، توشّح بها

كلامها. فإذا ما أصبت بالرشح أسمعها تؤكّد لي:

ـ عليك أن تتنفّسي في بخار ماء مغلي بورق الأوكالبتوس.

وإذا ما ارتفعت الأسعار تقول:

ـ وهل يهتمّ غورمينت إن عشنا أو متنا؟

كانت الحكومة مثل شخص يعيش بعيدًا ويزداد وزنًا، في حين يغور خدّاها من كثرة العمل وقلّة الطعام. وقالت:

ـ يومًا ما، سوف أعثر لي على بابو غورمينت من أجل شارو كي تتزوّج به، وعندئذٍ سوف نذبح دجاجة لنأكلها كلّ يوم.

وبعد أن تقول هذا الكلام، تنفجر ضاحكة بسبب استحالة تحقّق حلمها.

وكلّما رأتني، رفعت من عينيها المتغضّنتين على مدى سنين طويلة من مكافحة الشمس والبرد والريح، فتزدادان تغضّنًا وتجاعيد، ويفترّ ثغرها عن ابتسامة تكشف عن أسنان بنّيّة، وتهتف:

ـ مرحبًا أيّتها المعلّمة.

هكذا كانت تناديني، على سبيل المزاح. أمّا الآخرون، فكانوا ينادونني: سيّدة مايا.

وفي عصر ذلك اليوم، طرحتُ عليها سؤالاً:

ـ لماذا تدفعين الأجور إذا كنتِ غير قادرة على إرغام شارو على الذهاب إلى المدرسة؟ لماذا لا ترسليها إلى مدرسة حكوميّة، إنّ التعليم فيها مجّانيّ.

قالت:

ـ يمكنني أن أضع الحشيش أمام البقرة، ولكن هل في وسعي إرغامها على أكله؟ على أيّ حال، إنّها ما تزال بقرتي، ومن واجبي أن أطعمها. صحيح؟

قلت:

ـ ليست شارو بقرة بل حفيدتك، وأنا لست علفًا.

ضحكت المرأة العجوز ضحكة طويلة ومدوّية، وقالت:

ـ أعرف من هي شارو، لكن أخبريني، ماذا أفعل الآن؟ إنّني أجعلها على أهبّة الاستعداد صباح كلّ يوم، وأرسلها إلى المدرسة، ولكنّني لا أعرف إلى أين تذهب، كيف يمكنني أن أمنعها؟ هل أطاردها بعصا على امتداد الطريق المؤدّي إلى المدرسة؟ سوف تتعلّم عندما يحين الوقت. إنّ البنت تتعلّم ما تحتاج إلى تعلّمه.

يئستُ من شارو بعد برهة من الزمان، وتوقّفتُ عن توبيخها بشأن تهرّبها من أداء واجباتها المدرسيّة، ولكنّها لم تتوقّف عن الحضور توقّفًا كلّيًّا. ففي الأيّام التي كانت تشعر فيها أنّ بزّتها المدرسيّة بحاجة إلى تجفيف بالحرارة أو أنّها ترغب في رؤية صديقاتها، كانت تأتي وتبتسم إليّ ابتسامة ملائكيّة وتتّخذ مجلسها من فوق مصطبة وترسم زهرة بخمسة تويجات طوال الدرس. وفي بعض الأماسي، كانت تأتي إلى شرفتي ذات الأرضيّة الحمراء الملساء لتلعب لعبتها المفضّلة بالحصى. وكانت في أغلب الأحايين تأتي صحبة صديقتيها بينا وميتو، وهما فتاتان توأمان تقطنان في أسفل التلّ، وكانت هاتان الفتاتان عاجزتين عن السمع وعن النطق، ولكنّنا كنّا نتدبّر أمرنا. كانت ابتساماتهما خجولة، شعرهما بنّيّ اللون، وعيناهما زرقاوين لا تصدّقان: وقالت العمّة إنّ والدتهما لاتي الصمّاء والبكماء قد ضاجعت

رجلاً غريبًا جوّالاً، أزرق العينين. وها هو عقاب الله: بنتان اثنتان مصابتان بالصمّ والبكم أيضًا.

علّمتني شارو لعبتها المتضمّنة على خمس حصوات، فترمى إحداهنّ إلى أعلى وتمسك بالأخريات، وقبل أن تسقط الحصاة الأولى على الأرض ينبغي الإمساك بها بعد أن تكون قد تخلّصت من بقيّة الحصوات بقذفها إلى أعلى. كنت حديثة عهد بالبلدة، لا أكاد أعرف أحدًا من أهلها، ولا عمل لي فيها سوى عمل المدرسة. وكنت أجلس وإيّاها رفقة التوأمين في أمسيات طويلة نلعب لعبة الحصى، نراقب النيران وهي تضطرم خارج مجاميع الأكواخ المجاورة، في حين ترجع كلاب المنطقة من جداول الماء والأدغال قبل أن تخرج الفهود من جحورها في الغابات كثيفة الظلال بحثًا عن الطعام.

كان في وسعي أن أختار مكانًا مختلفًا، أن أعثر على وظيفة تدرّ دخلاً أفضل في مكان آخر، أو أن أعود أدراجي إلى أسرتي. واستبدّت الحيرة بوالدتي لأنّني لم أعد إلى حياتي القديمة على أثر مصرع زوجي. وخفّت حدّة غضب أبي بعد أن غادر مايكل حياتي، وكلّ ما ينبغي لي أن أفعله هو أن أخبره أنّني كنت مخطئة، ومضلّلة وأتوسّل إليه أن يثق بي من جديد. كانت أمّي نزّاعة إلى البكاء، متضرّعة ومتوسّلة: فأنا لست مضطرة إلى ممارسة مهنة التعليم في إحدى المدارس النائية، محرومة حرمانًا شديدًا وفي عوز قاتل، ووحيدة، ويمكن أن يلتمّ شملنا من جديد كسابق عهدنا.

توفّيت والدتي بعد وفاة مايكل بسنتين. لا تفهم سبب رفضي العنيد. واتّهمتني في إحدى رسائلها المنطوية على توبيخ وتعنيف بأنّني لا أعرف الرحمة والتسامح مثل أبي، إذْ كيف يمكن لابنة أن تعاقب والديها وترفض العودة إلى بيتها على هذا النحو؟

لكنّني كنت في البيت. . أعتاد على التفكير في شارو وفي جدّتها وفي عمّها بوران الأحمق وفي صاحب ديوان على أنّهم يمثّلون أسرتي الآن. ولم يعد في وسعي أن أتخيّل بعد الآن العيش في أيّ مكان آخر. وعلى الرّغم من أنّني لا أعرف متى حدث ذلك، فإنّ الوقت حان عندما أصبحت من أهل التلال، لا أعرف أمنًا وسلامًا إلّا في المناطق التي ترتفع فيها الأرض وتنخفض في تموّجات تشبه البحر.

* * *

٦

مرّت ستّة أعوام على حياتي في بلدة رانيكهت: أتذكّر أنّ الوقت كان عصر يوم من أيّام شهر كانون الأوّل، ولم تتجاوز الساعة الثالثة، لكنّ الشمس كانت واهنة لا تبعث الدفء في الأوصال، وكنت آنئذٍ عائدة من العمل إلى المنزل. وكما هو دأبي، فقد توجّهت أوّلاً إلى بيت صاحب الدار التي سكنت فيها، ولكنّني لم أجده بمفرده، وهو أمر غير مألوف في ذلك الوقت من النهار، بل وجدته رفقة رجل لم يسبق لي أن رأيته، وكان الاثنان مستغرقين استغراقًا عميقًا في نقاش، لم يتنبّها إلى وصولي ووضعي حزمة من الصحف على العشب ومن ثم وقوفي من وراء كرسيّ صاحب ديوان.

كان تصرّفي طقسًا يوميًّا. ففي طريق عودتي من المدرسة، كنت أجلب الصحف من كشك شاي ناجي الكائن في مول رود، وأعود بها سيرًا على قدميَّ إلى منزل صاحب ديوان. وكان من شأن خادمه همت سنغ أن يعدّ الشاي لنا، فنجلس ونقرأ الصحف معًا. وكان صاحب ديوان يحصل على صحيفة ستيتسمان لقراءة عمود صحافي يحتوي على أخبار

غريبة من حول العالم. وفي يوم ما، أخبرني عن امرأة من مدينة تكساس اضطر الأطبّاء الجرّاحون إلى إجراء عمليّة جراحيّة لها لفصلها عن مقعد المرفق الصحّي الذي جلست عليه مدّة عامين. وكان صديقها يسلّيها ويقدّم لها وجبات الطعام وهي جالسة في مكانها طوال ذلك الوقت.

وقال صاحب ديوان:

ـ تناهى إلى سمعي أنّ النساء ينفقن وقتًا لا ينتهي في الحمّام، ولكنّني لم أتصوّر أن يقضين مثل هذه المدّة الطويلة.

وكان من مألوف عادته أن يضحك طويلاً بسبب مثل هذه الشذرات من الأخبار قبل أن يقتطعها بأظافره ويلصقها بالصمغ في مفكّرته السميكة ذات الغلاف الجلدي.

وبعد ذلك، يعمد صاحب ديوان إلى إعطائي بعض المعلومات أضيفها إلى مخطوطته في حال إكمال جزء آخر من السيرة عن جيم كوربيت، فأطبعها على آلته الكاتبة ريمنغتون. وقد اعتدت على خطّ يده اعتيادًا أتعبني بدرجات متفاوتة، وتعلّمت كيف أستوعب معاني أسهمه وأقواسه وأسطره المحشورة بين الأسطر وخربشاته الملتوية. كما تعلّمت قدرًا كبيرًا من مخطوطته عن التلال التي أعيش فيها الآن لأنّ كوربيت كان، قبل أن يصبح أشهر صيّادي كومان، رجلاً دمثًا، كيِّس المظهر يرتدي بنطالاً قصيرًا من الخاكي وخوذة من نسيج إسفنجي، مهارته تتجسّد في قتل النمور والفهود التي تلتهم البشر. ومن خلال مسوّداته المتعدّدة، أدركت أنّني أصبحت أستاذة في هذا الموضوع لا تقلّ شأنًا عن صاحب ديوان. كما راودني الإحساس بأنّني أملك من الشجاعة ما يكفي لأن أبدي تعليقات على الكتاب وإنْ تجاهلها على وجه العموم.

كان صاحب ديوان يعيد التفكير في انتظام بهيكليّة كتابه. وكانت المسوّدة الأولى، التي طبعتها على الآلة الكاتبة قبل ثلاثة أعوام، تبدأ بجوزيف، جدّ كوربيت، الذي كان راهبًا، وهارييت التي كانت مترهبنة في دير راهبات قريب. والتقى الاثنان ونكثا كلّ وعودهما وتزوّجا. وفكّرت أنّ هذا الحدث مقدّمة استهلاليّة رومانسيّة جيّدة لحياة حفيديهما التي كانت، مقارنة بحياتيهما، حياة تبتّل وصيد. طبعتُ زهاء خمسين صفحة في عناية شديدة، ولكن لم نكن نصل إلى أولى مآثر كوربيت الشابّ البطوليّة، حتى غيَّر صاحب ديوان من رأيه وبدأ يكتب الكتاب استنادًا إلى موضوعه. وبحسب الخطّة الجديدة، أخذت الفصول العناوين الآتية: «الجندي المتعلّم» و«قتل النمر» و«من البندقيّة إلى الكاميرا». وتنقّل السرد بين الزمن الماضي والحاضر في كلّ فصل. وجرى غضّ النظر عن حكاية الراهبة والراهب، أمّا الآن، فقد بدأنا المحاولة الثالثة التي في مقدّمتها تأخذ التسلسلَ الزماني في الحسبان من ولادة كوربيت في تاينيتال التي لا تبعد أكثر من ساعتين عن بلدتنا. واحتشد المنزل بأكوام من المسوّدات. واستهلك كلّ من الحرفين (أ) و(س) على مفاتيح الآلة الكاتبة منذ زمن طويل، ولا يوجد أحد في رانيكهت له خبرة في تصليح الآلات الكاتبة، ولهذا بدت المسوّدة وكأنّها مكتوبة كتابة مشفّرة.

في عصر ذلك اليوم، وكنت واقفة من خلف كرسيّه وأصغي، كان صاحب ديوان يجلس رفقة الغريب من تحت شجرة البيسيه الباكية، يخوض في حديث طويل عن نائب بلدة سوراجغاره الذي كان وزير ماليّة منذ عهد بعيد. وكان النائب يحتفظ بجياد عربيّة جميلة على حدّ تعبير صاحب ديوان. وكانت تلك الجياد حبّه الأثير، يقضي وإيّاها وقتًا أطول ممّا يقضيه في تأدية واجباته، وكان يعشق الحياة البرّيّة، فيمتطي

ظهور الخيل أيّامًا طويلة ويتّجه إلى الأدغال حيث ينام رفقة خادمين اثنين لا أكثر، يسهران على راحته. وعلى الرّغم من عدم استحسانه الصيد، إلّا أنّه كان صيّادًا ماهرًا، وكان يؤمن بضرورة تزييت سلاحه دومًا وبقائه في حذر. وقد نشأ في المدرسة كي يواجه عالمًا لا بدّ لكلّ محارب يحترم نفسه فيه من أن يكون قادرًا على تسديد سلاحه تسديدًا دقيقًا في كلّ الجهات، حتى وإن كان مستيقظًا بغتة من النوم. وكان يجري توقيت الساعة ـ المنبّه مساء كلّ يوم حتى يستيقظ في تمام الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، قبل أن تُعلّق على الجدار أو توضع من فوق رأس نمر محنّط على بعد ما يقرب من عشرين خطوة في الجهة الأخرى من الغرفة، وفي اللحظة التي يرنّ فيها جرس الساعة، يقفز النائب من مكانه، «وما تزال إحدى عينيه تغطّ في النوم»، كما يحلو له أن يتباهى، ويصوّب مسدّسه نحو الساعة ويطلق النار عليها كي يوقفها عن الرنين. ولم يُحدث على مدى السنوات الخمس والعشرين أيّ خدش في الجدار من حول الساعة ولم يلمس شعرة من رأس النمر، ولكنّه أتلف ما يقرب من خمس عشرة ساعة مختلفة: الخشبيّة والذهبيّة المستوردة ـ من نوع أنسونياس وسمثس وجونكهانز ـ إضافة إلى ساعات محلّيّة الصنع. وكان قد أصاب ساعات جداريّة وأخرى برونزيّة صغيرة. وفي يوم ما، أعدم ساعة بافاريّة تمثّل ديكًا، على حدّ وصف صاحب ديوان، وأجهز على الديك نفسه عندما أطلّ برأسه. وفي إحدى المرّات، وبعد أن نفد مخزونه من الساعات المنبّهة، ترك أحد الخدم ينتظر في الغرفة طوال الليل.. وفي تمام الساعة الخامسة، كان الخادم المرتعش مضطرًّا إلى رفع ساعة يدويّة على ارتفاع يصل الرأس، وقرع جرس برونزي باليد الأخرى كي يتمكّن سيّده من إطلاق النار على الساعة!

وبعد إطلاقته الصباحيّة، يعود النائب إلى النوم مدّة خمس دقائق أخرى واضعًا رأسه من تحت وسادة مخمليّة لينهض بعد ذلك من فراشه ويذهب إلى جياده. وكان لديه خمسة جياد يفضّلها على غيرها، وقد أطلق عليها أسماء ملوك وملكات من المغول: نور وجهانكير وبابر وهمايون وممتاز. وعندما أصبحت سوارجغاره تابعة للهند بعد التقسيم وأدرك النائب أنّه أخطأ في الاختيار في السنوات السابقة، تريّث بضعة أشهر غادر بعدها ليعيش في المنفى في باريس، فافترق عن قصره وممتلكاته وأراضيه. ولم يستطع نقل جياده في سفره، فباتت هذه مصدر قلق له استهلكه وأقضّ مضجعه في أيّامه الأخيرة التي أنفقها في الهند. ولم يثق بأحد كي يهتمّ برعايتها رعاية كافية. وفي اليوم الذي سبق سفره، توجّه فجرًا إلى الإصطبلات وامتطى صهوة كلّ جواد بضع دقائق، وربت على ظهور الجياد ومسَّدها وسقاها وهمس في آذانها، ثم أطلق النار على كلّ واحد منها مستخدمًا بندقيّة صيده.

لم يبدُ على الرجل الجالس بجوار صاحب ديوان أنّه واحد من زوّاره المألوفين، بل لم يبدُ أنّه أحد سكّان المنطقة أو أحد علمائها. كان نحيف البنية، طويل الأطراف، قلقًا لا يهدأ في مجلسه وقتًا طويلاً. وكان غائر الخدّين، ذا وجه شديد النحول، أشيب الشعر قصيره. وكنت مضطرّة ألّا أبدو مندهشة من أذنه اليسرى المشوّهة تشوّهًا غريبًا، ومن إحدى أصابعه المفقودة التي كنت ألاحظها كلّما أمسك بيده قدح الشاي ليبعث الدفء فيها. وكلّما اختلست نظرة خاطفة إليه، وجدت عينيه الرماديتيّن ـ البنيّتين مسمّرتين عليّ. وعلى العكس من الناس الآخرين الذين يشيحون بأنظارهم جانبًا عندما يتنبّه إلى نظراتهم أحدٌ ما، فإنّه لم يشأ أن يبعد عينيه عنّي، بل كان يتركهما ثابتتين برهة من الزمان قبل أن يحوّلهما إلى وجهة أخرى، يعود بعدها إليَّ مباشرة. وإذا ما قاطعت

حديث صاحب ديوان بأيّ ملاحظات تخصّ البنادق وإطلاق النار، استنادًا إلى معلوماتي التي اكتسبتها مؤخّرًا من قراءة كوربيت، فإنّ الرجل كان يصغي باهتمام شديد. كان قليل الكلام، ولكن عندما كان صاحب ديوان يسكتني بنبراته اللاذعة التي كان يدّخرها للخبراء الجهلة الذين لا يفقهون شيئًا، فإنّني كنت أشعر وكأنّ تيّارًا من العطف والمودّة يسري بيننا، تاركًا صاحب ديوان بعيدًا عنّا.

وقال الرجل الآن:

ـ يمكنني أن أفهم النائب فهمًا تامًّا. ولو كنت في محلّه لفعلت الشيء نفسه.

قلت:

ـ تقتل الجياد؟

ـ أفضل أن أقتل شخصًا عزيزًا عليّ بدلاً من أن أتركه يقع في أيدي آخرين؟

كانت عبارته قد انتهت بعلامة استفهام، وشعرت أنّ لكنته الإنكليزيّة تشوبها مسحة من لهجة أهالي كاليفورنيا. وعندما تكلّم، لم يبتسم ولم يطلق نكتة، بل أشاح بنظره جانبًا مقطّبًا على حدٍّ ما وكأنّ ذكرى مزعجة وخزته من خلال بوّابة عقله. نهض من على كرسيّه على حين بغتة، ما جعل الكرسي يهوي على الأرض، وقال:

ـ مرَّ زمن طويل منذ أن جئت إلى هنا آخر مرّة. هل غرفتي على ما يرام؟

وأخيرًا عرَّفنا صاحب ديوان ببعضنا قائلاً:

ـ أعرّفك إلى ڤير. أعرف أنّنا قريبان ـ وإن كنت لا أدري من أيّ

ناحية، ولكنّني متأكّد من ذلك. ربّما صهر من جهة ما. وأنت يا ڤير، أعرّفك إلى حبّ حياتي، إلى مايا، وأنّني على ثقة تامّة من أنّني سوف أقتلها وأنتحر إذا ما فكّرت في ترك منزلي والذهاب إلى منزل آخر.

* * *

كان منزل صاحب ديوان مشوّشًا ومشيدًا على مستويات متعدّدة، مزوّدًا بمداخل تبيّن أنّها خزّانات، وخزّانات تؤدّي إلى غرف أخرى، وغرف علويّة وأبواب أفقيّة في أرضيّات أو سقوف، إضافة إلى قبو. وفيه درجات سلّم تتوارى في الظلمة. وكانت الغرف كثيرة العدد حتى إنّني لم أدخلها كلّها، وعلى الرّغم من أنّ أحدًا لم يعترف صراحةً، إلّا أنّني أعتقد أنّ صاحب ديوان كان يؤمن بأنّ الأطراف البعيدة من المنزل إنّما تؤوي الأشباح والأرواح ويستحسن تركها وشأنها.

ولم يستخدم في أغلب الأحايين إلّا حجرتين اثنتين في وسط الدور الأرضي تشتعل فيهما نار دائميّة كي تظلّ دافئة، علاوة على موقد بمشعل واحد. وكانت السطوح تتسرّب منها المياه، كما كانت المداخن مسدودة. وقد بلغ به الكبر وتقدّم السنّ حدًّا جعلاه يعجز عن إصلاح أيّ شيء على حدّ قوله، فكان يطلب من رجل مستأجر من أهل المحلّة ليقضي مختلف الحاجيّات الضروريّة، أمّا البقيّة فمتروكة تحت رحمة العوامل الجوّيّة والقرود التي ترقص على السطح من عصر كلّ يوم. وفي غضون الرياح الموسميّة كانت الدلاء والأحواض، وأوعية الشوربة المذهّبة المأخوذة من طقم العشاء المصنوع من الخزف الرائع، توضع في جميع أرجاء المنزل كي تُنقّط فيها مياه المطر. وفي الشتاء، كان همّت سنغ الذي يصغر صاحب ديوان قليلاً يسير هنا وهناك يسدّ ثغرات زجاج النوافذ المكسور بقطع من المقوّى، ونتيجة لذلك نجد الحجرات الداخليّة مظلمة كالليل في أوقات النهار.

وانساب إلى سمعي أنّ صاحب ديوان، كان قبل مجيئي إلى هذه المنطقة معتادًا أن يقود سيّارته ـ سيّارة موريس مانيور زرقاء، غريبة المزاج. . كان المارّة يعمدون إلى دفعها لإذكاء محرّكها إذا ما فقدت اهتمامها بالسير. وفي عصر أحد الأيّام، وبعد أن توقّفت للمرّة الثالثة، ترجّل منها، ورفسها رفسة وداع وتركها تنحدر من فوق سفح رانيكهت الغربي شديد الانحدار. ويمكنك أن تشاهد حتى هذه اللحظة حطامها الصدئ بين الصخور في المنحدر، وكانت الثعالب تعيش في هيكلها. ولم يستطع السيّد قريشي صاحب مرآب البلدة، الذي واظب على تصليحها طوال حياتها، الحيلولة من دون الإحساس بالحزن على نهايتها الوحشيّة. وكان يردّد:

ـ ليست هذه طريقة مناسبة لتوديع سيّارة خدمتك خدمة مخلصة بكلّ ما أوتيت من قوّة.

لكن صاحب ديوان كان يقطّب، ويقول:

ـ كان أفضل ما فيها مثيرًا للهلع.

بيد أنّ السيّد قريشي كان يغمغم:

ـ إنّ صاحب ديوان ليس كما عهدناه بعد. . . لقد كان الله حكيمًا إذْ حرّم الخمر!

ومع هذا، كنت أشاهدهما معًا في الحديقة يجلسان فوق كرسيين من الألومنيوم، يمكن طيّهما. وكان صاحب ديوان يعصر الليمون في شراب الجنّ، في حين كان السيّد قريشي يمسك قدحًا معدنيًّا بيديه الاثنتين ويحتسي الشراب في حيطة وحذر، وكأنّه يمسك بقدح شاي ساخن.

وكان صاحب ديوان ذا وجه أبيض، ينمّ عن عطف، وجه مدوّر

يشبه اليقطين، وكما هو اليقطين، فإنّ كلّ خطوطه تتّجه نحو الوسط الذي كان يمثّله أنفه الصغير الشبيه بحبّة كرز، يزداد احمرارًا كلّما عبَّ من الكأس. غير أنّه استمرّ في تضليل نفسه وإيهامها بأن ما من أحد يعرف ماهيّة شرابه.

كانت جلسات شرابه هي جلساته الاحتفاليّة التي واظب على عقدها. فالطاولة المجاورة له، تنتصب فوقها زجاجة من شراب الجنّ قبيل حلول موعد وجبة الغداء، وفي المساء تجد زجاجة من شراب الرَّم بدلاً من الجنّ. وبجانب زجاجة الجنّ، تجد صينيّة صغيرة مصنوعة من خشب الجوز، عليها زجاجة من شراب مرّ ومسكر وطبق ليمون مقطّع إلى أربع قطع ودورق زجاجي يحتوي ماء ومغطّى بغطاء أبيض فيه خرزات وعلبة سكائر فضّيّة. كان صاحب ديوان قد توقّف عن تدخين السكائر، ولكنّ العلبة ظلّت رفيقته على مرٍّ عقود من الزمان، كما كان يروقه أن تظلّ على مقربة منه. وكانت العلبة بهيأة سيّارة رولزرويس وفيها كلّ تفاصيل السيّارة الدقيقة. وكان الجزء الوحيد المتحرّك منها عدا عجلاتها هو الغطاء الأمامي. وعندما تفتحها، فإنّك لن تجد محتويات السيّارة مثل المكربن والمكبس بل فراغًا مخصّصًا لوضع السكائر. وكان السيّد قريشي طامعًا في العلبة كأنّه طفل، غير أنّ صاحب ديوان ما كان يدعها تفارقه، وتنازله الوحيد كان في السماح للسيّد قريشي باستعمالها كلّما زاره. فكان السيّد قريشي يضع في داخلها خمسًا من سكائره الخاصّة به بعد أن يصل منزل صاحب ديوان، ويفتح غطاءها إذا ما أراد أن يدخّن سيكارة، وفي أغلب الأحيان حتى إذا لم يرد التدخين. كان صاحب ديوان يمقت السكائر القويّة الحادّة المذاق التي تخلو من الفلتر كالتي كان يدخّنها السيّد قريشي، فتراه يبدّد دخانها بيده قائلاً:

ـ لن أسمح لك باستخدام هذه العلبة بعد اليوم أبدًا.

كان صاحب ديوان يبدو فخمًا ورائعًا بردائه البنّي العتيق والقبّعة الصوفيّة التي حاكتها له شارو المعتمر بها كالتاج، في حين كان يبدو كلّ فرد يحترمه بسبب طول قامته وكبر سنّه وبياض شعر رأسه ولحيته. وفي أوقات الصباح، كان يسمح باستقبال زوّاره إن كان رائق المزاج. أمّا في فصل الصيف، فكانوا كثيري العدد. ففضلاً عن السيّد قريشي والجنرال الكبير السنّ الذي كان يقطن في المقاطعة المجاورة، كان أساتذة التاريخ الهندي والحياة البرّيّة يقطعون المسافات الطويلة بالقطار، ثم يرتقون الدرب الصاعد من السهول، للقائه وتوجيه الأسئلة إليه عن أحوال بلدة سوراجغاره. وفي حين كان النائب يريد من البلد أن تكون جزءًا من الباكستان أثناء التقسيم، فإنّ صاحب ديوان عارض تلك الفكرة، بل انهمك في مفاوضات سرّيّة مع زعماء سياسيين في دلهي ليضمن وجود بلدة سوراجغاره في حصّة الهند. وفي نهاية المطاف، زجَّ به النائب في السجن بتهمة الخيانة. وقد وصف السجن على أنّه «الاستمتاع بضيافة النائب».

يطرح عليه العلماء والباحثون أسئلة عن أعوامه التي أنفقها في سوراجغاره، غير أنّ الدافع من وراء رحلاتهم لم تكن ذكريات صاحب ديوان. ففي بواكير العام ١٩٤٨، ذهب آل مونتبان، وهما أدوينا وزوجها، إلى سوراجغاره في زيارة رسميّة رافقهما فيها نهرو. وراجت شائعات مفادها أنّ أدوينا ونهرو تبادلا كتابة الرسائل أثناء الأسبوع الذي أمضياه في غرفتين في جهتين متقابلتين من القصر أو من حول مائدتي طعام منفصلتين. وساد الاعتقاد بأنّ أحد منتسبي القصر سرق تلك الرسائل وانتهى الأمر بها إلى حوزة الديوان. تعطّش المؤرّخون إليها، ووفد إليها السماسرة أيضًا، ولم تكن رغبتهم نابعة من تأليف سيرة بل

من المال الذي قد تدرّه عليهم إذا ما عُرضت للبيع. أنا شخصيًّا لا أعتقد بوجود مثل هذه الرسائل، ولكن إذا ما كانت موجودة، فإنّ صاحب ديوان، كما تبيّن، لم تكن له أيّ خطط بشأنها، إذْ كان راضيًا مرضيًّا بثيابه طوال اليوم يعبُّ عبًّا من شرابيْ الرَّم والجنّ.

وقد التقيت عددًا كبيرًا من الباحثين والأدباء بسبب صاحب ديوان والإشاعات التي رافقت تلك الرسائل. ولم أكن أعرف من هم أولئك الأشخاص، بيد أنّه أعطاني خلاصة موجزة بعد ذهابهم قائلاً:

ـ ذلك الرجل نصَّاب، ولا يمارس أيّ عمل سوى السرقة الأدبيّة.

أو:

ـ تلك المرأة تجلس في شيكاغو طوال العام، ثم تصدر بعد ذلك كتابًا عن القرى الهنديّة بعد أسبوعين اثنين من البحث الميداني.

وإذا ما استحسن عملهم تجده يقول: فتًى طيّب أو فتاة طيّبة. وفي يوم من الأيّام، قال عن رجل طويل القامة يبدو عليه شرود الذهن، ويضع نظّارات.. يخاطبه بكلمة «سيّدي» أثناء الحديث:

ـ ذلكم هو رامشاندرا جحا، فتى طيّب، ولكنّه لم يحتسِ الشراب قطّ.

وقال له رامشاندرا جحا:

ـ ينبغي لهذه الرسائل أن تكون في مكتبة نهرو التذكاريّة يا سيّدي، ولا ينبغي أن تكون في قعر صندوق أمتعة.

وكان صاحب ديوان قد قال له:

ـ إنّ وجودها في قعر صندوق أمتعة أكثر أمنًا من أيّ مكتبة هنديّة أعرفها.

كان صاحب ديوان فظًّا في تعامله مع الزوّار، فاكتسب شهرة بأنّه فظّ لا يُطاق، ولم يُسمح لأيّ من معارفه بأن يكون صديقًا من أصدقائه. وعلى الرّغم من أنّه لم يستطع الاستغناء عن رؤيتي كلّ يوم، إلّا أنّه يمكن أن يصبح مشاكسًا أو محبًّا للخصام في غضون دقائق معدودة. غير أنّه تغيّر تغيّرًا كبيرًا رفقة قريبه الجديد. فكان يحوم في المكان وينتظر واقفًا في أثناء تجوال ڤير في أرجاء المنزل، وقال بنبرة اعتذار أنّ المنزل بحاجة إلى ترميم وتنظيف. وطاف ڤير في الغرف، واحدة إثر الأخرى، ونحن من ورائه، ويتوقّف بين حين وآخر ليقول:

ـ أين الخزانة المصنوعة من خشب الجوز التي كانت في هذا المكان؟

أو:

ـ المؤكّد أنّ ثمّة منضدة كتابة كانت محشورة في ذلك الركن.

وكان صاحب ديوان يقول في صوت متهدّج لا يبدو مثل صوته الطبيعي أبدًا:

ـ لو جئت وسكنت في هذا المكان، فسوف أحثّ نفسي على إجراء بعض التصليحات.

لبثت معهما في مساء ذلك اليوم، وشاهدت ڤيرا وهو يرتّب أغراضه في إحدى غرف النوم غير المستعملة، وألقى نظرة استحسان من حولها وهو يفتح حقيبة ظهره ويخلع حذاءه ويضع نعاله بدلاً منه. الواضح أنّه كان ينوي البقاء مدّة من الوقت، ويمكنني أن أقول إنّ الأجواء المتوقّعة لأيّامنا سوف تتغيّر. ودخل همَّت سنغ حاملاً حزمة من الحطب وأذكى فيها نارًا. وقال لصاحب ديوان:

ـ إنّها غرفة شديدة الرطوبة أيّها الأستاذ الشابّ، ولكنّها سوف

تكون أفضل بهذه النار.

وأخبرني وهو في المطبخ أنّه يعرفه إلى هذه الدرجة. وكان ڤيرا يأتي في أغلب تلك الأيّام أثناء الإجازات المدرسيّة، وكانت تلك الغرفة شبه الدائريّة ذات النوافذ الناتئة وصور النمور على الجدران هي غرفته الدائمة. بدأ همت سنغ يعدّ لنفسه طعامًا مكوّنًا من البصل الوردي والبيض المسلوق. ولمّا كان صاحب ديوان لا يأكل إلّا قليلاً أثناء المساء، فإنّه لم يكن ثمّة طعام يأكله. ولهذا بات ضروريًّا إعداد وجبة عشاء من اللاشيء، فكان همت سنغ يطوف في أنحاء المنزل مضيفًا أهمّيّة على نفسه، ويقول:

ـ كانت الأيّام الخوالي مختلفة تمامًا، إذْ كان الزوّار يأتون في مساء كلّ يوم، والمطبخ مشغولاً من الصباح وحتى الليل. وكان لي من يساعدني في أعمال التقطيع والتنظيف والعزم. ينبغي لكِ أن تشاهدي مقدار الأكل الذي يتناوله الأستاذ الشابّ، إذْ كانت معدتي تشعر بالراحة والامتلاء عندما أشاهده يلمس الأواني فينظّفها تمامًا، وفي نهاية الأمر يتنهّد قائلاً: أفّ! ثم يضيف:

ـ ما من أحد يا همت سنغ يمكنه الطبخ مثلك في عموم كوماون.

ازداد صاحب ديوان جذلاً ومرحًا في ذلك المساء، فاحتسى من الشراب ضعف ما كان يحتسيه عادة. وعندما تركتهما وحدهما، كان ڤير يصبّ لنفسه مقدارًا كبيرًا من الرَّم للمرّة الرابعة، وكان صاحب ديوان يقول مستحسنًا صنيعه:

ـ إنّ طبيعة الإنسان الداخليّة لا يكشف عنها إلّا مقدار ما يصبّه لنفسه من شراب.

كان بيتي الصغير باردًا ومظلمًا لأنّه كان مغلقًا طوال النهار.

وعندما وصلت، كان التيّار الكهربائي مقطوعًا، فتحسّست طريقي مستخدمة مشعلاً يدويًا واتّجهت نحو خزانة الثياب التي تخفي زجاجة شرابي من الرَّم. وضعت حزمة الجرائد غير المقروءة بجانبي على الأرض واتّكأت في مجلسي فوق الكرسي، ورحت أحتسي الشراب في رشفات طويلة. كانت هذه الجلسات المنعزلة التي أتناول فيها الشراب هي التي تمنحني أعمق مشاعر الرضى، وكأنّها تؤكّد لي أنّ وقتي أضحى ملكي أخيرًا بعد مجهود بذلته طوال النهار من أجل الآخرين. وكنت أشعر بالسرور لو أنّ أحدًا ـ غير صاحب ديوان الذي كان يزوّدني بالرَّم ـ عرف أنّني أتعاطى الشراب بمفردي ووصفني بأنّني امرأة سيّئة. كانت هذه الفكرة كافية وحدها كي أستردّ هدوئي.

يبدو أنّني كنت قلقة ومضطربة في هذه الليلة، فربضت في مكاني ملتفّة بوشاح من دون أن أتذوّق شراب الرَّم، ولم أعمد إلى تسخين طعامي أو إشعال شموعي أو إسدال ستائري. كانت المربّعات الزجاجيّة الباردة في نافذتي قد جمَّدت النجوم في سماء الليل المدلهمّ. نفخت على الزجاج وكتبت اسم الشخص الغريب: ڤير. أين كان طوال هذه السنين؟ لماذا لم يأتِ صاحب ديوان على ذكره من قبل؟

كان صاحب ديوان رجلاً كتومًا إلى أبعد الحدود، وكنت الوحيدة التي سمح لها بالاقتراب منه لمناقشته والائتمان على أسراره وتبادل النكات أو توجيه اللوم. وفي إحدى المرّات، قال بلهجته اللاذعة عندما شاهدني أطوف في غرفه أنّ في إمكاني أن أهجر منزلي الذي استأجرته منه وأن أنتقل للسكن في منزله. وتبادلنا الابتسامات آنذاك، وانصرفت لأنّني أدركت أنّه كان يريد البقاء بمفرده، إذْ لم يكن من ذلكم النمط من الناس الذي يرغب في أن يشارك أحدًا حياته. لقد أنفق حياته وحيدًا، والواضح أنّه كانت لا تروقه الصحبة الدائميّة،

ولكن قدوم قريبه غيَّر من كلّ شيء في عصر يوم واحد لا أكثر، فلم يغذّني بالوجبة اليوميّة من الأخبار الغريبة من شتّى بقاع العالم، ولم يكلّف نفسه عناء طلب صحيفة ستيتسمان الأثيرة إلى نفسه. ولم يكن في وسعي أن أتذكّر آخر مرّة نسي فيها تلك الصحيفة، لأنّها كانت بغيته التي ينتظرها طوال الصباح، وكانت صلته بالعالم الذي نبذه وابتعد عنه.

رحت في إغفاءة مضطربة وأنا جالسة على الكرسيّ، واستيقظت بعد ساعة من الزمان، والإحساس بالألم والبرودة قد استبدّ بي على أثر عودة التيّار الكهربائي، وعودة مصباح الضوء الأبيض المتوهّج إلى الحياة من جديد.

* * *

٧

تغيّرت الحياة في نظر شارو في شهر كانون الأوّل من ذلك العام. وقد بدأ التغيير في إحدى المقاطعات القديمة في بلدتنا. وكما هو الاسم «الفنار»، فإنّ مقاطعات أخرى من النمط الموجود في بلدة رانيكهت ذات أسماء طريفة وغريبة تبدو بريطانيّة مثل أوكلي ونوك فيرنا، وهو كلّ ما تبقّى من البريطانيين الذين شيّدوها في عصر الاستعمار. وكانت المقاطعة، التي غالبًا ما تتردّد عليها شارو بحثًا عن الكلأ، تدعى إسبين لودج، تمتدّ على أرض شاسعة من فوق سفوح التلال وتحتشد بأشجار البلّوط وأرز الهملايا، وفيها غدير صغير وعدد من أكواخ الفلّاحين المدمّرة. أمّا البيت الريفي الكبير فيها، فكان مشيّدًا بالحجارة، وله نوافذ فرنسيّة وشرفة واسعة. تميد طولاً وعرضًا ومزوّدة بأعمدة، إضافة إلى خمس مداخن وفسحة مسطّحة من الأرض تحيط بالمنزل من جميع جوانبه، لا بدَّ أنّها كانت مزروعة بالعشب. كما شخصت الأشجار التي مالت بتقدّم العمر عند جوانب الأرض المستوية، وإلى الأسفل منها منحدرات منتظمة ينتشر فيها عشب

القُسموس الوردي في وقت هبوب الرياح الموسميّة.

ويحتار الغرباء عن المنطقة في السبب الذي يجعل هذا المنزل، من دون غيره من المنازل المنتشرة فيها، مدفونًا وسط أعشاب وأدغال طويلة، ويكاد يكون في حالة يُرثى لها أقرب ما تكون إلى الخراب في ما يصيح طالبًا الاعتناء بقصّ الأعشاب وتوافد الناس وإقامة الحفلات. وكان سكّان المنطقة يعلمون سبب خرابه: ثمّة امرأة تُدعى مولي ميسبيلر شنقت نفسها على أحد الأعمدة التي يستند إليها السقف في حجرة الطعام إبّان العصر الاستعماري، وبقي البيت مسكونًا بالأرواح منذ ذلك الحين. فكلّ من سكن فيه من بعد ذلك أصابه الهمّ والغمّ: إذْ كانت تحدث أمور محزنة وتلمّ البلايا والمصائب بسكّانه، هم وأسرهم. وهجرته في عجالة آخر أسرتين كانتا تقطنان فيه بعد أن كانتا تسخران من الأشباح ودفعتا ثمنًا باهظًا فيه.

ووجدت إحدى الشائعات طريقها في ذلك الشتاء إلى مول رود، على مهل أوّل الأمر، ولكنّها انتشرت من بعد ذلك انتشار النار في الهشيم، مفادها أنّ ثمّة جهة تتطلّع إلى البيت ولا تؤمن بوجود الأشباح فيه. فقد اشترت المنزل سلسلة فنادق كانت تخطّط البدء بعمليّاتها في مكان آخر من بلدتنا. وكان المزمع أن يقطن مدير الفندق في اسبين لودج. ومضت الشائعة تقول إنّه سوف يتخلّى عن المنزل في غضون أسبوع واحد، وأنّ السيّدة ميسبيلر سوف تتولّى الأمر بنفسها، وقيل إنّها تحوم في أرجاء البيت ليلاً، وتجلس أحيانًا لتعزف على بيانو شبحي.

لم تكن شارو تدري أيّ شيء عن الشائعات التي كانت تروّج في مول رود، بل لم تكن تؤمن أصلاً بوجود الأشباح، ولهذا كانت في أغلب الأحايين تأتي بأبقارها لترعى في منطقة إسبين لودج. وفي الأشهر الماطرة، كانت تأتي كلّ يوم وتقطع الأعشاب والحشائش

الطويلة من فوق تلك المنحدرات مستخدمة بذلك منجلها، فتبدو مثل شجرة ذات ساقين عندما تحمل حزمة كبيرة جدًّا من تلك الأعشاب على رأسها وتعود بها إلى البيت. في هذا الصباح الشتوي الذي لفحته أشعّة الشمس، تركت العنان لأبقارها وسط الحشائش التي قاومت برودة الشتاء، وجلست فوق صخرة كبيرة تعبث بكنزة صوفيّة برتقاليّة اللون أمضت أسابيع في حبكها.

كانت الأبقار تأكل الكلأ من فوق السفوح، والماعز يعدو هنا وهناك في ما يتناهى رنين الأجراس المعلّقة برقابها. وكان كلب شارو يصعد المنحدرات ويهبط منها، فيمتزج لون جلده الخمري بدبابيس الصنوبر المنتشرة على الأرض. وابتعدت الأبقار، تهزّ قرونها في اتّجاه الكلب، فما كان منه إلّا أن قفل راجعًا إلى شارو وجثم بجانبها ينشد الدفء ويقضم مخالبه واحدًا تلو الآخر.

دندنت شارو بلحن لا يقطعه سوى صياحها بين حين وآخر عندما تنادي الأبقار التائهة، ثم تعود إلى صوفها وحبكها. غير أنّ دفء شمس كانون الأوّل وثقل جسد الكلب بيجلي على قدميها دفعاها إلى النعاس بعد أن أمضت يومها البارد تعمل في حلب الأبقار وتخزين الماء وغسل الثياب. وكان عمّها بوران معتادًا على مساعدتها في إطعام الأبقار، غير أنّه كان في الأيّام القليلة الماضية منطويًا على نفسه ومنعزلاً، متواريًا عن الأنظار في الغابة يتنشّق عبير الأعشاب ولا يأكل إلّا النزر اليسير من الطعام. وكانت شارو معتادة على غرابة أطوار بوران، وتختلق الأعذار لجدّتها عن تصرّفاته، بيد أنّها كانت تشعر بالإنهاك لدى قيامها بالأعمال الموكلة إليه. وهنا أسبلت جفنيها وسقطت الكنزة في حجرها..

لكنّ الشائعات التي راجت في مول رود تبيّن أنّها صحيحة ذات

يوم. ففي إحدى الليالي، وكان الناس غافلين عمّا يدور، انتقل مدير الفندق إلى إسبين لودج. وهنا انساب صوت من فوق شارو يطلب منها أن تبعد الأبقار عن المنزل.

واستمرّ الصوت يقول بنبرة صارمة:

ـ ولا تعودي بها إلى هنا!

وقال صاحب آمرًا إنّ المكان سوف يزرع بالزهور، وإنّ الحديقة سوف يمنع عنها دخول قطعان الماشية.

رنت شارو من فوق منكبها ونهضت، وأغمضت عينيها نصف إغماضة للفتى الذي كان يكلّمها. كانَت الشمس مسلّطة على عينيها، فاضطرت إلى حجبها عنها بكفّ يدها. ولاحظت أنّ الفتى طويل القامة، أجعد الشعر، بنّيّ العينين مثل الكستناء التي تسقط عن الأشجار في فصل الخريف. وعندما عبست في وجهه، ابتسم لها ابتسامة جانبيّة تنمّ عن اعتذار. ثيابه مثل ثياب الآخرين، لكن وجهه بدا وكأنّه مقتطع من صفحات تلك المجلّات المعلّقة بملاقط الغسيل على سناد.

شعرت أنّها تردّ له الابتسامة بابتسامة، ولكنّها سرعان ما توقّفت وشعرت بالارتباك، فتوسّل إليها قائلاً:

ـ هذا الكلام ليس من عندي بل إنّني مضطرّ لأخبرك بما قاله صعب، فأنا لست سوى طاهٍ.

على الرّغم من حداثة سنّه، إلّا أنّ صوته كان جهوريًا وعميقًا. وساورها الإحساس بأنّ في وسعها أن تقلّب كلماته على لسانها مثل حصوات نهر صقيلة تتذوّق طعمها.

وكما هو شأن تلك الحصوات، فقد كان لصوته مخارج تميل إلى الخشونة، فتوقّف لسانها ليتحسّس ماهيّتها.

وقالت:

ـ إنّك لن تطهو الحشائش لسيّدك. صحيح؟ أم أنّه أحضر أبقارًا من المدينة.

في وسع شارو أن تكون لاذعة في كلامها، شأنهاِ شأن معظم الفتيات اللواتي يعشن بين التلال، إذا ما أغاظها أحدهم، ولا يروقها أن يخبرها الآخرون ما الذي يتعيّن عليها عمله.

فتلعثم الفتى قائلاً:

ـ عثرت في صباح هذا اليوم على مرعى غاية في اللطف، ومكسوّ بالحشائش والأعشاب أسفل التلّ، وثمّة غدير ماء أيضًا. وبهذا تحصل الأبقار على الماء والكلأ. سوف أدلّك على المكان، وفي إمكانك اصطحاب الماشية إلى هناك!

هزّت شارو كتفيها ساخرة، وقالت:

ـ لست مضطرًّا إلى أن تدلّني على أيّ مرعى في هذه التلال، فأنا أعرفها جميعًا. فالطريق المؤدّي إلى الغدير شديد الانحدار لا يمكن للأبقار أن تسير فيه، ولكن ثمّة أماكن أخرى.. ولستُ مضطرة إلى الإتيان بها إلى هذا المكان.

لبثت شارو بعيدة عن المكان مدّة يومين، ولكن بعد ثلاثة أو أربعة أيّام داهمها إحساس بضرورة مغادرة المنزل مرّة أخرى بعد أن كانت قد ربطت الأبقار في مرابطها. ولمّا سألتها جدّتها عن وجهتها، أخبرتها بأنّها مضطرة إلى اصطحاب الماعز لتزوّدها بالكلأ. وحثّت

خطاها الرشيقة وسط الغابة واتّجهت إلى البقعة الكائنة أسفل إسبين لودج، وشقّت طريقها المنجدر المتّجه إلى دوبي غات، وتركت لنفسها فرصة الانزلاق إلى أسفل المنحدر في المناطق التي كانت تكثر فيها أشواك الصنوبر على الأرض فتبدو لامعة. كانت ضفيرتاها تتقافزان فوق عظام منكبيها اللذين تغطّيهما أقمشة مبهرجة، والكهف الذي يُعتقد أنّ ثمّة فهدًا اتّخذ عرينه فيه. وأخيرًا وصلت غدير الماء، فوجدت ماءه البارد والصافي ينساب من فوق صخور تعلوها الطحالب، كما رأت على مقربة من حافّته فجوات صخريّة كان يلجأ إليها محترفو غسل الثياب قبل أكثر من نصف قرن. فجلست فوق إحدى تلك الصخور وراقبت الماعز يرعى الكلأ. . كانت متأكّدة من أنّه سوف يأتي.

ولكنّه لم يأتِ، لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي أعقبه. غير أنّه كان في الانتظار في اليوم الثالث وفي اليوم الرابع وفي كلّ يوم بعد ذلك. وعندما سألت الجدّة حفيدتها شارو عن السبب في عدم إطعام الماعز في منطقة أقرب من البيت، هزّت البنت رأسها، وقالت إنّها مرهقة من الأماكن القديمة، وإنّها تهوى غسل الثياب في غدير الماء، وأضافت:

- إنّني أنجز عملين في آن واحد، وكان ينبغي لي أن أذهب دومًا إلى تلك المنطقة.

وكانت في كلّ مرّة تذهب إلى الغدير، تطمئنّ إلى أخذ الثياب الوسخة معها لتعود فتنشرها في فناء الدار على نحو لافت للانتباه.

* * *

كنت قد زرت منطقة دوبي غات مرّة، وينبغي لمن يطرقها أن يكون في كامل الحيويّة والنشاط: فالمنحدر المؤدّي إليها يمرّ في غابة

صنوبر، كما أنّ أشواك الصنوبر مؤذية جدًّا وهي تنتشر فوق الأرض الممتدّة من تحت الأشجار. وكان يتعيّن عليَّ أن أحسب كلّ خطوة أخطوها كي لا أفقد توازني وأتدحرج أسفل التلّ: كانت الغابة تمتدّ من حولي أميالاً يسودها الهدوء والسكينة، صاعدة من فوق التلّ، ومتّجهة نحو إسبين لودج القريب جدًّا وإن كان متواريًا خلف الأشجار. أمّا في الجهة الأخرى، فكانت الغابة تنحدر نحو وادٍ يمكن اجتيازه بسلوك طريق مختصر يؤدّي إلى سوق البلدة. وفي قلب الغابة، راودني إحساس أنّ ما من أحد وما من شيء يتنفّس هنا غيري، أنا اللاهثة المصطكة الركبتين، لكنّني واصلت سيري بعد أن وطّنت العزم على المضيّ قُدُمًا في طريقي. ولمّا وصلت حاجزًا من أعشاب شائكة وصخور ملساء تعلوها الطحالب، تردّدت، ولكنّ التفكير الذي تملّكني بصعود هذا المنحدر بوصفه السبيل الوحيد للعودة إلى الوراء دفعني إلى التقدّم إلى أمام حاملة عصاي بيدي.

وقبل أن يوشك المنحدر على الانبساط، تناهى إلى سمعي صوت قرقرة الماء المندفع. وفي البقعة التي يلتقي فيها الطريق بغدير الماء ثمّة أعشاب ناعمة وفجوة تحفّ بها الأشجار. وشاهدت صخورًا يمكن الجلوس فوقها تطلّ على برك من ماء صافٍ يمكن للمرء أن يدلّي ساقيْه فيها. مرَّ الوقت في بطء أسفل الغدير، فانتابتني أحلام اليقظة وأنا أراقب الحشرات تنزلق وتميل فوق الحافّات التي تطفو عندها أوراق الشجر الميتة.

نظرًا لصعوبة اجتياز المكان أو الوصول إليه، فإنّ شارو لم تصادف أحدًا في دوبي غات عندما كانت تهبط إلى المكان رفقة ماعزها. وكانت هذه البقعة هي الملتقى في أغلب الأحايين وإن كانت ثمّة أماكن أخرى للقاء. فكانت تخبر الفتى عن أسماء كلّ ماعزها..

أخبرته عن بقراتها الخمس وبخاصّة عن بقرة جيرزي السوداء والبيضاء التي تسمّيها غوري جوشي. وكانت غوري قد ولدت بعينين واسعتين ووجه جميل وخجول عندما كانت شارو فتاة صغيرة. وكانت كلّما زجرتها جدّتها ووبّختها، تهرع إلى غوري وتدفن وجهها في خاصرتيها الدافئتين، وتشمّ رائحة الروث والقشّ والحليب المنبعث منها. كانت عينا غوري بركتين سوداوين من الصبر، رموشها طويلة جدًّا، ولم ترفس قطّ مهما طال تشبّث شارو بها. المشكلة الوحيدة هي أنّ هذه البقرة تهوى التسكّع بعيدًا، ما يتطلّب البحث عنها في أنحاء الغابة والتوسّل إليها كي تظهر للعيان من جديد.

قال: مثلكِ تمامًا، مخلوق متوحّش!

كان يتحدّر من أصل نيبالي، مثلها تمامًا، فتًى من فتيان التلال، ولكن من بلدة صغيرة مستوية، ولهذا فإنّ أصوات الغابة كانت غريبة عليه، ولا يفهمها. وفي غضون الأشهر المقبلة، أطلعته شارو على حبّات الكرز الصفر التي تزيّن الأعشاب، والتي لا يمكن تناولها لاحتوائها على السمّ. أخبرته أيضًا كيف يمكنه العثور على أشجار الكفل والتوت البرّي وأشجار البرسيمون التي يمكن اقتحامها من دون أن يخشى الحرّاس. وكانت تجذب أغصان نبات الأوريغانو البرّي من أرضيّة الغابة وتسحق الأوراق بين كفّيها وتجعله يشمّ عطرها. وأخبرته بضرورة طرد بعض الحيوانات التي تغير على أعشاش الطيور وزرائب الدجاج، وإذا كان في الإمكان غضّ البصر عن الثعالب، إلّا أنّ العين ينبغي أن تظلّ ساهرة خشية مهاجمة بنات آوى للماعز.

أصغى الفتى في انتباه شديد إلى محاضراتها، ولكن عندما انغرزت شوكة في أعماق مخلب كلبها بيجلي، فإنّه هو الذي انتزعه من دون أن يهاب نباح الكلب، وظنّت شارو أنّها لم تعرف شخصًا

بشجاعته. وفي يوم ما، وكان الوقت غسقًا، شاهدا فهدًا ينسلّ من بين الأشجار ويتّجه نحو الممرّ الضيّق الكائن إلى أسفل، فتشبّث أحدهما بيد الآخر للاطمئنان، وبقيا على ذلك الحال إلى أن توارى الفهد عن الأنظار. وفكّرت شارو أنّ اتّساع يدها في يده ليس سوى نوع من أنواع السحر، كما فكّرت في زوال خجلها وهي في رفقته وفي تحوّلها إلى فتاة ثرثارة لا تتوقّف عن الكلام ـ وكأنّ كلّ الكلمات في أعماقها كانت تستعدّ وتنضج من أجل الانطلاق نحوه.

وفي يوم من الأيّام، بعد مرور شهر تقريبًا، لم يأت إلى غدير الماء، فلبثت تنتظره حتى طال انتظارها، وشعرت بالانزعاج أوّلاً والقلق ثانيًا. كانت غاية في الغضب والسخط حتى إنّها فكّرت في ألّا تراه مجدّدًا. وبعد برهة وجيزة، استبدّ بها قلق من أن تكون قدماه غير المعتادتين على هذه الأماكن قد انزلقتا وهو في طريقه فوق المنحدر، وأنّه هوى في بقعة ما، وأنّ عظامه تكسّرت ولم يعد في مقدوره أن ينادي بصوتٍ عالٍ طالبًا النجدة. فما كان منها إلّا أن ارتقت التلّ تاركة الماعز متواريًا عن الأنظار وسط الأدغال، واختلست نظرة من وراء الأعشاب في اتّجاه حافّات الحشائش. ولدهشتها رأت المكان محتشدًا بالأهالي: رجالاً ونساءً في أبهى حللهم، يحملون كؤوسًا بأيديهم، يتبادلون الضحكات ويتجاذبون الأحاديث. وكانت الطاولات والكراسي البيض قد أعدَّت تحت مظلّات لم يسبق لها أن شاهدت ما يوازيها في سعة حجمها. وكان شخصان يحملان صينيّتين ويتنقّلان من مجموعة إلى أخرى من الناس، ينتظران من يتنبّه لهما فيتناول شيئًا ما من فوق إحدى الصينيّتين. وكان أحد هذين الشخصين هو الفتى: فتاها.

وفي وقت لاحق قهقهت ضاحكة، وقالت:

ـ عندما نتزوّج سوف تتولّى أنت الطهو وترتدي أبهى ثيابك وتقدّم لي الطعام عندما أعود إلى البيت. سوف أذهب وأحصل على المال.

لم يردّ عليها بابتسامة، بل مضى في سبيله من دون أن ينبس بكلمة واحدة، مضى إلى البقعة التي يتوارى فيها الغدير داخل الأشجار وكأنّه شاهد شخصًا ما هنالك. نادته باسمة:

ـ كوندان! آه يا كوندان سنغ!

ثم انفجرت ضاحكة على نحو أشدّ من ذي قبل. ولكن بعد مرور بضع دقائق ـ وكان ما يزال يشيح بأنظاره بعيدًا من دون أن يبتسم ويتظاهر بأنّها غير موجودة ـ هرعت إليه وجذبته من ثيابه، وتوسّلت قائلة:

ـ ألا تعلم أنّني أمزح!

* * *

٨

أدركت مديرة مدرستي الآنسة ولسون أنّني لست معلّمة نافعة، فكانت تعتقد بأنّ صفوفي تسودها الفوضى وتفتقر إلى الانضباط. أمّا أنا، فكنت أظنّها ضوضاء تبعث على السعادة، ولم أستطع حمل نفسي على إسكات الأطفال وفرض النظام المطلوب.

وكانت الآنسة ولسون تقتحم صفّي بين وقت وآخر وتفرض النظام بكلمة واحدة: «هدوء!» وبضربة واحدة من عصاها الخيزرانيّة على السبّورة تجعل تلاميذ الصفّ كلّهم وتجعلني أنا شخصيًّا أيضًا نقف مجلّلين بالخزي والعار في انتظار الكلمة الغاضبة التي ستعقب ذلك. ولم تكن شارو لتمثّل إخفاقي الوحيد، فثمّة غيرها ممّن لبثوا في صفوفي سنتين أو أكثر يتغيّبون عن الحضور إلى الصفّ من غير إذن، ويتهرّبون من أداء فروضهم المدرسيّة، فيخفقون في الامتحانات في نهاية الأمر. وفي الاجتماعات التي تعقدها الهيئة التعليميّة، كانت الآنسة ولسون تنظر إليَّ وتقول:

ـ يظنّ بعض الناس أنّ التعليم مهنة يمكن أن يؤدّيها أيّ شخص،
لا، يا سيّدتي، لا. فالتعليم يتطلّب من المرء أن يهب نفسه له ويتطلّب انضباطًا وحبًّا بعيسى المسيح.

كانت الآنسة ولسون تخاطبني بكلمة «سيّدة» كلّما أرادت أن تذلّني.

كانت الآنسة ولسون كاثوليكيّة من كيرالا. وكان كلّ ثوب ساري ترتديه يتحوّل إلى لفّة قماش تفتقر إلى الأناقة من حولها، فتبدو صرَّة حيّة. زهدها طبّقت شهرته الآفاق، فهي لا تأكل سوى وجبتيْ طعام خفيفتين من دون ملح في كلّ يوم، ولا تتزيّن إلّا بصليب فضّي. أمّا نظّارتها السميكة ذات الإطار الأسود، فكانت تنزلق إلى أسفل أنفها كلّ بضع دقائق، فتدفعها إلى أعلى بسبّابتها القصيرة. وكان يروقها أن تقول لنا: «سمعتُ صوت المسيح واضحًا وضوح صوتي» أثناء تناول القربان المقدّس الأوّل والاعتراف الأوّل. وفي سنيّ مراهقتها، التحقت بدير وهدفها أن تصبح راهبة ولا شيء غير ذلك. وأُرسلت مدّة سنة لممارسة التعليم في مدرسة تابعة للكنيسة وحضور القدّاس وتلاوة طقوس العبادة التاسوعيّة. وفي ذلك الوقت، كانت هي وغيرها من الفتيات يخضعن لرقابة لمعرفة مدى ملاءمتهنّ للحياة الدينيّة. وكانت الآنسة ولسون متحمّسة بما يكفي لممارسة تلك الحياة، لكنّ الكنيسة لم تسمح لها في نهاية المطاف أن تُرسَم كاهنة، ولم تفصح هي عن سبب ذلك بل كانت تلمّح إلى سياسة الدير، غير أنّ تلك كانت أعظم مأساة في حياتنا وحمّلت العالم وزرها. فكلّما أزعجها شخص ما، تجدها تقول بصوتها الأجشّ: «لقد أرسلني الربّ من أجل هذا، من أجل أن أخدم العالم عندما أردت أن أكون إلى جواره في الصلاة والعزلة!».

وكانت شديدة المكر والحيلة عندما جعلتني أتولّى إدارة التعاونيّة المتواضعة المملوكة من الكنيسة والتي تصنع المربّى. فالعوائد المتحقّقة من البيع تذهب إلى صندوق المدرسة الذي كنت أتولّى إدارته أيضًا، فتوسّعت عمليّاته. ومع هذا، فقد حرصتْ على أن يبدو ذلك وكأنّه منّة، وتقول:

ـ لستِ مضطرّة إلى حضور دروس ما بعد الظهيرة، فثمّة من هنّ أكثر تجربة منك من المعلّمات. ابقي مع الفتيات في المعمل.

وبعد عام أو عامين، بدأ المعمل يدرّ أرباحًا وفيرة، فضلاً عن اكتسابه سمعة طيّبة بتوفير العمل الموقّت للقرويّات إضافة إلى سوق جاهزة لمحصول الفواكه المحلّي. وكانت الآنسة ولسون تعزو النجاح إلى نفسها عندما يأتي الزوّار للطواف من حول المعمل، وهي مطمئنّة إلى إبعادي عن أيٍّ منهم.

من جهة أولى، كان الوضع مفارقة بائسة: فالآنسة ولسون تُبدي ملاحظات قاسية مفادها أنّ الذرّيّة الجاحدة المفتقرة إلى الحبّ والحنان تستحقّ المعاناة التي ألمّت بها. وساورني الظنّ في أنّ المصادفة وحدها هي التي جعلتني أشتغل في معمل لقاء مرتّب شحيح، في حين كان أبي يملك عديد المعامل التي تنتج المخلّل. ولم تكن معامل والدي قد خضعت لأيّ تخطيط، فجدّي لأبي الذي كان أهل المحلّة جميعًا يسمّونه ذاتايا أو الجدّ، كان ملّاك أراضٍ حقّق ثروة طائلة من زراعة الأرزّ وقصب السكّر على امتداد ضفاف نهر تريشنا، ومن تأجير الشقق وبيع مشروب العرق (وإن كنّا في زمن أبي أكثر تكلّفًا من الاعتراف بأيّ من هذه الأشياء)، وشيّد بيتًا ضخمًا بالحجارة وزرع من حوله أشجار المانغو وأشجار الأملة والتمر الهندي والشيكو والغوافة.

ولمّا أضحى والدي في مقتبل الشباب، كانت أشجار المانغو قد

بدأت تؤتي ثمارها، فاستدعي العمّال لقطف الفاكهة، وصُنعت أوعية ضخمة للسوائل المخلّلة المأخوذة من ثمار المانغو الخضراء التي كانت من نوع ممتاز. وجرى توزيع المخلّل وفواكه أخرى في أوساط الأسر الكبيرة إلى أن شعر والدي أنّ فرصة تجاريّة أضحت مؤاتية، فبدأ يزوّد عددًا قليلاً من الدكاكين بها. وعندما بلغتُ سنّ العشرين وقُدّر لي الزواج بمايكل، كان أبي يملك ثلاثة معامل في عموم منطقة أندرا برادش التي كانت تزرع بكلّ شيء يمكن تخيّله، بدءًا بالزنجبيل والليمون وانتهاءً بالقرع المرّ. وكانت العلامة المثبتة على الزجاجات تشير إلى أنّ محتوياتها هي مزيج عريق وسرّي من البهارات التي انتقلت من جيل إلى آخر. وكنت أدرك أنّ هذه الوصفة من بنات أفكار «العمّة» بيني الطاهية البدينة المغناج ذات الساري البرّاق التي تعمل عندنا وأنجبت طفلاً من عمّي الأوسط.

في مرحلة صباي، كنت أؤدّي دور صاحبة دكّان، فكنت أضع الفاكهة المتساقطة في ميزان دمى يتألّف من طبقين من الصفيح وخيط، وأجعل عمّال أبي يشترون منّي المانغو الصلبة والخضراء اللون لقاء عشر بيزات للثمرة الواحدة. وما يزال الوضع على حاله في الوقت الراهن، فالسلال وأكياس الخيش المملوءة بالفواكه تحيط بي من كلّ جانب. وكان صاحب ديوان يردّد أنّ في وسعه معرفة الشهر من الرائحة المنبعثة منّي لدى عودتي من العمل في عصر كلّ يوم حاملة صحفه. وكان يقول:

ـ إذا كانت رائحة البرتقال تفوح منك، فلا بدّ أنّ الشهر هو كانون الثاني، أمّا إذا كانت رائحة مشمش فإنّ الشهر لا بدَّ أن يكون حزيران.

* * *

كانت شارو واحدة من أفضل عاملاتنا، تعمل بدوام نصفي شأنها شأن الكثير من الفتيات، بيد أنّها كانت تختلف عنهنّ من حيث نظامها وجدّها في العمل، وقدرتها الفائقة في حلّ المشكلات واتّخاذ القرارات. وعندما كنت أشاهدها وهي منهمكة في العمل، يستبدّ بي العجب، فأتساءل عن سبب إخفاقها في المدرسة.

لكنّها كانت مختلفة في ذلك العام. كان الشهر هو شباط، موسم المربّى، وفي حين كانت قشور البرتقال التي تقشّرها شارو رقيقة ومستوية أو إن كانت ستهيّئ كيلوغرامين أو عشر كيلوغرامات، فإنّها بدأت، لسبب من الأسباب لا ندرك كنهه، بتقشير البرتقال على نحو سميك أكبر ممّا ينبغي أو لا تقطّع كمِّيّة كبيرة من اللبّ. وعندما تضيف ما يتبقّى من اللباب، فإنّها تترك كمًّا كبيرًا من البذور يختلط به ممّا يتطلّب إعادة العمل من جديد. كان كلامها أقلّ من المألوف، تبتسم في نفسها أكثر من السابق، وعندما تسألها صديقاتها عن السبب، تقول إنّها تذكّرت حكاية تثير الضحك.

ـ هيّا إذًا، أخبرينا بهذه الحكاية.

ولكنّها تهزّ رأسها، فتلتمع الحلية الفضّيّة التي تزيّن أنفها وتجيب:

ـ لا، الوقت وقت عمل الآن.

وتبدأ بتقشير البرتقال مرّة أخرى، ولكنّها لا ترفع بصرها ولو لفترة قصيرة من الزمان. ثم تعود الابتسامة الغامضة إلى مكانها على طرفيْ شفتيها.

كانت الغرفة معبّقة بأريج البرتقال ورائحة الدخان المنبعث من المنقلة المملوءة بالحطب والصنوبر. كانت نوافذها تطلّ على الوادي. ثمّة فناء حجري صغير خارج الغرفة تجلس فيه نساء القرية ويصنّفن

الفواكه المحمولة من المنحدرات. وكانت السماء تمطر في أغلب تلك الأيّام من شهر شباط، يتخلّلها أحيانًا البَرَدْ والحالوب. وكانت ريح صرصر تهبّ علينا من جهة الشمال، فتقرقع النوافذ وتكاد أن تطيح ببراعم الخوخ والدرّاق من فوق أشجارها، وترتعد فرائصنا من شدّة البرد. ثم تنتقل النسوة إلى العمل في الداخل، على مقربة من مصادر النيران والمدافئ التي كان يغلي من فوقها المربّى في قدور كبيرة. وكانت أيديهنّ تزداد برودة وضمورًا أثناء انهماكهنّ في تصنيف الفاكهة وغسلها وتقطيعها. وكنّ في حاجة إلى الشاي على مدار الساعة ليبعث الدفء في أوصالهن فيواصلن العمل. كنت أعدّ الشاي مركّزًا وبالحليب مع كمّيّات من السكّر والزنجبيل وحبّ الهال. وكان لديّ جهاز تسجيل في غرفتي أستمع من خلاله أحيانًا إلى نشرة الأخبار وأحيانًا إلى تراتيل باللغة الهنديّة. لم أكن نصرانيّة، ولكنّني كنت متأكّدة من أنّ الآنسة ولسون لا تستحسن ذلك. ولم أكن أسمح لنفسي بسماع الموسيقى التافهة. كنت أعرف أنّ الفتيات يتحوّلن إلى سماع موسيقى الأشرطة السينمائيّة في اللحظة التي أوليهنّ فيها ظهري. وكانت الأصوات تتردّد في جنبات التلول وبخاصّة في أيّام الشتاء الصافية الخالية من الطيور. وينساب إلى سمعي من المنحدرات البعيدة أغاني الحنين الحزينة: «لقد محوت ذلك الاسم من ذاكرتي، ولكنّني مازلت سجين حبّي».

راحت شارو تدندن هذه الأغنيات على نحو خافت بعد أن كانت تسخر منها. كان الطقس شديد البرودة إلى الحدّ الذي اكتسى فيه الماء في الدلاء خارج الغرف بطبقة من الجليد أثناء الليل.. ولكنّها على الرّغم من ذلك، كانت تغسل شعرها مرّة كلّ بضعة أيّام، وكنت غالبًا ما أراها جالسة في الفناء خارج بيتها، تجفّفه تحت أشعّة شمس الشتاء

الحليبيّة اللون. ولم تتركه من دون تمشيط إلّا بحلول المساء، تبدأ بتزيينه بالورود، زهرة صغيرة ورديّة اللون من الأدغال البرِّيّة، تاجًا متألّقًا من مادّة بلاستيكيّة.

وفي عصر أحد الأيّام، صكّت أسماعنا صرخة في مشغلنا، فهرعت من فوري لأشاهد لوح التقطيع وقد اكتسى بلون أحمر برّاق. قشور البرتقال تحتاج إلى سكاكين حادّة، وقد اختيرت شارو وغيرها من الفتيات لإنجاز أعمال التقشير بسبب دأبهنّ ومهارتهنّ في العمل. وكانت الحوادث المؤسفة قليلة الحدوث. ولكنّ السكّين غارت في هذه المرّة عميقًا في إصبع الخاتم. فكانت واقفة، تضغط عليه، مصابة بدوار. وساعدتها الأخريات من الفتيات على لفّ الإصبع بقطعة قماش، في حين هتفت إحداهنّ:

ـ إنّها في دنيا الخيال في هذه الأيّام، لا تنظر إلى موضع السكّين.

واصطبغت قطعة القماش البيضاء بلون أحمر في بحر ثوان، وفي الوقت الذي تمكّنّا فيه من إيقاف سيّارة أجرة مارّة من طراز «جيب»، وهرعنا بها إلى المستشفى المدني لتضميدها وعلاجها، بدت وكأنّها توشك أن يُغمى عليها. كانت رائحة الدم نفّاذة، ومخيفة.

وفي اليوم التالي، أصرَّت العمّة على أن تبقى شارو في المنزل، وقبل أن تتمكّن هذه من إبداء أيّ احتجاج أو اعتراض، صرخت العمّة في وجه ولدها:

ـ كفاك تسكّعًا وعبثًا. هيّا، خذ القطيع ليرعى الكلأ اليوم يا بوران، وتذكّر أن تعدّه قبل أن تعود. وإذا ما اتّضح أنّ ثمّة بقرة أو معزة ناقصة، فسوف أحطّم رأسك إلى أشلاء صغيرة لا تستطيع أن تعثر على جزء واحد منها.

لكنّ شارو انسلّت خفية في عصر ذلك اليوم عندما استسلمت الجدّة لإغفاءة تحت أشعّة الشمس بالقرب من منطقة أرض مزروعة بالفجل، واتّجهت نحو دوبي غات. ورفعت إصبعها كأنّها تذكار وأزاحت عنها الضماد، كي تطلع كوندان سنغ على الدرزات المثبتة عليه. وكما هو متوقّع، فقد احتضن الإصبع بين يديه ومسَّد الجرح. وعلى الرّغم من أنّها شعرت بألم بسبب تورّم الإصبع، إلّا أنّها ظلّت متماسكة كي يواصل تمسيد البقعة المحيطة بالجرح.

لم يمرّ سوى شهرين منذ أن أتى كوندان سنغ إلى بلدة رانيكهت، لكن وجوده كان يمثّل هواءً وماءً وغذاءً لشارو. وكانت تضطرّ إلى رؤيته كلّ يوم. وإذا ما تأخّر عن موعده، يساورها القلق، وإذا ما انصرف مبكرًا، اكفهرّ وجهها ووجمت. وكانت تخفي تذكارات لقاءاتهما في زريبة البقر، مثل ريشة زرقاء وبيضاء من ذيل طويل لطائر الكندش، وحجارة من غدير ماء دوبي غات، وقلادة من خرز كان قد اشتراها لها ولكنّها لم تستطع تقلّدها خشية أن تثير تساؤلات العمّة. كانت لا تفكّر إلّا فيه طوال النهار، وإذا طلب منها الحضور إلى دوبي غات في منتصف الليل من أجل لقائه، فإنّ من شأنها أن تهرول إليه على امتداد المنحدرات المجلّلة بسواد الليل والمعبقة برائحة النمور من دون أن تتردّد لحظة واحدة.

ماذا سيحدث لو اكتشفت العمّة أو الأهالي أمرهما؟

كانت شارو لا تبثّ مخاوفها ورغباتها وآمالها إلّا إلى غوري جوشي أثناء حلبها في صباح كلّ يوم. أمّا في علاقاتها مع بقيّة أرجاء العالم، فكانت منطوية على أسرارها بالقدر المسموح به في بلدة صغيرة، حيث كلّ فرد فيها يعرف كلّ ما يدور فيها عاجلاً أم آجلاً.

* * *

٩

تقسّم بلدتنا على قسمين اثنين واضحين، أوّلهما هو سوق صدر المزدحم؛ وثانيهما، وهو المعسكر الكبير، حيث يوجد منزل لايت هاوس. ومعظم العقارات متباعد أحدها عن الآخر، وتمتدّ على مساحات شاسعة تصل إلى الجهة الثانية من الوديان وغدران الماء. وكانت البيوت مشيّدة في القرن التاسع عشر على أيدي البريطانيين من دون مهندسين معماريين ولا تصاميم بناء. وقد شيّد هؤلاء منازل ضخمة من الحجارة تحتوي على مداخن وغرف علويّة ومدافئ جداريّة ذات رفوف من فوقها وشرفات واسعة وسطوح من الصفيح. ووصل الأمر بهؤلاء حدًّا أنّهم أعادوا تجسيد اسكتلندا كما يتذكّرونها في تلك المنطقة البعيدة من الهند. ومنذ ذلك الوقت، باتت رانيكهت تشتمل على الحكايات والذكريات، وعلى أشجار محمّلة بالخوخ الذي يصل حجم الواحدة منه حجم كرة المضرب، وعلى بساتين مزروعة بالفراولة وبقول الماء. . يضاف إليها أناس أسطوريّون غريبو الأطوار يعيشون بين ظهرانيها. فثمّة باحثة وراقصة تعيش وحيدة يسهر على راحتها

قرويٌّ تعلّمه كيف يردّد مناجيات هاملت. ووظّفت لديها وهي في الثمانينيّات من عمرها فنّانًا مفلسًا ليزوّد كتابًا عن الرقص بالرسوم الإيضاحيّة، وكانت تقف أمامه يومًا بعد آخر مرتدية زيًّا محلّيًّا، بارزة العظام، هشّة، منتقدة باستمرار عدم كفاءته. وفي إحدى الليالي، تحمّل بشجاعة الظلمة والخوف من الحيوانات المفترسة وتسلّل من البيت وهرب منها ومن البلدة برمّتها، تاركًا رسومه من ورائه على السرير بعد أن مزّقها إرْبًا إرْبًا. وثمّة امرأة أخرى تدعى أنجيلينا، تلك الزائرة التي أغرمت بجنرالنا المتقاعد الذي يبلغ من العمر ما يجعله يبدو أبًا لها. وقد افتتن بشعرها القصير المجعّد وجمالها الطائش وعدم مراعاتها آداب السلوك. ثم تزوّجا، وكانت تطوف في أرجاء البلدة مرتدية ملابس ذات ألوان صارخة مبهرجة، تزيّن أذنها بالورود، وتعترض طريق السيّاح لتخبرهم أنّ فوريست لودج تنتشر فيها الغيلان التي تشرب الدماء في ليال معيّنة.

لبلدتنا تاريخ سرّي لا يكشفه المسنّون إلّا لأولئكَ الذين يعيشون فيها. ففي كلّ يوم، تقصّ لي العمّة قصّة عن الأموات والأحياء، وبالهمّة نفسها التي يتكلّم بها جاناكي الساكن في التلّ المجاور والذي يعدّ الحشيش من نباتات الماريجوانا التي تكثر زراعتها على نحو فظيع فوق سفوح التلال، وعن ربّة البيت ليلي التي تسبّب في حملها قاضي المحكمة المحلّيّة قبل أربعين سنة. وعندما ذهبتُ إلى المقبرة النصرانيّة حيث كنت قد واريت رماد مايكل الثرى، استدللت على الأسماء المنقوشة على شواهد القبور الأخرى من القصص التي سمعتها على مدى سنين طويلة. وفي الجزء القديم من المقبرة، كان تشارلي دارلنغ يرقد تحت بلاطة ضريح عليها رسوم ملائكة مجنّحة. وكان قد توفّي في العام ١٩١٢ على أثر إصابته بمرض السفلس، كما قيل لي، بعد تردّده

على لال كورتي، حيث كانت نساء كوماوني الفاتنات يجنين مالاً إضافيًّا من الجنود الذين يتّخذون من ثكنة الجيش في رانيكهت مقرًّا لهم. وكانت أنجيلينا الملتهبة على بعد بضعة أقدام، متوارية تحت بلاطة رخاميّة منقوشة بالزهور. وكانت قد أجريت لها عمليّة جراحيّة صغيرة ولكنّها لم تفق من التخدير الذي أعطي لها في المستشفى. أمّا الجنرال، فهو في العقد التاسع من عمره اليوم وما يزال حزينًا عليها. كان يأتي إلى قبرها كلّ أسبوع رفقة بوزو، وإذا التقينا في المقبرة، فإنّه يقلّني إلى البيت بسيّارته القديمة الأمباسادور. وكان بوزو يجلس في المقدّمة محدّقًا أمامه في هدوء، في حين كنت أحشر نفسي في المعقد الخلفي بعد أن أُبعد عنّي الأشياء المركومة من غير نظام. وكنت أرى من مقعدي الخلفي الكلب الألماني أطول قليلاً من الجنرال ـ الذي لم يكن في ريعان شبابه ليزيد طوله عن خمسة أقدام وخمس بوصات ـ الذي كان ينكمش ويتضاءل بمرور السنين. وكان يسعى إلى الاعتدال ورفع قامته بالقدر المستطاع الذي يسمح له به طوله. وأثناء القيادة، كان يدندن الأغاني المأخوذة من أشرطة هوليوود الاستعراضيّة، أو يسهب في الحديث عن الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد، فيقول:

ـ سوف تسقط البلاد في أيدي الكلاب.

ثم يعتذر لكلبه بوزو عن كلامه، ويضيف:

ـ ليس أنت يا ولدي العزيز، ليس أنت، لأنّك سوف تحكم البلاد بقبضة من حديد...

ثم يخاطبني بالنبرة نفسها:

ـ جون أليسون، هل رأيتِ جون أليسون يومًا ما يا ابنتي؟ لا، على وجه التوكيد... فأنتِ ما زلتِ شابّة...

هؤلاء هم الناس الذين كنت أحدّث ڤير عنهم في عصر أحد الأيّام عندما التقاني مصادفة، على عادته في تلك الأيّام عندما كنت أرجع من المقبرة أو عندما أختصر الطريق، فأسير في الغابة وأعبر غدير الماء وأتّجه إلى السوق وكنيسة القدّيسة هيلدا. وفي إحدى المرّات، قدَّم يده لي ليساعدني في اجتياز بقعة منحدرة في طريق الغابة المتّجه إلى السوق، حيث كانت الصخور المقلقلة تجعل الأقدام السائرة عليها محفوفة بالخطر. وقد فوجئت مفاجأة كبيرة إلى الحدّ الذي دفعني إلى الإمساك بيده متناسية أنّني كنت أهبط من فوق هذه الصخور وحدي كلّ يوم.

قلت:

ـ وما قصّتك أنتَ؟ لقد وطأتَ هذه البلدة في طفولتك، ولعلّك مطّلع على كلّ ما يدور من قيل وقال. فهذا همت يقول إنّ المنزل كان يحتشد بالناس في تلك الأيّام، وبالحفلات أيضًا. أنا لا أتصوّر صاحب ديوان يقيم الحفلات لأنّه رجل مستوحد إلى أبعد الحدود.

ـ آه، كان العجوز رجلاً مختلفًا تمامًا في تلك السنين. وكان وسيمًا، بهيّ الطلعة، معتدل القامة، فارع القدّ، تلوح عليه ملامح القوّة والبأس الشديدين. وكانت تشوبه مسحة رومانسيّة بطوليّة. وقال الناس عنه إنّه عرَّض يومًا ما حياته للخطر لإنقاذ أحد القبليين الذين يقتفون آثار النمور. هل شاهدت تلك الندبة الطويلة الغائرة على امتداد خدّه الأيسر؟ إنّها أثر من آثار إحدى تلك المخاطر.

قلت:

ـ أخبرني أنّها أثر من آثار أسلاك شائكة.

ـ قال ڤير:

ـ آه، هكذا أخبرك؟ صحيح؟ غريب، لأنّه كان يتباهى بشأن الندبة عندما كان شابًّا. ربّما. . . على أيّ حال، كانت له نظرة إغراء مشهورة ـ وكان ينبغي أن تشاهدي بطانته والنساء المعجبات به ـ زوجات العسكريين وبناتهم، وكلّ الزوّار القادمين في فصل الصيف والمتحدّرين من المناطق الأرستقراطيّة من لوكناو ودلهي. وفي كلّ عام تقريبًا، ثمّة امرأة جديدة وغاية في الحسن والجمال، يتعرّف إليها على أنّها صديقة من صديقات الأسرة، ولكنّ الآخرين كانوا يعلمون أنّها نكهة ذلك العام. كنت أجيئ إلى البلدة في الإجازات، وكذلك شأنه، لأنّه كان يقطن في بلدة سوراجغاره في ذلك الوقت ويزور هذه البلدة لقضاء فصل الصيف. وكان يسافر بواحدة من تلك المركبات الفخمة من الدرجة الأولى، والقديمة، والمصنوعة من خشب الساج والمزوّدة بمرايا برّاقة ـ وكانت كلابه ترافقه في سفره.

كنت أعرف قصّة الكلاب، لأنّني شاهدت صورة بالأسود والأبيض، على أحد الجدران القائمة فوق المدفأة في حجرة ضيوف صاحب ديوان، تمثّل أربعة كلاب صيد ذهبيّة اللون ومزركشة الذيول في حقل زراعيّ مترامي الأطراف. وكان كلّ كلب من تلك الكلاب الأربعة يتألّق لمعانًا تحت أشعّة الشمس الآذنة بالمغيب. وكانت تلك الأشعّة تحوّلها إلى مخلوقات أثيريّة ذوات آذان متهدّلة، لاهثة الأنفاس. كان أحد الكلاب يظهر بتكشيرته المشرقة وهو ينظر إلى أعلى نحو صاحب ديوان الذي برزت يده في زاوية من زوايا الصورة. وكان حذاء الركوب الثقيل والجميل باديًا للعيان أيضًا.

راح ڤير يسترسل في الكلام:

ـ حفلات وجلسات شراب وعلاقات غراميّة وموسيقى تصدح فوق الأعشاب، ومطربون يدعوهم للغناء من بيناريس، واللحوم

المشويّة على نار هادئة فوق الحطب، وآلات لإعداد المرطّبات يدويًّا يميل مذاقها إلى الملوحة، ولم يكن لديه وقت يتفرّغ فيه لصبيان يتامى وقذرين وموزّعين بين الأقرباء لقضاء عطلات المدارس الداخليّة. أمّا أنا، فقد تُركت لأدبّر أمور نفسي، والشيء الوحيد الذي جعله يهتمّ بي كان يتمثّل في الأسئلة التي أطرحها عن حياة البرّيّة. لهذا كنت أفكّر في شيء جديد كلّ يوم، مثل: لماذا ينقر الطائر المعروف باسم نقّار الخشب جذوع الأشجار؟ كيف يستطيع طائر الكندش الطيران بذيله الطويل؟ إلى أين تذهب كلّ نمور هذه التلال؟ ثم يمنحني خمس دقائق بعد ذلك، من دون أن يشتّت انتباهي أيّ شيء، بغض النظر عمّا كان يفعله. أحيانًا، كان يقلّد أغاني الطير ونداء النمور وصوت الغزلان. ثم أخلو بعدئذٍ إلى نفسي إلى أن أستقلّ القطار وأعود من حيث أتيت. كلّ ما فعلته هو تناول الطعام، والاستعداد لأن أكون بدين المدرسة من جديد بعد أن تنتهي الإجازات.

أذهلتني المرارة التي كانت تشوب صوته، وعلى حين بغتة، لاح وجهه لي أشدّ نحافة ممّا كان عليه، منهكًا لا يريدني أن أراه. شبكت أصابعي ووضعتها من وراء ظهري كي لا أستسلم لمشيئتي وأمدّها إلى يده. وعندما التفت ڤير إليَّ من جديد، كانت تلوح على وجهه ابتسامة وتساؤل عن شيء ما لا صلة له بما كان يتكلّم به. فناقشنا الصعوبات التي تواجهه في وضع بريد إلكتروني له، واللعبة التي تمارسها إشارة هاتفه النقّال، ولم نأتِ على ذكر صاحب ديوان مرّة أخرى في ذلك النهار.

انتقل الآن ڤير إلى رانيكهت. كان متسلّق جبال محترفًا، مهنته متمثّلة في قيادة متسلّقي الجبال واصطحابهم في رحلاتهم. وكان قد شرع بافتتاح شركة سفر جديدة، وأضحى مشغولاً في إعدادها: نصب

المعدّات وأجهزة الحاسوب والبحث عن مساعد يستأجره للعمل معه. ولمّا شاهدت الأدوات والمعدّات المعقّدة والباهظة الثمن التي جاء بها من رحلاته إلى دلهي، تحطّمت نفسيًّا على محاولات مايكل فقيرة المعدّات الذي لم يكن مزوّدًا إلّا بحبّه للجبال وشغفه بها. تلك الأحذية السميكة بنعلها وتلك الخيمة البلاستيكيّة وسترته المقاومة للرياح ذات الزمام الذي أصلحه مرّتين ـ بدت لا تقاوَم في تلك الأيّام، ولكنّها تبدو اليوم رديئة النوع ورخيصة الثمن وموقّتة لا تدوم طويلاً. من شأن هذا الموضوع أن يكون موضوعًا طبيعيًّا ومدار بحث ونقاش بيني وبين ڤير، ولكنّني لم أستطع تمالك نفسي والتفوّه بكلمة واحدة، فقد كانت المقارنة مؤلمة جدًّا وفي غير مصلحة مايكل.

كان ڤير كثير الغياب، حتى إنّني قد لا أراه على مدى أيّام متّصلة. ولم نتحدّث قطّ في أيّ أمور شخصيّة إلى أن حلَّ عصر ذلك اليوم. ومع هذا، فقد تركني كلّ لقاء وإيّاه وقد ساورني إحساس وكأنّني كرعت خمسة أكواب من القهوة المركّزة دفعة واحدة. وما إن وقع بصري عليه حتى شعرت بسرب من النحل يستقرّ في داخلي، يبدأ بالطنين على نحو مجنون، ويضرب بعضه بعضًا. لم أستطع الجلوس من دون حراك، حتى في المعمل نفسه. كنت قلقة ومرتبكة بشأن بواعث ذلك الشعور. أعرف أنّني ذكرت ڤير كثيرًا، بل أكثر ممّا ينبغي في حديثي، ولكنّني لم أستطع تمالك نفسي. ولاحظت صاحب ديوان ينظر إليَّ في دهشة عندما تحدّثت عنه، ولاحت على وجهه تعابير مفادها «مرّة أخرى؟».

راودني شعور طاغٍ في عصر ذلك اليوم بحاجتي الماسّة إلى لمس ڤير، وإن لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يراودني فيها مثل ذلك الشعور. ففي يوم ليس ببعيد، كان يجلس قبالتي وقت العشاء في لايت

هاوس، يقصّ علينا نبأ رحلة قام بها ومصطحبًا فيها زبائنه قبل عام. وكانت القصّة طويلة تشتمل على ممرّات وخيام ومرتفعات وصدوع جبليّة، وكان صاحب ديوان يقاطعه غالبًا مستفسرًا عن بعض النقاط. لم أسمع من كلامه إلّا النزر اليسير. ثمّة أثر من آثار السبانخ على شفة ڤير السفلى. فتسمّرت في مكاني، وتنبّهت إلى حدود شفتيه وشكلها والندبة الغائرة في ذقنه. حاولت أن أشيح ببصري بعيدًا، من دون جدوى. ينبغي لي الجلوس على يديَّ كي أحول من دون مدّهما وإبعاد الأثر عنهما.

حدّقت في مرآة الحمّام في تلك الليلة، وتشبّثت بمشط بعد أن كنت قد نسيت أنّه في يدي. ولم أتنبّه إلى النسمات الثلجيّة المتجمّدة المنبعثة من البلاط الذي يجمّد أصابع قدميَّ وينتقل إلى ساقيَّ. وتذكّرت زمنًا آخر ـ وأنا واقفة أمام مرآة حمّام أخرى بعد لحظات من وصول نبأ وفاة مايكل. كان الماء يقطر من على وجهي الذي كان خلوًا من أيّ دمعة. لم أكن أعرف سبب وجودي في الحمّام، ولا السبب الذي دفعني إلى رشق وجهي بالماء. لو أنّ جسدي انقلب ظهرًا لبطن في تلك اللحظة، لحلّت النار والجفاف محلّ الأوردة والعضلات! كان ينبغي لوجهي أن يتشوّه وأن يحترق تمامًا، ولكنّه على الرّغم من ذلك، لاح كما هو في كلّ يوم: كتلة الشعر السوداء حول وجهي نفسه بلون القهوة، والنظّارات نفسها وعلى الأنف المدبّب نفسه، والمنعكس على مرآة متصدّعة ومبقّعة كانت موجودة في مكانها منذ أن استأجرنا أنا ومايكل البيت لنسكن فيه. ولم نذهب لشراء أخرى غيرها قطّ. وكانت الببغاوات تتشاجر بسبب الثمرة على الشجرة المطلّة على الفسحة التي تربط بين غرفتينا كريهتي الرائحة. كنت متنبّهة لسقسقات العصافير وللأطفال في البيت المجاور وهم يتدرّبون على

الغناء في هذا الوقت، وتردّد نداء بائع الزهور في الأصيل الذي كان يلفّ ويدور في أحياء حيدرأباد ممتطيًا درّاجته المحمّلة بزهور الياسمين. كان كلّ صوت من أصوات النهار يبدو مثقلاً بمعنًى لا أفهمه. ولاحت فرشاتا الأسنان ـ لأنّ إحداهما نسي مايكل أن يأخذها معه ـ ووعاء الصابون والصنبور المعدني، بدت كلّها وكأنّها اعتياديّة أكثر من المألوف. وكان قميصان من قمصانه معلّقين في خزانة الثياب من دون غسل، وقد طلبت منه أن يتركهما على ذلك النحو كي أتمكّن من دفن وجهي فيهما وأشمّ رائحته أثناء انتظاري عودته. وكانت حقيبة الكاميرا الجديدة التي منحته دائرته إيّاها لأداء مهمّته ملقاة في الرفّ الأسفل من الخزانة من دون أن يستعملها.

لقد استغرقت كلّ تلك السنين كي أزحف رويدًا رويدًا بعيدًا عن ذلك اليوم وأعيش حياة اعتياديّة.

فقدت طعم المغامرة، وفقدت دافعي. تمنّيت لو أنّ ڤير لم يأتِ قطّ ويرمي بحجارته في بركة مياهي الهادئة.

* * *

١٠

التقيت كوندان سنغ، صديق شارو، أوّل مرّة في شهر آذار عندما اقترب الربيع، فدفع مدير الفندق إلى إقامة حفلة في اسبين لودج. وكانت الأمطار تتساقط أحيانًا، وتهبّ رياح حادّة أحيانًا أخرى، لكن ضياء الشهر الفائت القصديري اللون اكتسب شفافيّة اللؤلؤ، وفي صباح أحد الأيّام فتحت بابي لأجد أمامي طفلين صغيرين مفعمين بالأمل ينتظراني كي أرى الكومة الصغيرة من الزهور الورديّة والبيض والحمر التي وضعاها على عتبة بابي. فعدت إلى داخل البيت لأجلب بعض النقود كي يشتريا بها بعض الحلوى كما هي العادة. إنّ إقامتي بمفردي جعلتني أفقد طعم هذه الأشياء، وهنا تذكّرت أنّ فولداي، وهو مهرجان الزهور الربيعي، بات قاب قوسين أو أدنى من حلوله.

أدركت عندما ذهبت إلى الحفلة أنّ مدير الفندق وطّن عزمه على ألّا يدعو إلّا أولئك الناس الذين يعتقد أنّهم من أصحاب المنزلة الاجتماعيّة الرفيعة. وبما أنّني كنت معلّمة لا تملك شروى نقير، فإنّ مكاني لم يكن لائقًا بين الجنرالات والألوية والبيروقراطيين. كما أنّ

الآنسة ولسون نفسها كانت، بحسب الاعتقاد السائد، لا تليق بما يكفي لحضور المناسبة. بيد أنّ مدير الفندق وجدني رفقة صاحب ديوان عندما جاء ليدعوه للحضور، فوجد صعوبة في عدم توجيه الدعوة إليَّ. وكان قد قال وقتئذٍ:

ـ مجموعة صغيرة من الأصدقاء فحسب، ليسوا بأعداد كبيرة.

وقد لاحظت خمسة أو ستّة أشخاص يجلسون من حول طاولة مشمسة في الحديقة.

عندما وصلتُ اسبين لودج، توقّفتُ بضع دقائق قرب حافّة العشب، أرنو إلى حشود الناس وأفكّر في الرجوع من حيث أتيت، فقد كانت ثياب الساري الحريريّة تبرق من أمامي، وكان الرجال يرتدون سترات من نسيج التويد الصوفي الغليظ والكنزات المنسوجة من صوف الأغنام. كانت الحديقة مكتظّة بأُناس لم تسبق لي رؤيتهم، وتشبّثت أصابعي بثيابي، وتمنّيت لو لم أحضر إلى هنا قادمة من العمل مباشرة. كنت قد لبست أفضل قميص أملكه في ذلك الصباح احتفاءً بالغداء، ولكنّه كان متواريًا عن الأنظار من تحت وشاحي الشتوي السميك بأنواعه المتعدّدة، بعد أن ظلّ صاحب ديوان يقول إنّه يصلح أن يكون بساطًا. ولعلّ شعري كان مغبرًّا بغبار الطباشير الأبيض جرّاء الكتابة على السبّورات.

تواريت عن الأنظار خلف شجرة كستناء واسعة الجذع، وأخرجت القلم الرصاص المقلّم الذي كان يثبّت كعكة شعري في مكانها ومرّرت أصابعي في شعري. عدَّلت من وشاحي ومسحت الغبار عن حذائي بمنديل، وقبل أن أغيّر من رأيي وأمضي في سبيلي، اتّجهت إلى أقرب شخص إليَّ فوجدته حاكم المنطقة القريبة، وقد كان منشغلاً يتجاذب أطراف الحديث مع المدير السيّد شوهان، يهنّئه على الشعارات التربويّة

التي كان ينشرها في أنحاء البلدة. وكان مضيفنا مدير الفندق يقف جانبًا، وقد بدت عليه أمارات مراعاة احترام الآخرين، كما تقتضي ذلك السياسة أمام أرفع موظّفين حكوميين في بلدتنا.

وقال الحاكم للسيّد شوهان:

ـ الرسائل جيّدة وبخاصّة للشباب.

رنا السيّد شوهان إلى أسفل، في اتّجاه قلنسوة حذائه البرّاقة. وكان قد أنفق الأشهر الستّة الماضية التي أُرسل فيها إلى بلدة رانيكهت في كتابة الشعارات، التي كلّف بعدئذٍ موظّفيه بخطّها على واجهة الصخور أو على ألواح ثُبتت بالمسامير فوق الأشجار في كلّ أنحاء البلدة. فكلّما سرتَ مسافة بضع خطوات تواجهك إحدى هذه الألواح.

وقال مدير الفندق:

ـ هذا عمل يميّز البلدة، علامات تربويّة حقًّا!

كان السيّد شوهان قد أتى بدفتر تمرينات في وقت مبكر من وصوله البلدة، ليشاركنا عند دعوتنا إيّاه إلى مدرسة القدّيسة هيلدا لتوزيع الجوائز في يوم من أيّامنا الرياضيّة. وكان للدفتر جلد سميك لمّاع وعليه صورة طفل ذي خدّين محمرّين وعينين واسعتين وبين يديه قلم. وكان مكتوبًا على الغلاف: «دفتر اسبارا المخطّط من أجل متعتك في الكتابة». وفي الجزء المخصّص لكتابة الاسم /المدرسة/ المادّة، كان قد كتب ما يأتي: /أفيناش شوهان/ مدير بلدة رانيكهت الإداري /لوحات من أجل تحسين أحوال الشعب. وعندما رفع السيّد شوهان دفتر التمرينات في اتّجاهي واتّجاه الآنسة ولسون، لاحظت أنّ ثمّة ارتعاشة في يديه. ولاح في لحظة من الزمان وكأنّه أحد تلاميذنا.

وقال يومئذٍ:

ـ إنّني لم أُطلع أحدًا على هذه الكتابة من قبل. أرجوكما أيّتها السيّدتان أن تقولا رأيكما فيها بصراحة.

في الدفتر، ثمّة شعارات مدوّنة على الأسطر وبقلم جافّ:

انتعش وأنت تسير على هذا الدرب

التزم جانبك ولا تستهتر

الغابة معطف الإنسان الفقير

استمتع ببهجة التلال

الجبال ينابيع الفرح

سرْ في المنطقة الطبيعة فهي صحّيّة

احترس من الكرات الطائرة.

وكان قد قال بعد أن لاحظ نظرتي الحائرة:

ـ الشعار الأخير يخصّ ملعب الجيش الخاصّ بكرة الغولف. وقد أخبرني معلّمي ـ في رانشي حيث نشأت ـ إنّني موهوب حقًّا. وقد فزت بكلّ الجوائز الخاصّة بكتابة المقالة. وفي إحدى المرّات، كتبت مقالة عن نزهة في شلّالات داشام، وقال: «لديك موهبة حقيقيّة أيّها الشابّ أفيناش».. هذا ما قاله لي.

فقلت له:

ـ هذا صحيح يا سيّد شوهان. لا ينبغي لك أن تهدرها.

لكن، يبدو السيّد شوهان اليوم أنّه لا يتذكّر من أنا. فقد تكلّم إلى المدير وإلى الحاكم وهو يزمّ شفتيه ويقول:

ـ إنّ قليلاً من الإرشاد في الوقت المناسب لا يقدّر بثمن.

كان شارباه قصيرين يلوح عليهما التحكّم والتآمر، وعلى الرّغم من نحافته فإنّ كرشًا بحجم بطّيخة حمراء كان يندفع من تحت كنزته الزرقاء. وكانت أقاويل السوق التي ينقلها السيّد قريشي إلى صاحب ديوان يوميًّا تفيد أنّ شوهان جنى مالاً وفيرًا في الستّة أشهر التي قضاها هنا، كانت كافية لكي يشيّد له منزلاً من ثلاثة أدوار في لوكانو.

وقال المدير:

ـ كما أنّها خطوة جيّدة إذْ عزمت على استبدال الحواجز، لأنّ هذه الحواجز الصخريّة غير مرتّبة، وقد نمت الحشائش والنباتات بينها.

قال السيّد شوهان موجّهًا حديثه إلى الحاكم:

ـ كما أنّني سأضع المصاطب أيضًا، وسوف ترى أنّ رانيكهت ستصبح سويسرا الهند، أو في الأقلّ شيملا أخرى. كما أنّني في صدد وضع تلسكوب يمكن لكلّ فرد لقاء روبيّة واحدة أن يعيد ناندا ديفي ـ جي بوساطة عدسات مكبّرة. كما أنّني سوف أُعيد تبليط عديد الطرق.

كان المدير يغمغم: فهمت أيّها السيّد، فهمت، بعد كلّ عبارة يتفوّه بها السيّد شوهان ويتوقّف أثناءها توقّف المسؤول الحكومي.

وقال الحاكم الإداري:

ـ الطرق! هذه قضيّة ملحّة، وينبغي إنجازها في عجالة.

كان يبدو حسن الاطّلاع، ذا شأن. يحوم من حوله خادم في زيّ خاصّ، ويحمل صينيّة تتكدّس من فوقها فطائر صغيرة الحجم، ولكنّ الحاكم لم يلتفت له البتّة.

قال مدير الفندق مستفسرًا في صوت متردّد:

ـ وهل سيتمّ تبليط المول رود؟ أنت تدري أنّ السياحة يحلّ بها الدمار إن كانت الشوارع بائسة! لقد بُلّط هذا الشارع آخر مرّة قبل عشرة أعوام على حدّ علمي. لكن. . .

قال السيّد شوهان:

ـ ليس الآن، ليس الآن. إنّني أرغب في أن تكون جميع طرق رانيكهت معبّدة تعبيدًا جيّدًا، ميزانيّتنا لا تسمح لنا الآن إلّا بتعبيد جزء واحد من المول رود لأسباب إداريّة.

تنحنحتُ وقلتُ:

ـ آه لو تمكّنت من إصلاح الطريق الموصل إلى مدرسة القدّيسة هيلدا! إنّ الأطفال يعانون مشقّة كبيرة في الوصول إليها.

أخيرًا تنبّه إليَّ الحاكم ومضيفي، فقالا في صوت واحد:

ـ مدام، لا بدَّ أنّك. . .

وقال السيّد شوهان وقد أشرق وجهه في أنس ووداعة:

ـ سيّدة مايا، معلّمة في الدير. مواطنة لا تقدّر بثمن! تعلّم الأطفال كيفيّة إعداد المربّيات والهلام.

قلت:

ـ وهم يؤدّون الفروض المدرسيّة أيضًا، ولكنّهم يحتاجون أيضًا إلى مهارات مهنيّة عمليّة.

فتحت فمي لأسترسل في شرح الموضوع، ولكنّ الرجال انتقلوا إلى موضوع آخر: من هم مرشّحو الانتخابات المقبلة؟ بدأ المرشّحان المتنافسان الرئيسان على مقعد ناينيتال حملتهما الانتخابيّة. المؤكّد أنّ حزب بي. جَيْ. بي هو الذي سيخرج رابحًا، فقد آن الأوان كي يحكم الهندوس بلادهم. كانوا متّفقين على ذلك.

وقال مدير الفندق للحاكم:

ـ وهل سيتغيّر الوزير؟

فردَّ عليه الحاكم:

ـ لست سوى خادم الشعب، وينبغي لي أن أكيّفَ نفسي بحسب مشيئة الوزير.

ضحكوا جميعًا ورفعوا كؤوسهم تقليدًا لاحتساء نخب.. فصاحب الفندق الذي لم يكن على بيّنة من تقاليد وجبة الغداء، لم يوفّر المشروبات الكحوليّة. ولهذا قالوا: «في صحّتك» وهم يرفعون كؤوس الكوكا وعصير البرتقال. وقال لي معتذرًا إنّ زوجته ما تزال في دلهي، وهذا سبب الافتقار إلى قدر من النظام والترتيب. وأضاف أنّها سوف تأتي في غضون شهر واحد عندما يدفأ الجوّ قليلاً.

نظرت من حولي بحثًا عن صاحب ديوان، وعندما لمحته، كان يجلس خلف طاولة من البلاستيك تحت شجرة درّاق مزهرة بزهور بيض، ويغرف من كأسه من دون أن يحاول أن يكون حذرًا. وكان قد أتى مرتديًا قميصًا ذا لون أزرق غامق، بدا شعره الأبيض ولحيته البيضاء أشدّ بياضًا ومجعّديْن أكثر من المألوف، فبدت عليه مسحة من ناحيته. كانت زوجات الضيوف الآخرين، اللواتي كنّ يتّخذن مجلسهنّ في مجموعات منفصلة متباعدة قليلاً، يحتسين عصائرهنّ ويرمين الرجال بنظرات متململة. وقالت إحداهنّ أثناء مروري بها:

ـ ينبغي أن نحظى بحفلات غداء أكثر شريطة أن يحضرها أناس مختارون في عناية.

نظروا من حولهم نحو الحديقة المرتّبة ترتيبًا حسنًا، وعبّروا عن إعجابهم بالدقّة الهندسيّة التي تميّزت بها ألواح الأزهار، التي خُصّص

كلّ لوح منها للون واحد ونوع واحد من الأزهار، وزُرعت بينها أنواع من النباتات تزهر في فصل الصيف. كانت ثمّة ورود قد تفتّحت في ذلك الوقت في الأماكن المخصّصة لها مثل التوليب والزنبق والقرنقل، وقد ثُبّتت بأعواد ورُبطت بخيوط كي لا تتعرّض إلى التلف وتتناثر. ونهضت بعض النسوة من على كراسيهنّ لإلقاء نظرة إلى الزهور، ولكي يتباهين بثيابهنّ. وعندما مالت إحداهنّ لتشمّ رائحة التوليب، انفجرت رفيقاتها في الضحك، وهتفن:

ـ آه يا سيّد سود، هذه الزهور لا رائحة لها! فهي زهور توليب ومصدرها هولّندا، وقد سافرت إلى هناك ذات مرّة في رحلة نظّمتها شركة توماس كوك! يا لها من حقول مملوءة بزهور التوليب وكأنّها حقول أرز أو قمح ـ أمّا هذه الزهور فلا يمكن مقارنتها بها.

اتّخذتُ مجلسي بجانب صاحب ديوان الذي قال:

ـ هل اكتفيتِ بما شاهدتِ؟

ثم التمعت عيناه وغارت تجاعيده أكثر عندما ابتسم. أمّا أنا، فساورني إحساس بالارتياح من فوري، فمددت ساقيَّ وحرّكت قدميَّ وأسندت رأسي إلى مسند الكرسي.

قلت له:

ـ لماذا أتيت إن كنت لا تريد أن تلتقي أحدًا؟

أجاب:

ـ إنّني سعيد بلقياك أنتِ وحدك، لكن يبدو أنّني لا أراكِ أبدًا، لأنّك حتى عندما تأتين في أوقات العصر، فإنّك تتوارين من وراء إحدى الصحف.

بدأ الجنرال يتكلّم موجّهًا حديثه إلينا وهو يتقدّم نحونا وينقر على

الأرض بحربته التي يستخدمها مثل عصا المشي وإن كانت أطول منه. وكان صوته قد اكتسب منذ زمن طويل القدرة على الوصول إلى آخر صفّ من صفوف الجنود في أحد الاستعراضات:

ـ لم أقرأ الصحف قط. انظري إلى بصري، ممتاز! ما زلت قادرًا على قيادة السيّارة. لماذا؟ لأنّني لا أقرأ أيّ كتابة حجمها أصغر من حجم العناوين الرئيسة. أقول أن لا شيء سوى الفوضى والقنابل والإرهابيين في كلّ مكان. القراءة عن هذه الأمور مضيعة للوقت. قلت لشوهان أن يثبّت لوحة على شجرة قرب المدرسة المركزيّة تقول: «اعمل على تحسين بصرك، فلا تقرأ ولا تكتب»، قلت:

ـ لا تقترب من مدرستنا. إذْ يصعب ملء الصفّ بالتلاميذ.

عبس في وجهي، وقال:

ـ ماذا؟ من ـ آه، أنتِ يا مايا. أقول إنّ المستحسن أن تكون الصفوف خاليةً. إنّك تدمّرين فتيات القرية الجميلات بتعليمهنّ القراءة، فيصبحن فتيات يعوزهنّ التوافق الاجتماعي.

على الرّغم من أنّ مستوى رأس الجنرال كان بمستوى رأسين، إلّا أنّه كان واثقًا من سلطته. كان معتدلاً، وكما هو حال الجنرال في الرسوم المتحرّكة، كان شارباه كثّين، أبيضين ملتفّين من حافّتيهما. عدّل من قبّعته الخاصّة بكتيبة كوماون التي يضعها على رأسه، ورنا إلى المقعد الشاغر بجانبي.

أخرج صاحب ديوان زمزميّته من جديد، وقال:

ـ اجلس أيّها السيّد الجنرال. أعرف السبب الذي يجعلك مهتمًّا برفقتي على حين بغتة.

مال الجنرال بجسده ومدّ قدحه في اتّجاه زمزميّته، وقال:

ـ أين غلامك؟ ألم يأتِ؟ سمعت أنّه يسكن هنا الآن.

قال صاحب ديوان وهو يركّز انتباهه إلى سكب قطرات من زمزميّته في قدحه:

ـ لقد ذهب في شأن من شؤونه، يتجوّل، ويسمّي جولاته رحلات.

ـ الغريب أنّنا نرى بعد كلّ هذه السنين فتانا ڤير. اسمح لي يا صاحب ديوان أن أقول إنّه قريبك. هذا. ولكنّني أعرف هذا الفتى يا مايا عندما كان بهذا الحجم. وحتى عندما كان طفلاً. وكان كلّ طفل يضحك ملء شدقيه إلّا هذا الفتى؟ لم يضحك، بل لم يبتسم. لم أستطع أن أنتزع كلمة واحدة منه.

وأطلق الجنرال ضحكة مدوّية بعد أن احتسى أوّل جرعة من مشروب الرَّم، وقال:

ـ إنّه مثل عمّه، صحيح؟ موافق يا صاحب ديوان؟

جاء راميش متمهّلاً وربت على كتف الجنرال، وكان الرجل الوحيد في رانيكهت الذي يرفع الكلفة، وقال:

ـ أقول أيّها الجنرال إنّك أطلقت على بيتك اسم مأوى الجنرال، ولكن لا ينبغي للجنرالات الانسحاب(١) إلى مأواهم، بل عليهم أن يتقدّموا إلى أمام دومًا.

---

(١) يستخدم المتحدّث كلمة retreat التي تعني مأوًى أو انسحاب في الوقت نفسه. ولم يكن في الإمكان إلّا استخدامها بالمعنيين هنا توخّيًا للإيضاح، إذْ من غير المعقول أن نقول: أطلقت على بيتك اسم انسحاب الجنرال، ليتّفق المعنى مع السياق العامّ (المترجم).

تورّد وجهه بهجة وجذلاً. كان راميش اقتصاديًا متقاعدًا من هارفارد، وكان الكلّ يدعوه بلقب بروفيسور. يخاطب الناس مباشرة ويقول أمامهم ما لا يتجرّأ على قوله آخرون من وراء ظهورهم. كان يفلح في قولِ ما يريد بسبب روح الدعابة التي يتمتّع بها. وهنا جلس متنهّدًا ومدَّ يده إلى زمزميّة صاحب ديوان، وقال:

ـ ينبغي لنا أن نلتقي في المنزل في المرّة القادمة، فقد اشتريت كمِّيّة كبيرة من الجعة علامة كينغ فيشر من دلهي. ولديّ وصفة جديدة لطهي البرياني بلحم الضأن.

قلت:

ـ لم أعرف أنك تطهو الطعام.

ـ آه، لا.. يا مايا. أنا لا أطهو الطعام على وجه التوكيد.

ثم لوّح راميش بيده بإشارة كبيرة كأنّه يشير بذلك إلى لواء من الطهاة. وأضاف:

ـ لن أطهو البرياني إلّا على النحو الذي شيّد فيه شاه جيهان تاج محلّ.

وقف اللواء في الطرف الأقصى من الحديقة رفقة امرأة بدت ملامحها جادّة وغريبة عن المكان. كانت تطرح عليه سؤالاً مفاده:

ـ ماذا يحدث أيّها الجنرال إذا ما انتابت الشكوك جنديًا بشأن الحرب؟ ماذا يحدث لو امتنعوا عن خوض الحرب؟

قال اللواء:

ـ نحن نسمّي أمثال هؤلاء الناس روث ثيران. هذا ما نقوله. اللعنة على روث الثيران!

لمّت المرأة أطراف شجاعتها، وقالت:

ـ ما رأيك بكلّ ما نسمع اليوم يا سيّدي عن أفراد الجيش الذين يتحرّشون بالنساء ويغتصبوهنّ في الجزء الشمالي الشرقي وفي كشمير؟

قاطعها اللواء في نبرة حادّة سمعناها من الطرف الآخر للعشب:

ـ ثمرة فاكهة عفنة هنا أو هناك أيّتها السيّدة لا تتلف ثمار السلّة. إنّنا نعالج المنحرفين، معالجة أسرع من أيّ شيء آخر.

حاول مدير الفندق إبعاد المرأة قائلاً:

ـ آه، لماذا لا تتناول فطيرة أخرى؟ انظر إلى كلّ هؤلاء النساء قرب الزهور وهنّ راغبات في إطلاعك على شيء ما. لا بدَّ أنّك تتذكّر القاعدة، السياسة والحفلات لا ينسجمان. صحيح؟

نقر السيّد شوهان بإبهامه على الطاولة، وقال:

ـ سوف أثبّت هذه العبارة على أحد الألواح من فوري. ثمّة عبارة أخرى مفادها: السياسة قبل الطعام لا تفيدك في عمليّة الهضم. الحقّ أنّني سوف أعدّ هذه اللوحة وأرسلها لك لتثبّتها في بهو فندقك.

جرى طلاء البيت الريفي الذي كان مهجورًا يومًا ما وتنظيفه وتلميعه. وباتت النوافذ المقلقلة ثابتة في إطاراتها والسطح برّاقًا بطلائه الأحمر. وكان مدير الفندق قد تدرّب بفضل مهنته على تصميم بيت جميل: فأغطية الموائد بحافّات مخرّمة والزهريّات مملوءة بورود حقيقيّة، وأغطية المصابيح المنضديّة المعدنيّة تتدلّى من على الأشجار. وجرى بناء بيت من الطين للطيور، ولكنّه كان أصغر من أن يتّسع لذيل طائر الكندش الذي كان يبذل جهده من أجل الولوج فيه.. وكانت المظلّات الضخمة والمرفوعة والمصنوعة من الجنفاص تظلّل الموائد.

وكان ثمّة صبيّان يطوفان بين الناس حامليْن الصواني التي تحتشد من فوقها كؤوس الشراب والفطائر. ومدَّ أحدهما صينيّة لي، فجذبني وجهه الذي كان ينطوي على ذلك الجمال الصبياني الذي اشتهرت به اللوحات الإيطاليّة في عصر النهضة.

قلت:

ـ أأنت حديث عهد بهذا المكان؟

جفل الصبيّ عندما وجدني أكلّمه، فقال متلعثمًا:

ـ إنّني أذهب إلى حيث يذهب الصاحب.

كان صوته لا يناسب شكله، لا تنسجم قوّته وضآلة بدنه الغضّ. ورشقني بابتسامة كشفت عن أسنانه المعوجّة، وقال مضيفًا:

ـ إنّني كوندان سنغ. الحقّ أنّني لست حامل صواني بل طبّاخ.

وتكلّم راميش الجالس بجانبي قبل أن يتمكن كوندان من الاسترسال في حديثه:

ـ أتدري؟ يومًا ما كان لديّ طبّاخ ولكنّه ليس بطبّاخ. في بلدة لوكناو حيث أمارس التدريس. كان يدعى جورج، وهو أنكلو ـ هندي. وكانوا كلّهم قد اعتادوا الالتحاق بسكّة الحديد يومئذٍ، ولكن جورج كان طاهيًا، وسألته يومًا ما: كيف أُصبح طاهيًا يا جورج؟ لماذا لم تلتحق بسكّة الحديد، فأنت أنكلو ـ هندي. فهل تعرفين ماذا قال لي؟

قلت:

ـ أخبرنا.

تمهّل كوندان قليلاً واختلس نظرة تنمّ عن خوف من فوق منكبه،

خشية أن يتنبّه أحد إلى تردّده في الذهاب في سبيله.

ـ أتعرفين ماذا قال؟ قال إنّه أمضى حياته كلّها تقريبًا يسوق قاطرة.

وهنا ضرب راميش ذراع كرسيِّه وزمجر في جذل، وقال:

ـ هذا في الأقلّ يفسّر لنا السبب في كون طهوه من الدرجة الثالثة. ولكن ليست هذه نهاية الحكاية.

في هذه الأثناء أظهر كوندان ما يشير إلى أنّه سينصرف.

ـ ليست هذه نهاية الحكاية. لقد أنفق في قيادة القاطرات خمس عشرة سنة، وبعدها طردته شركة سكّة الحديد. أتدرون؟ كان في حيرة من أمره، فقد طلبوا منه أن يتخلّى عن العمل بعد كلّ تلك الخدمة الطويلة. لماذا؟ لأنّهم اكتشفوا بعد فحص طبّي أنّه مُصاب بعمى الألوان، وقال المسؤولون عن سكّة الحديد إنّ سائق القاطرة ينبغي أن يعرف الفرق بين الإشارة الحمراء والإشارة الخضراء. غير أنّ جورج استاء استياءً كثيرًا، وقال لي: أعرف يا سيّدي أنّ سائق القاطرة ينبغي له أن يفرّق بين اللونين الأحمر والأخضر، لكن بما أنّ الحياة كلّها ظلال من لون رماديّ، وبما أنّني كنت قادرًا طوال السنوات الخمس عشرة على أن أميّز الظلّ الأحمر من الرمادي عن الظلّ الأخضر، فإنّني أسألك يا سيّدي ما معنى عمى الألوان عند أولئك الذين يستطيعون مشاهدة ما يشاهدون؟ لكن هذا أمر مبالغ فيه! فلسفة مبالغ فيها من سائق قاطرة.. ولم أفهمها. يضاف إلى ذلك، أنّني عرفت سبب عدم جودة مذاق الطعام الذي يطهوه ـ فالرجل لم يكن يعرف متى يضيف الفلفل ومتى يضيف التمر الهندي أو الكمّون إلى الطعام. فالتوابل كانت تبدو برمّتها في نظره مسحوقًا أزرق اللون.

التقط راميش فطيرة خضراوات مقليّة من فوق صينيّة كوندان، وقال وهو يمضغ:

ـ ماذا كنت تعمل قبل الاشتغال في الطهو أيّها الرجل؟ فأنت لم تعمل في سياقة الحافلات أو في نظم الشعر. صحيح؟ من يدري؟

ثم التفت إليّ.

فغر كوندان فاه كي يجيب، ولكنّه رأى شيئًا ما، فأسرع في وضع صينيّته على الطاولة وهرع نحو أقصى الحديقة.

ثمّة ثلاث بقرات وجاموستان عند حافّة الحشيش وعلى مقربة من اللواء. وكانت الأجراس المتدلّية من رقابها ترنّ عندما تحاول أن تشرئبّ في اتّجاه أوراق الشجر المتدلّية من فوق رؤوسها. ورأيت غوري التي هدرت بصوت عالٍ عندما وصل كوندان سنغ إليها وضربها على كفلها وصرخ بها. غير أنّ غوري هزّت رأسها هزّة توحي له أن ينصرف ويتركها وشأنها، وهي تدرك أنّه رجل ليست لديه أيّ فكرة عن رعي الأبقار. جال كوندان سنغ ببصره من حوله بحثًا عن البستاني أو الحارس الذي يعرف كيف يعالج مثل هذا الموقف، ولكنّه لم يشاهد أيّ واحد منهما. في هذه الأثناء، قَدِم حامل الصواني الثاني للمساعدة في إبعاد القطيع عن الناس وعن الطعام، فأصبح هناك شابّان لا خبرة لهما يصيحان من دون فائدة. سارت إحدى البقرات أسفل السفح في حين اتّجهت جاموسة نحو إحدى الموائد، فابتعد عنها الجالسون من حولها من حَمَلة رتبة رائد ونقيب. وتوقّفت بعض المعزات عند طرف السفح ثم قفزت فوق الأعشاب لتنضمّ في لهفة إلى بقيّة القطيع. وشاهدتُ الصغير صاحب الساقين الطويلتين الذي كانت تسمّيه شارو بنكي، وقد ربطته بحبلْ أحمر وبجرس.

قال اللواء وهو يضحك ضحكة جافّة:

ـ يا لها من محطّة ألبان هنا يا شوهان. ماذا لو كانت رانيكهت في حاجة إلى غيرها من المحطّات؟

جال شوهان ببصره من حوله محرّكًا رأسه حركات قلقة بحثًا عن الراعي المسؤول. وتمكّن من رؤية المتّهم بالجرم من على بعد مسافة، وكان سانكي بوران عمّ شارو، وقد راح في نصف إغفاءة تحت أشعّة شمس فضّيّة بعد أن اتّخذ مجلسه فوق صخرة دافئة في مكان قصيّ من السفح المؤدّي إلى جهة بعيدة عن المنزل، وكان قد انهمك في التدخين الذي يحتمل جدًّا أن يكون مشوبًا بالمخدّرات. وكانت الغابة المحيطة ببوران مرصّعة هنا وهناك بزهور تفتّحت توًّا، وثمّة مجموعة من أزهار ثمار الخوخ على مسافة قريبة منه. وفيما عدا هذه المساحات اللونيّة، فإنّ ثيابه كانت تنسجم الانسجام كلّه مع النباتات بلونيها الأخضر والبنّي، فلم يتنبّه له أحد غيره. كان بوران يرتدي الزيّ العسكري المموّه باللونين الخاكي والزيتوني طوال السنة، لا يخلعه إلّا عند الاستحمام بضع مرّات عندما تشتدّ حرارة فصل الصيف. وفي فصلي الصيف والشتاء، كان يرتدي كنزة عسكريّة زيتونيّة اللون مزدانة بقطع جلديّة، ويظهر من خلال مساحاتها مرفقاه متألّقين تمامًا. أمّا بنطاله فقصير يرتفع خمس بوصات فوق كاحليه، وعلى رأسه قبّعة مسدلة على وجهه تحجب جزءًا من إحدى عينيه.

في هذه الأثناء، تجمّع حشد من المدعوّين إلى الحفل في وسط الحشائش، وبدوا كأنّهم لم يشاهدوا قطيعًا من قبل. ومضى الماعز مسرعًا في سيره نحو الصحون المهملة فوق الحشيش، وشرع يقضم الفطائر المقليّة ومناديل السفرة الورقيّة في استمتاع شديد. نفّذ بنكي حركات حلزونيّة دائريّة ووثب بالقرب من بيت الطيور ممّا أدخل البهجة

في نفوس الأطفال الذين كانوا يشاهدون التلفاز داخل المنزل طوال هذا الوقت. وطاف كوندان في أنحاء الوادي بحثًا عن شارو. ولمّا شاهد في آخر الأمر بوران، هرع إليه فوق السفح، وشعر بالارتياح وصاح:

ـ آه، يا بوران!

وأخيرًا عاد بوران إلى الحياة! وشعر أنّ ثمّة أمرًا ما، فما كان منه إلّا أن ارتقى سفح التلّ في اتّجاهنا وراح ينادي في صوت عالٍ على قطيعه. ويبدو أنّ الأبقار والجاموس فزعت واضطربت بسبب الصيحات التي كان يطلقها بوران وكوندان، في مختلف الاتّجاهات. ثم لمحت بريقًا بنفسجيًا ينبعث من فوق التلّ في سرعة خاطفة: شارو.

تنحّى اللواء عن طريق جاموسة، وقال مخاطبًا مضيفه المرتبك:

ـ إن كانت للمرء حديقة مملوءة بالأعشاب، فإنّها تصبح قضيّة صعبة. إيه؟ أنت في حاجة إلى عدد أكبر من العاملين والمستخدمين وإلى سياج. لا بدّ من سياج. ما الفائدة من لوحات الدلالة التي تحذّر المتجاوزين على الأراضي بأنّهما سيعرَّضون للمساءلة القانونيّة؟ هل يمكنك رفع قضيّة على بقرة.

ثم ابتسم للحاضرين ابتسامة عريضة، فقال السيّد شوهان:

ـ كلام جميل يا سيّدي.. كلام جميل!

وقال راميش:

ـ لا، لا أيّها اللواء! إذا ما وضعنا قضيّة قدسيّة الأبقار جانبًا، فإنّها تجزّ العشب جزًّا طبيعيًا. وتلك أفضل طريقة لاستخدام الموارد. اثنتان بسعر واحدة. إنّها تحصل على طعام لذيذ ما دام العشب متوافرًا عندك.

كانت محاولات بوران أكثر نجاحًا من محاولات كوندان، إذْ بدأت الأبقار تتّجه في سيرها نحو الوادي حيث كانت تقف شارو في هذه اللحظات. فرقع بوران لسانه على أسنانه وهو يحثّها على المضيّ قُدُمًا. أمّا اللواء ومدير الفندق والسيّد شوهان، فقد وقفوا موقف المتفرّج، متظاهرين أنّهم ليسوا مستندين إلى المرآب، في فخّ نباتات الورود الشائكة من جهة وباب المرآب من جهة ثانية. ولاحظ صاحب ديوان الثلاثة، فابتسم ابتسامة وحشيّة وتمتم في صوت خافت:

ـ عظيم.

في هذه الأثناء، أطلقت النساء الصيحات المهلّلة لحثّ الأبقار على الابتعاد. وهنا، وضع اللواء منديلاً على أنفه وقلّده الثلاثة الآخرون عندما انبعثت رائحة بوران النتنة بسبب عدم الاستحمام.

وسأل اللواء السيّد شوهان وسط الضحكات وضجيج الأبقار:

ـ ما سبب ارتداء راعي البقر هذا الزيّ العسكري؟ من أين حصل عليه؟ هل مخازن الجيش في مأمن؟ ينبغي تقصّي هذا الأمر.

وكان أثناء ذلك قد ابتعد عن القطيع واتّجه نحو السيّد شوهان وهو يتابع كلامه، من دون أن ينتبه إلى عجل صغير يبغي توجيه رفسة له أثناء مروره به، فما كان من اللواء إلّا أن صاح في صوت حادّ وقفز جانبًا، ولمّا شعر بالحرج والخجل من تصرّفه، قال:

ـ يا للبقرات! إنّ بقرات التلال وحدها هي التي ترفس على هذا النحو. حيوانات متوتّرة.

ثم اختلس نظرة من حوله إن كان ثمّة من يضحك منه، ولكنّ الحاضرين كانوا قد التزموا الصمت والهدوء بغتة. وحدّق مدير الفندق إلى القطيع في ذعر وهلع بعد أن رأى الأبقار تمزّق أغطية الطاولات

الورقيّة إرْبًا إرْبًا، وكانت نتف من هذه الأوراق قد استقرّت على العشب من حوله.

وفقد السيّد شوهان رباطة جأشه، وصاح في اتّجاه بوران:

ـ كفى! لقد بلغ السيل الزبى! سوف أحبسك، أنت وأبقارك وماعزك اللعينة!

وعندما أبصر الناس يرنون إليه، خفّضَ من صوته، وقال مخاطبًا اللواء:

ـ منذ أن نُقلت إلى هذه المنطقة، كنت أشاهد كلّ يوم هذا المخبول جالسًا في مول رود مرتديًا تلك البزّة القذرة، يطعم الكلاب السائبة.. وكنت أقول: هل هذا هو الأسلوب الصحيح؟ هل يجوز هذا؟ شعرت بالرأفة نحوه لأنّه فقير الحال، ولكن ليس بعد هذا اليوم يا سيّدي. ولا حتى ليوم واحد! سوف أعالج القضيّة في سرعة متناهية.

سار بوران من أمامهم من دون أن يفهم شيئًا، وقال محييًا تحيّة بائسة بلمسة من يده إلى قبّعته الصوفيّة، وشبك يديه:

ـ مرحبًا أيّها الصاحب.

كان أجشّ الصوت وكأنّه قادم من أعماق برميل. ثم هرع من خلف الأبقار والماعز وانسحب انسحابًا بطيئًا حتى لم يعد في إمكاننا رؤية سوى طرف قبّعته الأعلى.

كانت شارو ما تزال في الوادي، صغيرة الحجم بسبب بعدها عنّا، ترفع من بصرها إلى أعلى التلّ في اتّجاهنا، وإلى كوندان سنغ مباشرة الذي كان يبذل جُهوده مع بنكي التي لبثت تقضم آخر قطعة من

غطاء المائدة. قبل أن يدخل كوندان حياة شارو، كان عمّها بوران أقرب أصدقائها، وكان عاجزًا عن الدفاع عن نفسه مثل طفل. هكذا كان على الدوام. كان في وسعه أن يكلّم الحيوان، غير أنّ الأهالي كانوا يتركونه مرتبكًا ومتلعثمًا. وكان يتولّى مهامّ دفن الخفافيش والطيور دفنًا رقيقًا، ويترك القرود تلتقط القمل من رأسه. ربّما رأى الناس فيه مجنونًا، ولكنَّ شارو كانت تقف إلى جانبه إذا ما سوّلت لأحدهم نفسه أن يزعجه أو يصفه بالمجنون.

وهي الآن تهزّ بوران من كتفيه وتوبّخه بسبب إغفاءته، في حين كان ينبغي له أن يظلّ يقظًا. وحمل نسيم الجبل العليل صوتها إلينا:

- إنّهم على حقّ إذا ما وصموك بالجنون ما دمت لا تقدر حتى على السيطرة على بضع بقرات! قلت لك لا تدعها تذهب إلى الحديقة بعد اليوم!

ثم هرعتْ نحو الوادي، وارتقت السفح من الجانب الآخر، تضرب غوري جوشي بعصاها، وهو ما لم أرها تفعله في ضرب أيّ حيوان من قبل.

* * *

١١

على بعد ستّة كيلومترات تقريبًا من أمجاد المعسكر البالية أسفل التلّ، يمتدّ مركز بلدتنا التجاري، وهو السوق الرئيس. وكانت البيوت متراصّة في خمسة صفوف على سفوح تلّ السوق، منحدرة إلى أسفل. وكان أحدها فوق الآخر تربط بينها أزقّة ضيّقة وقذرة ومجاري تصريف مياه مفتوحة وعفنة. وكانت الأدوار الأرضيّة من الصفّ الأمامي تحتوي على دكاكين بمصاريع خشبيّة ورفوف صنعت من خشب رخيص. ويمكن لك أن تشاهد من خلال أبواب الدكاكين إسكافيًّا يرتق نعالاً وزجَّاجًا يقيس الزجاج لصنع إطارات الصور. وثمّة رجل يدعى بهيم سنغ جالس ومحاط بالحديد والنحاس في دكّانه طوال النهار، يبيع كلّ شيء بدءًا بالقدور وانتهاءً بالمسامير والمطارق. وهناك أيضًا الأعور غوبال رام مصلّح الساعات التي تبلى دومًا من ثيابنا. وتجد أيضًا السكّير الذي ترشح عيناه بالدمع وعلى رأسه قبّعة يرتقها في مهارة يصعب معها الاستدلال على القبّعة الجديدة من القبّعة القديمة. وثمّة عدد كبير من القرويين أمام الدكاكين يبيعون منتجاتهم من أكياس

الخيش والعربات اليدويّة. وكان ثمّة رجل لديه كيس جنفاص وقد ملأه بالبصل. وثمّة رجل آخر يبيع الطماطم أو البرتقال التالف. وترى الحمّالين يجهدون في غدوهم ورواحهم بين السيّارات وحشود البشر، ينحنون من تحت أسطوانات الغاز والأقفاص والصناديق المعدنيّة التي يحملونها على أكتافهم. ثمّة مضخّة وقود وورشة تصليح سيّارات السيّد قريشي، ومخبز بيشت الذي ترتفع على واجهته لوحة كتب عليها «نحن نخبز الذكريات». وفي سوق الجملة، تُرشُّ الخضراوات بالماء لتبدو طازجة أكثر ممّا هي عليه حقًّا، ولهذا تجد الأرضيّة الكونكريتيّة زلقة بمائها وقشورها العفنة. ويقع دكّانا الجزّارين وراء هذه السوق، فيسرع الناس إليهما من أجل الحصول على رؤوس الماعز الذبيحة ذات العيون الرخاميّة، وهي أرخص أنواع اللحوم التي يمكن للمرء أن يشتريها.

ويقع معمل مربّى المدرسة في فناء الكنيسة في منطقة المعسكر، ولكن مدرسة القدّيسة هيلدا تقع في أحد شوارع السوق الخلفيّة، وكنت أسير كلّ يوم تقريبًا من أيّام الأسبوع لحضور اجتماعات الهيئة التعليميّة ولتعليم التلاميذ الصغار. وعندما دخلت البوّابة في صباح أحد الأيّام بعد حفلة مدير الفندق، وجدت الآنسة ولسون تخوض نقاشًا حاميًا مع شابّين أوقفا سيّارتيهما ضمن مجمّع المدرسة. وكانت تخاطبهما بصوت رنّان:

- إنّ إيقاف سيّارتيكما ينطوي على خطر يحدق بالأطفال، فهذا المكان مخصّص لهم كي يمارسوا ألعابهم فيه، وكان ينبغي لكما أن تفكّرا أكثر قبل وضعها في هذا المكان، خاصّة أنّك كنت تلميذًا في هذه المدرسة يا ديباك بيشت.

قال المدعوّ ديباك بيشت بنبرة نصف عابثة ونصف متوسّلة:

ـ إلى أن تحين الانتخابات يا سيّدة أغنس!

كانت ثمّة أشهر محدّدة لموعد الانتخابات، ولكنّ الحملة الانتخابيّة كانت قد بدأت منذ وقت مبكر، وأحد المرشّحين عليها كان من بلدة رانيكهت. ومضى يقول:

ـ من فضلك أيّتها السيّدة، ليس ثمّة فسحة على الطريق.

ثم أشار بيده إلى الخارج وكأنّه يريد أن يؤكّد ما يقول. وفي تلك اللحظة، قدمت حافلة وسيّارة جيب من اتّجاهين متعاكسين وأصبحتا حدّ التماس، يكاد طلاؤهما أن يتعرّض إلى الخدش بمقدار شعرة واحدة. ومن ورائهما، امتدّ صفّ طويل على مدّ البصر، من السيّارات ودرّاجات الأطفال برجل واحدة، وعلى كلا جانبي الطريق الضيّق الذي اختنق بها.. وكانت كلّها تطلق أبواقها للإسراع في فسح الطريق على الرّغم من عدم إمكانيّة عمل أيّ شيء. والهواء يعبق بأبخرة الوقود والسخام!

وقال الرجل الآخر، وهو يصيح في خضمّ الجلبة والضوضاء:

ـ ما هذا الذي تقوله يا ديباك: «من فضلك، من فضلك!» لا بدّ لنا من إيقاف هاتين السيّارتين.. وهذا كلّ شيء! وليس في وسع السيّدة أن تفعل شيئًا للحيلولة دون ذلك.

مسحت الآنسة ولسون وجهها بمنديل مطويّ، ثم وضعته في خصرها، وقالت:

ـ اليوم سيّارتان، وغدًا عشرون سيّارة. كيف أمنع ذلك؟ ثم هزّت رأسها واستأنفت كلامها:

ـ أبعدا هاتين السيّارتين من هنا. أبعداهما على الفور.

ثم أشارت إليَّ كي أتقدّم نحوها ولا أتدخّل، ومضت في سبيلها قبل أن يمضي النقاش في سبيله العقيم. وبدت خائفة واعتدائيّة في الوقت عينه، وكانت تعلم جيّدًا أنها لن تفلح في مسعاها، وكانت، مثلنا جميعًا، حذرة ومحترسة من قوّة منتسبي الحزب الفوضويّة في خضمّ الحملة الانتخابيّة، عندما غزا بلدتنا الصغيرة، التي يعرف كلّ فرد فيها الآخر من خلال الشكل والمظهر، غرباء يقودون درّاجاتهم الناريّة ويحملون مكبّرات الصوت. وكنّا قد قرأنا في الصحف أنّ بعض السياسيين التافهين في بلدة بيهار يستولون على أيّ مركبة تعجبهم ولا يعيدونها إلى أن تنتهي الانتخابات أو تتلف المركبة!

ضرب الرجل الآخر ديباك على منكبه، وقال في دماثة:

ـ يا لها من عاهرة! إنّك لم تخبرنا أنّك كنت تدرس في مدرسة نصرانيّة. ينبغي لنا أن نطردك من الحزب.

ثم ضحك وأضاف:

ـ يتعيّن مراقبتك مراقبة دقيقة يا صاح! من يدري؟ إنّ اتّجاه الريح يغيّر من لونك، من الأصفر إلى الأخضر.

تيبّس ظهر الآنسة ولسون وتوقّفت من الدهشة وكأنّها تسمّرت إلى الأرض. استدرت نحو الرجلين، وقلت:

ـ نصف أعضاء حزبك تخرّجوا من مدارس كهذه المدرسة. ما مشكلتكما؟

وتفوّهت بكلمة «منافقون» بأعلى صوتي كي يسمعاها، ودقّ قلبي دقّات عنيفة جعلتني أشعر أنّ أنفاسي تقطّعت. لم أسع طوال حياتي إلى افتعال شجار، ولكنّني لم أعرف ما الذي استبدّ بي.

التفت إليَّ الرجل الضاحك وقد لاحت على وجهه أمارات دهشة مصطنعة. وعندما تكلّم، جاء صوته بطيئًا وداعرًا:

ـ لماذا تتدخّلين أيّتها السيّدة في أمور لا تثير حفيظتك؟ أنتِ لستِ واحدة منهنّ.

بدأت أتصبّب عرقًا على الرّغم من برودة الجوّ، وكانت يداي باردتين ودبقتين، وكنت أرى وجهي منعكسًا في نظّارته الشمسيّة، مشوّهًا وصغيرًا، مقطّبًا وتعصف به الريح. عاجزًا.

رمقني ديباك بنظرة اعتذار وحاول إبعاد الرجل الآخر عنّي. ربت على كتف رفيقه، وقال:

ـ لنذهب، فقد داهمنا الوقت، ولا بدَّ لنا من تثبيت كلّ هذه الشعارات.

استدار الرجل الآخر كي ينصرف، ولكنّه رمقني بنظرة أخيرة وعبس، وقال:

ـ إنّهنّ معلّمات، نساء، سأتركهنّ وشأنهنّ. ما من ابن... يفتعل شجارًا معي.

لوّحت الآنسة ولسون الواقفة على مسافة قصيرة منّا بعصاها في وجه أطفال يرتدون زيًّا أبيض وأزرق، وصاحت:

ـ ادخلوا! ادخلوا أيّها الأطفال! ثمّة سيّارات في هذا المكان الآن، ولا يمكنكم اللعب.. وأنت يا مايا، اقرعي الجرس، فقد نسي الحارس أن يقرعه وقد تجاوزت الساعة التاسعة بقليل. ماذا دهاكم أيّها الناس؟

* * *

كنتُ الطفلةَ المدلّلة لوالدي طوال سنيّ طفولتي. وكان قد تخلّى

عن خيبة أمله في عدم إنجابه طفلاً ذكرًا، وبدأ يتباهى بي، فأنا طفلته الوحيدة، الفتاة التي فازت بكلّ جوائز المدرسة، البنت الوضّاءة بالبهجة والسعادة. وعندما يعود أدراجه من العمل، كان ينادي عليَّ من الباب. وعلى الرّغم من ساقه اليمنى المصابة، إلّا أنّه كان يرفعني عن الأرض ويرمي بي إلى أعلى وأنا طفلة صغيرة، ويقول:

ـ والآن قولي لي أيّتها الأميرة، من قتلتِ من العمالقة اليوم؟

وعندما كبرت قليلاً، كنت أخرج وإيّاه في جولاته في معاملنا. وفي إحدى المرّات، ولم أكن قد تجاوزت سنّ السابعة، أخرجني من الشبكة الطباشيريّة للعبة الحجلة وعرّفني إلى بعض البالغين متباهيًا في حركة شبه مسرحيّة قائلاً:

ـ أعرّفكم بأميرة مخلّل بيغامبيت! يومًا ما سوف تصبح أوّل قوّة صناعيّة أنثويّة في هذه البلاد.

وكان أبي لا يكلّمني إلّا باللغة الإنكليزيّة لأنّه كان يعتقد أنّها لغة النجاح، حتى وإن كان هذا يستبعد أمّي التي تتكلّم لغة أخرى من أحاديثنا. كنتُ مهيّأة منذ الرضاعة كي أفهم أنّني الوريثة. وعندما اعترضت أمّي في أحد الأيّام قائلة:

ـ سوف تتزوّج، وعندئذٍ لن تظلّ ابنتك وسوف تعيش حياتها الخاصّة بها، وقد ترغب في أشياء أخرى.

غير أنّ أبي نهرها في حدّة:

ـ سوف تعيش هنا وتدير التجارة، وسوف أرتّب زواجها من رجل يعيش بين ظهرانينا. لماذا أدّخر كلّ هذا المال إن لم يكن من أجل أحفادي؟

ظلّ يحدب عليَّ إلى أن بلغت سنّ المراهقة. وكانت سيّارته تتوقّف فأسمع صوت وقع خطواته على درجات السلّم وبعدها يتناهى إلى سمعي مناداته باسمي، فكنت أضع كلّ ما في يدي جانبًا وأهرع إلى الباب الرئيس لأفتحه وأناوله كأس ماء جوز الهند العذب. ولكنّ السنوات التي أنفقتها في الدراسة الثانويّة والدروس الإضافيّة التي كنت أتابعها في المدرسة هي التي أبعدتني عن البيت، وراحت حياتي الرتيبة تتغيّر حتى انتهت في نهاية المطاف.

أستطيع أن أرى الآن أنّ والدي بدأ يشعر أنّني أضيع منه، وأنّ كلّ ما فعله لم يكن سوى وسيلة من أجل وضع المتاريس من حولي واستعادة أيّامنا المفقودة التي كانت ترفل بسعادة رخيَّة عندما كنت تلميذة مطيعة وكان هو معلّمي الذي لا يضاهيه أحد. كان يلحّ عليّ أن أُنفق ساعات وإيّاه في تدقيق حسابات المعمل بعد انتهاء دروسي في المدرسة. وكانت أيّام العطلات تقتضي الذهاب إلى المعمل في صحبته وتعلّم المهنة. وكان يردّد وهو ينقر عصاه ذات الرأس الفضّي على الأرض:

ـ لا شيء يوازي تعلّم مهنة. أخرجي رأسك من بين السحب يا مايا، فالحياة لا تنقضي فوق السحاب!

عندما كنت مراهقة أشدّ شعري بهيأة ذيل الحصان، جعلني في مناسبتين اثنتين أجلس من وراء منضدة كتابته اللامعة والكبيرة. وكنت محتاجة إلى وسادة أضعها من تحتي كي أرتفع إلى المستوى المناسب، ثم أستدعي عاملاً بائسًا لأخبره أنّه مطرود من العمل. وإذا كنت قد توجّست شيئًا من هذا الإجراء، وحاولت أن أخفي مشاعري عنه، فإنّه كان يرغمني على الخروج من البيت وركوب سيّارته، ليقول:

ـ لن تصبحي سيّدة من سيّدات الأعمال ما لم تتعلّمي الصراحة في العمل، وتكوني امرأة فولاذيّة في أعماقك.

وكان أثناء القيادة يلقي عليَّ محاضرة على امتداد الطريق:

ـ الأعمال التجاريّة تعني اتّخاذ قرارات من أجل المصلحة العامّة، والتخطيط بعيد المدى. إنّ الرجل الذي طردته من العمل لم يعد ذا نفع لنا في العمل، ومرتّبه هدر لأموالنا. كان لا بدّ من اتّخاذ ذلك الإجراء. أتظنّين أنّني أحبّ طرد الموظّفين؟ انظري إلى هذا التصرّف بوصفه شهادتك في الإدارة يا مايا، وهو يعلّمك أكثر ممّا تعلّمك إيّاه أكاديميّة الأعمال.

بعد تلك المواجهات، كنت أعود إلى ركن من أركان حديقتنا، أخلو فيه لنفسي قرب شجرة شيكو مع الكلبة السائبة وصغارها. ولم أنسَ أن أحضر معي طعامًا للكلبة وحليبًا لصغارها، وأجلس بينها، ساعات طويلة تاركة الصغار تتحسّس يدي، والإحساس يتملّكني بأنّني استعدت أطرافي واحدًا تلو الآخر وعضلة تلو العضلة على أثر ابتهاجهم من فوق ورقة شجرة ميتة أو هضبة أرض رخوة يستطيعون حفرها.

احتقرت نفسي لأنّني لم أستطع أن أتجرّأ وأقف إلى جانب بوران أثناء الحفلة عندما هدّده السيّد شوهان. وقد احتجّ راميش على ذلك، فلماذا لم أحتجّ بدوري خاصّة أنّ بوران كان جزءًا من «أسرتي»؟ لم يتعارض عالمي من قبل على هذا النحو. وإذا ما حدث وتعارض العالمان، فإنّني لم أكن على مستوى ذلك التعارض. وفي المواجهة التي هدّد الرجلان الآنسة ولسون في هذا اليوم، فكّرت في أنّني لو واجهت خطرًا حقيقيًّا مؤذيًا لكنت قد تصرّفت تصرّفًا شجاعًا، في حين

أنّ تلويحهما باللجوء إلى العنف جعل فرائصي ترتعد خشية على نفسي.

ذهبت في عصر ذلك اليوم إلى كوخ الشاي القريب من معبد جهولا ديفي الذي كان معبدًا مملوءًا بآلاف الأجراس البرونزيّة البرّاقة، الكبيرة والصغيرة، المثقلة بالأماني والرغبات على مدى عقود من الزمان. وكانت منتشرة في كلّ مكان: متدلّية من السقوف والنوافذ والأبوابَ وحواجز السلالم والجدران المرتبط بعضها ببعض بقطع سلكيّة وخيوط وأقمشة حمراء وذهبيّة باهتة وأشرطة لمَّاعة. كان المعبد موغلاً في التقدّم، يأتي إليه الأهالي عند الحاجة فيربطون فيه هذه الأجراس البرونزيّة كي تتحقّق أمنياتهم.

لم يكن لي أيّ جرس من تلك الأجراس، لكن هذا المعبد حلَّ محلّ شجرة طفولتي، وكانت الغابات المحيطة به من أشجار البلّوط والكستناء والرود ندرون غاية في الكثافة، شديدة الظلمة، حتى إنّني عندما كنت أجتازها، كانت السماء تتضاءل لتصبح أشبه بشريط رفيع كالشارع من فوق الرؤوس. وقد أدهشتني أعمدة المعبد الزرقاء الصغيرة والفناء الذي تحتشد فيه الزهور، وكنت صديقة بنات الكاهن اللواتي كنّ يجلسن خارج المعبد يحبكن تحت أشعّة الشمس. وكانت إحدى أولئك البنات تعمل عندنا في وحدة صنع المربّى والهلام. وكان ثمّة كلب في المعبد اعتدتُ أن أطعمه سكّر نبات مطحون، وأنتظره كي ينبح نباحًا ينسجم ومحارة الكاهن. كان صوت المحارة يذكّرني بمعبد لطالما زرته رفقة والدتي في مدينة حيدرأباد.. كنت ألتقيها في ذلك المعبد، من دون أن يعرف والدي، بعد أن تركت المنزل. أجلس وإيّاها في الفناء الحجري خارج مبنى المعبد، تشتري لي مجموعة من زهور البرتقال من الباعة الجائلين خارج البوّابة، تزيّن بها شعري وتقول:

- كوني قويّة. في اللحظة التي تُرزقين فيها بطفل، فإنّه لن ينتظر يومًا واحدًا، وسوف يطلب منك أن تكوني ابنته من جديد.

وكانت في كلّ مرّة تبتاع لي قطعة مجوهرات من علبتها الخاصّة وتحشرها بين يديّ من دون أن تنبس بكلمة.

أعدَّ لي الصبيّ الذي يدير كوخ الشاي في جهولا ديفي طبقًا من المعكرونة يعلوها بصل مقلي وقطع من الفلفل الأخضر وقدحًا من شاي الزنجبيل. وفي الوقت الذي انشغلت بتناول الطعام، شاغل هو نفسه هنا وهناك، واستعرض أمامي آخر الأخبار عن حرائق الغابات وتجهيز المياه ورؤية النمر. وزعم في كلّ مرّة أنّه شاهد نمرًا، وأحيانًا مجموعة من النمور. وكان يردّد في وقت تبدو النمور اعتياديّة لا تتطلّب أيّ مباهاة أو تفاخر:

- قبل أن تأتي مباشرة، لم يمض على ذلك أكثر من خمس دقائق! أعرف أنّهم يقولون إنّ الهند ليس فيها نمور سود، ولكنّني شاهدت نمرًا أسود اللون يتربّع في هذا المكان، في منتصف هذا الطريق، أسود مثل الفحم باستثناء بقعة بيضاء في ذيله. أمّا عيناه، فكانتا خضراوين متألّقتين. كما أنّني شاهدت نمرًا آخر، ليس مرّة واحدة، بل مرّتين، وكان قادمًا من الغابة في الليالي التي ينيرها البدر، موسومًا بعلامات مربّعة وليست دائريّة.

كان الصبيُّ يضطرّ إلى أن يرفع صوته كي أسمعه في ذلك المساء، لأنّ أصداء الأغاني المنبعثة من مكبّر الصوت غطّت على صوته. ولم يكن الغناء يصدر من معبدنا، بل من معبد آخر أبعد مسافة، حيث اتّخذ فيه أحد الصالحين مقرًّا له. وجاءت سيّارة جيب وأفرغت حمولتها من مجموعة حديثة العهد من الشمّاسين الذين ارتقوا التلّ وذهبوا إلى

معبده. وكان الطريق إليه يحتشد بالشعارات والأكاليل.

وقال الفتى عندما سألته عن سبب الضجيج:

ـ بدا كلّ شيء مبكرًا في هذه المرّة، وهو ليس تمهيدًا لاحتفال دينيّ ـ لقد جاء الأب من أجل الانتخابات، وسيمكث هنا في الشهور الستّة المقبلة.

كانت ابتسامة الفتى عريضة ومشرقة لا يشوبها أيّ اضطراب، وأضاف:

ـ إنّها فرصة عظيمة لرواج الأعمال، شريطة أن تستمرّ!

* * *

١٢

لا يتذكّر سانكي بوران أنّ بقرته عزمت على رفس اللواء، ولكن رقبة السيّد شوهان كانت تنبض في توتّر وإعياء في كلّ مرّة كان يسمح فيها لأفكاره بالعودة إلى تلك الحفلة. وكان عازمًا منذ ذلك اليوم على مواجهة بوران في كلّ منعطف: ذلك النتن والقذر والعار. الأكثر من هذا، أنّه كان يرعى حيواناته في تلك السفوح نفسها حيث ثبّت السيّد شوهان الشعارات باللغتين الهنديّة والإنكليزيّة محذّرًا فيها بفرض غرامة ماليّة على الرعي غير القانوني! ولم يعرف بوران شيئًا عن هذه الشعارات لأنّه كان يجهل ألفباء اللغتين، ولكنّه من جهة أخرى، رحّب باللوحات المعدنيّة لأنّ الأعمدة التي ثُبّتت من تحتها وفّرت أماكن ثابتة يُشدّ إليها القطيع بحبل فترعى في هدوء.

كان السيّد شوهان طوال حياته العمليّة ناقمًا بسبب الافتقار إلى النظام والإحساس بالمواطنة والعمل الجادّ في أوساط مواطنيه، ولكنّ الشيء الذي رآه من حوله في البلدة الواقعة على سفح التلّ يفوق كلّ ما أثار امتعاضه من قبل، إذْ لاح الأهالي له وكأنّهم في إجازة دائميّة

طوال الوقت. ففي ما خلا السكر الذي استبدّ بهم حتى الثمالة أو الهذر والقيل والقال من حول منقلة الفحم التابعة لبائع الفول السوداني، فإنّ السيّد شوهان لم يشاهدهم يفعلون أيّ شيء. وكان سانكي بوران أشدّ الناس إثارة لأعصابه، حين يقول لزوجته:

ـ إنّه ليس كسولاً أو مشاكسًا أو محبًّا للخصام، بل هو كسول ومشاكس ومحبّ للخصام في بزّة عسكريّة «ولكنّني قرّرت ما ينبغي فعله في بداية الأمر!».

كانت زوجته تشاهد ذلك البريق المألوف في عينيه وتبتسم. وكان يعرف حقًّا كيف يغيّر من الأحوال. وتذكّرت كيف أنّهما أوفدا ذات مرّة إلى بلدة معسكر في أوتار براديش، حيث كان عمل فيها موظّفًا إداريًّا «مسؤولاً عن كلّ شيء، بدءًا بنور المصباح والماء في الصنبور وانتهاءً بالاحتفاظ بنظافة المعسكر وخضرته». وكان مفهومه عن النظافة يتضمّن إصلاح أخلاق الشباب، فابتكر خطّة جديدة، وأرسل رجال الشرطة إلى كلّ الحدائق العامّة في منطقة المعسكر، وكلّما رأى هؤلاء المراهقين يتغازلون، يفجأونهم ويلتقطون لهم الصور، ثم يطلبون منهم تزويدهم بأسمائهم وعناوينهم، مهدّدين بإبلاغ ذويهم عن «نشاطاتهم اللاصفيّة»، بحسب تعبير السيّد شوهان. وكان السيّد شوهان قد هدر في وجه شابّ وشابّة في أوّل غارة له قادها بنفسه ليبيّن لرجاله كيفيّة ممارسة مثل هذه الغارات:

ـ ينبغي لكما الانشغال في الدراسة وليس في ممارسة الأعمال الشائنة في الحدائق.

وقد حكت السيّدة شوهان هذه الحكاية عن أسلوب تفكير زوجها المبتكر لعدد كبير من الناس في بلدة رانيكهت، وأخبرتهم أنّها متأكّدة

من أنّه فكّر في شيء مبتكر مماثل ونموذجي لراعي البقر المجنون.

وكان الحدث الذي وقع بعد الحفلة ببضعة أيّام قد أصاب رأس بوران بالدوار. كان الوقت منتصفَ النهار تقريبًا، وبوران يجلس عند حافّة السفح على مقربة من أبقاره. وقد ربط العجل الصغير غانغو ذا العينين الواسعتين والحزينتين إلى شجرة، وكان العجل الحديث الولادة عاجزًا عن الرضاعة من ضرع أمّه على نحو كافٍ. جلس بوران من بعد ذلك على عجيزته يدخّن الأعشاب، وكانت شارو على بعد مسافة قصيرة، فوق شجرة بلّوط باسقة تقطع العلف مستخدمة منجلها. رأت الرجال الأربعة يقتربون من بوران، ولكنّها واصلت قطع أوراق الشجر من دون أن تتخيّل لحظة واحدة ما الذي ينوون فعله.

من دون تحذير، شعر بوران بيدين غليظتين من فوق منكبيه وأصوات جافّة في أذنيه تملي عليه تعليمات لم يدرك كنهها. ولم يشاهد سوى وجوه غير واضحة، ضاحكة، وأياديَ تحمله وتضعه في سيّارة جيب، وكان ردّ فعله أصواتًا حادّة ومذعورة تشبه أصوات الحيوانات، عندما تحرّكت السيّارة وانطلقت من فوق المنعطفات والسفوح في سرعة عظيمة. صفعه الرجال على أذنيه وصرخوا به:

ـ اخرس أيّها الحمار! أيّها المغفّل!

ثم أوقفوا المركبة ودفعوا به خارجًا ونزعوا عنه ثيابه وألقوا به تحت حنفيّة ماء على قارعة الطريق. وشعر بالماء البارد يوخزه. ثم رموا إليه بقالب صابون أخضر لمّاع، فارتجف من شدّة برودة الهواء غير المتوقّع على جسده شبه العاري، وتألّم، وأمسك بالصابونة لا يدري ما يفعل بها!

حاول أحد الرجال، وكان أكثر رقّة من الآخرين، أن يخبره بشيء

ما، ولمّا لم يلق منه جوابًا، شمَّر عن ساعديه، وانتزع الصابونة منه وبدأ يدلكه، في حين هتف بقيّة الرجال ضاحكين وضربوا على سيقانهم وصاحوا:

ـ أمّاه! أمّاه! اغسليه جيّدًا!

اصطكّت ركبتا بوران وشبك يديه من فوق منفرج ساقيه، في حين تجمّع عدد من الأهالي، وانتظر بعضهم حاملين الدلاء والأوعية الفارغة قرب الصنبور. ولم يتجرّأ أحد منهم على الاحتجاج ضدّ الرجال الذي كان من بينهم حارس السيّد شوهان وسائقه. وظنّ بعض المتجمهرين أنّ الأمر لا يعدو أن يكون سوى نكتة، وقال بعضهم:

ـ هذا عمل جميل! فالأحمق بوران بحاجة إلى حمّام.

وبعد أن انتهى كلّ شيء، وجد بوران نفسه مرتديًا قميصًا غير مألوف، أصفر اللون. وكنزة صوفيّة حقيقيّة وبنطالاً واسعًا أزرق اللون. تلعثم في الكلام. اندفع نحو ثيابه التي كان قد رماها الرجال نحو الحافّة فتكوّمت في قذارة. ولكن قبل أن يتمكّن من الوصول إليها، التقط أحد الرجال الثياب بطرف عصاه ورمى بها نحو كومة من الأغصان الصغيرة وأوراق الشجر والصنوبر التي كان قد أضرم فيها النيران على قارعة الطريق، ثم رمى الحذاء بعد ذلك، فامتدّت ألسنة اللهب إلى أعلى وفرقعت الموادّ المشتعلة. أمّا الأبخرة المتصاعدة من المطّاط المحترق، فقد دفعت بالناس إلى التراجع إلى وراء، يسعلون سعالاً يوحي بالاختناق.

أطلق بوران صرخة مخنوقة ودفع بيده نحو اللهب لينقذ ثيابه، ولكنّ الرجل الذي نظّف جسمه بالصابون حاول أن يبعده، بيد أنّ جسد بوران الصغير استبدّت به قوّة شيطانيّة جديدة. أمّا شارو التي

هبطت من أعلى شجرتها وهرعت من الجانب الآخر للوادي للحاق بسيّارة الجيب، فقد شاهدته يخبط في النيران، فصاحت:

ـ عمّي! عمّي بوران!

وجذبت قميصه الأصفر الجديد، ولكنّها لم تكن بتلك القوّة التي تسمح لها بإيقافه.

كانت يداه متفحّمتين مثل ثيابه التي انتشلها من النيران، ولكنّه مزّق القميص الأصفر وارتدى بزّته القديمة المهلهلة التي ما زال الدخان ينبعث منها. تمزّقت بعض أجزائها في يديه، بيد أنّه أفلح في ارتدائها على الرّغم من أنّ أحد أكمامها وجزءًا من ياقتها قد احترقا تمامًا.

قدّمت لي العمّة وصفًا مسرحيًّا لما حدث، ولكنّني لم أشاهد بوران لعدّة أيّام بعد تلك الحادثة، إذْ لجأ إلى التواري عن الأنظار في زريبة الأبقار ينشج ويئنّ في إحدى زواياها، ورافضًا التطلّع إلى الحيوانات. ونام وهو جاثم وسط القشّ، ممسكًا بمعزة صغيرة طلبًا للدفء. وكانت شارو تحضر له المأكل والمشرب تسترضيه وتتملّق إليه كي يأكل، لتذهب من بعد ذلك إلى رعي الأبقار والماعز وحدها. ولم يهرع بوران إلى الغابة إلّا فجرًا لقضاء حاجته عندما يكون الجميع نيامًا. وفي أحد الصباحات، عاد حاملاً حيوانًا بين ذراعيه.

أنزل الحيوان في الفناء، وكان أطول قليلاً من الديك الأسود الطويل جدًّا، الذي كان يهزّ رأسه في مواجهة الحيوان الغريب ويدور من حوله، وينقر الأرض من حول مخالبه. كان الحيوان غزالة صغيرة رائعة، رموشها الطويلة تحرس بركتين بنيّتين تحتلّان معظم أجزاء وجهها المدبّب وأنفها الكبير. جثا بوران على مقربة من الحيوان

وتأوّه، وضرب جانبيْ فخذيه فرحًا وبهجة. ولم يكن الحيوان الصغير يسمح لأحد غير بوران الاقتراب منه. وإذا ما حصل ذلك، تراه يبتعد في كبرياء حذرة. ولكن عندما كان بوران يداعبه، فإنّه يدير رأسه نحوه ويتقدّم منه خطوة بل ويسمح له أن يلمسه برقّة متناهية. كان بوران يحضن الحيوان الصغير بين ذراعيه بعد أن نكون قد ألقينا إليه نظرة فاحصة، ويتوارى عن الأنظار من وراء حاجز الخيزران الذي يحول دون مشاهدتنا مرابط البقر. أعدّ بوران فراشًا ناعمًا من أعواد الصنوبر والحشائش الجافّة، وأطلق على الحيوان اسم راني لأنّها كانت غزالة ملوكيّة الترفّع والأنفة من جهة، وغزالة من رانيكهت من جهة ثانية.

وأصبحنا معتادين، على مدى الأسابيع التي أعقبت ذلك، مشاهدة بوران حاملاً الغزالة الصغيرة وكأنّها طفل رضيع عندما كنّا نذهب إلى الغابة. كانت قوائمها تبرز من تحت ذراعيه وكأنّها أشواك قنفذ. يغذّيها على الحليب في طاس من ألومنيوم ويناغيها ليلاً ونهارًا، فتصغي له بصبر، راقصة رقصة باليه أمام شمّاس. ثم، وبعد برهة وجيزة، تكون الغزالة قد اكتفت بما قدّمه لها بوران من إعجاب، تنهض وتبتعد لكي تقضم الحشائش.

قالت الكاتبة في المدرسة:

ـ أخيرًا عثر بوران على حبيبة، لا أقلّ شأنًا من أميرة، وهي تمتنع مثل أيّ امرأة فاتنة.

فغصّ الجميع في الضحك، وصاحوا: آه ياسانكي، هل نرتّب زفافًا؟

ظننت أنّ مجيء هذه الغزالة للعيش بيننا أمرٌ نادر الحدوث، وأنّه من سمات عالم آخر! وكنت أنتظر صباح كلّ يوم لأحظى بلمحة خاطفة

عليها عندما يحملها بوران أسفل التلّ في نزهة صحيّة، قبل أن يذهب مع القطيع الذي عاد يرعاه من جديد. وقلت لصاحب ديوان إنّ ذلك يجعلني أتأخّر عن الوصول إلى المدرسة أحيانًا، ولكنّني كنتُ أشعر أن نهاري لم يبدأ إلّا بعد أن أكون قد لمحت عينيْ راني الصافيتين وساقيها الضعيفتين.

قال لڤير ولي بعد أن سمع أنّني خرجت:

ـ أتعرفان ما الذي جذبني إلى كوربيت؟ فهو فضلاً عن وصفه عيون الماء بأنّها صافية مثل شراب الجنّ، فإنّ ثمّة من هو متعلّق بقلبي. تصوّرا ينابيع الماء الجبليّة تتدفّق بشراب الجنّ!

ثم صبّ صاحب ديوان لنفسه مقدارًا من شراب بومبي الصفيري.

قال ڤير:

ـ آه، بالله عليك. تلك القصّة التي يُقتل فيها آكل البشر في وادٍ وفي إحدى يديه بندقيّة وفي اليد الأخرى بيضتان من بيوض طائر السُّبَد الشبيه بالبوم؟ أم قصّة النمر الذي التهم عشرات البشر في العشاء فقتله برصاصة واحدة في ما لم تصب البيضتان بشيء!؟

قال صاحب ديوان وقد بدا متأثّرًا:

ـ أنت تخلط بين الأشياء يا ڤير. لكلّ قصّة من قصص المغامرات مبالغاتها وعجائبها، ولكن هذا لا يعني أنّها غير حقيقيّة كلّها. انظر إلى حرفة كوربيت في تصدير الأدغال وإلى حبّه للطبيعة.

قال ڤير:

ـ إذا كنت أبغي الخيال، فسوف أقرأ الروايات.

ثم غادر الشرفة وذهب إلى غرفته. وانساب إلى سمعنا أصوات

دقّ وضرب داخل البيت أعقبها صياح:

ـ أين وضع الأحمق شاحنة حاسوبي؟ همت سنغ! همت سنغ! مكان مختلف في كلّ يوم. لا يمكن إدارة المكتب من هذا البيت الخاصّ بالمجانين.

جاء همت سنغ ومرَّ من أمامنا واتّجه ناحية غرفة ڤير بالسرعة التي تقدر عليها ساقاه الواهنتان. ومرّت لحظة صمت، ثم لحظتان، أعقبها صوت ڤير يقول في حدّة:

ـ وراء تلك الستارة؟ ما المخبأ المقبل الذي تفكّر فيه؟

وصاح من داخل غرفته:

ـ لن أرجع في هذه الليلة، وسوف أذهب إلى بهيمتال لتناول العشاء. لقد سئمت من طعام همت المؤلّف يوميًا من دجاج كثير الدهون بالكاري والرزّ.

وبعد هنيهة، صكّ سمعنا صوت باب يُغلق في عنف، أعقبه زئير محرّك سيّارته الجيب.

مرَّ همت من أمامنا في رحلة إيابه، جامد الوجه، فاقد الشعور. وتجنّب النظر ناحيتنا، ولكنّه غمغم:

ـ طوال كلّ هذه السنين، لم يستطع أحد أن يطهو بأفضل من همت سنغ في كوماون. الآن أضحى الدجاج كثير الدهون في هذا الصباح وحده!

كان صاحب ديوان مطأطأ الرأس، كسير الخاطر، يعبث بمشروبه، محاولاً أن يستعيد مزاجه، فقال:

ـ ماذا دهى ڤير؟

كان صوته ينمّ عن استغراق في التفكير، عندما بدأ يتكلّم:

ـ انظري إلى ڤير، إنّه على طرفي نقيض من كوربيت. فهو يتسلّق جبال الهملايا العالية، والجبال تمنحه الحياة، لكنّه ماذا يعرف عن الغابة أو الجبل، عن حياة البرّيّة ونباتاتها على الرّغم من كلّ هذا التسلّق وهذا السير؟ ليس لديه إحساس بالدهشة من الأشياء. إنّه ضائع، تائه تمامًا. إنّه ـ ماذا تسمّين ذلك؟ رجولة؟ ما الارتفاع؟ ما السرعة؟ ما عدد القمم؟ قبل أيّام، أشرت إلى النسرين البرّي ـ أوّل الزهور في هذا العام ـ ولكنّه لم يعرها التفاتًا.

قلت:

ـ لعلّه منشغل الذهن بأمر آخر.

قال صاحب ديوان:

ـ مهلاً، مهلاً! أنتِ لستِ أشدّ علماء النبات توقًا في العالم، ولكنّكِ لاحظتِ تلك البراعم المزهرة قبل أن أخبرك عنها.

التزمنا الهدوء برهة وجيزة، وأسكتتنا ذكرى مشتركة كنت أعلم أنّنا كنّا نسترجع ذكرياتنا عن أوّل فصل ربيع لي في بلدة رانيكهت، عندما عثر عليّ صاحب ديوان بين النسرين البرّي المتسلّق على امتداد سور في لايت هاوس. وكانت ثيابي قد اشتبكت بذلك الورد البرّي ونزفت أصابعي دمًا عندما حاولت انتزاع الأشواك. وكلّما أردت أن أبتعد، ازدادت الأشواك التصاقًا بي. لم تكن في يدي حيلة، وعندما وصل إليَّ، كنت أوشك على البكاء من شدّة قلقي وانزعاجي والإشفاق على ذاتي. وكان قد خاطبني قائلاً:

ـ سيّدة في ورطة، وما من فارس ينقذها!

انتزع صاحب ديوان الأشواك منّي شوكة فشوكة، في حين ارتبكتُ وتلعثمتُ في توضيح ما حدث لي:

ـ كنت أحاول أن أشمّ زهرة وأن أقطف بعضًا منها للزهريّة، وأن أقطع شتلة أزرعها في حديقتي الصغيرة، ولم أعرف كيف ومتى...

وبعد برهة وجيزة، قال في نبرة تنمّ عن نفاد صبر، باتت مألوفة عندي بعد ذلك:

ـ هلّا توقّفتِ عن الهذر قليلاً من فضلك كي أتمكّن من إخراجكِ من هنا من دون أن تتعرّضي للأذى؟

غير أنّ عينيه كانتا تشعّان بالعطف والحنان، وكان الحرص، الذي بدا عليه وهو ينزع الأشواك واحدة تلو الأخرى، قد جعلني أفكّر أوّل مرّة منذ وفاة مايكل أنّني ربّما سأشعر بوحدة أقلّ في يوم ما.

تكلّم صاحب ديوان من جديد في صوت حالم:

ـ طالما كنت أفكّر دومًا في زهرة النسرين البرّي المفتقرة إلى الرونق والبهاء ـ عبيرها ذو نكهة معتدلة نسبيًّا ولكنّه لاذع إلى حدٍّ ما، كما أنّها تحتوي على أشواك تزيد في عددها عن أشواك أيّ زهرة أخرى. إنّها زهرة نموذجيّة مولودة حديثًا، بلا نسب، وبلا لون تقريبًا، ربّما ابتكرتها الطيور قبل آلاف السنين. ومع هذا، فإنّكِ عندما تشاهدينها، كما تشاهدين تلك الزهرة على الجدار الخارجي لهذا المنزل وتكون مزهرة تمامًا، تحتضن كلّ تلك الصخور نصف المكسورة، فإنّها تذكّرك بجمال حقيقي لا يفنى.

توقّف وكأنّه فوجئ بفصاحته، وقال في نبرته اليوميّة المألوفة:

ـ أين كنت؟ آه، نعم. كوربيت. لقد فهم كوربيت الغابة من النظر

إليها، وكان في وسعه أن يخبركِ بقصّتها من الأصوات التي تنساب إلى مسامعه. وإذا سمع صوت غزالة قادمًا من بعيد، فإنّه يعرف إن كانت تلك الغزالة تنادي صغارها أم تحذّر الحيوانات الأخرى من أحد النمور. كان يقطع الغابة سيرًا على قدميه الحافيتين عندما كان صبيًّا. يفهم معنى سقوط كلّ ورقة من أوراق الشجر، ومعنى أيّ سحابة، إن كانت ستأتي بالمطر أم بعاصفة ثلجيّة!

وعلى حين بغتة يتذكّر أنّه يتكلّم عن قريبه كلامًا ليس في مصلحته، فيضيف وهو ينهي شرابه من الجنّ بجرعة واحدة كبيرة:

ـ لمن أوجّه اللوم والنقد؟ فأنا شخصيًّا لم أعلّمه شيئًا عندما كان فتًى يافعًا، وكان في وسعي أن أعلّمه.

قلت:

ـ لكنّه قال إنّك علّمته نداء الطيور وأصوات الحيوانات وأجاب عن كلّ أسئلة الحياة البرّيّة. لهذا، فأنت مخطئ من ناحيتين: فهو مهتمّ بالطبيعة، وأنّك علّمته شيئًا ما.

ـ لا، الأمر مختلف. إنّ اهتمامه بالطبيعة ليس على النحو الذي يلوح عليه. إنّه رجل معقّد ـ صديقنا ڤير.

توقّف صاحب ديوان عن الكلام بكلماته الساخرة اللاذعة بأن كرع مقدارًا آخر من شراب الجنّ، وغيّرَ من دفّة الحديث قائلاً:

ـ إنّه رجل مميّز لأنّه لم تغب عن ناظريه أحوال البشر ـ أعني الفقراء والفلّاحين الساكنين في سفوح التلال الذين تتعرّض ماشيتهم وأقرباؤهم إلى الخطر أمام الحيوانات البرّيّة. وفي زماني، شاهدت في قاعة النوّاب في سوراجغاره عددًا كبيرًا من اللوردات، وكان في وسعهم قراءة الغاب بالقدرة الجيّدة تقريبًا التي يقرأها كوربيت، ولكنّهم

لم يستطيعوا ـ بل لم يحلموا في الجلوس وتبادل الأحاديث مع الفلّاحات، كما كان كوربيت يفعل ويجيب عن كلّ أسئلتهنّ الفضوليّة. ولم يسهر أحدهم ليلاً حاملاً بندقيّته دفاعًا عن محاصيله الزراعيّة من خطر الجرذان والطيور. أتعرفين لماذا أطلقوا عليه الاسم صاحب السجّادة وأحبّوه على امتداد هذه التلال؟ كان من شأنه أن يفهم بوران في ثانية واحدة.

وهنا ضحك ضحكة مريرة واسترسل:

ـ كان يستطيع فهم آهات ذلك الأحمق الفقير وآلامه ونقمته ويستوعبها تمامًا. كان يحدّث بوران بلغته التي يتكلّم بها.

ازداد الجوّ طراوة بعد تقدّم وقت الأصيل، وحطّت مجموعة كبيرة من السعادين الآسيويّة طويلة الذيول ذات البشرة الفاتحة على أشجار أرز الهملايا. وكانت ذيولها منتصبة إلى أعلى وهي تتنقّل من شجرة إلى أخرى، فتميل الأغصان إلى أسفل وتنحني تحت ثقلها عندما تحطّ عليها. وكانت السعادين مختلفة بعضها عن بعض، فتجدها تطلق أصواتًا في رفق تارة وتزعق تارة أخرى. وكانت بعض الأمّهات يحملن بين أذرعهنّ صغارهنّ ويرضعنهم، في حين نبحت الكلاب في وجه السعادين في حدّة وجذبت السلاسل التي تقيّدها بعضّادة الأبواب. كانت السعادين تعلم جيّدًا أنّ الكلاب مربوطة، فلم تعرها اهتمامًا، ولكن عندما رأتنا، التفتت إلينا بوجوهها السود الشبيهة بوجوه البشر محاولة أن تحزم أمرها إن كنّا نمثّل أيّ خطر عليها.

ومضى صاحب ديوان يحدّق إلى تلك السعادين ويقول: إنّ هذه الأرض كانت، قبل مجيء البشر الذين حوّلوا الجبال إلى كثبان نمال، ملكًا لهؤلاء القرود والأيائل والغزلان والنمور والفهود وبنات آوى

والبوم والأسود. كانت آثار هذه البراري تتألّف من هذه الحيوانات التائهة وليس من أسوار آثاريّة وتعاويذ طينيّة وكسر خزفيّة. وكنّا بين الفينة والفينة، نلمح ماضي غاباتنا الموغل في القدم عندما تلوح قرون الأيائل وسط الأشجار الكثيفة أو عندما يسعل أحد الفهود ليلاً. وكان نادرًا جدًّا، ومعروفًا في الوقت نفسه، أنّ الحيوانات البرّيّة لم تأمن جانب البشر. وأكّد صاحب ديوان: وما الذي يدفعها إلى أن تأمن جانبه بعد أن دمّر عالمها؟ إنّ علاقة بوران بالحيوانات كنز مفقود، وهو أكثرنا في رجاحة عقله، لأنّ الحيوانات تعرف لمن تولي ثقتها. الأغبياء وحدهم هم الذين يصِفون بوران أنّه مخبول.

* * *

١٣

عاد ڤير في نهاية الشهر من دهرا دون ودلهي، وكان قد لبث هناك أسبوعين يعدّ العدّة لموسم رحلات جديد قرّر أن يديره من بلدة رانيكهت. عاد محمّلاً بالهدايا، وجاءني بموادّ غذائيّة غير اعتياديّة من تلك المنطقة الجنوبيّة، كالفلفل المنقوع باللبن والمقليّات. كما أحضر لي زجاجة مخلّل مصنوع من ثمار المانغو الكاملة والصغيرة ـ وهو نوع كنت أتناوله في حيدرأباد ولبثت أحلم به منذ ذلك الوقت. هل أخبرته عن حياتي الماضية؟ فكّرت في أحاديثنا السابقة القديمة التي كان في وسعي أن أتذكّرها في أدقّ تفاصيلها. وظلّت الزجاجة، من غير أن افتحها، فوق طاولتي بضعة أيّام في محاولة كي أعتادها. وكنت أمسك بها بين حين وآخر، فتتسارع دقّات قلبي في كلّ مرّة أحدّق إلى العلامة المثبّتة عليها (مخلّل بيغمبيت)، منتج من وصفة سرّيّة مستمرّة على مدى أجيال. تذكّرت ذلك اليوم الذي وضع فيه أحد كفّيه على عينيَّ وهو يقودني إلى شجرة مانغو عظيمة الجذع في حديقتنا ليطلعني على بيت شجرتي الجديدة. أعتقد أنّني كنت في سنّ السابعة. وكان ثمّة سلّم

أحمر صغير يؤدّي إلى أعلى المنزل الذي كانت جدرانه الداخليّة مزيّنة برسوم فراشات. وكان البيت مزوّدًا بهاتف كالدمية وفيه جرس يرنّ. وفي صباح أحد الأيّام، استدعاني أبي من الدور الأرضي، وقال في صوت غير معقول يشبه صوت عامل المقسم:

ـ مرحبًا. مرحبًا. ثمّة نداء لأميرة مخلّل بيغمبيت، وعليها أن تهبط إلى أسفل لرؤية العلامات الجديدة على زجاجات المخلّل التي نصنعها!

وأتى ڤير بدليل مصوّر غالي الثمن صدر حديثًا عن طيور الهند وقدّمه هديّة لصاحب ديوان. رحت أقلّب في صفحاته عندما تخلّى عنه صاحب ديوان، وبدأت أفتّش عن طائر شاهدته في ذلك الصباح حول منعطف يحتشد بأصوات طيور، ذكّرتني بساحة اللعب في مدرسة القدّيسة هيلدا، بعد أن دقّ الجرس معلنًا نهاية يوم دراسي آخر. وتقدّمت لمعرفة سبب هيجان الطيور، فشاهدت بومة كبيرة الحجم أعمتها أشعّة الشمس، انزلقت من غصن مكسوّ بالظلال إلى شجرة قريبة منها، فهاجت فيها الطيور. جلست مسمّرة في مكاني على الشجرة الثانية مذعنة للزعيق وأصوات الطيور المنتشرة، وكأنّني نبيل من قدامى النبلاء استسلم لمرضه. وقلت لصاحب ديوان في محاولة ذكيّة غير مسبوقة إنّ أميرة الظلام تحوّلت إلى لا شيء، واضمحلّت بعد أن جاوزت عصرها. فرفع من حاجبه وتمتم مبتسمًا ابتسامة يُرثى لها:

ـ صحيح جدًّا.

ثم مدَّ يده إلى الكتاب من جديد وفتحه في صفحة معيّنة، وعاد إليَّ وأضاف:

ـ ربّما هذه؟

فشاهدتها. إنّها البومة نفسها بألوان برّاقة، بومة بنّيّة اللون، فما كان منّي إلّا أن خطفت الكتاب من بين يديه وأغلقته في نشوة انتصار. وكان الشرح في أسفل الصورة يفيد أنّ البومة يبلغ طولها زهاء المترين.

قلت:

ـ كانت بهذا الطول تمامًا، ولم تكن تشبه أيّ طائر.

وقال صاحب ديوان في صوت يناسب ما يستشهد به من مقتطفات:

ـ بعد كلّ هذه الاختلافات في اللون وفي الشكل وفي النغمات التي تطلقها ملايين الطيور، فإنّ مآلها كلّها إلى التراب. أتعرفين تلك القصيدة الخاصّة بالبومة يا مايا؟ كيف تبدأ؟ «بعد أن تنهي النجوم رحلاتها، مكسوّة بالضياء من الشرق إلى الغرب، فإنّها تتحرّك للانقضاض تحت جنح الظلام». لا، أظنّني نسيت بيتًا.

وجلب مع ڤير مشروبات كحوليّة تتألّف من صندوقين من شراب الرَّم والجنّ. وكان صاحب ديوان يشتري قبل مجيء ڤير مشروبًا كحوليًّا أرخص ثمنًا، زجاجة واحدة كلّ مرّة بوساطة الجنرال الذي كان يشتري من تجهيزات الجيش بأسعار مدعّمة. وعلى الرّغم من أمجاد صاحب ديوان التليدة، إلّا أنّه لم يعد ثريًّا، فقد أجَّر المنزلين الصغيرين المنفصلين على قطعة أرضه الإضافيّة من أجل الحصول على دخل آخر، ولكنّ الأمر انتهى به إلى عدم حصوله على الإيجار من العمّة، كما أنّه لم يذهب لصرف الشيكات التي أحرّرها له عن قيمة استئجاري المنزل طوال السنتين الماضيتين. وإذا ما أبديت أيّ اعتراض، يقول لي إنّني أدفع له الإيجار عينًا، بقضاء مشاويره وطباعة مخطوطته. كان يحيا

حياة زاهدة، ولم يكن منزله الخالي يحتوي سوى بعض الأشياء الضروريّة المستهلَكة. وشعرت بالبهجة بعد أن رأيته محاطًا بوسائل الراحة: مدفأة جديدة ولحاف مستورد خفيف مثل ريشة، وجواريب مُدفّئة وجنّ ورم من النوع اللذيذ. وكان ڤير يتأكّد من حصول صاحب ديوان على كلّ ما هو جيّد وبوفرة، لكن بما أنّ صاحب ديوان كان يعطيني زجاجة أو زجاجتين، فإنّني لم أشكُ من أيّ شيء.

اشترى ڤير لنفسه ساعة يد جديدة. وإذا ما عمدت إلى تدوير أيّ من الأزرار الصغيرة المثبّتة على كلا الجانبين، فإنّها تتحوّل من ساعة إلى بوصلة أو محرار أو مقياس للارتفاع أو مقياس للضغط الجوّي. وكان العقربان المؤشّران على الوقت يتأرجحان صعودًا وهبوطًا ليخبراننا أنّنا في المعسكر على ارتفاع ٦,١٠٠ قدم، في حين يصل الارتفاع في مدرسة القدّيسة هيلدا وفي السوق إلى ٥,٦٠٠ قدم. ولم يتمالك ڤير نفسه من العبث بساعته، ولكن عندما مازحته قائلة إنّه أشبه بطفل صغير لديه لعبة جديدة، اعترض وقال:

ـ إنّها قضيّة حياة لي. عمل. كأنّني أمتلك هاتفًا أو حاسوبًا. إنّه منقذ حياتي تحت عاصفة ثلجيّة في جبل جليدي بعيد لا تصله أيّ نجدة.

تغيّر إيقاع حياتي كلّما عاد ڤير أدراجه، وتغيّرت أيّامي، ولا أستطيع أن أحدّد إن كان ما يفعله متعمّدًا، ولكنّه غالبًا ما كان يقود سيّارته قادمًا من السوق وصاعدًا التلّ في الوقت نفسه الذي كنت أخرج من مدرسة القدّيسة هيلدا وأذهب إلى المعمل. وكانت الجيب تتوقّف بجانبي ـ فنتبادل النظرات وأستقلّها بعدئذٍ. وكان يتوقّف أحيانًا لشراء الفطائر المقليّة الحارّة المحشوّة بالخضراوات والبهارات، ثم نسلك الطريق الأطول والأكثر عزلة ونعود إلى البيت. وكنّا نتوقّف أحيانًا

أخرى في طريق عودتنا للتنزّه قليلاً. وكان في وسعي أن أتحدّث إليه على نحو لم أستطعه مع غيره. كنت أعرف أنّه سوف يفهمني، وأعرف تمامًا الحديث الذي سوف نتجاذب أطرافه عندما أقول مثلاً: أفكّر إن كانت للبغال حوافر كالجياد!

كان طريقنا مسدودًا بصفّ طويل من بغال جميلة الوجه بطيئة الفهم. وكان رعاتها ينهرونها ويحثّونها على الإسراع في سيرها. غير أنّ بعض البغال ترفض بكلّ بساطة أن تتحرّك على الرّغم من الدفع الذي تعرّضت له من الخلف، محافظة بذلك على سمعتها.

سألت:

ـ هل للبغال أيّ حوافر؟ والفِيَلة؟ هل لها حوافر هي الأخرى؟ وإذا كانت ذوات حوافر، فماذا تسمّى؟

قال ڤير:

ـ هذا موضوع يستحقّ عناء البحث والتقصّي. ويمكن للميدان أن يتّسع ويكبر. ما الذي يقرّر ذلك؟ أهي نعومة الأقدام أم الحوافر؟ أهي المسافة التي تقطعها. . الحمولة التي تنقلها؟ هل لنا أن نقترح الأمر على عمّي ليكون موضوع كتابه المقبل؟

ـ والعجول؟ ينبغي لها أن تسير أميالاً طويلة، وتجرّ من ورائها العربات.

قال ڤير في صوت ينمّ عن تهكّم رسمي وحِرَفي:

ـ لا تنسي الجِمال. وهل فكّرتِ في ثيران التيبت البرّيّة؟ والأيائل؟ والحمر الوحشيّة؟ وفيما عدا البحث والتقصّي، فإنّني أرى إمكانيّات تجاريّة بحتة في هذا الحقل. ربّما يتعيّن عليكِ التخلّي عن

مدرستك والبدء بصنع الحوافر للحيوانات. هل ستكون حوافرها بقياسات معمول بها؟ وهل ستجعلين معاملك في الصين؟

في يوم ما، كانت معلّمة حديثة العهد بنا من معلّمات مدرسة القدّيسة هيلدا ترافقنا أنا وڤير في سيّارته، عندما انشغلنا أنا وهو في حديث لا معنى له. وأرادت المعلّمة أن تزورني في بيتي لتختبر إمكانيّة عقد صداقة بيننا كما أظنّ. أطلّت من النافذة ورنت إلى الشارع ولم تقل شيئًا، وبعد خمس دقائق، نسيت أنّها تجلس وإيّانا. وبعد أن أوصلنا ڤير أمام باب بيتي ومضى في سبيله، دخلتْ غرفتي وبدأت تلتقط الأشياء من هنا وهناك وتتفحّصها في ما كنت منشغلة في إعداد الشاي. وتوقّفت أمام صور مايكل فوق منضدة كتابتي، وصور أمّي، وأرادت أن تعرف شيئًا عن مايكل وعن السنة التي توفّيت فيها والدتي وسبب عدم رجوعي إلى أبي لأكون معه في شيخوخته المستوحدة. وعندما استقرّ بنا المقام في الشرفة ومعنا كوبا الشاي، قالت:

ـ أنت تكلّمين صاحب سيّارة الجيب كلامًا مضحكًا كأنّك طفلة مجنونة. أمّا الأسلوب الذي كان يردّ فيه عليكِ ـ وكأنّكما في سنّ الثامنة. أأنتما صديقان أم أنّه قريب من أقربائك؟

ثم رشقتني بنظرة فاحصة، ولكنّني غيّرت من دفّة الحديث بأسرع ما استطعت، ولم نذكر، لا أنا ولا هي، موعد الزيارة المقبلة عند مغادرتها.

وذات مساء، وكان ڤير عاد من فوره من رحلة إلى دلهي، كشف عن جهاز عرض مجموعة صوره: الصورة الأولى هي غرفة طعام صاحب ديوان المهجورة التي كانت فضاءً واسعًا مطليًّا بلون أبيض، ولكنّها تحوّلت إلى لون ذهبي وآخر أزرق، وانطلقت تنهيدة في أرجاء

الغرفة. إنّها صحراء ليه المرتفعة التي كانت قطعة ذهبيّة من الأرض المجدبة، يغمرها ضوء القمر ومن تحت سماء شاسعة. بدت الأرض قطعة من الخام كما في يوم الخلق، يمكنك أن تشاهد بين طيّاتها حركة القارّات وانفصال شبه الجزيرة الهنديّة عن أفريقيا، وأن تسمع الانفجار الكوني الذي ضرب آسيا وبعث الهملايا من تحت المحيط.

ضغط على الزرّ، فشاهدنا صورة أخرى تمثّل حيوانات الماعز في مكان ما فوق أحد سفوح الجبال، وبيوتًا مشيّدة بحجارة تقليديّة، وظلّت سليمة لم تمسّها الزلازل بأذًى، في حين انهارت مبان من الخرسانة المسلّحة من فوق التراب. ثم تحوّل لون الجدار إلى لون أزرق بسبب الماء، وانطلقت شهقة في أرجاء الغرفة. وانبعثت سفوح الثلج من وسط المياه وامتدّت شامخة تشقّ عنان السماء شديدة الزرقة.

تناهى إلى سمعي صوت ڤير من مؤخّر الغرفة المعتمة:

ـ هذه هي بحيرة بانغونغ، في لادام. وقد اصطحبت مجموعة من مراقبي الطيور السويسريين إلى تلك المنطقة قبل بضعة أعوام.

ثم ظهر مشهد آخر من البحيرة. وقالت العمّة:

ـ هذه هي إحدى البقاع في هذه التلال التي لا تنضب فيها المياه.

ثم انسابت إلى مسامعي ضحكة خافتة، فقال ڤير على أثرها:

ـ مياه مالحة.

لكنّ العمّة سرعان ما أردفت:

ـ لا ضرورة إذن لهدر المال على شراء الملح. كلّ ما ينبغي لك عمله هو غلي الخضراْوات فيه مباشرة.

كانت الغرفة مظلمة، محتشدة بظلال الأهالي: كلّ أهالي سفح التل ـ شارو والعمّة وأقرباؤهما الثلاثة الذين جاؤوا لزيارتهما من قرية نائية، والتوأمان الأصمّان الأبكمان بينا وميتو، والموظّف في مصلحة الماء وابنه الشابّ ـ حضروا كلّهم لمشاهدة سحر الصور من جهاز ڤير للعرض الذي دشّنه الآن. كانت رانيكهت لا تحتوي إلّا على دار عرض سينمائي واحدة متداعية. وكانت تكلّف مالاً. أمّا عرض الصور، فكان أمرًا جديدًا.

ـ ذهبنا بوساطة درّاجة ناريّة من مانالي إلى لاداك، مرورًا بممرّ روهتانغ وبرالاكالا، وكان في وسعنا مشاهدة كاراكورام.

كانت الصور تنتقل انتقالات سريعة ممّا فوّت علينا تسجيل التفاصيل، عندما كان ڤير يعرض علينا صور عجلات الصلاة ومساكن بوذيين غريبة الشكل وأديرة شي وثيكسه وآلشي. كانت المشاهد مذهلة وغير مألوفة لنا، نحن الذين لم نشاهد مثل هذه المرتفعات العظيمة إلّا من مسافة بعيدة. لقطة أخرى: مشهد من سهل لاداك الذي يمتدّ إلى أسفل أرضًا مجدبة.

وقال ڤير:

ـ هذه هي الصين. نصف بحيرة بانغونغ تقع في الصين، ولا يسمح لأحد بالاقتراب من الحدود على هذا النحو، ولكنّني كنت أعرف شخصًا في الجيش، فتركنا درّاجتينا الناريّتين وانطلقنا نسير في أنحاء لاداك حتى وصلنا إلى هذه البقعة في نهاية المطاف.

قالت العمّة:

ـ إذًا لو سرنا اليوم من بلدة رانيكهت، فسوف نصل الصين يومًا ما.

قال صاحب ديوان:

ـ سوف تتلقّين رصاصة تستقرّ في رأسك إذا ما عبرت إلى هناك.

كان صاحب ديوان لا يطيق هذر العمّة وثرثرتها وما كان يطلق عليه «قسم التزاوج الحيواني». وكان بين الفينة والفينة يخوض جدالاً عقيمًا وإيّاها بخصوص معزاتها التي تلتهم ورود الزنبق والماريغولد التي ما تزال باقية في حديقته.

قال موظّف مصلحة الماء:

ـ آه أيّتها العمّة! لقد سار أجدادك وأجدادي إلى الصين سيرًا على الأقدام مرّات ومرّات. هذا ما أخبرني به والد جدّي الذي ذهب إلى هناك مرّتين مع بعض الغرباء في زمن البريطانيين.

تناهت إلى المسامع همهمات. فقالت العمّة:

ـ كان والد جدّك حمّالاً، فما الذي كان يفعله في الصين؟

وسعل همت سنغ سعالاً متواصلاً بلغميًّا، وأجهد نفسه في الخروج بفكرة:

ـ سمعت أنّ الناس تأكل النمور في الصين.. والكلاب! نعم يأكلون الكلاب أيضًا.

وهنا سأل موظّف مصلحة الماء بدافع الفضول:

ـ آه، لكن ماذا تأكل الفهود في الصين إن كان سكّانها يأكلون الكلاب؟

وانفجر الحاضرون في الضحك. أمّا شارو التي لم تشارك في أيّ حديث حتى الآن، فقالت:

ـ سوف أقتل أيّ صيني أو أيّ فهد إذا مسّ أحدهما كلبي بيجلي.

قالت العمّة:

ـ إنّ هذا الكلب الذي لا نفع فيه يحيا حياة ساحرة. ثمّة كلاب كثيرة العدد تتعرّض للالتهام، في حين يطوف هذا الكلب في كلّ مكان وسط الظلام، وفي صباح اليوم التالي تجدونه جالسًا هنا، على مقربة من مدفأتي منتظرًا هبوط الخبز عليه.

اتّكأت في مجلسي، وشعرت بالدفء يسري في أوصالي وأنا متدثّرة بلفاعي، فأبدو مثل كتلة من الصوف مصغية إلى الأصوات التي تنساب إلى سمعي. وبدأ صاحب ديوان يتحدّث عن اللعبة الكبرى المتمثّلة بالدسائس والتجسّس، حيث يرسل الروس والبريطانيّون المستكشفين المتنكّرين إلى سلاسل جبال الهملايا وممرّاتها وقممها ووهادها غير المستكشفة بحثًا عن موطئ قدم لغرض السيطرة عليها. وانهالت أسماء الرحّالة الأوائل من بين شفتيه وكأنّهم أصدقاؤه القدامى: فجورج موركروفت عبر نهر سوتليج السريع التيّار من فوق ظهر طوف مصنوع من جلود الجاموس المنفوخة، وتنقّل متنكّرًا بزيّ ناسك هندوسي بحثًا عن الماعز التي تُصنع لفاعات باشمينا من صوفها؛ وأجرى ناين سنغ راوات مسحًا للهملايا كي يرسم خارطة دقيقة لها أوّل مرّة، على حدّ تعبير صاحب ديوان، ووصل لاسة وزينج يانغ والنيبال والصين ثلاث مرّات وسي مرّة واحدة في ستّينيّات القرن التاسع عشر؛ وذهب شقيقه كيش سنغ راوات إلى لاسة أيضًا. في ذلك الزمن، لم يكن أحد يعرف أين تقع لاسة.

وسألت شارو في دهشة:

ـ كيف حقّقوا ذلك سيرًا على الأقدام؟

فردّت العمّة بنفاد صبر:

ـ هذا هو شغله. ثمّة ناس يديرون المحلّات والدوائر، أمّا عمله

فهو قياس المسافات. مثلنا تمامًا: ألسنا نصعد التلال ونهبط منها من وراء الأبقار يومًا إثر يوم، تحت المطر والثلوج؟ هل يمكن لابن المدينة أن يفعل ذلك؟

قال همت سنغ:

ـ أيّتها المرأة الجاهلة! إنّ السير على سفوح رانيكهت لا يشبه السير وسط الجبال المؤدّية إلى الصين.

قال صاحب ديوان:

ـ يستطيعون السير على مدى أيّام. انظروا إلى كوربيت. عندما كان يصطاد نمر شوغاره، فإنّه كان يبقى من دون طعام يومين، وكان يرتاح في نومه بين أغصان الأشجار.

قال ڤير:

ـ ربّما ساوره الظنّ أنّ المرء قليل التغذية من شأنه أن يكون أقلّ جاذبيّة لنمر من النمور الجائعة، كما أنّه أقلّ وزنًا على أغصان الشجر.

ظننت أنّ صاحب ديوان سيخرج عن طوره هذه المرّة. ما السبب الذي يدفع ڤير إلى التهجّم على كوربيت من جديد؟ كان أسلوبه صبيانيًّا في معاداة صاحب ديوان الذي استرسل في الكلام وكأنّ ڤير لم ينبس بكلمة، واسترخيت في جلستي متدثّرة بلفاعي.

وقال:

ـ هؤلاء الناس من طينة تختلف عنّا.

كان ناين سنغ راوات مضطرًّا إلى استخدام ألفي خطوة لكلّ ميل مستعينًا بسبحة تحتوي على مئة خرزة كي لا ينسى العدد. ولمّا كان يعلم أنّ الصينيين سوف يشنقونه إذا ما عثروا عليه، فقد اضطر إلى أن

يرتدي أثناء سفره ثياب اللاما، وكان يدير عجلة صلاته التي كان يخفي بوصلة داخلها.

ظلّ الحاضرون برهة من الزمان منشغلين في الحديث انشغالاً نسوا معه أن يتذكّروا أنّهم في خضمّ عرض شرائح صوريّة، وأنّ ثمّة أعدادًا كبيرة منها تنتظر كي يشاهدوها. كان ڤير من ورائي، في مؤخّر الغرفة، وإذا ما التفتُّ التفاتة بسيطة غير محسوسة لتمكّنتُ من أن ألمحه تحت ظلّ الضوء الخافت المنبعث من الشرفة مرورًا بالنافذة الزجاجيّة القديمة المضبّبة، وأن أشعر بعينيه مسدّدتين نحوي في العتمة. تطوّرت أكثر من ذي قبل داخل لفاعي وشبكت ذراعيَّ من حول كتفي. كان قد ابتاع المقليّات لأنّه سمعني أتحدّث عن مدى افتقادي واشتياقي لها ـ كنت قد أشرت إلى ذلك مرّة واحدة إشارة عابرة، ولكنّه تذكّرها ـ فضلاً على المخلّل الذي كان ويا للأعجوبة من معمل أبي. تمنّيت لو أنّ الغرفة خالية من الناس وأنّ عرضه مخصّص لي وحدي!

عبث ڤير بجهاز العرض، فظهرت صورة أخرى على الجدار، فحوّلته إلى رصاصي وأبيض وغاية في البرودة. فتحت عينيَّ بغتة بعد أن كنت قد أغمضتهما نصف إغماضة، تراودني أحلام يقظة، فقد كانت الصورة تمثّل امرأة تنظر إلى أعلى باتّجاه كاميرا موجّهة إليها من فوق. وكانت محنيّة الظهر من تحت وطأة حقيبة ظهر، ووجهها ينطق بالألم والعذاب. وكان الثلج قد سقط مثل زينة بيضاء على غطاء رأسها البنفسجي، أمّا السفح المغطّى بالثلوج الذي كانت ترتقيه، فقد تحوّل من ورائها إلى ماء رمادي تشوبه خضرة مغطّى نصفه بطبقات رقيقة من جليد متكسّر. ونثار الثلج منتشر في كلّ أنحاء الصورة. أمّا في الضفّة البعيدة، فقد اندفعت السفوح الجليديّة من قلب المياه.

كان ڤير يقول:

ـ كان الجوّ عاصفًا وثلجيًّا في ذلك اليوم، وكادت هذه المرأة أن تزلق وتسقط في الماء بعد أن التقطت هذه الصورة مباشرة. كانت مريضة، وازدادت حالتها المرضيّة سوءًا بسبب الارتفاع الشاهق الذي يزيد عن ستّة عشر ألف قدم. ففي مثل هذا العلوّ الشاهق، يبدأ الناس بالنزيف من أنوفهم، وربّما تنسلخ بشرتهم ويصابون بصداع شديد وبقضمة الصقيع. (وقد أُصيبت أذني وفقدت إصبعي بسبب تلك القضمة) التي تعني تجمّد الدم.

استدارت رؤوس الحاضرين نحو ڤير، وكأنّهم لم يتنبّهوا لأذنه المشوّهة وإصبعه المفقود طوال هذه الأيّام. وهنا غيَّر من الصورة كي يلتفت الجالسون إلى الجدار.

لم أوقف ڤير لأسأله عن اسم المنطقة، لأنّني لم أكن مضطرّة إلى ذلك لأنّها روبكوند. فتلك هي المياه التي تجمّد مايكل بالقرب منها حتى قضى نحبه. بحثت في الصور التي كانت تُعرض على الجدار، واحدة واحدة، وكانت ملتقطة من زاوية مختلفة في كلّ مرّة: صور مقرّبة، لقطات طويلة، ماء وجليد، جليد وماء، سماء رماديّة بلون الرصاص، جوانب صخرة بنيّة وثلج أبيض ينبثق من بين طبقات الجليد. تفحّصت كلّ بوصة في تركيز مشوب بالتوتّر في الثواني التي تفسح فيها إحدى الصور المجال لصورة أخرى. إنّني لم أشاهد قطّ جثّة مايكل. وكان موته يعني لي اختفاءه، وما زال حتى اللحظة يفتقر إلى الحقيقة، تاركًا من خلفه بذلك أملاً واهيًا مثل دخان! كان يومًا ما فوق هذه السفوح. لا بدَّ أنّه كان هنا. وانتظرت ظهور سترة مايكل وغطاء رأسه الأزرق والأحمر، ليخرج بعدئذٍ من الجدار ويغدو في الغرفة.

قبل زمن طويل، وكنت طفلة صغيرة، اعتدت أن أصدّق أنّ أجهزة المذياع تحتوي على أشخاص داخلها، لا يزيد طول الواحد منهم على بضع بوصات. ولكنّهم كانوا بشرًا، محبوسين دائمًا وأبدًا داخل المذياع الكبير الأسود والبنّي من فوق منضدة كتابة أبي. المذياع الذي كان يحتوي على قرص كبير يدار للاستماع إلى مختلف المحطّات، وعلى أزرار مدوّرة ذات مؤشّرات. وإذا ما جرى فتحه، تجد اللوح المؤشّرة عليه الذبذبات تومض بوميض أصفر اللون يجعل المذياع يبدو وكأنّه بيت صغير. وإذا ما تمّ تفكيكه، فإنّ المغنّين في برنامج بيناكا غيت مالا[1] يخطون من فوق المنضدة ويكلّمونني.

أحسست برياح ثلجيّة تتجمّع في أناملي وأطراف أصابع قدميّ ووجهي، بل وقلبي أيضًا. كنت أرتعد من شدّة البرودة، وظننت أنّني سوف أجهش بالبكاء من الألم والخوف، فدفنت وجهي بين طيّات لفاعي وغطّيت أذنيَّ حتى شعرت بقصور في التنفّس بعد أن أحكمت شدّه من تحت رقبتي.

وسأل أحد الحاضرين في الغرفة، وكان ما يزال يتمتّع بصوته القويّ:

ـ ما هذا؟ أهو شلّال؟

فقال آخر:

ـ انظروا كيف تجمّد الماء!

أخرجت وجهي من بين لفاعي مرّة أخرى، فرأيت أنّ المشهد قد

---

(١) بيناكا غيت مالا Binaca Geet Mala: برنامج إذاعي موسيقي طبّقت شهرته الآفاق، وكان يُذاع في عقدي الستّينيّات والسبعينيّات من القرن العشرين، (المترجم).

تغيّر إلى قطيع من الخراف البيض في مرج تزيّنه الورود. وتمتم ڤير:

ـ ثمّة خطأ في تسلسل الصور.

ثم ظهرت مساحة أخرى من المياه على الجدار، مساحة زجاجيّة تعكس جوانب الوادي الذي كانت تشقّ طرقها فيه متّجهة نحو الأفق. وعلى الضفاف، ثمّة حافّات بيض من الموج تجمّدت في حركاتها. واستبدّت الدهشة بشارو، فذهبت إلى الجدار لتنعم النظر عن كثب، فصاح بها الحاضرون وطلبوا منها أن تتنحّى جانبًا كي يتمكّنوا من المشاهدة، بعد أن حجب ظلّ رأسها الكبير أمام شعاع العرض صفحة النهر الجليديّة وأمواجه المتجمّدة.

وعلى حين غرّة، واتتني فكرة: روبكوند لم تكن نهرًا، بل بحيرة، والبحيرات تخلو من الأمواج، والبحيرات لا تتحرّك. وأخيرًا وجدت نفسي أقول لڤير:

ـ هذه اللقطة ليست من روبكوند. صحيح؟

ـ الواضح أنّك لم تستمعي إلى كلمة واحدة من الشرح الطويل الذي كنت أذكره. لِمَ أنا مهتمّ؟ إنّه نهر زانسكار. في كشمير. ما الذي جعلك تعتقدين أنّه روبكوند. روبكوند بحيرة وليست نهرًا.

ثم أطفأ جهاز العرض في انزعاج.

زال السحر. وتململ الناس. وتدافع بينا وميتو بالمناكب لأنّهما سوف يسافران في صباح يوم غد إلى فاراناسي لبدء حياة جديدة في أحد الأديرة. أمّا صاحب ديوان، فلوّح لهما بالمجيء إليه، ووضع مبلغًا من المال في أيديهما وأطبقها، وربت على رأسيهما عندما انحنيا إلى أسفل ليلمسا قدميه. قال:

ـ كفى، اذهبا الآن. اذهبا. وأنت يا همت سنغ، املأ قدحي من جديد.. من الزجاجة الجديدة التي أحضرها ڤير من دلهي.

هرع موظّف مصلحة الماء من وراء همت واتّجه نحو المطبخ مؤملاً أن يسرق قليلاً من الشراب.

أمّا العمّة، فوقفت بعد أن دفعت الكرسي فجأة، وقالت:

ـ السفر جميل، ولكنّه مناسب لمن يملك المال ويحرقه، ولا شيء أفضل من المأكل والمشرب والكسل. لماذا يصعد الناس التلال ويهبطونها طلبًا للمتعة؟ إنّنا نمارس هذا العمل كلّ يوم من أجل العمل. تعالي يا شارو. ينبغي لنا الذهاب. لا بدّ أنّ بوران أضرم النار الآن في زريبة الأبقار!

* * *

في تلك الليلة، حمل ڤير مشعله وعصاه ليأخذني إلى منزلي بعد تناول العشاء. وشاهدنا أمام باب المنزل الرئيس أنّ الضوء خارج الشرفة ينبعث في قطرات ذهبيّة صغيرة. وعدنا أدراجنا ودخلنا نفتّش عن مظلّته الكبيرة والتي تكفي لكلينا في مثل هذا الجوّ الماطر. لم يكن بيتي بعيدًا جدًّا، بل كان يقع على مسافة خمسمئة ياردة تقريبًا. إلّا أنّ السفح كان كثيف الأشجار، وكانت النمور أحيانًا تنتظر الكلاب السائبة أو الماعز المنسيّة.

وقال إنّ سيري وحيدة في هذا الوقت المتأخّر من المساء ليس أمرًا حكيمًا.

كنت أعلم أنّنا كنّا نسير الهوينى، أبطأ ممّا ينبغي. وفي اللحظة التي وصلنا فيها باب منزلي، كان رذاذ المطر قد توقّف عن السقوط، وكانت كلّ رائحة من روائح الليل قويّة في ذلك الجوّ الرطب. وقفنا

خارجًا، نتجاذب أطراف الحديث في هذا الموضوع وذاك، وفي أصوات أشدّ خفوتًا ممّا هو معتاد. كان الصمت مطبقًا تقريبًا باستثناء ضوضاء خافتة منبعثة من تلفاز بيت ساعي البريد، ومن قِدْر الضغط العالي الذي يئزّ بين دقيقة وأخرى. وتألّقت من فوقنا نبتة الداتورة ذات الخصائص التخديريّة بلونها العاجي، وكأنّها قناديل واهنة الضياء تحت ضوء النجوم. وكان الأريج القويُّ يغمرنا، والأزهار واطئة تداعب وجهي. لمس ڤير واحدة من تلك الزهور، ثم نظر إليّ، وقال:

ـ جميلة جدًّا.

أحسست بشيءٍ ما يزحف في أعماقي. قلت:

ـ ومميتة، مثل نبتة قفّاز الثعلب. لا تنخدع بالمظاهر.

لم أتمكّن من رؤية وجهه بوضوح من تحت ضوء النجوم، لكنّه لاح مقطّبًا، مشيحًا بوجهه جانبًا. أشعل نور مصباحه اليدويّ، وكأنّه يوشك أن يمضي في سبيله.

قلت من غير استعداد لمواجهة بيتي الفارغ بعد:

ـ قال صاحب ديوان إنّنا نشاهد الوديان مغطّاة بنبات قفاز الثعلب عندما ذهبنا نتمشّى قبل اليوم، وأردت أن أقطف تلك النباتات لأنّها كانت غاية في الحسن والجمال، ولكنّه أخبرني أنّ أجمل النباتات والفطر المزروعة على التلال يمكن أن تكون سامّة جدًّا.

وعلى مسافة غير بعيدة من بلدة رانيكهت، كان صاحب ديوان قد قال أثناء إحدى تلك النزهات، التي قمت بها وإيّاه سيرًا على الأقدام في السنتين الأوليين، إنّ امرأة وطفلها أُصيبا بالتسمّم نتيجة تناولهما نبات الفطر بعد طبخه في المنزل. وكانا قد أكلا الفطر على مائدة طعام رفقة خمسة أشخاص آخرين.

ولم يتذكّر لاحقًا أحد من هؤلاء من تناول طبق الفطر ومن لم يتناوله، وفي تلك الليلة ازرقَّ وجه الطفل وبدأ يرتجف ويتقيّأ. وعند انبلاج الغبش، أُصيب بنوبة ارتعاش وارتخت عضلاته وتوقّف عن التنفّس. أمّا الأمّ، فقد انتفخت وكأنّها التُقطت من المياه بعد مرور أيّام على غرقها. ولو تعرّضت لوخزة دبّوس لانفجرت من فورها. كانت المرأة تقطن في قرية نائية، والدروب التي تربطها بالعمّ قد اكتسحتها مياه الأمطار، ولم يكن في الإمكان الوصول إلى أيّ مستشفى، وإن كانت قد لبثت في قيد الحياة ثلاثة أيّام أخرى.

لماذا لم يتسمّم أحدٌ آخر من أولئك المتحلّقين حول المائدة بذلك الفطر؟ قال صاحب ديوان إنّ الحادث يذكّره برجل عجوز غريب الأطوار عند النائب في محكمة سوراجغاره، وكان قد مضى عليه هناك زمن طويل يرقى إلى عهد والد النائب. كان يرتدي ثيابًا بنّيّة ويعتمر بعمامة خضراء، غائر الوجه، كأنّه وجه رجل يتضوّر جوعًا. يسير ساعات طويلة في الغابة ويعود أدراجه حاملاً حقائب من قماش مملوءة بنباتات يختلي بها في مختبره الذي كان وكر دجل وشعوذة، يحتشد بدوارق زجاجيّة ومصابيح بنزن[١] وأنابيب اختبار ومقاييس منزلقة تتحرّك على أداة مدرَّجة للحصول على الكسور الدقيقة، وفي اللحظة التي ينفتح فيها الباب قيد أنملة لكي يدخل، فإنّ الرائحة التي تنبعث منه تشبه تلك الرائحة التي لا توجد إلّا في الهلوسات والكوابيس. ولهذا، فإنّه عندما يغلق الباب، تراودك الأفكار إن كنت تتخيّل كلّ ذلك! وقد راجت شائعات مفادها أنّه يحضّر السموم في ذلك الوكر، وقد تعزّزت تلك الشائعات بانهيار صحّة الناس وموتهم الذي يتعذّر

---

(١) مصابيح بنزن Bunsen burners: أنبوبة يدخل إليها الهواء فيمتزج بالغاز، محدثًا شعلة زرقاء حامية جدًّا، (المترجم).

معرفة سببه ممّن كانوا في المحكمة واصطدموا بالنائب أو تشاجروا وإيّاه. وكان النائب قد زعم أنّ الرجل يصنع الدواء، ولكن صاحب ديوان قال إنّ ثمّة خيطًا رفيعًا يفصل بين الأدوية والسموم، وإنّ نبتة قفّاز الثعلب، شديدة السمّيّة وبالغة الجمال، تنتج أوراق الديجيتاليس المجفّفة، وأنّها إذا ما أُخذت بكمّيّات صحيحة، فإنّها تفيد في علاج اضطرابات القلب.

وقال صاحب ديوان يومئذٍ ضاحكًا:

ـ وليس للقلوب المحطّمة مثل قلبك أو قلبي يا مايا! لأنّ مثل هذه القلوب لا علاج لها سوى الموت، وهو ما يمكن أن توفّره أيضًا نبتة قفّاز الثعلب.

في هذه الأثناء، وعلى الرّغم من برودة تلك الليلة الربيعيّة، كنّا قد جلسنا على الدرج المؤدّي إلى الباب الأمامي، لا تفصل بيننا سوى بوصات. وكان في وسعي أن أحسّ بدفء ڤير على امتداد ساقيّ. ومسّ كتفانا أحدهما الآخر مرّتين مصادفة، ولكنّه لم يتحرّك من مكانه، وبدأت بومةٌ نعيقها بين الفينة والفينة، خفيضة الصوت وكأنّها تؤكّد مدى الهدوء الذي خيَّم على سفح التلّ. وتوقّف قِدْر الضغط العالي عن الأزيز، وأوى تلفاز موظّف مصلحة الماء إلى النوم، وشاهدت ستارة تتأرجح في منزل شارو، لا بدّ أنّ العمّة تسترق السمع.. ونهضتُ من مكاني قائلة:

ـ تأخّر الوقت. لقد استرسلت في الكلام طويلاً، وعليك أن تنصرف.

كان في وسع الموظّف مشاهدتنا من منزله، وممّا لا ريب فيه أنّ الأقاويل سوف تنتشر غدًا أثناء رعي الأبقار أو ملء خزّانات الماء.

ومن شأن العمّة أن تقول قبل أن تبدأ حَبْكَ قصّتها:

ـ يا لتلك المعلّمة!

ورآني ڤير أرنو إلى نوافذ منزل العمّة، فقال:

ـ نعم، تأخّر الوقت. ولا بدَّ أنّ بائع بلدة رانيكهت الجوّال مشغول بجمع الحاجيات.

ثم نهض ووضع، ويا للدهشة، أحد ذراعيه من فوق كتفي وعانقني بسرعة، وشعرت بذقنه تستقرّ على شعري. توارى بعد ذلك عن الأنظار، وضوء مصباحه يتراقص ويتقافز وكأنّه يراعة كبيرة، في حين كان يمضي في سبيله. قبل بضعة ليال، عندما كنت أتمشّى وإيّاه هابطين التلّ مثلما هبطنا في هذا اليوم، شاهدنا خمس يراعات تتراقص على بعد بضعة أقدام، فتوقّفنا، وأطفأ ضوء المصباح اليدوي، وفي برهة بدت طويلة طول الأبديّة وقصيرة قصر الثانية، لبثنا واقفيْن نحدّق إلى كريات الضوء الصغيرة تسابق إحداها الأخرى، بعد أن هزأت بها الأدغال، لتظهر للعيان من جديد.

لففت لفاعي جيّدًا من حولي وسرت بمحاذاة منزلي مرورًا بأوراق الشجر ذات اللون الأحمر القاني التي أطلقت سحابات من أريج ليموني. عدت بذاكرتي إلى ذلك الصباح الذي غادر فيه مايكل في آخر رحلة له، وكنت قد رافقته إلى محطّة القطار لوداعه، ووقفنا على رصيفها، وتلامست أردافنا وأكتافنا بالقدر الذي كان يتجرّأ فيه على ذلك، إلى أن أُعلن عن بدء الرحيل، وتحوّلت فوضى الأهالي على الرصيف إلى أذرع ملوّحة، وبدأ القطار يغادر.. قلت:

ـ اذهب، وإلّا سيفوتك القطار.

أمسك بي لحظة وقبّل قمّة رأسي وهرع إلى القطار. كانت تلك

هي آخر مرّة شاهدته فيها، وآخر مرّة يلمسني فيها أيّ رجل ـ حتى هذا المساء.

كانت روابي التلال المحيطة بي ظلالاً. وبعد برهة من الزمان، أُطفئت الأنوار في منزل العمّة ومنزل الموظّف. ولاحت السماء في الظلمة الحالكة شاسعة جدًّا والنجوم متدلّية والأشجار أشدّ قتامة. وظهر نصف القمر منكفئًا، محشورًا في مجموعة من الأغصان. وبعد أن أضحيت وحيدة مرّة أخرى، سرى في جسدي من جديد شيء من الرعب الذي انتابني أثناء عرض الصور. تلك المرأة صاحبة الوجه المعذّب وذلك الجليد والماء الأخضر ـ لم تكن كلّها في منطقة روبكوند، بل كانت نهرًا في كشمير، لكن ما مدى اختلاف روبكوند عنها! وشعرت بقشعريرة تسري في أوصالي بدءًا من مؤخّر عنقي نتيجة هلع لم أستطع تحديده. وتذكّرت ما قاله كوربيت من أنّه كان يشعر بالنمر آكل البشر حتى وإن لم يشاهد نمرًا ما. وكتب في أوراقه: «شعرت أنّني في خطر وأنّ الخطر الذي يتهدّدني كان على الصخرة أمامي، ولكن عدم مشاهدتي أيّ حركة لم تطمئنني بأيّ حال من الأحوال ـ لأنّ آكل البشر كان على الصخرة، وأنا متأكّد من ذلك».

كنت قد طبعت على الآلة الكاتبة ثلاثًا من مخطوطات صاحب ديوان، وكانت الأسطر آنفة الذكر محفورة في ذاكرتي، إذْ لم تكن كلمات كوربيت واضحة وصريحة كما هي الآن. ولهذا فهمت الآن ما الذي كان يعنيه، وكانت الفكرة مفهومة أكثر لأنّها غير معقولة.

رفعت بصري إلى أطراف أشجار أرز الهملايا الممتدة، وكانت عالية جدًّا، لا تستطيع سوى العقبان الوصول إلى قمّتها، ولم تكن لتخبر أحدًا عمّا تشاهده من ذلك الموقع. وكان كلّ غصن فرعي يبلغ

من الكبر والاتّساع ما يجعله يصلح لأن يكون شجرة في ذاتها. وفي لحظة انتابني فيها دوار، شعرت أنّني الإنسان الوحيد الذي ظلّ على قيد الحياة بعد أن لبث ملتصقًا وحده بفعل الجاذبيّة بالكرة الأرضيّة التي تدور وتدور، لا أستطيع عمل شيء سوى التشبّث في مكاني خشية أن تزلّ قدماي وأجد نفسي مرميّة بعيدًا.

* * *

١٤

راودني في تلك الليلة حلم وكأنّه حقيقة، تدحرجت فيه جماجم أسفل المنحدرات البيض وتساقطت في برك من ماء أخضر اللون. وشاهدت امرأة بغطاء رأس تشقّ طريقها وسط سفح مكسوّ بالثلوج. ثمّة من يلتقط لها صورًا أثناء محاولتها الصعود ويقول لها: ابتسمي. كان الصوت هو صوت ڤير، ثم التفتت المرأة نحو مايكل وإذا به يهوي بغتة ويتقلّب على حافّة السفح. وفي ما كان يسقط وسط ذلك الفضاء الأبيض متّجهًا نحو الماء، شعرت أنّني كنت أسقط وإيّاه، متخبّطة، متحرّرة من كلّ شيء، بلا حول ولا قوّة ، إلى أن استيقظت وأنا أتصبّب عرقًا من تحت البطّانيّات.

كان قد مرَّ وقت طويل على صوت أبواق الجيش في المعسكر، وكانت الشمس قد تخلّلت النافذة ساطعة. اليوم هو يوم عطلة، وفي وسعي أن أسمع الأطفال يلعبون وصوت صندوق الموظّف يصدح بموسيقى عالية تتردّد في جانب التلّ. وكانت الجهة التي تجلس فيها العمّة تسودها أحاديث، وكأنّها صرخات عالية من تحت نافذتي.

شخص ما نصب أسلاكًا شائكة من حول رأسي وأضرم فيه النيران. هبطت متعثّرة نحو المطبخ لأعدّ قهوة لنفسي. كمّ من شراب الرّم احتسيت في الليلة الفائتة؟ كأسًا واحدة في منزل صاحب ديوان، لكن هل شربت كأسًا أم كأسين بعد مغادرة ڤير؟

جلست إلى طاولة العشاء رفقة قهوتي ومسكّن للآلام. تنبّهت إلى قصاصة ورق مألوفة لي فوق الطاولة، وعليها علبة مربّى: إنّها قائمة كهرباء صاحب ديوان. كان قد طلب منّي أن أتولّى تدبير أمرها ـ حدث ذلك قبل أسبوع واحد، وقد تأخّرت عن الدفع الآن، فأصبح لزامًا عليّ أن أدفع غرامة. ما مقدارها؟ رنوت إلى القائمة، فوجدت فيها زيادة مقدارها ثلاثون روبيّة. ليس مبلغًا كبيرًا، وكان اليوم المحدّد للدفع يفوتني كلّ شهر تقريبًا. أمّا اليوم، فإنّني أشعر كأنّ شخصًا ما قد شدَّ من ذلك السلك شدًّا قويًّا حول رأسي. غطّيت عينيَّ المؤلمتين بكفَّي، فشعرت بهما وقد فاضتا بالدمع. إنّني دائمًا في ورطة مع الآنسة ولسون، والتلميذات أخفقن في امتحاناتهنّ، ومنزلي في حالة يُرثى لها لكثرة ما فيه من أشياء قديمة لا نفع فيها لأنّني لا أستطيع أن أرمي بها خارج المنزل. وفي كلّ شهر أدفع غرامات متأخّرة عن الدفع من مرتّبي الضئيل، لأنّني أؤجّل الدفع دومًا. أعزّ مخلوقين لديّ وهما أمّي ومايكل غيّبهما الموت، وتقدّم العمر بأبي وهو يعيش وحيدًا في ذلك البيت الفسيح الذي يتردّد الصدى في جنباته في مدينة حيدرأباد، في حين أحيا وحيدة في بيتي على بعد آلاف الأميال عنه. نعم، أنا وهو، على درجة متساوية من العناد والصلابة، ولم نجد وسيلة يعود بها أحدنا إلى الآخر. وضعت رأسي فوق المنضدة وأجهشت في البكاء.

وبعد برهة وجيزة، رفعت رأسي وبلعت قهوتي الباردة برودة

الطين، وقرّرت أن أزور قبر مايكل. فكّرت أنّني لو ذهبت إلى قبره وكلّمته لهدأت نفسي، وذابت العقدة في حنجرتي التي ظلّت عالقة فيها منذ مساء الأمس، والقائمة المستحقّة الدفع منذ زمن، فسوف أسدّدها في طريقي.

هبطت في طريقي وتوجّهت إلى دائرة الكهرباء سالكة مختلف الدروب المختصرة من وراء بيوت الأهالي. مررت ببيت تيواري السبّاك الذي رفع يديه محييًا إيّاي، ومن أمام ثلاث عربات عسكريّة زيتونيّة اللون يبلغ حجم الواحدة منها حجم غرفة نومي. ثم مررت من أمام لوحة كُتب عليها «منطقة عسكريّة، قد تتعرّض للاستجواب»، ومن أمام جنود يقفون في حالة استعداد وتأهّب طوال النهار عند بوّابة المكان المخصّص لإقامة الضبّاط، ومن أمام السيّد قريشي الذي أنزل نافذة سيّارته وقصَّ عليَّ قصّة طويلة عن قيادته سيّارته بحثًا عن بيت لأقرباء تلقّوا إنذارًا بإخلاء منزلهم.

ـ مستحيل يا مايا. لا يمكن العثور على ملجأ من الصفيح. يمكنك أن تعثري على الذهب مخفيًا تحت شجرة في رانيكهت أكثر ممّا يمكنك العثور على مكان تعيشين فيه!

حاولت أن أسرع وأبتعد عن باندي المحامي العجوز الذي يعرج في مشيه، ولكنّه أوقفني وقال وعلامات القلق مرتسمة على وجهه:

ـ إلى أين يا سيّدة مايا، إلى أين؟ أخبريني! هل تعلمين أنّ في كندا مدينة اسمها لندن أيضًا؟ هل تعتقدين أنّ ثمّة بلدة في العالم تُدعى رانيكهت أيضًا؟ هل يمكنك أن تخبريني يا مايا عن الشيء الحقيقي في هذا العالم؟ لم أظنّ مدينة تمبكتو حقيقيّة حتى الأسبوع الماضي، لكن حفيدي الصغير البالغ سبع سنوات يعرف أكثر ممّا أعرف، يقول لي:

«لا يا جدّي! إنّها مدينة من مدن الصين!» الطفل هو جدّ الإنسان. إنّني أحسّ بهذا كلّ يوم.

في الوقت الذي سددت فيه القائمة، ووصلت الجدار المنخفض المتداعي حول المقبرة، وسرتُ من تحت القنطرة الحجريّة في اتّجاه مايكل، تحوّل صداعي إلى ضربات مطرقة مسدّدة إليّ. وصلت القبر وقد استبدّ بي ألم شديد وعجزت عن فتح عينيَّ أو رؤية ما هو أمامي. فكّرت أنّني سلكت طريقًا غير صحيح ووصلت إلى قبر آخر وبدأت أتعثّر هنا وهناك، عندما توقّفت ورنوت إلى شاهدة القبر من جديد، فوجدت القبر قبره ـ واطئًا ومظلمًا ومربّعًا منقوشًا عليه اسم مايكل والكلمات: من ذلك الوقت فصاعدًا. وكان القبر من حجارة متواضعة وبلا أيّ نقوش أو زينة، ومن فوقه زجاجة مكسورة واحدة وأخرى منتصبة. وكان الزجاج المهشّم ينتشر من حوله. أمّا زهور الزنبق البيض التي كنت زرعتها، فقد اقتُلعت من مكانها ورُميت جانبًا، فذوَت أوراقها، وباتت الدرنات المنتشرة عليها بلا حول ولا قوّة تحت أشعّة الشمس. وكانت بعض النباتات ذات براعم والبعض الآخر ذات زهور ذابلة.

في اليوم الذي دفنت تلك العلبة المحتوية على رماده وزرعت النباتات بصليّة الشكل، لم يكن أحد يرافقني سوى الآنسة ولسون. ولم تعتقد آنئذٍ أنّ دفن علبة صغيرة من الصفيح يستحقّ جلب حفّاري القبور من الكنيسة، ولهذا وقفت بجانبي، تقرأ في صوت عالٍ من الإنجيل، ولكن صوتها المثير للسأم حوّل الكلمات الجميلة إلى أخرى غير مصقولة ورتيبة، في حين كنت أحفر بآلة صغيرة ذات حافّة مقوّسة وكنت معتادة على استعمالها. كان ذلك اليوم باردًا، اكتسحت فيه الريح الرقيقة أشجار الصنوبر المحيطة بالمقبرة. وكانت الأرض قد

اكتست بطبقة صلبة من الجليد. وعلى مقربة، ثمّة دغل يحرق الجلد إذا ما مسَّه. وكانت الآنسة ولسون تتوقّف عن القراءة بين الفينة والفينة وتقول لي:

ـ استمرّي في الحفر، ثلاثة أقدام في الأقلّ.

وكان لُغدها يتأرجح يمنة ويسرة، وبدت الشامة من تحت عينها اليمنى تهتزّ. امتصّت سنّها الناتئ وأصدرت صوتًا أشبه بصوت قبلة أثناء قراءتها. وعلى الرّغم من أنّني كنت أعلم أنّها رافقتني بدافع الشفقة والعطف ومحاولة مدّ يد المساعدة، إلّا أنّني شعرت نحوها بكراهية لم أشعر بها من قبل تجاه أحد. استغرق الدفن أكثر من ساعة ـ وكانت قد لاحظت الوقت بوساطة ساعتها المدوّرة المذهّبة التي كانت تضعها في رسغها الأيمن، وكانت من مقتنيات جدّها لأمّها من كوزيكودي الذي كان يشتغل جابيًا، وأنّ الساعة هديّة قُدّمت له لمناسبة إحالته إلى التقاعد، كما قالت الآنسة ولسون. وكانت تقول بين الفينة والفينة:

ـ الساعة الآن الحادية عشرة. لم تخطئ هذه الساعة أثناء السنوات الستّ عشرة الماضية. لقد مضت نصف ساعة حتى الآن. كان ينبغي لنا أن نأتي بالبستاني إلى هنا. كنت أتخيّل أنّكِ قادرة على حفر حفرة صغيرة. وأنا أسرع منك في الحفر..

ولكنّها لم تعرض عليَّ ولو مرّة واحدة تولّي مهمّة الحفر.

وفي لحظة عابرة، مرّت بخاطري فكرة أنّ العلبة التي تحتوي على رفات مايكل قد نُبشت من القبر ورُميت بعيدًا، شأنها شأن ورود الزنبق، ولا بدَّ أنّها صدئت أو تحلّلت تمامًا. ربّما رمى بها العابثون أسفل الوادي. سرت هنا وهناك في حالة من الذعر والهلع، باحثة عن

العلبة، ثم قرّرت أنّني أفكّر تفكيرًا لاعقلانيًّا، وأنّ العلبة ينبغي أن تكون في موضعها الذي دفنتها فيه على عمق ثلاثة أقدام، كما أصرَّت الآنسة ولسون. يمكنني أن ألاحظ أنّ العابثين لم يحفروا عميقًا، ولهذا جمعتُ زهور الزنبق من حول القبر لأزرعها من جديد.

* * *

عندما وصلت مول رود في طريق عودتي من المقبرة، شاهدت السيّد شوهان واقفًا عند مفترق الطريق المؤدّي إلى اتّجاه لايت هاوس. كنت مرهقة وحزينة، قذرة الثياب، سوداء الأظافر مشقّقة بسبب إعادة زرع زهور الزنبق البصليّة الشكل في أماكنها بيديَّ العاريتين. لم يبدُ على السيّد شوهان أنّه تنبّه لحالتي غير المرتّبة، إذْ كان يعاين واحدة من لوحاته القائلة: «قيادتك السريعة تسبّب لك الاصطدام». وكان الطلاء الأصفر ما يزال رطبًا ولامعًا على واجهة الصخرة المعتمة. تراجع قليلاً إلى الوراء ومال برأسه ليرنو من اتّجاه مختلف إلى الكتابة، وارتسمت على فمه ابتسامة رضى. لم أكن قد تنبّهت من قبل إلى الوحمة البنفسجيّة القريبة من أذنه والتي كانت تشبه قارّة أستراليا.

عندما شاهدني، ابتسم وقال:

ـ آه يا سيّدتي. كما ترين، إنّني أفعل ما في وسعي من أجل بلدتنا. أعتقد أنّها ذات إمكانيّات هائلة ولكن ما من أحد عرف كيف يستخدمها. فهذه البلدة يمكن أن تصبح منطقة سياحيّة رائعة، وسوف أعمل على تجميلها من كلّ الأوجه قبل التئام شمل الكتائب العسكريّة في تشرين الثاني.

قلت له:

ـ المقبرة هي التي بحاجة إلى تجميل. هل زرتها يومًا ما؟

أدركت أنّني كنت سريعة الاهتياج، ولكن لم يكن في وسعي تغيير نبرة صوتي.

ومضى السيّد شوهان يقول، وكأنّني لم أتكلّم:

ـ أنت تمرّين من أمام هذه العلامات التي تشاهدين كلّ يوم من دون أن تفكّري في قراءتها، رويدًا رويدًا ـ ماذا سيحدث؟

ابتسم ابتسامة المنتصر وأردف:

ـ سوف تغيّرين من أفكارك، وتبدأين في التفكير على نحو مختلف. أنا لا أعني أنتِ بالذات، فأنتِ مواطنة صالحة...

ولوّح بذراعه نحو الطبيعة واسترسل في كلامه:

ـ هؤلاء القرويّون التعيسون وأطفالهم القذرون... ينبغي لهم أن يتعلّموا.

كان العشب الممتدّ على جانب الطريق يحتشد بأكواب من مادّة البلاستيك وورق السكائر وعلب فارغة من مادّة الألومنيوم كانت تحتوي على مقليّات وغيرها من الأكلات السريعة. نخس النفايات بعصاه، وقال:

ـ أقول لك إنّ ما من أحد لديه إحساس بالمواطنة. فهذا الطريق جرى تنظيفه في الأسبوع الماضي.

وهنا لمح شارو قادمة من بعيد، تضرب بيدها كفل إحدى البقرات كي تحثّها على السير، ولكن بدلاً من ذلك، رفعت البقرة ذيلها وتبرّزت كتلة عظيمة من الروث تصاعد منها البخار في الهواء البارد.

قال السيّد شوهانْ:

ـ هذا ما أعنيه تمامًا. مقرف! مقرف! هل هذا هو الشيء الذي ينبغي أن يملأ معسكرًا للجيش؟ أعني الروث؟

رمقتنا شارو بنظرة تنمّ عن إحساس بالذنب من فوق كتفها، وكأنّها سمعت ما قاله السيّد شوهان وسامت حيواناتها بالقوّة كي تحثّها على الإسراع في هبوط سفح التلّ وتبتعد عن الأنظار. وابتسمت لي ابتسامة خاطفة تنمّ عن اعتذار وهي تمرّ من أمامنا، وتشبّثت برقبة الكلب بيجلي كي تدفعه إلى اللحاق بها، ولكنّه كان يفكّر في شيء آخر.

قلت في محاولة للسيطرة على ارتعاشة صوتي:

ـ ذهبت إلى المقبرة، فوجدت أنّ قبر زوجي لم يكن وحده الذي تعرّض إلى عبث العابثين. بل شاهدت أجنحة الملائكة المنقوشة على أحد قبور العصر الاستعماري قد تعرّضت إلى الكسر، والتحطيم عمدًا. وكانت قبور كثيرة قد تراكمت من فوقها القاذورات. أمّا السياج المحيط بالمقبرة فمحطّم!

قال السيّد شوهان:

ـ أتعرفين ما المشكلة الحقيقيّة التي أعتقد أنّ الحكومة الهنديّة تواجهها؟

ثم توقّف ليعرف مدى تأثير سؤاله، وأضاف:

ـ إنّنا نتّصف باللين، اللين أكثر ممّا ينبغي في كلّ شيء، تمامًا مثلما نحن كذلك في معاملة الإرهابيين الذين يواصلون رمي القنابل هنا وهناك. ما ردّ فعلنا على ذلك؟ لا شيء. وهنا؟ لا شيء أيضًا. الحالة مختلفة. الكلّ مناهض للمجتمع. هل من أحد، مثلاً، يستطيع إيقاف هذه الأبقار عن التبرّز في الشوارع؟

وهنا تنبّهت، فصمتُّ عند سماعه صوتًا يهتف بنبرة أجنبيّة:

ـ آه، انظروا! حفلة علف حيوانات!

لم نتنبّه للرجل الملتحي الذي جلس فوق السفح المعشوشب، وعلّق منظارًا حول رقبته وراح ينظر في اتّجاه السماء نحو سرب من طيور مارّة. وكانت ثمّة امرأة بجانبه ترنو إلى السماء من خلال منظار مماثل.

خفض السيّد شوهان من صوته حتى أضحى همسًا:

ـ ما الانطباع الذي يتولّد لدى سائح من سيّاح بلدة رانيكهت الذي يزورها، متوقّعًا أن تكون هذه البلدة العسكريّة نظيفة ومرتّبة، فيجد بدلاً من ذلك كلّ هذه النفايات؟ لقد سمعت أنّ الناس في البلدان الأجنبيّة يتعيّن عليهم إزالة حتى براز كلابهم من الطرقات.

قلت:

ـ إنّني أحاول أن أخبرك بشيء ما يا سيّد شوهان، بمشكلة حقيقيّة.

ربّما كان صوتي مرتفعًا، لأنّه قال في صوت خفيض وخطير:

ـ لقد سمعتكِ أيّتها السيّدة. أرجوكِ لا ترفعي من صوتك. إنّ الأهالي يرمون بالنفايات في كلّ مكان، وهذه مشكلة كبيرة في بلدة رانيكهت، ليس في رانيكهت وحدها، بل في عموم الهند. فقد شاهدت النفايات في لوكناو وفي باريلي وفي دهرادون ـ وفي كلّ مكان أوفدت إليه. إنّ الأجانب على حقّ عندما يلاحظون أنّ الهند بلد دمّرناه نحن الهنود. إنّنا نطالب بسلال النفايات ولكن لا أحد يستخدمها. أمّا بخصوص القبور القديمة وأجنحة الملائكة، فإنّ الصخر نفسه يُستهلك

ويُبلى بعد عمر معيّن، وقد مرَّ على هذه القبور مائتا سنة. وقبر زوجك الراحل؟ سوف أرسل أحدًا لمعاينته. سوف نتدبّر أمره، فلدينا إجراءات صحيحة لكل شيء.

كنت أوشك أن أتفوّه بكلام لاذع، ولكن أمارات السرور والانشراح بانت على وجهه، فقد بدأ عزف فرقة موسيقى الجيش، وكانت نغمات الموسيقى النحاسيّة قد بدأت تنساب في أرجاء التلال، وتناهت إلى مسامعنا أصوات الآلات الموسيقيّة رافقها صوت الجهير الأوّل، ومقطع من أغنية أحد الأفلام الهنديّة العاطفيّة يقول: «وحيدًا في هذه البلدة، وحيدًا تمامًا، ليلاً وعلى امتداد ما بعد الظهيرة».

وقف السيّد شوهان مغمض العينين من فرط سعادته إلى أن توقّف صوت الموسيقى على أثر هدير صوت الجنرال. كان الجنرال يسير حول المنعطف ويسدّد ضربات قويّة من عصاه إلى بوزو، في محاولة منه لإيقاف الكلب عن جذب قيده والذهاب إلى بيجلي الذي تناهى صوته من حاجز في الجانب الآخر من الطريق.

قال الجنرال وهو يضغط بثقله على عضلات الكلب:

ـ ماذا دهاك يا بوزو؟ إنّني لا أفهمك. ماذا دهاك؟

وهنا لمح الرجل والمرأة المنهمكين في مراقبة الطيور وهتف بهما:

ـ مرحبًا بكما. هل شاهدتما أيّ شيء؟

قال السيّد شوهان وهو يسير نحو الجنرال وقد افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة:

ـ قبل التئام شمل الكتائب، سأجعل من هذه البلدة جديدة. سوف

تكون هذه البلدة نجمة هذه التلال. هذا هو وعدي.

* * *

تخلّيت عن السيّد شوهان ومضيت قدمًا إلى لايت هاوس، وكنت مبكرة أكثر من المعتاد، فوجدت صاحب ديوان، الذي لم يكن يتوقّع زوّارًا في ذلك الوقت، قد اتّخذ مجلسه في الحديقة يتدرّب على مناداة الطيور. وكان من دأبه أن يذهب مرّة واحدة في العام إلى مدرسة القدّيسة هيلدا ويقدّم للأطفال فاصلاً تمثيليًّا يعلّمهم فيه أصوات الغابة وعلاماتها. وقد لبث يؤدّي هذا التمثيل على مدى السنوات الستّ عشرة المنصرمة، وأصبح اليوم جزءًا من الاحتفال السنوي بيوم المدرسة. وكانت قاعة الاجتماعات تردّد في جنباتها أصواته التي يقلّد فيها الفهود والغزلان والبوم، في حين يتّخذ الأطفال مجلسهم في صفوف على الأرض، يهتزّون طربًا ورعبًا في آن. وكانت هذه الفكرة قد واتته من كوربيت الذي كان من مألوف عادته أن يقدّم مثل الأداء في المدارس في ناينيتال. لم أكن قادرة على أن أفهم ما يؤدّيه، خاصّة أنّه ذلك الرجل السريع الاهتياج والانزعاج والمنفرد في عالمه، ولكنّه كان يؤدّي تمثيله أداءً جادًّا، فيبدأ بالتدريب والمران عليه قبل أشهر من موعد يوم المدرسة، لهذا لبثت ساكنة منتظرة إيّاه أن يفرغ من تمثيله. وبعد مدّة طويلة، تنبّه إليَّ، فتوقّف عن إصدار صوت كان قد بدأه، وعبس في وجهي.

ناولته الإيصال عن قائمة التيّار الكهربائي مثلما ناولته جريدته.

نظر إلى الإيصال، وقال:

ـ اليوم؟ كان ينبغي لك دفع القائمة قبل أسبوعين، فهي مستحقّة الدفع منذ وقت طويل، ولا بدّ أنّك دفعت غرامة أيضًا.

كانت ركبتاي وأظافر أصابع يديَّ تؤلمني، وخيَّمت عليَّ سحابة صداع وكأنّه يعود من جديد عن أدنى لوعة أو كدر. وكانت نبرة كلام صاحب ديوان قد جعلت رأسي يمتلئ طنينًا.

قلت:

ـ ليس قبل أسبوعين، أسبوع واحد.

ثم كذبت عليه لسبب لم أفكّر فيه:

ـ لقد دفعتها حقًّا، ولكنّني نسيت أن أسلّمك الإيصال.

فرفع صاحب ديوان حاجبه مرتابًا.

ـ دُفعت. صحيح؟ هذا أهمّ شيء.

استدرت كي أمضي في سبيلي من دون أن أنتظر الشاي أو جلسة مناقشة أخبار الجريدة.

قال:

ـ ماذا دهاكِ؟ لماذا تبدين وكأنّك اصطدمت بشجرة؟

قد يكون صاحب ديوان منحرفًا في مزاجه. فإذا ما شعرت بأيّ ريبة في عواطفه، فإنّك تجده يفيض رقّة وعذوبة. ومع هذا، فعندما تشعر أنّك منسحق الفؤاد، هلوعًا ومفتقرًا إلى اليقين، فإنّه يحوّل هذا الحال إلى نكتة. ولهذا أخبرته بشيء من التردّد عمّا أصاب المقبرة، فبدأت تلوح على وجهه ابتسامة ساخرة قبل أن أفرغ من كلامي.

قال:

ـ يصاب بعض السكارى بالجنون، فتصفين ما يلمّ بهم على أنّ نهاية العالم قد حلّت. لا بدّ أنّ أولئك الأشخاص فتيان مدرسة يبحثون عن فسحة من المكان يقصفون فيها ويعربدون... كما أنّ دكّان بيع

الخمور يقع في نهاية الطريق المؤدّي إلى المقبرة.

- ليس في نهاية الطريق المؤدّي إلى المقبرة، بل على بعد كيلومترين اثنين!

- وما قيمة كيلومترين في هذه الأيّام؟ للأولاد درّاجات ناريّة.

قلت:

- إنّهم ليسوا بضعة سكارى. ألا تقرأ الصحف؟ ألم تسمع أنّ العاملين في الإرساليّات يتلقّون التهديدات والضرب. لقد أخبرتك كيف أنّ هؤلاء الناس المنشغلين في الانتخابات هدّدوني أنا والآنسة ولسون. لقد أصيبت المرأة المسكينة بالهلع والذعر.

- المرأة المسكينة! أنتِ دائمة التذمّر. هذه أغنس، تلك أغنس، أغنس في حاجة إلى تغيير حبليها الصوتيين. ليس ثمّة عجب في أنّ يسوع رفض أن تكون أغنس ولسون عروسته.

كان صاحب ديوان يتكلّم مقلّدًا صوتي بنبرة عالية:

- ما الذي يجعل قلبك ينزف دمًا عليها الآن؟

- هذا أمر مختلف، وهو خطير. أعتقد أنّه أسلوب آخر لإيصال رسالة إلى الكنيسة.

كنت أتعلثم في كلماتي غاضبة، فحاولت أن أهدّئ من روعي.

- لقد لاحظت حدوث أشياء غير صحيحة هناك أثناء الأشهر القليلة الماضية. فمعظم القبور القديمة فقدت أجزاءً منها، كما أنّ قسمًا من الكتابة المدوّنة عليها أزيل منها. وأضحى الملاك الجميل على قبر تشارلي دارلنغ بلا رأس.

- إنّني أقول دومًا: ما فائدة القبر؟ فالإنسان ميت والمرء يتشبّث بعظامه. إنّه مجرّد ذرّات.

بدا صاحب ديوان مكفهرّ الوجه وعنيدًا.

ـ عليك أن ترمي الرفات في النهر سريع التيّار أو انثريها في الجوّ، وهذا يتّصف بشاعريّة أكبر.

قلت بصوت حادّ قدر استطاعتي:

ـ ليس هذا هنا أو هناك، فلذلك القبر قدسيّة عند بعض الناس.

رفض صاحب ديوان أن يأخذني على محمل الجدّ، فصبّ لنفسه شرابًا آخر ووضع من فوقه مقدارًا مماثلاً من الماء حتى امتلأ واتّكأ في مقعده، وقال:

ـ أعتقد أنّ شاندان وبوران وجوشي ويتواري يخفون قنابل في أكوام التبن التابعة لهم، وفي الدكاكين وزرائب الأبقار، كي يذهبوا يومًا ما ويهاجموا مدرستكِ وكنيستك ومعملك المخصّص لإنتاج المربّى. وكذلك صانع الشاي في المعبد الذي يلاحظ نمرًا كلّما باع كوبًا من الشاي. لعلّه يصنع البارود المغلي في دم النمر ونحن نتكلّم هنا. ابحثي لك عن وظيفة أخرى يا مايا، فالفرصة ما تزال سانحة، وعودي إلى اسم أسرتك قبل الزواج.

* * *

١٥

بنهاية شهر نيسان، توارت القمم وراء غمامة غبار هبّت من جهة السهول. وفي باكورة صباحات نادرة، تبدو ظاهرة للعيان، فنتمكّن من مشاهدة صخور رماديّة جرداء على السلسلة الجبليّة التي ينبغي أن تكون مكسوّة بالثلوج. وتناهى إلى مسامعنا من جهة السهول البعيدة صوت الرياح الحادّة وقد بدأت بالهبوب. أمّا هنا، فالجوّ بارد في المساء، والعشب مصفرّ، والأرض مغبرّة ولم يكن الصيف قد حلَّ بعد. وكانت الشمس قويّة، تتغلغل من بين طيّات الثياب وكأنّها نار حامية. ونضبت المياه في أنابيبها وذبلت نباتات الحديقة. وإذا ما أظهرت السماء أيّ علامة تدلّ على تكاثف السحاب، لحذَّرت العمّة شارو وطلبت منها ألّا تُدخل الثياب المغسولة والمعلّقة فوق حبل الغسيل، ولا الفلفل الأحمر المعرّض للتجفيف من تحت أشعّة الشمس لأنّ مفهومها عن المطر هو أنّه مخلوق رقيق الحسّ، يستمتع، يبلّل الحاجيات المعروضة في الهواء الطلق كي تجفّ، وأنّه سوف يفقد اهتمامه ويسير سيرًا متّئدًا إذا ما نُقلت الملابس والفلفل إلى مكان محجوب عن المطر.

بدأت شارو وبوران يبتعدان أكثر فأكثر في الحقول رفقة الأبقار بعد أن استُهلكت كلّ الأعشاب القريبة من المنزل. وعلى الرّغم من الحرارة، فإنّ بوران لم يستحمّ ولم يغيّر كنزته وقبّعته. وعندما كان يمرّ من أمامنا، كان الهواء من حوله معبقًا برائحة حامضة يصعب تنفّسها، هي مزيج من العرق والتبن والحليب والماشية. وكنت في تلك الأيّام أبتعد عن طريقه إذا ما رأيته يقترب.

كانت شارو وبوران يغادران المنزل باكرًا ويعودان إليه متأخّرين وسط رنين الأجراس ونباح الكلب بيجلي الذي نما وكبر، وأضحى ميّالاً إلى اللعب والعبث أكثر من ميله إلى الحراسة. وكان يثب من أمام الماعز، تضرب قوائمه الأرض، ويهتزّ ذيله اهتزازًا غاضبًا. وإذا ما اقترب الماعز منه ليرفسه ردًّا على هيجانه، فإنّه يرى في ذلك تشجيعًا له، فيهرع من حولها وينبح، فتبتعد إلى أعلى السفوح من دون انتظام. وقالت جدّة شارو:

ـ ليس هذا كلبًا بل حمار. كيف سيهتمّ بأمر الماشية؟ النمر نفسه لا يرى جدوى في التهامه.

سمعتُ أصوات النمور تزأر في الليلة الفائتة، كما لو أنّها صوت يشبه صوت نشر الخشب بمنشار، قريبًا جدًّا من المنزل ـ وشممت رائحتها التي تشبه رائحة شعر محترق، فدفنت رأسي في وسادتي. وتمنّيت لو أنّني لم أقرأ ما كتبه كوربيت، لأنّ النمور الواردة في قصص كوربيت كانت تعيش في تلالنا. ولو استطاعت فتح الأقفال المثبتة على الأبواب، لكان في وسعها أن تدخل أيّ منزل كما تشاء في خفّة وذكاء لا يمتلكهما أيّ حيوان آخر يمكن تخيّله. هل تذكّرتُ أن أقفل الأبواب في الدور الأرضي؟ وهل النوافذ محكمة الغلق؟ وبعد أن تقلّبت مرارًا، نهضت للتأكّد.. وعدت أخلد للنوم من جديد. وفي اليوم التالي ورد

إليَّ نبأ مفاده أنّ الجنرال كاد أن يفقد كلبه بوزو بسبب نمر، وقد هرب الكلب، ويا للأعجوبة، مصابًا بجرح بليغ في كتفه.

وفي اليوم الذي أعقب ذلك الحادث، نما إليَّ صوت شارو تطلب من غوري الذهاب والمجيء، يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى، مفعمًا بالأمل والاستفهام واليأس بعد أن تحوّل الوقت إلى أصيل. وطافت شارو في أنحاء السفوح التي يمكنني أن أراها من نافذتي. كانت أجراس بقيّة الأبقار مسموعة وهي تعود من الوادي إلى البيت، ولكن غوري لم يكن بينها.

وفي الغسق، احتشد جمع من الأهالي في الهواء الطلق، وهزّ الموظّف رأسه وأخذ نَفَسًا من سيكارته الرخيصة، وقال:

ـ أطلبوا من الفتاة أن تعود، إذْ لا فائدة من وراء ذلك.

ثم مال من فوق النيران خارج منزله وأذكاها، وأردف:

ـ التزموا جانب الحذر قدر ما تستطيعون، لأنّ النمر إذا ما أراد شيئًا حصل عليه.

قالت العمّة:

ـ ماذا تتوقّع؟ إنّنا نعيش في وسط غابة.

قال سائق سيّارة الأجرة:

ـ قبل أيّام، كنّا نحن الأربعة نقف على قارعة الطريق ـ في مثل هذا الوقت تمامًا ـ وكان كلب لقمان يشمّ شيئًا ما في المكان، على بعد قدمين لا أكثر. وقبل أن نعرف ما يحدث، ظهر نمر للعيان من بين الأدغال وخطفه. لحقناه بالعصي وصحنا به وصرخنا، ولكنّه كان غاية في السرعة.

ـ ثم ماذا؟

ـ ماذا تعرفون؟ ترك الكلب! ولكنّ الكلب كان قد مات ـ ربّما من شدّة الخوف ـ بعد أن أُصيب بجرح بليغ ونزف منه دم غزير. وكان نصف جلده وفروه ممزّقين. كان في وسعنا أن نرى العظام الكامنة قرب رأسه.

كان لقمان دفع خمسمئة روبيّة ثمنًا له عند شرائه. وكان يطعمه البيض المسلوق كلّ يوم على امتداد السنة الماضية، ويردّد أنّه كلب حراسة ثمين.

ابتسم الرجل الآخر، وقال:

ـ يا له من ابن زنى. ليس له مال ينفقه على زوجته وأطفاله، ولكنّه كان يتأكّد من أنّ الكلب يحصل على البيض المسلوق كلّ يوم!

قالوا:

ـ مسلوق! ولا حتى نيء، بل مسلوق!

ثم أمسك أحدهما بالآخر وانفجرا في الضحك.

قالت العمّة في صوت خشن:

ـ لماذا لا تخرجون وتساعدون الفتاة في البحث عن بقرتها بدلاً من الجلوس هنا وسرد الحكايات السخيفة؟

عدّلت من ثوبها وانحدرت هابطة السفح ممسكة عصاها الطويلة بيدها، وهي تهزّ رأسها استقباحًا لهم و.. تدمدم.

عثرت شارو على غوري في فجر اليوم التالي في وادٍ عميق. وكانت البقرة قد سقطت متعثّرة. واثنتان من قوائمها بارزتان في زاوية غريبة، ما يدلّ على أصابتها بكسور حتمًا، كما أنّها بدت مصابة بجرح

غائر بالقرب من رقبتها. كانت على قيد الحياة، ولكنّها مستلقية تنظر نظرات هادئة وشاخصة من دون أن يصدر عنها أيّ صوت. بينما الجرس المعلّق في رقبتها محمرّ من الدماء شأنه شأن البقع البيض على جسمها الغامق كلّه تقريبًا.

تجمّع الأهالي حول البقرة. وقدّمت لها شارو قطعًا من الخبز، وقالت بعد أن فاضت الدموع في عينيها:

ـ كلي شيئًا ما يا غوري جوشي.

حاولتْ أن توقف نزيف الدم من الجرح في رقبتها بأن ضغطت وشاحها عليه، ولكن سرعان ما تشبّعت قطعة القماش بالدم في لحظة واحدة.

قالت:

ـ علينا إحضار الطبيب البيطري.. سوف أذهب لإحضاره.

قال الموظّف:

ـ لا فائدة من الطبيب البيطري الآن.

ندَّت عن الواقفين همهمات تنمّ عن الموافقة على رأيه.

قالت العمّة:

ـ إن تمكّنتم من إخراجها من هنا، فعليكم في طلب الأوهجا. أرسلوا شخصًا ما لإحضاره، ولكن هل تراه سيأتي؟

كانت جدّة شارو قد ذكرت لي قبل ثلاثة أيّام كيف أنّ الأوهجا كان يشمئزّ من الطبيب البيطري الجديد. وكان هذا الطبيب رجلاً من أهل المنطقة، يتكلّم بلهجة بهاري المحلّيّة ما أكسبه قلوب الناس ـ أمّا الأطبّاء البيطريّون الآخرون فكانوا غرباء من منطقة السهول. وهكذا

قطع الطبيب الجديد رزق الأوهجا. وعلى العكس من الطبيب البيطري، فإنّ الأوهجا لم يكن موظّفًا في المستشفى، وكان قد قال لجدّة شارو إنّ طبقه سيكون خاليًا من الطعام وقدحه خاليًا من الشراب إذا ما استمرّ الأهالي في عدم جلب حيواناتهم له للعلاج.

كانت الحكومة تدفع مرتّب الطبيب البيطري كلّ شهر بصرف النظر عن عدد الحيوانات التي يعالجها، ولكن من يدفع للأوهجا؟ ينبغي له أن يشقّ طريقه في العالم بأساليبه الخاصّة.

قالت العمّة:

ـ ها هو! إنّه جالس في وسط كلّ هذه الأشياء القديمة في دكّان كاباري يهزّ صولجانه ويصيح في كأس شرابه: سوف أقتل ابن الزنى المجنون، ذلك الطبيب البيطري، سوف أضربه في خصيتيه!

وقلتُ له: إنسَ كلّ هذا أيّها الرجل العجوز سوف يُهزم عملك هزيمة منكرة، وباتت أيّامك معدودة. ثم ضحكت عليه. ولن يأتي الآن لأجلي.

قال سائق سيّارة الأجرة:

ـ لم لا يأتي؟ إنّه في حاجة إلى العمل.

ثم استقلّ سيّارته ومضى إلى مول رود ليذيع النبأ: كلّ من يشاهد الأوهجا، عليه أن يخبره أن يأتي إلى هنا من فوره.

قالت العمّة:

ـ أنتم أهل المدن لا تصدّقون شيئًا من هذا الكلام، لكنَّ شخصًا ما مارس سحره على تلك البقرة، أو أنّ ريحًا شرّيرة هبّت بلعناتها عليها.. وإلّا ما سبب تجواله حتى هذا الوقت؟

قال الموظّف وهو يهّز رأسه هزَّة تنمّ عن تشاؤم:

ـ نعم، الأوهجا وحده يمكنه عمل شيء ما.

قلت:

ـ لا تتركوا شارو خارج المنزل طوال الليل، فالجوّ شديد البرودة ومحفوف بالمخاطر.

لكنّ الجدّة كانت تعرف أن لا طائل من وراء ذلك، فلم تحاول توجيه نداء إلى شارو كي تعود أدراجها إلى المنزل. وفي ذلك المساء حملت وإيّاها كمّيّة من الخبز للبقرة وطعامًا للفتاة، وساعدتها في إضرام النار وعادت من جديد. وسوف تؤدّي كلّ الأعمال، التي كانت من واجبات شارو، بنفسها، ولن تطرح عليها أيّ سؤال مهما طال أمد بقاء البقرة في قيد الحياة. من يدري، فلربّما ستثمر جهود شارو وتحدث أعجوبة!

جاء الأوهجا عصر اليوم التالي وأضرم النار بالقرب من غوري جوشي ورمى فيها خليطًا من الأشياء، ثم طلب من صبيان المحلّة الصغار أن يصعدوا التلّ ويهبطوا منه مرّات ومرّات تلبية لمطالب الأوهجا: السمن والتمر الهندي ومقدار من الأرز غير المطبوخ! وحبّة ليمون وفلفل أخضر! وقطعة ثياب صفراء اللون. وهكذا.. ولوّح بريش طاووسه من فوق البقرة، وأنشأ يغنّي ويتمايل وصاح مرّة ثانية وثالثة وهزّ رأسه في عنف حتى خُيّل للناس أنّه سوف ينفصل عن رقبته. ثم هدأ ولبث ساكنًا. وبعد فاصل قصير انتظر أثناءه الناس في ترقّب واحترام، أصدر حكمه:

ـ عندما يحين الموعد للعودة إلى عالم الأشباح والأرواح، لا يمكن لأيّ فرد أن يقفَ بين الحياة والموت.

ثم نفض ثيابه وريشه وحمل صولجانه وابتعد. في هذه الأثناء، كان قد نشر سحره في جميع أنحاء التلال وتناول ثلاث وجبات من الطعام في بيت العمّة وحصل على عشرين روبيّة.

لبثت شارو رفقة البقرة طوال اليوم التالي واليوم الذي أعقبه. وكان بوران يأتي أثناء النهار عندما يرعيان قطعان الماشية الأخرى، ويجلس بجوار البقرة، يمسّدها ويضغط خليط أعشابه المطحونة على جروحها ويثرثر في أذنها. وفي الفترة التي كان بوران حاضرًا، بدت عينا البقرة تومض بالحياة وألمها يخفّ، ولكنّها سرعان ما كانت تعود إلى غيبوبتها.

وكان لدى شارو زائر آخر أيضًا. ففي مساء كلّ يوم، وبعد أن يتلاشى خطر الآخرين، كان كوندان سينغ يتسلّل من أعلى السفح ويتّجه إلى الغابة ويجلس بجانب شارو حتى يحين موعد تقديم طعام العشاء في منزل إسبين. كان يجمع الحطب لإضرام النار بالقرب منها لإبعاد النمور، وكان اشترى ألعابًا ناريّة صغيرة تصدر أصواتًا وضوضاء من السوق لِبَثّ الرعب في نفوس الحيوانات، ويعود أدراجه مع تقدّم وقت الأصيل لاستئناف عمله، وبعد أن يفرغ من تقديم العشاء ويكمل واجباته، يعود مرّة أخرى حاملاً مصباحه ويهبط السفوح المظلمة، يشقّ طريقه بين نبات العلّيق وجذوع الأشجار. وكان يجلب معه أيّ نوع من الطعام يقدر على ادّخاره من وجبة عشاء مدير الفندق، ويفتح أمامها علب الطعام المعدنيّة لتأكل منها. كان يريد أن تحظى شارو بأفضل طعام، بأشياء لم يسبق لها أن أكلت مثلها مثل كرات اللحم في اليوم الأوّل والدجاج في اليوم الثاني والرزّ المسلوق والكاري بالبيض.. وبعد تناول الطعام، كان أحدهما يتشبّث بالآخر قرب النار تغطّيهما بطانيّة يكفي سمكها لدرء غائلة برودة ليالي الصيف. وعندما تزحف

أشعّة الشمس من فوق سلسلة التلال، يغادر المكان ليباشر في خدمة مدير الفندق وزوجته، وذلك بتقديم الشاي والبسكويت من نوع ماري وهما في سريرهما.

ظنّ كوندان سينغ أنّه قد لا يذوق طعم السعادة مرّة أخرى على الرّغم من بكاء شارو ونشيجها الذي بدّد صمتها العميق. ففي اليوم الرابع، غامت عينا غوري جوشي المفعمتان بالألم، وأغمضتا.

* * *

١٦

كان منزلي متناهيًا في صغر حجمه. ففيه غرفتان ومطبخ صغير ببابين، يطلّ أحدهما على وجه صخرة تغطّيها زهور بريّة في فصل الصيف. والمسافة بين هذه الصخرة والباب على درجة بالغة من الصغر يضطرّ المرء معها إلى أن يسير بينهما سيرًا جانبيًّا. وكانت الحجرة الكبيرة في الدور الأرضي تؤدّي إلى شرفة تواجه جهة الشمال حيث كنت قد علّقت نبتة الراعي التي تبدو ورديّة وحمراء عند تفتُّح زهورها. وكنت في عصر كلّ يوم، وبعد الانتهاء من عملي في المدرسة والمعمل وبعد شرب الشاي رفقة صاحب ديوان وقراءة الصحف، أعود أدراجي إلى البيت لأجلس في شرفتي منتظرة حتى تأفل الشمس وتغيب من فوق القمم المكسوّة بالثلوج.

لم أكن مدبّرة منزل جيّدة، ولكنّني من جهة أخرى، لم أستطع إرغام نفسي على استخدام من يتولّى مهمّة تنظيف المنزل. فأنا لا أملك فائضًا من المال، فضلاً عن أنّني لم أرغب في تطفّل الناس ومعرفة ما أملك. وكانت المرّة الوحيدة التي جاءت فيها صديقة لي منذ أيّام

الطفولة للإقامة معي في رانيكهت قد لبثت تلقي محاضراتها عليَّ في صباح اليوم الثاني: بالله عليك يا مايا! إنّك لن تستخدمي هذا المصباح المكسور من جديد! وهذا الجهاز القديم الخاصّ بتحميص الخبز؟ هل سبق وأن عمل؟ لِمَ لا ترمين ذلك الصندوق المعدني القبيح الشكل وتشترين منضدة جانبيّة مناسبة؟ آه، يا الله! انظر إلى أنسجة العناكب!

وعندما أخبرتها أنّ إزالة أنسجة العناكب كانت من مهامّ مايكل، لأنّني لست طويلة بما يكفي رمقتني بنظرة ساخطة وصعدت من فوق كرسي وبيدها مكنسة بهدف التنظيف. ثم لبثت تلتقط الثياب من خزانة ملابسي وتعرضها أمامي، ممسكة إيّاها بين سبّابتها وإبهامها وتقول:

ـ إيه.. ثمّة طوفان من الضحايا ـ البشر الذين سوف يرفضون تسلّم هذه الملابس إذا ما أعطيتها لهم!

أحيانًا، كانت تنتابني نوبات تنظيف، ولكن في اللحظة التي أوشك أن أرمي بشيء ما، أجد نفسي أتوقّف بسبب ذكرى مرّت بي: فذلك الطاس الأزرق المثلوم والمصنوع من الخزف كنت قد اشتريته أنا ومايكل عندما شيّدنا منزلنا. أمّا تلك الكنزة المرقّعة والمرتّقة ولم يسبق لي أن لبستها، فهي من حبك والدتي. ومحمصة الخبز هديّة صاحب ديوان لي أثناء أوّل شهر من إقامتي في بلدة رانيكهت، وكانت قد انطلقت منها شرارة أدّت إلى تعطّلها وأخفقت كلّ محاولات إصلاحها.. ولكنّني ما زلت أحتفظ بها. ومع مرور السنين، أضحت الجلبة والفوضى جزءًا من طوبوغرافيّة المنزل الباعثة على الارتياح. فبعد أن أكون قد أقفلت الأبواب ليلاً وأسدلت الستائر، وجلست بجانب كأسي من شراب الرّم، كان الإحساس يساورني في أنّ المنزل يتنهّد وإيّاي، كأنّه بدأ يسترخي مثلي.

كان أنظف جزء في المنزل هو الفناء الترابي الذي يحيط به، إذْ كانت شارو تكنسه صباح كلّ يوم وكأنّه امتداد لفناء دارها. وكانت تأتي مبكرة في صباح كلّ يوم حاملة مكنستها، ومغطّية فمها وشعرها بوشاح طويل، فتكنس وتجمع العشب وتكنس ثانية وتترك سحابة من غبار وأوراق جافّة، ثم تعود بعد مرور دقيقة واحدة وترشّ قدحًا من الماء أمام الباب ليستقرّ الغبار. وعندما تصلني رائحة التربة المبلّلة داخل المنزل، أعرف أنّها فرغت من عملها.

في الأيّام التي أعقبت وفاة غوري جوشي، لم تأتِ شارو، ولم أتوقّع بدوري مجيئها: وقالت جدّتها إنّها منهمكة في التنظيف ولا تدبّر شؤون المنزل إلّا بشقّ النفس، ولكنّها بدأت تتردّد عليَّ من جديد، غير أنّ كنسها كان عشوائيًّا، وظلّت أوراق الشجر في أماكنها الأصيلة من دون أن تجمعها. راقبت حركاتها الكسولة وتذكّرت قلق السيّد شوهان بشأن القذارة في المعسكر ووعده بتحويل رانيكهت إلى سويسرا، وكان قد ذكر أنّه سيتّخذ إجراءً بخصوص عبث العابثين في المقبرة حيث دفن مايكل، ولكنّني لم أشاهد أيّ إجراء من هذا النوع. وعادت الزنابق إلى الحياة من جديد ولم يحدث أيّ ضرر بعد ذلك.

توارت شارو عن الأنظار ساعات طويلة رفقة بقيّة الأبقار والماعز وأحيانًا من دونها. وكانت تترك من ورائها كلبها بيجلي مربوطًا إلى عمود الباب، ساخطًا وناقمًا، ينبح طوال فترة بعد الظهر، وتركت العمّة تنجز الأعمال وحدها في المناطق المزروعة بالخضراوات. وعندما كانت تأكل أحيانًا، فإنّها كانت تعبث بطبق الأرزّ وتدفع معظمه جانبًا. وكنت أسمع صوت جدّتها الحادّ وهي تصرخ فيها:

ـ أتظنّين الطعام ينمو على الأشجار؟ إنّ نصف طبقك من الأرزّ يُرمى إلى البقر لتأكله كلّ يوم. ينبغي لك أن تتضوّري جوعًا يومًا أو

يومين وعندئذٍ سوف تعرفين معنى الطعام!

بدت بلدة رانيكهت طريقًا مسدودًا أمام مدير الفندق، فقرّر أن يعود أدراجه إلى مدينة دلهي. لم أكن أعرف هذا الأمر، ولكن شارو كانت تعرفه. وكان ذلك يعني رحيله ورحيل طبّاخه كوندان سنغ. ولم تكن شارو قد زارت من قبل المدينة التي سيرحل إليها، ولم تتخيّل بأيّ شكل من الأشكال حياته المستقبليّة في مثل ذاك المكان البعيد. ما المغريات والإغراءات غير المتوقّعة التي تحملها تلك المدينة؟ ولم تعرف إن كانت ستلتقيه من جديد!

وفي وقت لاحق، عندما بدأت تتّضح الأشياء أمامي، استطعت أن أفهم ما شاهدته في ذلك الصيف، لمّا توغّلت في عمق الغابة عصر أحد الأيّام. كنت قد سلكت طريقي المألوف المؤدّي إلى المعبد، إلى أن قرّرت وأنا على مقربة من فندق ويست فيو أن أسلك بدلاً من ذلك الطريق المحاذي لغدير الماء لأرى إلى أين يقودني. فهبطت أسفل سفح منخفض، وكانت كلّ خطوة أخطوها وكأنّها تترك مقدارًا قليلاً من ضوء النهار وراءها. ثمّة طريق ما، طرقته أرجل السابلة إلى مسافة ما، لتزداد من بعد ذلك كثافة الشجيرات الدنيا وتلتصق بملابسي الأدغال الشوكيّة. وانساب إلى مسامعي من مكان ما صوت صفير طائر، حادًّا وصافيًا يشقّ طريقه وسط الغاب. وكانت كلّ نغمة من نغماته يتخلّلها هدوء لا يُسمع فيه غير صدى حفيف الأشجار.

لم أفكّر في ذلك على مدى سنين طويلة، ولكنّ الجوّ والأشجار والضياء الأخضر المحيط بي عاد إلى الغابة بالقرب من حيدرأباد حيث كنت قد ذهبت رفقة مايكل. كان المكان بريّة موحشة، فيها غدير ماء نصف جافّ، وقد صادفناه في طريقنا أثناء نزهة قمنا بها فوق درّاجة مايكل الناريّة. كان يدرّبني على القيادة وهو يجلس من خلفي واضعًا

يديه على يدي من فوق مقود الدرّاجة ليعلّمني. ومضت أيّام لم نفعل أثناءها شيئًا سوى السقوط والاصطدام والمشاجرة على نحو مؤلم، غير أنّني أفلحت في ذلك اليوم في القيادة ومضيت في سرعة على امتداد الطريق الخالي، فرحة مزهوّة، قبل أن يهتف مايكل بغتة:

ـ توقّفي!

وهدأ صوت محرّك الدرّاجة الناريّة، فركنتها عند طرف الغابة وتوغّلنا فيها، متماسكي الأيدي، وكأنّنا طفلان من أطفال قصص الجنّيّات ندخل غابة مسحورة. وكانت الأشجار ذات الأوراق العريضة المتراصّة عن قرب وفي كثافة، تعرقل تسلّل أشعة الشمس فتحوّل لونها الأخضر إلى أسود في الظلّ. ولاحت التربة مظلمة ومن فوقها طبقات من الروث والتبن فضلاً عن شجرة تكسو جذعها طبقة كثيفة من الحشرات. كان الهواء عذبًا معبقًا برائحة نفّاذة منبعثة من زهور بيض صغيرة الحجم لنباتات أوراق الكاري البرّيّة. التقطتُ غصنًا ميتًا لأستخدمه منجلاً، ولكنّه انكسر إلى نصفين عند أوّل ضربة وجّهتها إلى الدغل. قطفت زهرة برّيّة حمراء اللون وثبّتها من خلف أذني، وضحكنا كثيرًا. راودني الإحساس أنّني حسناء فاتنة مسدلة الشعر الذي يصل خصري. وعثرنا على طائر صغير ميت على الدرب، فحزنت على وحدة رفيقته. ولمحت ابتسامة مشرقة في عينيْ مايكل عندما قال:

ـ إنّ الطائر يتزوّج في سعادة مع طائر آخر جديد أشدّ زرقة وأكبر حجمًا.

وقلت عندئذٍ:

ـ إذا وافتني المنيّة، فسوف تجد لك طائرًا جديدًا أشدّ زرقة في غضون أسبوع. هكذا هو حال الرجال.

وكان مايكل قد ردَّ:

ـ أمّا أنتِ، فلن تنتظري حتى أموت كي تعثري لك على رجل جديد. انظري إلى عشرات الرجال الذين يحومون من حواليك، وكأنّهم فراشات يتزاحمن على وردة.

وتوقّف بعدئذٍ عن السير، وقبّلني كثيرًا في مختلف الأماكن ويداه المتعجّلتان تعبثان داخل ثيابي!

* * *

عدت إلى الزمن الراهن على أثر نداء ثعلب كان يبدو بعيدًا وتتعذّر رؤيته من تحت الظلال الدنيا. وجعل نداؤه الغابة تبدو أكثر هدوءًا وأشدّ عزلة ممّا رأيت، والطريق بعيدًا جدًّا. وكانت الأشجار المتشابكة فوق الرؤوس قد أخفت معظم أجزاء السماء. وفي غمرة ذلك الهدوء، صكّ سمعي صوت، ثم رأيت شارو وكوندان سنغ في فسحة من الأرض على بعد مسافة قصيرة، وكانت الشمس قد أضفت هالتين ذهبيّتين من على رأسيهما وكأنّهما خرجا من لوحة فنّيّة. توقّفت، لا أملك الجرأة الكافية لكي أتنفّس. ولاحظت كلّ التفاصيل: قميصَه الأبيض والأزرق وكتلة شعره الكثيف وحاجبيه الممتدّين من فوق عينيه الغائرتين ووشاحَها الطويل الأخضر بلون ورقة شجرة طريّة ورقيقة، وحنجرته الشابّة والتعويذة النحاسيّة المعلّقة بخيط أسود سميك برقبته، والحليّ الزجاجيّة الخضر المشعّة في أذنيها ونظرة اليأس الواضحة على وجهها.

كانت تستند إلى شجرة كستناء عملاقة، في حين وقف هو قبالتها محاصرًا إيّاها بين ذراعيه وجذع شجرة. وسمعته يقول لها:

ـ سوف أعود، فلا داعي للقلق. سوف أعود. لا بدّ لك أن تنتظري، وسوف أكتب إليكِ.

فقالت له:

ـ وهل ستراسلني؟

ـ مؤكّدًا.. كلّ أسبوع، بل كلّ يوم.

رفعت بصرها نحوه، فتمكّنت من مشاهدة عينيها اللتين ترقرق الدمع فيهما. وقالت في نبرة هادئة وخافتة يصعب سماعها:

ـ ولكنّني لا أعرف القراءة. لا أعرف القراءة ولا الكتابة، فأنا لم أتعلّمهما.

بدا ذاهلاً ومرتبكًا لبرهة وجيزة، ثم قال متوسّلاً:

ـ سوف أفعل كلّ شيء، ولكن ينبغي لك أن تتعلّمي القراءة والكتابة، أو اعثري على من يقرأ لك!

فضحكتْ على الرّغم من الدموع، وقالت:

ـ وكيف أعثر على من يقرأ رسائلك إليَّ؟ عن أيّ شيء ستكتب؟ عمّا طهوت لوجبة الغداء! عمّا قاله المدير لك؟!

دفن أصابعه ثم رأسه في شعرها، وقال:

ـ سوف أكتب لك بالألغاز، ولن يعرف أحد سواك ما الذي أتحدّث عنه.

ثم لوى الحلية في أذنها واسترسل:

ـ أعطني إحدى هاتين الحليتين، وعندما نلتقي من جديد سوف تعود الحلية إلى رفيقتها. سوف تكون رقيتنا التي تجلب الحظّ السعيد.

بعد مرور أسبوعين على ذلك، وفي بواكير شهر آذار، جاءت إليَّ شارو حاملة رسالة من «صديقتها سونيتا»، وطلبت منّي أن أعلّمها القراءة والكتابة!

* * *

القســم الثانــي

١

الوقت باكورة أحد أيّام ذلك الصيف، كان صاحب ديوان ما يزال يبدو ناعسًا وهو يحمل كوب شايه، في حين كنت أنا في طريقي إلى المدرسة، بعد أن قرّرت اختصار الطريق بالمرور في قطعة أرضه المزروعة بالحشائش. وفجأة، صكّ سمعي صوت طنين قادم من جهة بعيدة، فتوقّفت لبرهة، وإذا بالطنين يقترب رويدًا رويدًا في كلّ ثانية، ويخرج صاحب ديوان وهو في ثياب نومه.

اتّضح لي أنّ الصوت منبعث من طائرة مروحيّة زيتونيّة اللون، فقلت:

ـ إنّها مجرّد طائرة مروحيّة لا غير!

وإذ أستأنف مسيري، قال صاحب ديوان:

ـ قد لا تكون مروحيّة لا غير. ليس في مدينة عسكريّة. ألديك فكرة عمّا يدور في هذه المنطقة؟ هذه بلدة تقتات على الأسرار. أسرار الدولة. أسرار الجيش. أسرار شخصيّة صغيرة وتافهة.

بدا سيّئ المزاج، غائم العينين أكثر ممّا وجدته في صباحاته المبكرة الأخرى. كما بدا عازمًا على سرد قصّة طويلة لا أستطيع مقاطعته فيها. فما كان منّي إلّا أن حثثت الخطى وهتفت من فوق منكبي:

- بل مروحيّة لا أكثر، وسوف أزورك بعد الفراغ من الدوام في المدرسة.

لكنَّ صوت الطائرة المروحيّة كان ملحًّا في ذلك اليوم. كما أنّها لم تكن طائرة واحدة بل طائرتان تحلّقان من فوق الغابة على ارتفاع منخفض في بادئ الأمر. ثم انحرفتا واتّجهتا وجهة مغايرة، وبدأتا تشقّان عنان السماء بأجنحتهما. أهي زيارة يؤدّيها أحد الجنرالات، أم أنّ حريقًا اندلع في الغابة وفي حاجة إلى مراقبة. وفي كلّ مرّة كان الضجيج يقترب، يتوقّف الأهالي عن أعمالهم ويرفعون من أنظارهم وقد تملّكتهم الحيرة!

تردّد صدى الضجيج في أنحاء السماء طوال النهار، وارتسمت أعمدة دخان أسود على مسافة بعيدة، وزعم بعض الأهالي أنّهم سمعوا صوت انفجار. وفي مخبز بيشت، كان الزبائن والخبّازون متّفقين على أنّ الجيش كان يحاول العثور على جاسوس صينيّ تسلّل من الحدود الشماليّة. وعندما وصلتُ كشك شاي ناجي، تغيّر الإجماع في الرأي، وقيل إنّ إرهابيًّا هاربًا ومطاردًا قد أضرم النيران في موقع مهمّ..

وفي طريق عودتي من كشك ناجي، وكانت الساعة في حدود الثالثة عصرًا، شاهدت سيّارة الجيب يقودها ڤير تدور من حول منعطف. تمهّلت منتظرة إيّاه حتى يتوقّف ويقلّني إلى لايت هاوس بعد أن يسلك تحويلة طويلة كي أشتري الفطائر المقليّة والمحشوّة بالخضراوات والبهارات. كان هذا هو طقسنا الذي نؤدّيه عندما يكون

في البلدة. غير أنّه مضى في سبيله في هذا اليوم من دون حتى أن يلوّح لي بيده. كان الطريق خاليًا، وكان ضيّقًا. واضطررت إلى التنحّي جانبًا كي أفسح له المجال بالمرور. وكان شديد القرب منّي حتى إنّني استطعت أن ألاحظ أنّه كان يضع نظّارته السوداء ويرتدي قميصًا أبيض، وأنّ حقيبة الظهر خاصّته كانت مرميّة على المقعد المجاور له. لبثت واقفة في مكاني، واثقة من أنّه سوف يدرك غلطته ويتوقّف على بعد مسافة قصيرة.

إلّا أنّ صوت سيّارة الجيب تلاشى، وما إن انقشع دخان الديزل حتى استأنفت سيري، وقرّرت أن أركّز انتباهي في نبتة البرتقال المتسلّقة على شجرة صنوبر قريبة منها، وحيوان الدَّلق أصفر الرقبة الذي كان يشقّ طريقه إلى أعلى جذع شجرة، وطائر التدرّج وهو يعدو بين الأعشاب النامية على ارتفاع منخفض، والرائحة الغامضة التي تنبعث دومًا من ذلك الجزء المنحني من الطريق.. وكنت أثناء ذلك أطرد من ذهني فكرة أنّ ڤير قد رآني ولم يتوقّف.

عندما وصلت صاحب ديوان وناولته صحيفته، انتظرت أطول مدّة ممكنة، أرشف الشاي شديد العذوبة، قبل أن أطرح عليه سؤالاً على نحو عفوي مبالغ فيه:

ـ أين اختفى ڤير؟

قال صاحب ديوان:

ـ رحل على حين بغتة. يبدو لي هذا الفتى لغزًا. فقد كان جالسًا هنا، يحدّق في حاسوبه عندما رنَّ هاتفه. وفي غضون خمس دقائق، كان قد استقلّ سيّارته وغادر المنزل، من دون أن ينبس بكلمة. وكلّ ما قاله لهمت هو أنّه مسافر وسوف يغيب بضعة أيّام.

نظرت إلى أعلى باتّجاه السماء وسألت:

ـ أتظنّ أنّ لسفره صلة ما بـ. . .

قال صاحب ديوان مقاطعًا:

ـ ماذا؟ صلة بالطائرتين المروحيّتين؟ ليس للرجل بحسب علمي أيّ شأن بالجيش أو المروحيّتين. غير أنّني عجوز أحمق، خرف وسكّير، وآخر من يعلم أيّ شيء!

بدا سيّئ المزاج، نكد الطبع، كشأنه في صباح ذلك اليوم. وبعد صمت لم يدم أكثر من دقيقة، طرح عليَّ واحدًا من أسئلته غير المتوقّعة:

ـ كم كان عمرك أثناء حرب بنغلاديش؟

حاولت أن أتذكّر متى اندلعت حرب بنغلاديش من دون أن أفضح جهلي، بيد أنّه كان يعرفني معرفة جيّدة، فقال في نبرة حادّة تكاد تقطع الزجاج:

ـ ١٩٧١.

قلت:

ـ أتدري أنّني ومايكل ولدنا في اليوم نفسه؟ وفي إحدى المرّات، جمعنا سنوات عمرينا وأعددنا قالب حلوى وضعنا عليه أربعًا وأربعين شمعة احتفالاً بعيد ميلادنا. كان قالب الحلوى بالشوكولا والكريما، وعليه فأران أبيضان من السكّر لهما عيون ورديّة بحسب ما أتذكّر. وقد أكلت أحدهما ولكنّ الذيل انحشر في بلعومي لأنّه كان مصنوعًا من قطعة صلبة من المعكرونة.

ثم ضحكتُ لهذه الذكرى ضحكة عالية.

كان صاحب ديوان يرمقني بنظراته وكأنّني فقدت رشدي. ثم هزّ رأسه قائلاً إنّني امرأة معتوهة، فما كان منّي إلّا أن أذعنت إلى القصّة التي كانت قد أُجّلت منذ صباح ذلك النهار. وقال صاحب ديوان إنّ مولانا عبد الحميد خان بهاشاني كان شخصيّة من الشخصيّات السياسيّة الآسرة والمثيرة للاهتمام إبّان حرب بنغلاديش. وأضاف إنّه يتذكّر ذلك الرجل منذ الأيّام التي سبقت الاستقلال، ووصفه على أنّه قرويّ عصاميّ في تعليم.. وأنّه كان اشتراكيًّا متحمّسًا للأفكار الاشتراكيّة، رمى بنفسه في كلّ ثورة صادفها أثناء حياته في زمن البريطانيين، بدءًا بحركة الخلافة وانتهاء بحركة اللّاتعاون. وفي أواخر أيّام الأمبراطوريّة البريطانيّة، راجت شائعات مفادها أنّه جاء إلى سوراجغاره لحضور اجتماع سرّي مع النائب لتدبير انفصال الولاية عن الهند، غير أنّ النائب كان في ذلك الوقت قد زجّ صاحب ديوان بالحبس بتهمة تدبير مؤامرة معاكسة.. ولهذا السبب لم يلتقِ مولانا صاحب ديوان.

ومضى صاحب ديوان يقول إنّ مولانا كان قد بلغ التسعين من عمره بحلول العام ١٩٧٠، ولكنّه كان ديماغوجيًّا مثيرًا، يحارب من أجل استقلال بنغلاديش عن الباكستان. وعلى الرّغم من أنّه كان يناهض الهند مناهضة شديدة، شأنه في ذلك شأن معظم القادة السياسيين البنغلاديشيين، إلّا أنّه لجأ إلى هذا البلد عندما اندلعت الحرب. كان رجلاً واهنًا وضعيفًا، سريع الاستثارة والتأثّر، مولعًا بالخطب الاستفزازيّة ومدمنًا عليها، لهذا كان لا بدّ من وضعه بعيدًا عن أعين الجماهير وبمنأىً عن الصحافة. هل ثمّة منطقة منعزلة وسرّيّة بما يكفي؟ وهنا قال صاحب ديوان إنّ المنطقة هي رانيكهت بطبيعة الحال، تلك البلدة التي تحتفظ التلال بأسرارها ويحتفظ بها موقعها النائي، وكذلك الجيش.

كان مولانا يمقت الجبال، فلبث يحثّ الهنود على منحه قطعة أرض بالقرب من بنغلاديش، وفي أسام تحديدًا، حيث كان قد دفن ولده، إلّا أنّه لم يسمح له بمغادرة رانيكهت إلى أن وضعت الحرب أوزارها.

اقتربت المروحيّتان وازداد أزيزهما ارتفاعًا وضجيجًا. فهتف صاحب ديوان وسط الضوضاء، ملوّحًا بكتاب في وجهي:

ـ أتدرين متى عرفت بذلك؟ بالأمس. من أحد الكتب! ها هو الملفّ المتنقّل، كان محفوظًا ربّما على بعد ميل واحد منّي في بيت من بيوت الجيش من دون أن تكون لديّ أيّ فكرة عنه.

خبت الأصوات وابتعدت المروحيّتان، فهزّ صاحب ديوان رأسه منزعجًا منهما، وأضاف:

ـ لا شيء يجعلكِ عديمة النفع مثل التقاعد يا مايا. في وقت من الأوقات، كان نهرو وباتيل يولياني الثقة ويأتمناني على الأسرار. وكان كلّ هؤلاء الجنرالات الأوغاد في رانيكهت يتوسّلون إليَّ كي أدعوهم لزيارة هذا المنزل. والآن؟

التزم الصمت واكفهرّ وجهه.

في ذلك المساء، جلست في شرفة بيتي ومعي كوب شاي، أحدّق شاردة الذهن إلى بقعة في السماء حيث يمكن للقمم أن تصل لولا حرارة الجوّ التي قلّلت من ارتفاعها. فكّرت في مولانا العجوز البالغ من العمر تسعين عامًا وقد أُبعد وسط تلال رانيكهت الصامتة، مشتاقًا إلى أنهاره التي عرفها وإلى حرارة المستنقعات. وأدركت أنّ الأسباب التي دفعتني إلى المجيء إلى رانيكهت مماثلة، ويا للغرابة، لأسباب مولانا. فكلانا هارب، مطارد وفارّ!

عادت أفكاري إلى ڤير، واستطعت من كلّ ما قاله قولاً عابرًا في الأشهر القليلة الماضية أن أؤلّف قصّة في ذهني عن الأسباب التي أدّت به إلى الانتقال إلى رانيكهت. فقد كان يتيمًا يبحث عن منزله، وفي طفولته، عثر على منزل تنقصه المهارة في لايت هاوس. وإذا كانت مودّة صاحب ديوان قليلة الشأن، إلّا أنّها إذا ما اقترنت بقوّة شخصيّته، فإنّها تكفي لإحداث وقع كبير على الطفل المستوحد. كان ڤير يبحث عن شخصيّة أب، فوجد تلك الشخصيّة وذلك الأب في صاحب ديوان. وفي ما خلا هذا السبب، يصعب تفسير رقّته المخشوشنة تجاه الرجل العجوز، إذْ كان أحيانًا نزقًا، سريع الغضب والانفعال، ويمكن أن يتحوّل إلى فظّ أو غليظ القلب أو نافد الصبر، ولكنّه إذا ما جلس مصغيًا طوال المساء لذكريات صاحب ديوان عن سوراجغاره أو عندما كان يرجع من دلهي، لا يحمل سوى الكتاب الذي كان يبحث عنه عمّه، فذلكم مؤشّر واضح على عمق الرابطة التي تشدّ من أزرهما. كنت أشاهدهما يتمشّيان معًا حول الحديقة أحيانًا، متساويين في الطول، أحدهما أشيب الشعر والآخر أسوده. الرجلان فارعا القدّ، نحيلان، متشابهان شبهًا غريبًا من الخلف. وممّا يزيد المشهد تأثيرًا أنّ ڤير كان يبدو نسخة أصغر سنًّا من صاحب ديوان.

إنّني لا أشكّ في أنّ ڤير قد جاء إلى رانيكهت ليعتني بصاحب ديوان وهو في آخر سنيّ عمره.

عندما جرّبت هذه الفرضيّة على العمّة ذات مرّة، كان ردّ فعلها بارع الإيجاز قياسًا بمعاييرها التي تنمّ عن ثرثرتها، ومحفوفة بالألغاز، إذْ قالت:

ـ للعناية بعمّه؟ صحيح؟

ثم أضافت:

ـ للعناية بعمّه من حيث النظافة، صحيح. وهذا أكثر ممّا فعله همت سنغ على مدى سنوات.

الحقّ أنّ ڤير كان ينظّف رفوف أعمال صاحب ديوان الورقيّة من الغبار ويرتّبها مهما كان ضيّقًا وقت فراغه. وهذا في رأيي جعله أكثر مراعاة لمشاعر الآخرين من الهدايا التي كان يقدّمها والمتمثّلة بشراب الرَّم والجواريب الشتويّة السميكة.

وتساءلت الآن في نفسي إن كان ثمّة شيء آخر يخصّ مجيء ڤير إلى رانيكهت. أتراه مرتبطًا على نحو ما بالجيش؟ هل الرحلات الجبليّة ستارة تخفي شيئًا آخر من ورائها؟ هل جاء إلى هنا ليجعل من نفسه وريث صاحب ديوان. أم أنّه جاء، أسوة بالآخرين، ينشد رسائل أدوينا ونهرو؟

دفعت كوب الشاي جانبًا ودفعت معه شكوكي، فهي شكوك مبالغ فيها وتافهة. وكان ڤير دائم الاضطرار إلى مغادرة البلدة في عجالة لأنّ لديه بعض الأشغال في مواقع أخرى. ولم يدرك ضرورة توضيح كلّ فعل يُقدم عليه. لا ضرورة أبدًا.

وبعد يوم واحد أو يومين، نسينا قضيّة الطائرتين المروحيّتين والجاسوس الصيني والإرهابي الهارب. وكانت تلك من الأمور التي يتعيّن على الجيش القيام بها على طريقته السرّيّة والعسكريّة، لكنّ الشخص الوحيد الذي بدت الطائرتان المروحيّتان قد أحدثتا فيه أثرًا قويًّا، هو الموظّف الحكومي الذي كان ولده غوبال يعدّ العدّة للاختبار كي يلتحق بالجيش. ففي صباح كلّ يوم، كنت إذا استيقظت مبكرة جدًّا أسمع صوت البوق وهو ينادي المبتدئين في الجيش للتجمّع: أربع

نفخات وقت الفجر وبينها فاصل من دقيقتين اثنتين لفسح المجال لهم ليستيقظوا. وكانت قد مرّت عدّة شهور الآن على أن يعقب نفخ البوق ضياء في منزل الموظّف. وكان غوبال يستيقظ مع بقيّة المبتدئين. ويخرج في الصباحات الباردة، محدودب الظهر وسط ضباب ينبعث من فمه ويطأ الأرض المكسوّة بالثلج منتعلاً نعاله. وفي الفسحة المفروشة بالآجرّ المشويّ خارج كوخه، مارس تمارين الضغط بالاستلقاء على الأرض، معتمدًا على يديه مع رفع جسده إلى أعلى، أعقبها تمرينات في المعدة بالاستلقاء والجلوس باعتدال من دون تحريك الساقين وعددها أربعون تمرينًا في الأقلّ، وتصل أحيانًا إلى المئة. وإذا كان ضوء النهار ساطعًا، تجده يقطع التلّ صعودًا وهبوطًا ويمارس تمارين شاهد المبتدئين في الجيش يمارسونها في ساحة التدريب. كان غوبال قد راوده الحلم في الالتحاق بالجيش منذ سنوات. فمنذ نعومة أظفاره شاهد الجند يقفون في صفوف مرتدين البزّات العسكريّة باللون الخاكي والأخضر، وشعر رؤوسهم حليق من فوق الآذان، ويسيرون على امتداد الطرقات، حاملين ما يحتاجون إليه في ذلك النهار بدءًا بفراش قابل للطيّ وانتهاء بالمكانس والدلاء والبنادق. وكان الجنود يرمقون بقيّة الأهالي بنظرات وكأنّ حاجزًا خفيًّا يصعب اختراقه يحول بين الطرفين.

كان والد غوبال طوال هذا الوقت فخورًا بولده العسكري، متباهيًا بأنّ هذا الولد سوف يتقاعد بصفة نقيب في أقلّ تقدير. غير أنّ لغز الطائرتين المروحيّتين والدخان جعله يجفل. تشاجر وابنه بضعة أيّام وطلب منه أن يلتحق بمصلحة الماء بدلاً من الجيش، قائلاً له إنّ المصلحة ستوفّر له وظيفة كتابيّة آمنة، وهو متأكّد من ذلك، لأنّ وظيفة الأب تنتقل في أغلب الأحايين إلى الإبن. وقد سمعته يهتف في صوت عالٍ:

ـ إنّ الذي ينفع والدك ينفعك أنت أيضًا أيّها الأحمق! وإنّ الجيش ليس عبثًا ولعبًا. ولسوف تشكرني عندما ترى أصدقاءك يرسلون إلى جبهات القتال ليلاقوا مصرعهم.

من نتائج ظهور المروحيّتين التي لا يمكن تفسيرها هو عدم وصول البريد أسبوعًا كاملاً. ربّما ليست ثمّة صلة بين الحادثين، إذْ عرفنا لاحقًا أنّ إضرابًا بريديًّا بدأ في السهول في اليوم نفسه. غير أنّ الشائعات سرت بعد اليوم الثاني من عدم وصول البريد، وانساب إلى سمعنا خبر مفاده أنّ رسائلنا كانت تُقرأ بحثًا عن أيّ دلائل وأنّ مدير البريد متورّط في القضيّة. لم أعر الأمر اهتمامًا، غير أنّ شارو ازدادت قلقًا بمرور الأيّام. وكان ساعي البريد يأتي في أواخر العصر وأحيانًا في المساء. وكانت وجهتنا هي آخر مطافه لأنّه كان يقطن في الجهة المقابلة من جدول الماء الذي يمرّ قريبًا منّا. وكانت شارو تحوم حول المنطقة القريبة منّا باقتراب موعد رجوعه إلى بيته، حتى تمرّ من أمامه. لم تسأله إن كانت ثمّة رسالة إليها، فهي لم تتسلّم سوى رسالة واحدة في شهر آذار بعد أن وصل كوندا سنغ مدينة دلهي. ومنذ ذلك الحين، ساد صمت مطبق وتصرّفت شارو وكأنّ دهورًا مرّت وانقضت.

* * *

٢

«كيف حالك؟ وكيف حال أسرتك؟ أتمنّى أن يكون الكلّ في خير».

هكذا بدأت الرسالة الثانية التي تلقّتها شارو بعد أن يئست تمامًا من وصولها إليها.

وكنت قد اشتريت كتاب القراءة الأولي باللغة الهنديّة من المدرسة، وكان يحتوي على الحروف الهجائيّة وعلى صور ملوّنة زاهية، وبعض الدفاتر الخاصّة بالتمرينات. وبعد أن قرأت الرسالة التي أرسلها كوندان، فتحت كتاب القراءة وجعلت شارو تفتّش عن كلّ حرف استعمله في الكتابة. كما جعلتها تكتب الكلمات شديدة البساطة من رسالته في دفتر التمرينات. صحيح أنّ ثمّة أخطاء إملائيّة فيها؛ ولكنّني لم أتوقّف في تلك المرحلة عند الإملاء. وتصبّبتْ عرقًا وتذمّرتْ ودفعتْ إلى الوراء خصلات من شعرها في محاولة منها كي تركّز أكثر. ولم تكن تملك إلّا ذكرى واهنة عن القراءة والكتابة ترجع

إلى زمن طويل عندما كانت تلميذة في المدرسة، وإن كانت تنطوي على بصيص من الوضوح. وكانت قهقهاتها المرحة في مثل هذه الأوقات شديدة العدوى، حتى إنّنا كنّا أشبه بمتآمرتين مراهقتين ولسنا معلّمة وتلميذتها الشابّة. وكانت تلك الحالات تحدث مرارًا وتكرارًا. وإذا كانت قد نسيت أغلب حروف الألفباء، فإنّها بدأت تستعيدها الآن وإنْ في بطء. أمّا الأعداد فقد نسيتها تمامًا.

رسمت لها صورًا كاريكاتيريّة للأرقام ممثّلة بالناس وبالحيوانات. وجعلتها تكتبها ثانية وثالثة. وكنت أُحضر لها مختلف الكتب الخاصّة بقصائد الأطفال والقصص من مكتبة المدرسة كلّ بضعة أيّام. وطلبت منها أن تقرأ الكتابات المدوّنة بحروف كبيرة على علب البسكويت وقوالب الصابون. استحوذ عليّ هذا العمل الاستحواذ كلّه، بل أضحى مهمّة عظيمة؛ فقد فشلتُ مع شارو طوال تلك الأعوام عندما كانت تلميذة صغيرة في صفّي. أمّا في هذا الوقت، فستكون الأمور مختلفة! ولم أدع فرصة سانحة تمرّ هباءً. وفي يوم من الأيّام، أتى إلينا السيّد شوهان وكنت أحاول حثّها على قراءة واحدة من العلامات الهنديّة عندما كانت ترعى حيواناتها، فما كان منه إلّا أن هتف ببهجة كبيرة.

ـ كنت أعرف ذلك أيّتها السيّدة! أعرف! إنّ لديك قبضة مخمليّة في قفاز حديديّ. ففي ذلك اليوم الذي أخبرتكِ أنّ الفلّاحين محتاجون لتعلّم معنى المواطنة، ظننتك قد امتعضتِ، وخُيّل إليَّ أنّك ذهبت في سبيلك غاضبة، لكن لا. فقد تأثّرتِ بالأمر تأثّرًا شديدًا وأخذته مأخذ الجدّ، ومنحتني فرصة حياة جديدة! والآن، سأتقدّم إلى أمام لأنجز مهمّتي من أجل موقع حربي!

واظبت شارو على هذه المهمّة الشاقّة الجديدة في عزم وإصرار. وعندما شاهدتها مرارًا تضغط بقطعة الطباشير على لوح الكتابة الذي

اشتريته لها، وكانت بشرتها تلمع من تحت شمس الأصيل العسليّة، بدت لي بطلة من بطلات القصص الشعبيّة، وليست فلّاحة اعتياديّة، حتى وإن لم تكن معركتها مع وحوش خرافيّة وساحرات شرّيرة، بل مع الحروف الهجائيّة والغياب. كنت أشاهدها تجلس في فناء دارها، تلوح نظرات العزم والتصميم في عينيها.. ترتكز ذقنها على ركبتيها ويبرز لسانها إلى الخارج، وتكتب على الأرض مستخدمة غصينًا صغيرًا، ومنتظرة المساء كي تضرم النار، أو الدجاج كي يعود. وحلفت يمينًا قاطعًا بأنّها لم تفهم شيئًا على الرّغم من أنّها كانت تعيد كتابة الحروف على التراب بيديها. وكانت حروف الباء والكاف والباء (الأعجميّة) تشوّشها. وتشتبك الأسطر وتتخلّل وتتداخل بينها، وتتقافز الحروف وكأنّها تتمتّع بحياتها الخاصّة! وتعيّن عليها أن تتوقّف عن تمزيق الورقة وهي في حالة غضب واهتياج بسبب البطء الذي يلازمها. غير أنّها ظلّت تواظب على حضور دروسها مساءً بعد مساء.

* * *

هكذا بدأ كوندان رسالته:

«إنّني مضطرّ للذهاب إلى فندق صاحب من ظهر كلّ يوم. وهم لا يروقهم طعام الفندق، بل يروقهم تناول الطعام المنزلي. ويعجبهم تناوله حارًّا. لهذا السبب، فإنّني أطهوه لهم في صباح كلّ يوم وأحفظه في أوعية معدنيّة تبقيه حارًّا، ثم أحمله إلى الفندق على ظهر درّاجتي. وهو فندق مشيّد حديثًا. يبهر بصرك إذا ما شاهدته، فهو يشبه القصر المسحور. ولم يكن مسموحًا لي دخوله.. لهذا يتعيّن عليّ أن أسلك المدخل الخلفي وأسلّم الطعام لأحد الأشخاص، ولكن عندما أجتاز الباب الرئيس، فإنّ في وسعي أن أشاهد شدّة لمعان كلّ شيء فيه. كما أنّ عبيره مختلف، وتنبعث الموسيقى منه عند دخول الناس وخروجهم.

وقد شاهدت بركة سباحة ذات لون أزرق تمامًا، ويسبح الناس فيها من دون ثياب تقريبًا. والمؤكّد أنّك سوف تضحكين لمرآهم. كما أنّ معظم الناس يرتدون ملابس كالملوك والملكات، ولكن لا أحد يبدو بجمال أهل التلال. إنّني أفكّر في والديَّ في بلدة سيليغوري. لكنّني أفكّر في رانيكهت أكثر من ذلك. أرسلي لي شيئًا ما من الغابة».

صديقك

عندما فرغت من قراءة الرسالة، طلبت منّي شارو قراءتها ثانية، وأحيانًا كانت تطلب منّي قراءتها ثلاث مرّات، وتصغي لها في عناية، مقطّبة، كأنّها تحاول حفظها عن ظهر قلب. ثم تأخذ الرسالة منّي وتخفيها بين طيّات ثيابها. كان محلّ سكنى شارو غاية في الازدحام، فلا تقدر على إيجاد مكان تخفي فيه الرسائل. فقد كان للثلاثة، هي والعمّة وبوران، حجرتان صغيرتان، إحداهما مفصولة إلى قسمين بحاجز ـ أحدهما يستخدم مطبخًا، أمّا القسم الثاني، فكان ذا جدران زرقاء لامعة وفيه جهاز تلفاز أسود وأبيض مغطًّى بقطعة قماش محبوك بإبرة معقوفة، ومن فوق التلفاز مزهريّة ذات زهور ورديّة اصطناعيّة، وعلى الجدار صورة رسمتها بنفسها تمثّل زهورًا بنفسجيّة وزرقاء رُبّما كانت السوسن. وثمّة كرسيّان وسرير وصندوق معدني يستخدم منضدة. ويمكن من خلل الستارة البلاستيكيّة أن تشاهد الحجرة الثانية التي تحتوي على سرير. المؤكّد أنّ شارو لم تملك حجرة ولا خزانة ثياب خاصّتين بها، وكان يكفي لها أن تجد الركن نفسه كلّ ليلة لتخلد فيه إلى النوم. وبعد أن كادت العمّة تعثر مرّتين على الرسائل، راحت شارو تضعها في كيس بلاستيكي وتربطه في عارضة خشبيّة من عوارض زريبة الأبقار أسوة بريشة طائرها وقلادتها.

وكان العثور على وقت لدروسها يمثّل مشكلة لها. فقد كنّا

مشغولتين.. شارو دائمة الذهاب والإياب، تنجز أشغالها المنزليّة من جهة وتواصل عملها الوقتي في المعمل. وحتى عندما كانت تسنح لها الفرصة بالمجيء إلى منزلي، «أسرعي بالذهاب إلى مول رود لشراء مقدار من الزيت. من تظنّين سيدخل الدجاج إلى القنّ؟ الله وحده يعلم إلى أين ذهبت الفتاة. أو أين ذهب كلبها. شارو!».

اضطررت إلى تقسيم وقتي بين التعليم في مدرسة القدّيسة هيلدا والإشراف على صنع المربّى وتعبئته وجرد الحسابات في المعمل. وكان شهرا آذار وحزيران أكثر شهور السنة ازدحامًا بالعمل: فالفواكه الطازجة في فصل الصيف، كالخوخ والإجّاص والمشمش، تصلنا من قرىً بعيدة، معبّأة في سلال وأقفاص معًا ويتحتّم علينا التعاطي وإيّاها من فورنا. وفي بعض الأيّام، لم أعد أنا أو شارو إلى المنزل إلّا بعد هبوط الظلام. وكنت أحيانًا لا أصل منزل صاحب ديوان لحضور جلسة الصحافة إلّا وقت الأصيل. وفي الأيّام النادرة التي يقرّر أن يشتغل فيها على كتابه وإيّاي، أكون محظوظة إن عدت في الوقت المحدّد لأستمتع بالغروب من على شرفتي.

كنت أجلس رفقة كوب الشاي منتظرة شارو، أراقب زرقة التلال وخضرتها وهي تزداد عتمة سلسلة إثر سلسلة. وإذا ما طُمست آثار السلاسل الأبعد وسط العتمة وتحوّلت إلى ظلال، وبدأت السناجب تعدو إلى أعلى أشجار أرز الهملايا، تظهر شارو للعيان متّجهة أسفل السفح، غير مهتمّة بالنظر إلى موطئ قدميها، وتحوّل من يد إلى يد حبّتي بطاطس ساخنتين أعدّتهما جدّتها فوق جمرات نار الطبخ. كانت الحبّتان منفوشتين وطريّتين من الداخل، يتصاعد منهما البخار الناجم عن الحرارة الكامنة في داخلهما، وكانت القشرة الخارجيّة المسودّة مدخّنة ولذيذة. ولمّا كنت لا أتناول أكثر من بيضة واحدة وقطعة خبز

أو مقدارًا من المعكرونة في المنزل، فقد كنت ممتنّة للبطاطس قدر امتنان شارو لدروسها.

كانت تأتي لحضور دروسها في الأوقات التي لا يرجّح أن تكون جدّتها محتاجة إليها، وعندما تظنّ أنّها طرقت دروبها على نحو حسن، غير أنّ العمّة كانت امرأة لها من الدهاء ما يجعل محاولات شارو للاحتيال عقيمة ولا تجدي نفعًا. وعلى الرّغم من أنّها لم تكن قادرة على تحديد تلك المحاولات، إلّا أنّها كانت تعلم أنّ ثمّة شيئًا مريبًا في تصرّفات حفيدتها، ويراودها الإحساس أنّ بعض القيل والقال يدور هنا وهناك، وتناهى إلى سمعها اسم شارو يُذكر في أحاديث بين متعاطي المخدّرات جاناكي وزوجة الموظّف، ولكن سرعان ما كانت تلك الأحاديث تتوقّف في اللحظة التي يدركان فيها أنّ العمّة باتت على مسمع منهما. ولعب الفأر في عبِّها، فجاءت يومًا ما إلى منزلي، واستقرّت عند درجة سلّم الشرفة السفلى لكي تعرف إلى أين مآل هذه الأحاديث. وسألتني بعد أن جلست:

ـ هل سمعت عن طبّاخ فندق روزماونت؟

كنت أعلم أنّ الطباخ لم يكن ربّما هو السبب الذي دفعها إلى المجيء إليَّ، فقلت لها:

ـ لا، لم أسمع به.

قالت العمّة:

ـ كان يقود درّاجته عندما صدمته سيّارة مسرعة ـ سيّارة في دلهي، وسقط على الأرض وظنّ أنّه في خير، ولكنّه عندما نظر إلى أسفل اكتشف أنّه فقد ساقه اليمنى! كانت قد بُترت تمامًا، وبقيت في فردة الحذاء والجورب، مرميّة فوق أشواك الصنوبر. فلفّها الناس في قميص

وحملوها وإيّاه إلى المستشفى. غير أنّ الأطبّاء عجزوا عن إعادتها إلى وضعها السابق.

ثم انتقلت إلى موضوع آخر، وهي ما تزال غير مستعدّة للدخول في صلب الموضوع الذي جاءت من أجله:

ـ أمّا بوران، فهو غبيّ، في شأن غزالة كما في أيّ شأن آخر، تجدينه مجنونًا بالغ الحمق، يقهقه أمام الغزالة ويهمس لها كأنّها عشيقته، يطعمها كلّ الحبوب التي احتفظ بها من أجل الدجاج. إنّ كلّ نقودي التي أحصل عليها من بيع الحليب تضيع هباءً على غزالته وعلى كلب شارو عديم النفع.

غمغمت وانتظرت. وبعد برهة وجيزة، قالت بعد أن عجزت عن كتمان الموضوع:

ـ لماذا تنفق الفتاة الوقت كلّه وإيّاكِ؟ الأهالي يتحدّثون عن ذلك.

قلت:

ـ إنّها تتعلّم القراءة. وقد أخبرتها أنّها يجب أن تتعلّمها.

ـ لقد فاتتها الدراسة طوال كلّ تلك الأعوام التي كنت أنفق عليها مالي، فما سبب هذه الهواية الجديدة اليوم؟

قلت:

ـ لم يفت الأوان.

قالت العمّة وهي تقلّص عينيها:

ـ لماذا؟ فأنا لم أتعلّم قراءة كلمة واحدة، فهل كانت تلك مشكلة لي!

قبل أن أتمكّن منْ مناقشتها، بدأت تُعيد النظر في قولها.

ـ لا، التعلّم شيء جيّد. فهي لن تكون عاجزة مثل أمّها المسكينة الراحلة، كما أنّها لن تسمح لأيّ رجل أن يعاملها معاملة سيّئة، لكن لا تبالغي في تعليمها أكثر ممّا ينبغي لأنّ البنات اللواتي يتعلّمن أكثر من اللازم لا فائدة منهنّ ـ فهي لن تحصل على زوج، وسيدور في ذهنها عديد من الأفكار الساذجة عن نفسها.

ثم أردفت في صوت خافت:

ـ إنّني أتقدّم في السنّ، وينتابني قلق شديد من أجلها، وينبغي لي أن أعثر لها على عريس، ولكن ابني سكّير إلى أبعد الحدود، وهذا ما يعرفه الناس كلّهم. في الأشهر القليلة الماضية كان مكتئبًا ـ هل شاهدتِهِ عندما جاء بالأمس؟ جاء إليَّ يطلب نقودًا لا غير وكأنّني أزرع الروبيّات في المزرعة. إنّه نحيل القامة مثل عصا، يضطجع طوال النهار وكأنّه في دوار. أمّا المرأة التي تصاحبه فهي عاهرة بالولادة.

ثم هزّت رأسها، وسألت:

ـ كم سيطول عمري؟ في كلّ يوم، أشعر بدنوّ أجلي أكثر فأكثر. أحيانًا أشعر أنّ فؤادي يغوص إلى معدتي. من ذا الذي سيهتمّ بأمر شارو إذا ما وافتني المنيّة؟ أحيانًا يراودني إحساس أنّ جمالها لعنة. كيف يمكن لامرأة عجوز أن تبعد المشكلات عن هذه البنت؟

ازدادت غضون وجهها وتجاعيده عمقًا وسوادًا، وكانت أصابع يديها قاسية وجافّة، قصيرة ومكتنزة مثل حبّات بطاطس صغيرة نتيجة العمل المتواصل. ولجأت إلى إصلاح فردة نعالها بدبّوس الأمان، فراودني شعور طاغٍ بالذنب والقلق بسبب ما أمارسه من عمل من دون علم العمّة. قلت:

ـ لا ينبغي لك أن تقلقي من أجلها، فأنا سأهتمّ بها.

هزّت العمّة رأسها، وابتسمت ابتسامتها الساخرة المعهودة التي تلوح على شفتيها أحيانًا عندما تكلّمني. الحقّ أنّها كانت ابتسامة تثير استيائي، ولكنّني فكّرت أنّ موقفها له ما يبرّره هذه المرّة. فقد أدركت أنّ كلماتي كانت تبدو مبالغًا فيها حتى لنفسي. ما خططي للاهتمام بها؟

اندفعتُ قائلة وكأنّني كنت خطّطت لكلّ شيء، على الرّغم من أنّ الفكرة لم تعنّ على بالي حتى تلك اللحظة:

ـ إنّها مسؤوليّتي أيضًا، فقد عرفتها، كانت في سنّ الثانية عشرة... وكلّ ما أملكه سيصبح ملكها.

بغتة، كان كلامي واضحًا جدًّا: هل ثمّة من هي أفضل منها كي ترث أموالي التي وفّرتُها في المصرف، وقطع المجوهرات القليلة التي كانت والدتي قد منحتني إيّاها على مدار السنين، وقطع الأثاث التي جمعتها؟ فقد قيل لي إنّ خزانتي ذات الأدراج، التي اشتريتها مستعملة من أسرة انتقلت إلى منزل آخر قبل أربعة أعوام، إنّما هي خزانة أثريّة نادرة.

هتفت العمّة:

ـ أنتِ؟

وهنا اهتزّ بدنها النحيل في جذل وحبور، وبانت أسنانها الطويلة مصفرّة ومسودّة من أثر تدخين التبغ. لاحظتْ نظراتي التي تنمّ عن استياء، فتوقّفت عن الضحك، وقالت:

ـ وكيف ستهتمّين بأمرها؟ إنّك لا تستطيعين حتى الاهتمام بنفسك، فأنت بعيدة عن أسرتك ووحيدة!

بدأت أزيح مجموعة الكتب التي بجانبي، ولم أستطع معرفة

السبب الذي جعل أفكاري تعود إلى ساعة الآنسة ولسون، الساعة الذهبيّة المدوّرة التي كانت ملك جدّها، جابي الضرائب في كوزيكودي. فللمرّة الأولى منذ خمسة وستّين عامًا، توقّفت عن العمل، فتركتها بعد تردّد كبير لدى مصلّح ساعات في هالدواني لتصليحها، ولكنّها سمعت في الأسبوع الفائت أنّ دكّان المصلّح قد احترق تمامًا واحترقت معه ساعتها. كانت الآنسة ولسون مهتاجة، شديدة الاضطراب، تغضّن وجهها، واكتست نظارتها بطبقة غشاوة من فيض دموعها. لم تستطع قول أيّ شيء سوى الحديث عن جدّها: كيف أنّه كان يهواها، وأنّه كان يعتقد أنّها قادرة على اجتراح المعجزات في حين كانت في نظر بقيّة أفراد الأسرة ابنة رابعة غير مرغوب فيها، سمراء البشرة واعتياديّة تمامًا. وراود جدّها حلم في أنّها عُيّنت بوظيفة جابي أو مفوّض المقاطعة، وهذا ما همس به في صوت خافت وهو يحتضر على فراش الموت عندما ناولها تلك الساعة. وكانت الآنسة ولسون قد قالت في صوت كسير: «لم يتحقّق أيّ حلم من أحلامه التي راودته عنّي. والأدهى من هذا كلّه، لم أتمكّن من الاعتناء بهديّة موته». ورأت بقيّة المعلّمات في حزنها على ساعة قديمة شيئًا مثيرًا للضحك، بل عمدت إحداهنّ إلى تقليد حزنها المبالغ فيه تقليدًا لا تشوبه شائبة. غير أنّني، ويا للدهشة، شعرت بعاطفة قويّة جعلتني أوشك أن أمدّ يدي إلى يدها وأضغط عليها. جلست وإيّاها عصر ذلك اليوم وكأنّني أقدّم لها واجب العزاء، مصغية لذكرياتها المختلفة قدر ما سمحت به فسحة الوقت المخصّصة لتناول وجبة الغداء. ووجدت سلوكي محيّرًا، ولم أخبر أحدًا عنه، ولا حتى لصاحب ديوان، إذْ كنت أدرك أنّه سوف يبدأ بإطلاق عباراته الساخرة إنْ أخبرته أنّ حزن الآنسة ولسون مستبدّ بي دومًا.

كنت شاردة الذهن، فلم أسمع كلمة ممّا كانت تتفوّه به العمّة. فعدت إلى حديثنا السابق، غير أنّني لاحظت أنّ نبراتها باتت استرضائيّة:

ـ أنت تفعلين ما يكفي لها أيّتها المعلّمة، ولكن شارو لا تستطيع العمل في معمل المربّى إلى ما لا نهاية، ولهذا ينبغي لها أن تحيا حياة طبيعيّة، أن تتزوّج وتنجب الأطفال وأن يكون لها بيتها الخاصّ بها. لا بدَّ لي من أن أزوّجها قبل أن أموت.

* * *

٣

انصرفت العمّة من دون أن تنظر إليَّ من جديد، وكأنّها تدرك أنّها كانت تعوزها اللباقة. وفي اليوم التالي، أرسلت إليَّ طبقًا من المهلّبيّة المصنوعة من حليب أبقارها. غير أنّني وجدت نفسي أتجنّبها وأشيح جانبًا لأنأى بنفسي عن نظراتها المتشكّكة التي توحي أنّها تعرف كلّ شيء تريد معرفته. ورحت أشعر أنّ حضورها ينطوي على تطفّل، ولا يُطاق، ثم وصلتني بما يشبه دافع الخبث اللعين رسالتان بالبريد من اثنتين من زميلات الكلّيّة، تحتويان على تقارير عن أطفال رضّع جدد وأسر مرفّهة وإجازات. وكانت إحداهما تفيد: «مشغولة، مشغولة، مشغولة. لا أعرف إلى أين تسير الأيّام. ثم كيف حالك؟».

شعرت شارو أنّ ثمّة خطبًا ما. وأتت إليَّ بالهدايا طوال الأسبوع من دون أن تنبس بكلمة: زهرة بيضاء مصنوعة من مادّة الكريب، أعقبتها كتلة من ورق معجَّن صنعتها لها إحدى صديقاتها، ومزهريّة مصنوعة من قصب. ثم نظّفتْ فناء منزلي بتركيز جديد. وأحضرتْ ماءً على رأسها من جدول ماء قريب عندما انقطع الماء عن حنفيّات بيتي.

لكن وصلتني خمس رسائل الآن، وأدركت أنّني بدأت أنتظر مجيء ساعي البريد انتظار شارو له، وبدا لي أنّني غاية في السذاجة إن استمررت في التظاهر بأنّني لا أعرف من الذي يرسل هذه الرسائل. وبعد وصول الرسالة الثالثة، قلت لها في نبرة اعتياديّة:

ـ ثمّة رسالة لك من كوندان سنغ.

وتبادلنا النظرات، وذهبت لإحضار الرسالة، فعلمتْ أنّها في مأمن، ولم تذكر اسم صديقتها «سونيتا» مرّة أخرى أبدًا. وبدأت تقاطع دروسنا بشذرات غير متوقّعة عن كوندان سنغ: كيف كان يرافقها كلّ ليلة من ليالي سهرها عندما كانت بقرتها تحتضر، وكيف كانا يلتقيان عصر كلّ يوم في دوبي غات، وكيف تسلّلا ذات يوم وذهبا إلى معرض أُقيم في مواقع الجيش واشترى لها قلادة من خرز. أخبرتني عن والديه وعن وظيفته. كانت في حديثها إليَّ كأنّما تريد أن تؤكّد لنفسها أنّه حقيقي وليس زائفًا.

وجدت نفسي أفكّر فيهما وأنا في خضمّ عملي اليومي، مبتكرة حكايات بطوليّة من قصصها. وتصوّرتها في ذهني، هي وكوندان، تحيط بهما هالة من نور الشمس المتسلّل إلى فسحة الغابة عندما شاهدتهما من دون أن يتمكّنا من رؤيتي. ومن موقعي ذاك، لم أستغرق سوى دقيقة واحدة كي أسترجع عصر ذلك النهار في غابة حيدرأباد، عندما قبّلني مايكل وأسندني إلى شجرة من أشجار التمر الهندي.

لم يكن ذلك حلم يقظة كلّه.. فقد كنت توّاقة إلى معرفة ردّ فعل العمّة، فهي امرأة تكنّ الحقد والضغينة من دون أيّ تحفّظ إزاء من يتجاوزها، مثل ابنة جاناكي المراهقة التي قالت عنها وهي تبصق في الأرض:

ـ إنّها فتاة وقحة، بلا حياء، لا تبالي بمعرفة الناس عن علاقتها مع ذلك الفتى في صيدليّة الياقوت. فهو ليس من طبقة اجتماعيّة أخرى فحسب، بل هو مسلم!

ترى ما الذي سوف تفعله العمّة عندما تعرف عن الحياة السرّيّة التي تعيشها حفيدتها الكبرى؟

فكّرت مجدّدًا في ذينك الأسبوعين اللذين حبسني فيهما أبي داخل الدار، بعد أن شاهدني أطوّق مايكل بذراعيّ ونحن على ظهر الدرّاجة عندما مررنا به. كنت أضحك لسبب من الأسباب، واضعة ذقني على كتف مايكل وشعري يتطاير من خلفي وسط النسيم، لمّا لاحظت أبي يسير سيرًا مضطربًا على الجانب الآخر من الطريق، فيتوقّف محدّقًا بي، ويستدير ليقتفي أثرنا وكأنّه يقتفي أثر كرة المضرب أثناء اللعب الذي لا يمكن فيه إفلات أيّ ضربة. تبادلنا النظرات أنا وهو عندما مررت، وفي تلك اللحظة الطويلة ارتبط أحدنا بالآخر بخيط ازداد توتّرًا عند كلّ دورة من دورات دولابيْ الدرّاجة الناريّة حتى انقطع إلى نصفين عندما بات بعيدًا جدًّا ولم أستطع رؤيته. ولن أنسى الهلع الذي لاح على وجهه في ذلك النهار. كان والدا مايكل من أبناء الجيل الثاني من النصارى، وكان أبي يحتقر كلّ النصارى ـ وإن كان مسرورًا جدًّا عندما أرسلني إلى مدرسة القدّيس جورج الثانوية للبنات في المرحلة الأولى من خطّته الكبرى ليجعل منّي قبلة صناعيّة. ومنذ مرحلة مبكرة من حياتي، توقّفت عن بذل أيّ محاولة لفهم تناقضات أبي، شأني في ذلك شأن والدتي. كان بطبعه سيّد كلّ ما يشرف عليه، ولم يكن مضطرًّا إلى توضيح أيّ شيء. كان يوجّه المصانع والحقول وأخوين أصغر سنًّا، قليل الكلام، وفي صميم الموضوع. رجل قصير القامة، عريض المنكبين، أصلع الرأس، يلمع من تحت الشمس. وكانت ساقه

المصابة تضمن وجود عصاه ذات الرأس الفضّيّة إلى جانبه على الدوام. وربّما كانت هذه العصا، أو ربّما عينه اليمنى الكسول هي التي تجول فلا تدري تمامًا ما الذي يرنو إليه. وكانت الاثنتان تخلقان إيحاءً بعنف لا يريد أحد أن يختبره. وعندما تقدّمتُ في العمر، رحت أخشاه خشية أخويه منه.

ازداد دفء ليالي الصيف. ولم أتمكّن من النوم مهما بقيت مستلقية على السرير ومهما أغمضت عينيّ في قوّة. وجلست ساعات طويلة أرنو إلى حرائق الغابة خارج نافذتي. كانت الحرائق تندلع كلّ صيف ويمكن أن تستمرّ أسابيع طويلة. وإذا ما أخمدت، تجدها تبقى كامنة تحت الأرض وتنتقل من دون أن يراها أحد تحت سطح أبر الصنوبر، حتى تظهر من جديد في مكان آخر من الغابة. كان في وسعي أن أسمع صوت تصدّع خافت. فعلى بعد مسافة قصيرة من أسفل السفح، ثمّة خطّ برتقالي متوهّج وكأنّ شخصًا ما رمى قلادة طويلة من اللهيب في الغابة. وإلى الوراء، ثمّة حلقة أخرى مماثلة، تعقبها حلقة ثالثة أبعد منها. وفي الظلمة الحالكة الممتدّة خلف قوس الضياء المنبعث من مصباحي المنضدي، استطعت مشاهدة ظلال الجنود وهم يقلبون الطرق الترابيّة لإيقاف انتشار اللهيب. أمّا إلى الجهة الشمال، فشاهدت أحد خطوط النار يزحف باتّجاه منزل الموظّف.

ومع انقضاء فصل الصيف، ازدادت وطأة الجوّ بسبب الدخان، فأصيب الناس بالبرد والسعال. وبات سعال صاحب ديوان أشبه بحفيف الأوراق. ثمّة شجرة على مقربة من منزلي مستمرّة في الاشتعال منذ ثلاثة أيّام. وامتدّت ألسنة اللهب من تجويف على امتداد جذعها الطويل والمستقيم. وكانت مادّة الراتينج تنضح أسفل الجذع، فتزداد

النيران قوّة واضطرامًا ولم يكن ثمّة مياه لإطفائها.

لبثت في تلك الليالي ساهرة أصحّح دفاتر الواجبات البيتيّة. فعمدت إلى وضع دوائر من حول كلمات في دفتر التمرينات المتّسخ أمامي: كتب غودو: كانت أشو على حقّ، فالجوّ بارد تمامًا. «البث الفأر هادئًا جدًّا في البيت». كانت ثمّة أغلاط في إملائه. وفي دفتر تمرينات آخر، كتب أنيل الحروف الثلاثة S,B,P في اتّجاه معاكس، كشأنه دائمًا. دفعت الدفاتر جانبًا، وهوى رأسي بين يديَّ فوق المنضدة.

في الساعات الحالكة، اتّخذتْ أفكاري شكلاً ليس في وسعي أن أستدلّ عليه أثناء النهار. وإذا صادف أن خلدت للنوم بأيّ حال من الأحوال، فإنّني كنت أستيقظ على أثر أحلام شائهة كان ڤير يمسكني فيها ليلة إثر ليلة حتى أستسلم للنوم، أو يقبّلني في إصرار أو يدهسني بسيّارة الجيب حتى أغدو مثل بقايا تفّاحة من بعد عصرها، أو يقود سيّارته مبتعدًا من دون أن ينبس بكلمة. أحيانًا كانت شارو تظهر، وأحيانًا كوندان سنغ. أمّا مايكل فلم يظهر قطّ. ولو أغمضت عينيَّ وحاولت أن أتخيّل مايكل، فإنّ عناصر وجهه ترفض الاندماج في أيّ شكل معروف. واكتشفت أنّني غير قادرة على سماع صوته بأذنيَّ بعد الآن، أو صوت ضحكته أو الأسلوب الذي يتنحنح به بعدما ينطق ببضع عبارات.

قلّبت النظر في أفكاري عن أيّ شيء يمكنني أن أستعيده منه، وخاصّة السنوات التي أمضيناها معًا: الأسلوب الذي تظاهرت فيه على أنّني غافية كي يأتي بالشاي إلى سريرنا صباح كلّ يوم: فيجذب خصلة من شعري حتى يوقظني. وكم كنّا نتناول عجّة البيض يومًا إثر يوم لأنّنا لم نتسوّق أو نطهو شيئًا!

انتابني حنين جارف للبهجة البسيطة التي غمرتني من جرّاء زواجي به، ووجوده معي ليؤكّد ذكرياتي ـ هل كانت خزانة ثيابنا سوداء أم بنّيّة؟ هل كان للجيران مكبّة تدعى سيمونا؟ أين يقع ذلك المكان الصخري والمكسوّ بقصار الشجر الذي توجّهنا إليه، اليوم الذي تسلّم فيه الدرّاجة الناريّة بعد أسابيع من الانتظار؟ كان قد قاد الدرّاجة في سرعة فائقة، وانتابنا فرح جنوني، مثل أطفال هربوا من المدرسة.

قيل لي إنّني إذا ما وضعت أذني من فوق خطّ سكّة الحديد، فإنّ في وسعي أن أسمع اهتزاز القطار على بعد أميال عديدة. هل يمكن لمايكل أن يسمعني وأنا أناديه حيثما كان؟ راودني حلم في أنّني أنفق أوقات العصر الصيفيّة في مدينة حيدرأباد منذ زمن طويل، حيث الطيور والبعوض تتساقط منهكة بفعل حرارة الجوّ العالية والهدوء الساكن سكون الموتى الذي لا يقطعه سوى صرير مروحتنا السقفيّة. استلقينا من فوق الأرضيّة الباردة العارية من كلّ شيء أحيانًا، وفي سريرنا الضيّق أحيانًا أخرى، فتنزلق الوسائد والأرض من تحتنا، يشدّ أحدنا الآخر. كنت مضطرّة إلى لمس مايكل طوال الوقت لأتأكّد من أنّه بجانبي عندما أستسلم للنوم، وأنّه بجانبي أيضًا عندما أستيقظ. وعندما هبّت الرياح الموسميّة في تلك السنة الأولى، أمطرت السماء مطرًا غزيرًا كأنّها لم تمطره من قبل. ولم يكن ينساب إلى سمعنا سوى صوت ضربات المطر على السطح، متواصلاً على امتداد الليل، عندما استسلمنا للنوم واستيقظنا وهمس أحدنا للآخر وخلدنا للنوم ونهضنا من جديد كأنّ الليلة نفسها كانت سائلاً نسبح فيه، نتوقّف هنيهة لنلتقط أنفاسنا ثم نواصل السباحة من جديد. كنت أحفظ تقاسيم وجه مايكل بأصابعي وهو يستسلم للنوم، كي أتمكّن من الرحيل بين تضاريسه من سلاسل جبليّة ووديان أثناء ساعات غيابه. وكانت ثمّة أفكار لا أعرف

كنهها قد حفرت أخاديدها فيه. وراودني إحساس بغيرة من ماضيه لا سبيل إلى معرفة أسبابها. ولو كان الأمر في يدي، لما سمحت لأحد أن يشاركني في ظلّه. أردت أن أسأله الآن: هل الأمر سيَّان عندك.

كنت في التاسعة عشرة لمّا تزوّجنا، وما زلت طالبة في الكلّيّة، وعدت إلى صفوف الدراسة بعد أسبوع واحد من الزفاف. كنت أحدّق في الشجرة القائمة من وراء نافذة صفّي، وفي منتصف محاضرة عن سلطنة دلهي، كنت أهيم في دنيا الخيال إلى أن صكَّ سمعي ثانية صوت الأستاذ عاليًا من مكان بعيد:

ـ هل يمكنكِ إعادة التقويم الذي شرحته قبل قليل عن قطب الدين أيباك وسلالة العبيد؟ إنّني أكلّمكِ أنتِ. أنتِ يا مايا.

وكان من شأن مايكل أن يتذمّر بسبب حجم غرفتينا، قائلاً:

ـ إنّها سقيفة شيّدت لتكون مرآبًا على الأكثر!

كان المكان يبدو صغيرًا له، فالسقف واطئ والحمّام علبة صغيرة، يصطدم مرفقك بالصنبور إذا ما استدرت. كان طويل القامة، مرتبكًا إلى حدٍّ ما، ما جعله يصطدم بالأشياء دومًا. وكنت أستلقي فوق السرير وأراقبه، معجبة كلّ الإعجاب في شقّ طريقه نحو المطبخ الجديد ليعدّ لنا القهوة على نار الموقد الغازي الجديد. وكان في معظم الحالات يستسلم ويعود أدراجه إلى سريرنا المشوّش، يرنو إليَّ بعينين ملؤهما الحنين الصافي والشديد، فأشيح بنظراتي بعيدًا خشية قوّته وعنفوانه.

كنت في تلك الأيّام في حيدرأباد أنهض من على السرير، وأرشّ الماء على الشراشف لتبريد الغرفة إذا ما رأيت مايكل يتململ ويتقلّب في نومه. وإذا ما انقطع التيّار الكهربائي، فإنّني أجلس وأمسك

بصحيفة أهوّي بها على كلينا. كان مستغرقًا في النوم، منهكًا بعد عناء يوم طويل من العمل الشاقّ تحت حرارة الشمس الحارقة في فصل الصيف، وهو يقود درّاجته إلى أيّ منطقة ترسله إليها صحيفته لالتقاط الصور. كنت أرنو إلى وجهه النائم الذي لا حول له ولا قوّة، وأهمس، وإن لم يكن قادرًا على سماعي، بكلمات حبّ لها من العذوبة ما يجعلها تذوب وتتوارى إن عُرضت لضياء النهار.

قلت الآن وأنا أحاول أن أسمع صوته يردّ عليَّ:

ـ لم يكن في وسعي أن أتفوّه بها قبل الآن، ولكنّني أتمنّى لو أنّك علمت بها!

لكن كلّ ما سمعته إنّما هو صوت ثعالب ينادي أحدها الآخر، وأشواك الصنوبر تتساقط من فوق سقف الصفيح محدثة صوتًا كأنّه المطر.

* * *

٤

في العصر الكولونيالي، كانت أشهر الصيف في رانيكهت تعني سباق جياد ونزهات تحت ضوء القمر، بل ما زلنا حتى اليوم نتمتّع بما ندعوه «الموسم» عندما تحتشد البلدة بالأهالي القادمين من السهول، هربًا من حرارة الجوّ. كانوا يأتون، فتجدهم في كلّ مكان يقضون بضعة أسابيع: سيّاح ونزلاء صيفيّون، ومسافرون ليوم واحد. وكان الباحثون يأتون إلى صاحب ديوان. أمّا أولئك الذين يتوجّهون إلى أعالي الهملايا، فكانوا يتوقّفون في رانيكهت أثناء سفرهم. شتّى أنواع البشر يدخلون مبنى لايت هاوس ويخرجون منه وكأنّه نصب تذكاري عامّ. وإذا وجدوا صاحب ديوان في الحديقة، يتوقّفون ليستفسروا منه عن بعض المعلومات عن التلال أو لالتقاط صور له بوصفه أثرًا مقدّسًا أو بقيّة من بقايا الحكم، وسيّدًا هنديًّا نبيلاً ومخلصًا. وكانت التجهيزات تأتي أحيانًا إلى مجاميع ڤير المسافرة، أو يأتي رجال في أواسط العمر يطلبون حمّالين إلى سوق رانيكهت، فيلبثون بضع ساعات في البلدة يفكّرون في التفاصيل. وكأنّ ثمّة مساعدًا في مقتبل العمر

استخدمه ڤير للوقوف أمام المنزل بين حين وآخر، فكان يتسكّع طوال النهار من دون عمل على ما يبدو.

منذ أن استقرّ المقام بڤير في لايت هاوس، لم يطرأ أيّ تغيير نحو الأحسن في كتابة صاحب ديوان. فإذا طلبت منه فصولاً جديدة كي أطبعها على الآلة الكاتبة، أراه يلوّح بيده لمن يزوره قائلاً:

ـ لا يمكنني الكتابة عندما يحتشد المكان بعدد كبير من الناس، وسوف أنتظر حتى ينتهي الموسم وعندئذٍ سوف نفرغ من الفصل السابع. سوف أنتهي من الكتاب في هذا العام، وهذا وعد. ليس لديّ وقت طويل. ذلك الشاعر الويلزي، ما اسمه؟ لقد درسنا قصيدته في المدرسة ـ جوب ديفيز، خمسة وثمانون شتاءً وما زال في قيد الحياة / بعد السمّ البطيء/ وغدر الفصول ـ هل اضطررت إلى دراستها؟

قلت:

ـ لا.

ـ كان ينبغي لك دراستها. قصيدة جيّدة. إنّني أشبه السيّد ديفيز، بل أسوأ ـ أنا في السابعة والثمانين! في كلّ صباح أستيقظ وأقول في نفسي: ماذا؟ أما تزال حيًّا؟ الحقّ، ليس لديّ الكثير.

قلت:

ـ بل لا تريد أن تكتب بعد الآن ـ فأمامك عمل كثير يشغلك.

ثم أشرت ناحية الزجاجة من فوق المنضدة المجاورة له. فبعد أن جهّزه ڤير بكمّيّات وافية من المشروبات الكحوليّة الممتازة، فإنّ حفلات صاحب ديوان كانت تبدأ بعد وجبة الإفطار وتستمرّ حتى ما بعد الظهيرة. وكان يستمرّ في تأجيل تناول وجبة الغداء، فيصبّ له

كأسًا أخرى، ملوّحًا لهمت سنغ في كلّ مرّة يقول له فيها:

ـ هل أقدّم وجبة الغداء أيّها الصاحب؟

كان السيّد قريشي تحت الشجرة البيسيّة أيضًا يرشف في تمهّل من كأسه المعدنيّة في معظم الأيّام. ويبدو أنّه قد أهمل ورشته وتركها لولده.

ـ ربّما إذا كتبت مدّة ساعة واحدة في الصباح قبل أن تبدأ في احتساء شراب الجن.

قال صاحب ديوان وهو يسكب له كمّيّة كبيرة:

ـ يا له من كلام بلا معنى. لا تكوني معلّمة بهذا التشدّد. إنّ براعم ذوقي تبدو وكأنّها بعثت إلى الحياة بعد عشرين سنة من السبات.

ـ ثم التفت إلى السيّد قريشي وقال:

ـ أردت أن تخبرني بشيء ما، ولكن هذه الفتاة قاطعتك.

ابتسم السيّد قريشي صاحب الوجه المدوّر والأنف الأحمر وهو يترنّح من السكر، وقال:

ـ نعم، نعم يا صاحب ديوان. كما كنت أقول، إنّ سلوك البشر محفوف بالأسرار. أتعرفين يا مايا، لقد وصلتْ سيّارة بالأمس من أجل الصيانة، سيّارة من طراز هيونداي يملكها الطبيب الجديد في دار التمريض، ما اسمه؟ شارما أو فيرما. لا يهمّ. بدأ الفتيان في الاشتغال على السيّارة، وهم فتية طوال القامة، غلاظ البنية، بذيئو اللسان، مخمورون معظم الوقت. وعندما فتحوا صندوق السيّارة لإخراج العجلة الاحتياط، كاد أحدهم أن يسقط من فرط هلعه: ثمّة رأس في الصندوق، بكامل شعره الطويل.

قلت:

ـ رأس إنسان؟ أتعني جثّة؟

ضحك السيّد قريشي ضحكة قصيرة وقال:

ـ هه يا مايا. لقد أثرت رعبك صحيح؟ لا. عندما ألقى الفتيان أنظارهم من جديد، تبيّن لهم أنّ الرأس مصنوع من مادّة البلاستيك، وكان يُستخدم لوضع شعر مستعار. كان على الرأس شعر مستعار أيضًا: شعر أحمر طويل ذو لفائف، وعليه دبّوسان أزرقان من دبابيس الشعر. ماذا في وسعنا أن نفعل في ذلك الوقت؟ اتّصلنا بالطبيب لنقول:

ـ لقد تركت شعرًا مستعارًا في سيّارتك يا سيّدي.

وهنا صاح الطبيب:

ـ أيّ شعر مستعار؟ ماذا تظنّونني؟ أتريدون إهانتي؟ لديّ شعر كثيف وهو شعري. سوف أجيء إلى ورشتكم وفي وسعكم جرّ شعري، إن شئتم، وسترون إن كان في الإمكان انتزاعه أم لا.

ثم أقفل الخطّ بقوّة، غاضبًا غضبًا شديدًا. ليس ثمّة تفسير. لا يا صاحب ديوان. إن كنت مخطئًا، فأرجو منك تصحيح خطأي، ولكن سلوك البشر محفوف بالأسرار. لقد احتفظت بالرأس في المعرض الخاصّ بالورشة، ويمكنكِ يا مايا أن تأتي إلى الورشة لمشاهدته إن لم تصدّقي كلامي. ماذا كان يفعل الرأس في الصندوق؟ ليست لديّ أيّ فكرة.

قال صاحب ديوان:

ـ لِمَ لا نصدّقك؟ حدثت في زماني أمور أشدّ غرابة في بلدة

رانيكهت. والآن سأقول... وهكذا أُجّل موضوع كوربيت يومًا آخر.

عندما رجعت عصر أحد الأيّام إلى حديقته حاملة الجريدة، وجدته منهمكًا في التدخين. لم أقل شيئًا ولكنّنا تبادلنا النظرات، وجذب هو نَفَسًا طويلاً متحدّيًا، وبعد هنيهة، نفث دخانًا كان يملأ رئتيه، ثم نقر على علبة سكائره الموشّحة بصورة رولزرويس وكشف عن صفّ جديد وأنيق من حافّات الفلتر. لو كان طفلاً لأخرج لسانه لي. كان قد توقّف عن التدخين بصعوبة بالغة قبل ثلاثة أعوام، وأقسم أنّه تحرّر من نداء صافرة الإدمان، وأنّه لن يعاني بعد الآن مشكلة الإقلاع عن التدخين.

دلفت إلى المنزل، فوجدت مساعد ڤير، وكان رجلاً شابًّا خجولاً ومترهّلاً يتحدّر من بلدة دهرا دان، أنفق معظم الأمسيات يذرع الحديقة طولاً وعرضًا ويحدّث زوجته عبر الهاتف الجوّال. وكان من أتباع طائفة رادا سوامي، ويطهو وجبات طعامه النباتيّة بلا بصل أو ثوم بنفسه على موقد غازيّ نصبه في شرفة خلفيّة. وإذا ما شمّ رائحة طهو دجاج أو سمك في المنزل، فإنّه يشعل البخور بالعشرات وتبدو على وجهه ملامح قاسية تنبئ بالشهادة. وكان يعتقد أنّ علب السكائر وزجاجات شراب الجن موادّ زرعها الشيطان نفسه في البيت. ولاح عليه الذعر والهلع لمّا سألته عن بداية تدخين صاحب ديوان، فردَّ عليَّ:

ـ لا أحد منّا يدخّن يا سيّدة مايا. لا بدَّ أنّ بعض الزوّار تركوا سكائر في المنزل.

وكانت تلك السكائر من النوع الذي كان يدخّنه صاحب ديوان أيضًا.

وهنا هتف صاحب ديوان في صوت عالٍ:

ـ ما قيمة سيكارتين بعد ثلاث سنوات؟ أتظنّني لا أقدر على السيطرة على نفسي؟

عندما أخبرت العمّة في ذلك المساء عن السكائر، رنت إليَّ بنظرتها التي تنمّ عن معرفة دقيقة، وقالت ضاحكة ضحكة ساخرة:

ـ لقد تحسّنت الحياة أمام صاحب ديوان منذ رجوع قريبه! شراب كثير، والآن سكائر. سوف يقتل الفتى عمّه في محاولته إسعاده. إنّ غدًا لناظره قريب!

تظاهرت أنّني لم أفهم ما قالته وأشغلت نفسي في عمل آخر، لأنّني لم أحبّ أن أجعلها تفترض أنّني أشجّع الخباثة. فهي لم يرقها ڤير قطّ، ولم تثق به، وقد أخبرتني في أيّام إقامتي الأولى بهذا الشيء من دون أن تظنّ أنّه سوف يقيم في لايت هاوس أو أنّه سيصبح صديقي. لهذا أضحت مجاملة أكثر ممّا ينبغي فلا تتكلّم في صراحة عن مقتها له، ولكنّ الدافع إلى الكلام كان لا يُقاوم أحيانًا.

فقد صاحب ديوان من وزنه بسبب قلّة الأكل الذي يتناوله وكثرة الشراب الذي يحتسيه، فبات أصغر سنًّا وأكثر هزالاً، بيد أنّ عينيه اللتين تحيط بهما شبكة عنكبوتيّة من التجاعيد والغضون احتفظتا ببريقهما الخبيث. ففي عصر أحد الأيّام، جاءت سيّدة مكتنزة الصدر من إحدى مناطق إيست إنغليا على غير توقّع، وقالت إنّها تؤلّف قصّة حبّ مستندة إلى حياة أودينا مونتباتن وجواهر لال نهرو، وأضافت:

ـ إنّها قضيّة على درجة بالغة من الأهمّيّة في نظري، يا سيّدي، ولهذا ينبغي لي الاطّلاع على الرسائل التي أعتقد أنّها في حوزتك. فلو سمحت لي بذلك يومًا واحدًا، فإنّني سوف أجعل منك شريكي في العوائد الماليّة.

كانت المرأة قد جاءت مرتدية ثوبًا فضفاضًا من الحرير ينزلق باستمرار من فوق كتفها فتبرز تضاريس صدرها، حتى قال صاحب ديوان في نهاية الأمر:

ـ طريقان يلتقيان في قميص حريري مقوّر الصدر، وأنّه يتمنّى لو تمكّن من سلوك الطريقين معًا.

ولمّا واجهت الفشل والإخفاق في اليوم الأوّل ـ بعد أن أقامت في فندق ويستفيو ـ عادت مرّة أخرى في يومين آخرين: شعرها الأسود الطويل معقود على شكل كعكة، تعلوها وردة حمراء في اليوم الأوّل، وزهرة المنغوليا البيضاء في اليوم الثاني. جلست منتصبة وعدَّلت من وضع الزهرة ورنت إلى صاحب ديوان، مركّزة كلّ قواها في عينيها الواسعتين المتلمّستين، ووهبته وشاحًا من التعاونيّة المحلّيّة المخصّصة لأرامل أفراد الجيش، وفي اليوم الثاني منحته زجاجة من شراب الرّم.

حاولت أن تتكلّم على نهرو، غير أنّ صاحب ديوان حوَّل من دفّة الحديث، من غير رحمة ولا شفقة، إلى كوربيت قائلاً:

ـ أتعلمين أنّه قضى نحبه قبل آينشتاين بيوم واحد؟ فسبقه آينشتاين وحرمه متعة الشهرة. هل كان كوربيت رجلاً أقلّ شأنًا من آينشتاين؟ لو أنّني تهت في الأدغال هنا...

ثم لوّح بيده في هذا الاتّجاه وذاك، وأضاف:

ـ أرجو أن تكوني حذرة عندما تتجوّلين بعد هبوط الظلام، فأنتِ لم تعرفي أنّ الأفعى بطيئة الحركة التي تهتزّ مقتربة، هي على الأرجح أفعى سامّة. من هنا، فأنت في حاجة ماسّة إلى كوربيت، أيّتها السيّدة وليس إلى آينشتاين ـ عندما تكونين في حاجة إلى من يقدر على إخبارك، بالنظر إلى علامات وخربشات مؤشّرة على الصخور، من

الحيوانات التي مرّت من ذلك الطريق، وكم تبعد عنكِ، وما سبب نداء السعدان من فوق تلك الشجرة، وما الذي دفع الغزال المنادي إلى أن يثب بعيدًا نحو الجانب الآخر من الطريق. هل تفهمين كلامي؟ غشيت عينا المرأة غشاوة زجاجيّة، ولكنّها أومأت برأسها وقالت:

ـ لكن من يتذكّر كوربيت اليوم غير بعض العجائز الخرفين من مثلك؟

بيد أنّ صاحب ديوان لم يرقّ قلبه إلّا من بعد ظهر اليوم الذي كانت المرأة قد وطّنت عزمها على المغادرة فجاءت لتوديعه، فقال:

ـ آه، لقد نسيت. لقد جاء نهرو إلى رانيكهت رفقة آل مونتباتن، وجاء ليزورني أيضًا. أترين ذلك الكرسي؟ كرسيَّكِ؟ لقد جلس على ذلك الكرسي نفسه وفي يده كأس من شراب الجن ومنقوع الأعشاب المرّة وفي اليد الثانية سيكارة.

وثبت المرأة من فوق كرسيِّها محدِّقة إليها، غير مصدّقة، وبحثت عن آلة التصوير في حقيبة يدها، في حين استرسل صاحب ديوان في كلامه:

ـ لماذا لا تذهبين إلى فندق هولم فارم؟ ثمّة صورة في إطار هناك، تمثّل أدوينا وديكي ونهرو والسيّد أباديايا الذي يُشرف على المنطقة.

ثم قفل راجعًا إلى جريدته، في حين رمقته بنظرة قوامها الانفعال ونفاد الصبر والانزعاج بدرجة متساوية، قبل أن تندفع نحو سائقها لتستأنس برأيه بخصوص سلوك طريق آخر يفضي إلى المحطّة ولكنّه يمرّ بفندق هولم فارم.

راقب صاحب ديوان السيّارة وهي تتوارى عن الأنظار وسط

سحابة من غبار، ثم دلف إلى الداخل، وصبَّ لنا شرابًا من الرّم، وتهالكنا على كرسيّينا اللذين اعتدنا الجلوس عليهما. مرّت برهة وجيزة من الزمان لم ننبس أثناءها بكلمة بعد أن أتعبنا الكلام. ثمّة زهريّة طويلة منتصبة من فوق المدفأة الجداريّة، وفيها بعض الزهور الورديّة شبه ميتة، وحشر همت سنغ بينها عددًا من الزنابق ذات اللون الأحمر الشبيه ببشرة هنود الأزتيك الحمر. كان المكان يلفّه الصمت والهدوء، حتى خُيِّل إليَّ أنّ في وسعي أن أسمع بين الفينة والفينة صوت أوراق الزهر الورديّة الذابلة وهي تسقط على رفّ المدفأة.

أمّا ألسنة اللهب، فكانت تلتهم قطعة من الخشب في المدفأة. وكانت النار تُضرم في الحجرة كلّ يوم، حتى في أشدّ أمسيات الصيف الحارّة للقضاء على الرطوبة وحماية الكتب من الحشرات البيئيّة التي تقرض الكتب.

بعد فترة طويلة من الصمت، قال صاحب ديوان:

- رئيس وزراء دولة مستقلّة حديثًا متيّم بزوجة نائب مليكه الراحل. هل ما يبعث على الدهشة أنّ هذه المرأة تريد أن تحوّلها إلى قصّة عاطفيّة متوهّجة كالنار؟

أفرغ نصف الكأس في جوفه بكرعة واحدة، ثم تنهّد وأسند رأسه إلى الخلف على كرسيّه وأغمض عينيه.

وعندما بدأ يتكلّم بعد وقفة طويلة، بدا وكأنّه يكلّم نفسه، إذْ كانت عيناه مغمضتين وصوته شديد الانخفاض ممّا جعلني أميل إلى أمام لألتقط كلماته. وقال إنّ العلاقة غريبة، وإنّهما راحا يشعران بانجذاب أحدهما إلى الآخر عند نهاية مدّة وجود أدوينا في الهند. ولمّا حان موعد رحيلها، وبعده، لم يطيقا الافتراق لحظة واحدة.

وكانت رسائلهما قد كُتبت عندما كانا في الغرفة نفسها، وأحدهما كتب بعد لحظات من ترك الآخر. ثمّة كتابة على قائمة طعام مأدبة رسميّة. وفي الأعوام التي تلت ذلك، لم يلتقيا على انفراد إلّا نادرًا، ولم يشاهدهما أحدٌ معًا إلّا لفترة قصيرة عندما زار أحدهما الآخر وهو في طريقه إلى مكان آخر. وبهذا كانا في صحبة آخرين باستمرار. ومع هذا، فقد تبادلا كتابة الرسائل يوميًّا طوال سنوات. وكانت الرسائل تذهب وتأتي من طريق الحقيبة الدبلوماسيّة، وكلّ رسالة تحمل رقمًا لأنّهما كانا يخشيان وقوعها في أيدي الغير. لكن ما السبب الذي دفعهما إلى عدم خشية مثل هذه النهاية؟ كانت الرسائل تتضمّن أمورًا خطيرة تمسّ من هو مشهور في الحياة العامّة. وكان نهرو قد وصف صداقته بأدوينا على أنّها معركة بين التقاليد والكيمياء، انتصرت أخيرًا فيها الكيمياء ـ بهذا القدر أو ذاك. فالانتصار لا يمكن أن يكون تامًّا، لأنّ الحياة العامّة لا ترحم، ولا تسامح، وهي محكومة بأعراف وتقاليد وبالخوف من أيّ خطر قد يهدّدها.

وقال صاحب ديوان:

ـ ينبغي لي أن أعرف.

اتّسم صوته بنبرات شخص يقرأ قصيدة:

ـ إنّني أضيّع نفسي في دنيا الأوهام، ممّا لا يليق بشخص رئيس وزراء، ولكنّني أصبح مصادفة رئيس وزراء.

وقال صاحب ديوان إنّ المرء الذي هو بملء إرادته أسير قدره السياسي منفصل عن المرأة التي أحبّ، بسبب الوظيفة والبعد والضرورة بل الغريزة أيضًا. وكان نهرو قد أخبر أدوينا قائلاً لو أنّ كلّ واحد منهما تخلّى عنْ المسار الذي يسلكه لأصبحا غاية في التعاسة.

إنّ استحالة حبّهما هي التي جعلته مستدامًا.

ظلّ حاجب صاحب ديوان مكسوًّا بالتجاعيد، وتفرّس في النار كأنّه يقرأ فيها. أمّا أنا، فلم أملك الجرأة لأتفوّه بكلمة واحدة لأنّني لم أشاهده من قبل هائمًا في دنيا الخيال، ناسيًا الدنيا وما فيها، على هذا النحو. فهو لم يظهر بهذا المظهر قطّ عندما كان يتحدّث عن كوربيت. لم أستطع فهمه. صحيح أنّ القصّة مثيرة، ولكنّها مشهورة، ودائمة التكرار، حتى فقدت قدرتها في تحريك مشاعر الآخرين وبخاصّة إذا كانوا لا يقيمون وزنًا للعواطف مثل صاحب ديوان. كنت أفضّل أن أقول: إنّك تبدو مثل مؤلّف روايات عاطفيّة أيضًا. لكنّه لم يكن في حالته الاعتياديّة. لا، أبدًا. استرسل صاحب ديوان في همهمته:

- ثمّة رسائل يقول فيها نهرو إنّه شعر أنّ وجود أدوينا يشبه وجود الأريج في الجوّ. وقالت إنّها تحسّ بالسلم والسعادة في رفقته وهو ما لم تحسّ به مع أيّ شخص آخر. وأرسل لها بعض الحاجيات ليذكّرها بالبلد الذي رحلت عنه: لحاء شجرة بتولا من كشمير وبعض أوراق الشجر والحجارة. وكانت أدوينا قد أعطته خاتمًا قبيل مغادرتها الهند. ولمّا قضت نحبها وحيدة أثناء النوم في جزيرة بورنيو، كانت رسائل نهرو بجانبها، فقد كانت تسافر وتأخذها معها إلى أيّ مكان.

قلتُ بعد أن طالت وقفته الأخيرة أكثر ممّا ينبغي:

- لِمَ لا تؤلّف كتابًا في هذا الموضوع بدلاً من الكتابة عن كوربيت.

رمش بعينيه وكأنّه كان نائمًا. كان وجهه مكسوًّا بالألم، ولكنّه تمكّن من ترتيب ملامحه لتبدو عليه بعض الصراحة المعهودة به، وقال: كانت أدوينا تملك كلبًا يُدعى ميزان، ولم تعرف ما الذي تفعل

به عندما حان وقت رحيلها عن الهند. وبحسب قوانين الحجر الإنكليزيّة، كان ينبغي فصل الكلب وحجره بضعة شهور قبل السماح له بدخول البلاد مجدّدًا. واستشارت أدوينا نهرو في الموضوع، فاتّفقا على أنّ المستحسن هو القضاء عليه بدلاً من المعاناة في الحجر الصحّي، وكانا يعتقدان أنّ الكلب أكبر سنًّا من أن يتمكّن من البقاء حيًّا طوال تلك المدّة.

وقال صاحب ديوان:

ـ هذا يفي بالغرض! كلّ تلك الحدائق الممتدّة أمام عتبة بابه وهو رئيس الوزراء، ولكنّه لم يقترح تبنّيه وتركه يعيش بقيّة عمره في سلم وأمان. ما تظنّين شعوري تجاه ذلك وأنا الكلب العجوز؟ لن تقضي عليَّ إذا ما أضحيت مزعجًا. صحيح؟

سألتُه:

ـ هل تملك حقًّا أيًّا من رسائلهما؟ هل يمكنني الاطّلاع عليها مرّة واحدة؟

كان لديّ حدس طوال الوقت أنّه لفّق كلّ ذلك من أجل بعث السرور إلى نفسه عندما يراقب الناس، مثل تلك المرأة القادمة من مدينة إيست أنغليا، يأتون إليه وينحنون إجلالاً وتبجيلاً.

قال صاحب ديوان:

ـ ربّما أملكها وربّما لا. ربّما، وربّما لا. وسوف تكتشفين ذلك بنفسك.

أغمض عينيه من جديد وأضاف:

ـ سوف أحيل هذا المنزل إلى حطب للنار.

ثم قال وهو يخلط في كلامه:

ـ إنّه بيت كبير جدًّا عليَّ، كبير جدًّا...

أضحى يغالب النوم الآن، فتهدّل في كرسيّه وبدا من تحت النور الضعيف رجلاً ضامرًا وعجوزًا، ممتقع الوجه ومهزولاً، جلدًا على عظم. وباتت تصعب مشاهدة صورة كلابه في تلك العتمة وهي معلّقة من فوقه، ولكنّها جعلتني أفكّر في حكايات ڤير عن شباب صاحب ديوان، المفعم بالحفلات والجياد والموسيقى والنساء. كان ينحسر من أمام ناظريَّ، متلاشيًا يصعب الوصول إليه.

راودني إحساس طاغ بضرورة أن أفعل شيئًا للحيلولة من دون أن يتوارى عن أنظاري ويختفي من حياتي. فجذبت بضع صفحات من إحدى الرزم القديمة المكتوبة عن كوربيت، وكانت قد ظهرت قبل شهر من الزمان، وقلت له:

ـ سوف أطبع على الآلة الكاتبة عددًا من هذه الصفحات في هذه الليلة، وسوف نراجعها معًا يوم غد. حسنًا. سوف نبدأ من جديد. وسوف نرى إن كان قد فاتنا شيء ما في النسخة المسوّدة الثالثة.

لم يجب. كان قد استغرق في أفكاره من جديد، محدّقًا في اللهب المضطرم.

* * *

جلست في تلك الليلة رفقة أوراقه، ولبث صوت الآلة الكاتبة ينبعث طوال الليل، طبعت صفحة إثر صفحة، يغالبني إحساس بالضياع. ولو لم يكن ذلك الإحساس طاغيًا لظننته غير معقول. كيف فاتني أن أعرف الرجل الذي كتب هذه الكلمات في الوقت الذي كتبها؟ وإذا كان الوقت قصيرًا، كما كان يلحّ في أغلب الأحيان في

تلك الأيّام، فهل في وسعي أن أنعم النظر في هاوية غياب صاحب ديوان المؤكّد؟

هذا هو ما طبعته على الآلة الكاتبة من مخطوطة صاحب ديوان في تلك الليلة: هو بيانه عن الهدف من كتابة السيرة وخطّته المتفائلة بها والصريحة عنها ـ عندما لم يعرف أنّ مشروعه سوف يستغرق منه زمنًا طويلاً، وما يزال غير مكتمل:

ـ «لمّا كنت هلوعًا منذ مولدي بأبسط شكل من أشكال الجروح البدنيّة، فقد كنت أجد صعوبة في فهم شيء ساذج مثل الشجاعة. إنّني لا أقدر إلّا على التعجّب من الناس الذين لا يحتاجون إلى جياد هائجة لتسحبهم إلى حفرة كريكت، ومن مراسلين يواجهون رماة الكرات من غير أن يكونوا مقيّدين بالأصفاد بالهدف ثلاثي القوائم الخشبيّة. وأنا كذلك، فقد قذف بي غباء الناس الذين يسيرون على هواهم في غابات يمكن أن تلتهمهم فيها دببة، أو تنشب مخالبها في أبدانهم نمور يمكن أن تكون مخالبها أحيانًا حادّة حدّة بعض النساء اللواتي عرفت. فقد كنت أرى النمور تأتي بالدرجة الثانية من معلّمات المدارس في كونها الأشدّ إثارة للهلع في العالم، وأنّ انقراضها القريب (أو في الأقلّ وضعها داخل أقفاص مسوّرة) يمثّل رغبة داخليّة عارمة لبثتُ مضطرًّا إلى قمعها آخذًا بنظر الاعتبار أنّني أؤلّف كتابًا عن جيم كوربيت. إنّ نظرة واحدة إلى ترتيب أنياب نمر من النمور تكفي لإقناع أيّ فرد أنّ المذهب النباتي ليس مفهومًا يُرجّح أن يكون قد آمن به حتى أسلافنا القدامى. ففي بواكير شبابي، كان ربّ عملي نائب سوراجغاره يطلب منّي في انتظام الذهاب إلى الغابة، موضحًا لي أنّ الهدف من تلك الرحلات الاستكشافيّة إنّما يتمثّل في محاولة إلقاء نظرة إلى واحد من تلك الحيوانات الشرسة.

وبعد أن تجاوزت الإحساس بأنّه إمّا كان يمزح أو أنّه كان معتوهًا، فقد سموت على حالة الهلع التي يجهش فيها المرء بالبكاء على نحو يتعذّر السيطرة عليه، وكبحت المشاعر التي ألمّت بي ولم أقدم على الانتحار الذي كنت أحاول القيام به بالقفز من فوق أحد الحيوانات المتذبذبة التي كانت تنقلنا باتّجاه مقبرة مخيفة. كان للنائب أعمق الأثر في نشأتي المبكرة وانفصالي في قفص حديدي متين عن كلّ أنماط الحياة من ذوات الأربع إن كانت أكبر منّي. ويفسّر هذا إلى حدٍّ ما ولعي بجيم كوربيت الذي يبدو لي أشدّ بأسًا من نائب باتاودي عندما ترأّس فريقنا القومي في لعبة الكريكت. كانت حياته سنوات من تحويل مسار القطارات من خطّ إلى آخر وإطلاق الصفّارات، ثم أعقبها على أثر ذلك سنوات من الصيد والرماية. كان عاملاً بالسكّة الحديد قبل أن يصبح صيّادًا ذائع الصيت. وبحسب رأيه، فعل كوربيت، طوعًا ثم مثابرة، الشيء الأخير الذي كان من شأني أن أفعله، وهو «الاتّصال» (على حدّ تعبيره) بآكلي البشر. وكما نعلم من حكاياته التي تشدّ أعيننا إليه، فإنّ آكلي البشر لم يكونوا مثله توّاقين للاتّصال بنا. فما إن يعتلي ظهر أحدهم، إن جاز التعبير، حتى تجد صعوبة في إسقاطه من فوقه ـ وهو ما لا نستطيعه بعد أن نكون قد انجذبنا إلى حكاياته. فقصّة آكلي البشر في كوماون تبدو لي وكأنّها أروع ثالث كتاب في تعلّم كوربيت فنّ الكتابة بهذه الدرجة من الروعة! لقد قرأ مؤلّفات جيمز فينيمور كوبر. أمّا جاك لندن ومارك توين، فيبدو تأثيرهما محتملاً جدًّا فيه. كما يبدو أنّه اطّلع على الروايات التي تدور أحداثها في المناطق الحدوديّة، فضلاً عن الروايات الاستكشافيّة وأدب المغامرات. وفي كتابي عن كوربيت، أريد أن أتماهى مع قصص كوربيت، فأسرد مقطعًا من القصص التي

تزوّدنا بصورة عنه مع لمحة خاطفة عن سياق رواياته. كما أبغي إعطاء معنًى لما هو أصيل وموثّق في التوصّل إلى الحقائق.

وسوف يتضمّن ذلك انتقالات ماتعة تبيّن أنّ انغماس كوربيت في الحياة البرّيّة إنّما كان يعوّضه عن جفاف عاناه في صلاته بالنساء بسبب شقيقة له كانت تستبدّ بها روح التملّك والهوى. إنّ المصدر الأساس في المعلومات عن كوربيت يتمثّل في حزمة من الملاحظات ـ ثلاث عشرة صفحة أملتها شقيقته نفسها (وكان اسمها ماغي) على صديقة لها في كينيا تُدعى روبي بيتس حيث أمضت هي وجيم سنوات عمرها الأخيرة. وكانت ماغي بالنسبة للعالم الطبيعي الهندي العظيم أمًّا وأختًا وزوجة تمامًا مثلما كانت دوروثي بالنسبة إلى وردزورث. إنّني أبدأ هذا الكتاب اليوم ـ في الثالث عشر من شهر أيلول ١٩٦٧، وأنوي الفراغ منه بعد سنتين، أو ثلاث في الأعمّ الأغلب، ولكن هل من أحد يرغب في نشره؟

* * *

٥

تلكّأتْ شارو في الدار في الوقت الذي كان ساعي البريد يقوم بجولته، متظاهرة أنّ لديها ما يشغلها من العمل. وكانت ترفع من بصرها كلّما تداعى إلى سمعها صوت نباح بيجلي، ثم تهدأ عندما ترى أنّ الكلب لم يكن ينبح لسبب معيّن. وبعد وصول إحدى رسائل كوندان سنغ، ظلّ صوتها المرح ينساب إليَّ على مدى بضعة أيّام. وكانت تذهب سالكة طريق الغابة المختصر إلى السوق رفقة أوعية الحليب لتسلّمه إلى زبائنها المنتظمين، ولمّا عادت، كان وجهها مشرقًا بابتسامة وإنْ كان كتفاها محنيّين بسبب أكياس تنزّ ماءً وممتلئة بخضراوات عفنة، جمعتها من السوق لإطعام أبقارها ووضعتها على رأسها عائدة بها إلى المنزل. وبمرور الأيّام، واستطالة المدّة الفاصلة بين رسالة وأخرى، اضمحلّت بهجتها.

وفي كلّ مرّة تأتي رسالة، كنت أسألها إن كانت ترغب في أن أكتب ردًّا لها، غير أنّها كانت تهزّ رأسها نافية. وفي يوم من الأيّام، قالت:

ـ سوف أكتب عندما أتمكّن من الكتابة بنفسي.

كانت مهارتها تتحسّن، ولم تعد تنسى الهجاء بين يوم وآخر. وكنت قد بدأت تعليمها كلمات مثل «hum, tum, theek» ظننتها سوف تساعدها في صياغة أوّل رسالة تكتبها بنفسها. في هذه الأثناء، كانت تدعني أكتب لها عنوان كوندان على ظروف رسائل بين الفينة والفينة وترسل له بعض الأشياء ـ مثل أوراق شجر وإبر صنوبر وزهور مجفّفة ـ عرفتُ بأمرها عندما كان يأتي على ذكرها في ردوده.

وكانت رسالته التي أرسلها في حزيران وقرأتها لها تبدأ:

«الطقس شديد الحرارة هنا، ولا يمكنك تخيّل شدّة حرارته، حتى إنّني كنت أشاهد بعد الظهر الذباب يتساقط ميتًا. وعندما أعود إلى غرفتي، أجد الذباب الميت على سريري. وتكثر العواصف الترابيّة هنا بدلاً من الأمطار. فتلتقط الريح الغبار فوق الأرض وتتركه يهبّ في كلّ مكان. ويبدو الجوّ مظلمًا بسبب الغبار وكأنّه غائم جدًّا، وهو يؤذي العينين، يصعب طهو الطعام في هذه الحرارة، والمطبخ حارّ حرارة قِدْر من فوق موقد. والماء في الصنبور حارّ يصلح لصنع الشاي. بالأمس، ذهبت إلى معرض بعد انتهاء العمل وشاهدت الراقصات كما في الأشرطة السينمائيّة. وكان المعرض يحتشد بالأنوار الساطعة وفيه دولاب عملاق كالذي رأيناه يومًا ما في المنطقة العسكريّة، لكنّني تذكّرت ذلك الدولاب ولم أرغب في ركوبه وحدي من دونك. تسكّعت في المكان وفكّرت في التنزّه بين الجبال. اشتريت قرطين بحجارة حمراء اللون. إنّهما جميلان، ولكنّهما ليسا بجمال القرطين بالحجارة الخضراء اللذين أملكهما. سوف أكتب مجدّدًا».

صديقك الذي يحبّك

كانت كتابة كوندان سنغ بحروفها الكبيرة تحتلّ كلّ جوانب رسائله الداخليّة الثلاث وكلّ الفراغات الجانبيّة، وكأنّه وطّن نفسه على ألّا يهدر ملمترًا واحدًا. كانت رسائله مكتوبة بلغة بسيطة، تحتشد بتفاصيل حيّة عن أيّامه. وكان زهو حياته يتّضح أكثر فأكثر مع كلّ رسالة تصل إلى شارو. فقد كان يصف غرفته على هذا النحو:

هي غرفة صغيرة مشيّدة من فوق مرآب، ويمكنه أن يسمع وهو في داخلها زئير الأسد ليلاً ـ فقد كان المنزل على مقربة من حديقة حيوانات مدينة دلهي، وغير بعيد عن القلعة الأثريّة القديمة بورانا كويلا. لم يركب القوارب التي تسير في المياه المحيطة بالقلعة، ولكنّه كان يحلم بركوبها يومًا ما برفقة «صديقته القديمة التي تسكن رانيكهت».

كان كوندان سنغ يتحدّر أصلاً من النيبال وله شقيقة يسعى إلى توفير مهرها. أمّا أسرته، فتقطن ضواحي سيليغوري، تلك البلدة الواقعة في السهول الممتدّة إلى الطرف الشرقي من الهملايا. وكان والده يكسب قوته من عمله بستانيًّا ومن أعمال أخرى متنوّعة من بينها الحراسة. وقد كدَّ وشقي طوال حياته وراوده الحلم في أن يحظى ولده بوظيفة حكوميّة، غير أنّ كوندان سنغ ترك المدرسة والتحق بالعمل في أحد الفنادق المحلّيّة بصفة مساعد، وتقدّم في ذلك العمل حتى أصبح في وظيفته الحاليّة.

يبدو أنّ أرباب عمله يحبّونه كثيرًا. فالمرأة (التي لقّبها بلقب (جهادو) المكنسة بسبب شدّة نحولها وهزالها فضلاً عن شدّة نظافتها) غالبًا ما كانت تشتري له الثياب وتمنحه نقودًا إضافيّة كي يرسلها إلى أهله. وكان للمنزل شرفة كبيرة يُظلّلها الخوص. وقد اضطررت إلى أن أشرح لشارو ما كان يعنيه كوندان بهذا، فقلت لها إنّ مادّة الظلّ هي

ستارة مصنوعة من نوع من أنواع الحشائش يُسمّى الخوص وتنبعث منه رائحة طيّبة عندما يُبلّل بالماء. وكان بقيّة الخدم يرشّون الماء على الخوص قبيل وصول الزوّار. كما كانوا يملأون مزهريّات طويلة بزهور نرجسيّة معطّرة وينفضون الغبار عن الصور. وفي أمسيات فصل الصيف، كان أرباب العمل وأصدقاؤهم يجلسون في الشرفة يرنون إلى الأشجار المعمّرة الباسقة التي تظلّل الحديقة، في حين يتهادى إلى سمعهم صوت برّادة الهواء الكبيرة. وبمرور وقت المساء، تكون الطاولات المحيطة بهم قد امتلأت بزجاجات وأقداح فارغة. وكان أحد الزوّار يتمثّل في امرأة ترتدي تنّورات قصيرة وأقراط طويلة، تنهمك في الشراب وتدخّن سكائر طويلة. وكان كوندان قد أتى على وصفها في رسالته إلى شارو قائلاً: «إنّها تبدو أشبه بأهل نيبال، ولكنّها ربّما كانت صينيّة، ترتدي ثيابًا غريبة، ويمكنك مشاهدة ساقيها من الأعلى إلى الأسفل، تحتسي خمس أو ستّ زجاجات من الجعة في أمسية واحدة».

أرادت المرأة ذات الثياب القصيرة أن تتعلّم يومًا ما كيفيّة طهو لحم الضأن على النحو الذي يتقنه أهالي التلال. وطلبت أن يعلّمها ذلك أحدهم، فطلبت جهادو من كوندان أن يستعدّ لذلك. فما كان من كوندان الذي سبق له أن شاهد كلّ برامج الطهو من خلال شاشة التلفاز إلّا أن وضع كلّ ما يحتاجه من مقادير في أوعية صغيرة مرصوفة في خطّ مستقيم: مقطّعة أو مفرومة أو مطحونة. ونظّف المطبخ تنظيفًا جيّدًا حتى لاح كأنّه مطبخ من تلك المطابخ التي تظهر على شاشة التلفاز.

ولكن عندما وصل الضيوف تملّكه الخجل، وكتب في رسالته موضحًا: «لم أرغب في أن أعلّم أحدًا أيّ شيء، فلبثت في غرفتي حتى أرسلت جهادو في طلبي».

وعندما وصل المطبخ، وكان ما يزال متردّدًا، ضحكت المرأة وقالت:

ـ ماذا؟ ألا تريد أن تعلّمني أسرارك؟

ثم وقفت بجانبه وراقبته وبدأت تدوّن الملاحظات في حين كان منهمكًا في طهو اللحم، وظلّت تغمِس ملعقة، وتنفخ فيها وتتذوّق طعم المرق. وراحت صديقة أخرى تلتقط لهما الصور وهما مستغرقان في الطهو، وأعطوا كوندان نسخًا من تلك الصور، فأرسل إحداها إلى شارو، وكانت تلك أوّل صورة يرسلها إلى شارو.

رنوت إلى الصورة قبل أن أسلّمها لها. كان المطبخ الظاهر في الصورة جديدًا وبرّاقًا، وكأنّه صورة من تلك الصور المنشورة في المجلّات. أمّا الصديقة الشابّة الحسناء ذات العينين اللتين تلوح منهما نظرة خاصّة، والخدّين البارزين، فكانت ترتدي تنّورة رماديّة قصيرة وتبدو غاية في الأناقة، بقرطيها المتدلّيين على كتفيها وقلادتها المنزلقة إلى وسط قميصها العاجي الذي يكشف عن صدرها. وكانت تبتسم أمام آلة التصوير ابتسامة عذبة. وكان كوندان مبتسمًا أيضًا من فوق الأبخرة المتصاعدة من قِدْر المطبخ، فلاح وجهه متألّقًا. وكانت كتلة شعره قد نمت كثيرًا والتعويذة المعلّقة برقبته قد سطعت أمام ضوء آلة التصوير.

عندما نظرت شارو إلى الصورة لم تبتسم، وللمرّة الأولى، لم تثب على قدميها مبتهجة مثرثرة، وهو ما دأبت عليه لدى وصول أيّ رسالة. وفي الأيّام القليلة التالية، كانت تذهب إلى السوق رفقة أوعية الحليب التي تضرب ساقيها في كسل ورتابة وعلى رأسها كيس من خضراوات متعفّنة. وكانت تضرب بعصاها على كلّ شجرة تمرّ بها.

* * *

٦

حوَّل فصل الصيف الطويل سفوح التلال إلى مادّة سريعة الالتهاب، فالأمطار لم تهطل، ولم تأتِ أيّ رسالة من كوندان بعد الرسالة التي أرفق بها صورته. واشتدّ القلق بشارو، فلم تفعل شيئًا غير مهامّها اليوميّة الرتيبة. كانت قبل الآن تنظر بعين العطف والرعاية إلى بوران، وأضحت ماهرة في سرقة الحبوب من مخازن العمّة لإطعام غزالته، ولمّا كانت تعلم أنّه يطعم كمّيّات كبيرة من طعامه للحيوانات التي عقد صداقته وإيّاها، فقد خبزت أرغفة إضافيّة من الخبز الفطير بالملح والدهن لتقديمها له عندما تكون العمّة في شغل عنها. والآن، وفي أغلب الأحيان، نسيت أمره.. فجاع بوران.

لم يطلب طعامًا من أيّ فرد في الدار، إذْ وجد الطعام يأتي إليه بوسيلة من الوسائل إذا ما ذهب إلى كشك ناجي الخاصّ ببيع الشاي في مول رود حيث يراه السيّد شوهان بين يوم وآخر، حتى انفجر غضبه يومًا ضدّ بوران انفجارًا عنيفًا لا سبيل إلى تفسيره. وفي مساء أحد الأيّام، همس لي عندما صادفته في مول رود:

ـ هذا الشحّاذ وكلّ هذه الكلاب! انتظري أيّتها السيّدة وسترين ماذا أعني.

في تلك اللحظة، كان بوران يجلس فوق مصطبة ناجي المعوجّة يبدو غير مؤذٍ تمامًا. وعند حافّة الطريق، كان الفتيان يتجادلون وهم يمارسون لعبة شبيهة بالبليارد، في حين كانت مجموعة أخرى تهتف وهي تشاهد لعبة كرة الطائرة في قطعة أرض مهجورة بجانب فندق ميغهدوت. وكانت الفتيات، بثيابهنّ الضيّقة والمتألّقة، يتمشّين ذهابًا وإيابًا ويختلسن نظرات جانبيّة إلى الفتيان الذين كانوا يتسكّعون، ويضرب أحدهم كتف الآخر، ويمرّرون أصابعهم في شعرهم، يضحكون ويتحدّثون في صوت عالٍ عند مرور الفتيات. واقتربت سيّارة جيب قادمة من السوق، محمّلة بالأكياس والصرر، ويخرج منها الناس وصغار الماعز وتنفث دخانًا أسود، فغطّى السيّد شوهان أنفه بمنديل أبيض مكوي جيّدًا.

جاء ناجي الأصغر سنًّا إلى بوران وقد اكتسى وجهه بأمارات صبر مبالغ فيه، وقال:

ـ عدتَ ثانية؟

ثم ناوله كأسًا من الشاي وأربع شرائح سميكة من الخبز، فما كان من بوران إلّا أن هرع حاملاً شايه وخبزه إلى أقرب حاجز يمتدّ إلى الطرف الغربي من مول رود، وجلس من فوقه وبدأ يأكل في سرعة وكأنّ هناك من سيخطف الخبز منه. وسرعان ما انتشرت من حوله مجموعة من الكلاب ترفع أبصارها إليه بعيون متوسّلة وألسنة مهدّلة. فما كان من بوران إلّا أن رمى ببعض الفتات، فزمجرت الكلاب وعوت وهي تتشاجر بسبب الطعام.

التفت السيّد شوهان إليَّ منتصرًا، وقال:

ـ هل رأيتِ؟ هل فهمتِ ما كنت أعنيه؟ بالأمس أخبرت سكرتيري، وكان يرافقني في السيّارة، أن يدوّن ملاحظة، وقلت له إنّ عدد الكلاب السائبة أكبر ممّا ينبغي، وقلت له إنّني أريد قائمة تحتوي على أوصاف الكلاب وأسمائها في حقل، وأسماء أصحابها في حقل آخر. وكلّ كلب بلا رخصة ينبغي إبعاده، وسوف نُصدر تعليمات خاصّة برخص الكلاب وهذا... الكلب؟ لا ينبغي أن يكون ثمّة شحّاذ واحد في أيّ منطقة عسكريّة، لا بدَّ أن نكون مثالاً يُقتدى به في جميع أرجاء الهند. سوف أعالج موضوع هذا الرجل. هذا ما قلته.

التفت إلى باب سيّارته البيضاء من نوع جيبسي التي كان ضياؤها الأحمر الساطع يتألّق ويدور مثل قمّة غاضبة طوال مدّة تجاذبنا أطراف الحديث. وعادت السيّارة تزمجر من جديد، وأخذته إلى آخر مول رود. أمّا بوران، فظلّ جالسًا على الحاجز منسيًّا، ولبثت الكلاب السائبة عند قدميه راضية بعد أن أخذت حصّتها من الطعام. وبدأت الجبال المائلة إلى السواد من ورائه تبتلع الشمس الحمراء بعد أن راحت تتحوّل من قرص إلى شظيّة تتوارى عن الأنظار رويدًا رويدًا.

* * *

في تلك الليلة، جلست بالقرب من نافذتي وأنا في حالة نعاس، أتفرّس في النيران المشتعلة في الغابة. وفكّرت في ما قد يحدث للحيوانات التي تعيش وسط الأدغال والأعشاب الواطئة إذا ما هبّت ريح قويّة وأجّجت النيران الهادئة وحوّلتها إلى لهيب متّقد. إنّ هذه الحيوانات معرّضة للخطر على الدوام. ففي إحدى السنوات، اقتحم بوران ألسنة اللهيب في منتصف الليل ورجع حاملاً ثعلبًا صغيرًا مصابًا بحروق

سطحيّة. وفي سنة أخرى، أنقذ قردًا رضيعًا من الغابة المشتعلة، وما إن حلّ صباح اليوم التالي حتى وجدنا أسرة كاملة من القرود تقف على عتبة باب بيتنا تحثّنا على إطلاق سراحه زاعقة، هاذرة.

تهت وسط أفكار قلقة على بوران وتهديدات السيّد شوهان الذي عزم على «إصلاحه»، عندما انساب إلى سمعي صوت طرْق ضعيف على بابي في الدور الأرضي. كانت الساعة العاشرة والنصف والجيران نيام، في حين كان الضوء المنبعث من داري هو الضوء الوحيد، وكان يُفترض بي أن أكون منهمكة في تصحيح دفاتر اختبار تلاميذ صفّي في اللغة الإنكليزيّة. في البدء، ظننت الطرْق على الباب من نسج الخيال، فاستمررت على تصحيح الدفتر الذي كنت منهمكة فيه، ولكنّني سمعت الطرْق من جديد.

لا أحد يؤدّي زيارة في هذا الوقت المتأخّر في رانيكهت، وسرت ارتعاشة في بدني، فهذه زيارة ليليّة كنت أعرف تمامًا أنّها واقعة لا محالة. لا بدَّ أنّ شيئًا ما حدث لصاحب ديوان، وأنّ همت سنغ جاء في طلبي. أسرعت أحثّ الخطى على السلالم وفتحت مزلاج الباب الرئيس في ذعر وهلع.

كان الواقف أمام الباب هو ڤير، محمرّ الأنف من شدّة الشمس، ووجهه أرقّ من المعتاد بعد أسابيع من المشي والتسلّق. وكان شعره القصير كالمعتاد قد طال، فبدا، بسببه وبسبب لحيته غير المعهودة، غريب المظهر. وفي لحظة من الزمان، عاد بي فكري إلى الليلة الأخيرة التي أنفقتها رفقة مايكل عندما مسَّدت بأصابعي وجهه الحليق، وأنا أتوقّع رؤية لحيته على أثر رجوعه من كلّ رحلة، وعندما قرصت الشحم الزائد المحيط ببطنه مدركة أنّه سيفقده بعد أن يمضي الأسابيع بعيدًا.

كان ڤير يقف على مقربة منّي، فاستطعت أن أشمّ رائحة العرق المنبعث منه. كان بنطاله من الجينز وسخًا وحذاؤه ملطّخًا بالوحل. وسرعان ما غمرني إحساس مفاجئ لا يقاوم في أن أدفن وجهي في قميصه وإن كان متهدّلاً ومتّسخًا. غير أنّني تذكّرت كيف مرَّ من أمامي بسيّارته وتجاهلني تمامًا.

قلت:

ـ ها قد عدت.

ثم أردفت:

ـ لديّ عمل كثير ينبغي لي إنجازه.

خلع حذاءه قرب الباب ودلف من جانبي واتّجه إلى المطبخ، وانصرف إلى الرفّ التي كنت أضع من فوقه الصحف القديمة وأخرج واحدة، وفرشها في ركن من أركان أرضيّة المطبخ ووضع حذاءه في وسطها، وقال:

ـ أترين كثرة الوحول العالقة بالحذاء؟ لولا الجريدة لا تسخ سجّادك.

ثم مدّ يده إلى مرشّح الماء المعدني وشرب جرعات كبيرة منه، وهو يردّد:

ـ الطقس حارّ، حارّ. تأخّرت الأمطار الموسميّة، ولكن قناة سي. إن. إن توقّعت هطول المطر. سوف تمطر الليلة، فالجوّ ساكن وفي وسعك الإحساس بالرعد.

غسل القدح ووضعه بدقّة فوق نضد المطبخ، وفتح البرّاد وتفحّص وعاء الحليب ومكعّبات الجبن والليمون الذي مضى عليه زمن طويل، وهزّ رأسه وقال:

ـ ألا تأكلين طعامًا حقيقيًّا يومًا ما؟

ثم اتّجه نحو غرفة الجلوس وتوقّف أمام الصورة المؤطّرة.

كانت صورة بانوراميّة لقمم الجبال المرئيّة من رانيكهت المؤشّر ارتفاعها بإزائها. وتساءلت عن السبب الذي يدفعه إلى تأمّل صورة لا بدّ أنّه شاهدها في كلّ بيت من بيوت هذه التلال؟ أتراه يريد أن يريني الأماكن التي تسلّقها ووصل إليها؟ الآن؟ في هذا الوقت؟

كانت يدا ڤير المستندتان إلى ظهر كرسي غارقتين في ثنيات سترة صوفيّة ورديّة كنت قد تركتها من فوق الكرسيّ. ولاحظت أنّ أصابعه كانت تتسلّل في الصوف، تعبث به. عندئذٍ أدركت سبب مجيئه حتى من قبل أن يبدأ الكلام.

قال:

ـ فكّرت في كلّ يوم من أيّام هذه الرحلة أنّني شاهدت عشرات المناطق الجميلة في العالم ومعظم سلاسله الجبليّة. وأعرف معرفة أكيدة أنّني لن أكون في أيّ مكان آخر سوى الهملايا، وسوى رانيكهت، ولا شيء من رانيكهت سوى ذلك الركن الذي يضمك بين جنباته.

ثم ابتعد عن الصورة وعنّي وهو يتنهّد تنهّدًا عميقًا، وتألّقت عيناه في ذعر تارة وفي نشوة تارة أخرى، قبل أن يشير على نحو غير متوقّع إلى قدمه ويضحك، ويقول:

ـ انظري! إنّك تثيرين هلعي أكثر من أيّ أخدود.

كان أحد جوربيه أزرق والثاني أخضر غامقًا.

بدأ في تلك الليلة نسيم بارد ورطب يهبّ على الأشجار فيبعث

أصواتًا مثل أصوات البحر. وطرق سمعنا صوت أكواز الصنوبر تفرقع فوق السطح، وتوارت النجوم عن الأبصار وبدأ قصف الرعد، وشقّت عنان السماء المتّقدة بالحمرة شرائح ضوء مثل نصل السيوف. وتحوّل النسيم إلى ريح عاتية مزمجرة مولولة، وأضحى منزلي من فوق حافّة الجبل قاربًا يتأرجح يمنة ويسرة. وأتت الريح بزخّات مطر اندفعت من النوافذ المفتوحة، فما كان منّا إلّا أن أغمضنا أعيننا أمام غشاوة الماء وكأنّنا لسنا في منطقة جبليّة بل فوق ساحل تغمره الأمواج. أمّا في أقصى جهة الجنوب البعيدة، فبدأت الغابة التي تنبعث منها النيران والدخان بالهدوء أخيرًا.

* * *

بما أنّنا نعلم أنّ القيل والقال هما التسلية الوحيدة في بلدة صغيرة مثل بلدتنا، فقد بذلنا قصارى جهدنا في الكتمان والحذر، لهذا نادرًا ما كان ڤير يأتي لزيارتي في منزلي، وإذا جاء، فإنّه يأتي ليلاً وينصرف قبيل الفجر. ولم يترك حذاءه ولا مظلّته خارج الدار، وإذا رغبنا في اللقاء، فإنّنا كنّا نخرج ونبتعد مسافة أميال عن رانيكهت، ونذهب إلى سفح من سفوح التلال المنعزلة عن الأنظار المحيطة بالبلدة. وكنّا نفرش بساطًا فوق أرض الغابة المكسوّة بالصنوبر، ونستلقي تحت السماء، فيتهيّأ لنا أنّنا الوحيدان في منطقة براري الهملايا الخشنة والشديدة التحدّر، إلى أن وجدنا معزة ترنو إلينا، يعقبها من بعد ذلك راعيها الفضولي. وكان الأطفال، في عدوهم أحيانًا بين المدرسة والقرية ووسط الأدغال، يتوقّفون وينظرون إلينا في دهشة، إلى أن يراودني الإحساس أنّني أصبحت مستعدّة لأن ألوّح لهم بعصا مهدّدة إيّاهم، ولكنّني ما زلت أفضّل هذا كلّه على مراقبة العمّة. ولكي أحول دون رؤية الأهالي لنا معًا بعد عودتنا، فإنّني كنت أترجّل من سيّارة

الجيب على بعد مسافة من الدار وأعود أدراجي سيرًا على الأقدام سالكة دربًا مختلفة، فنصل في وقتين مختلفين.

على الرّغم من براعتنا في الحيلة والخداع التي لا تخطئ، فإنّ علاقة الأرملة الشابّة بقريب صاحب الدار التي تسكن فيها سرعان ما أضحت حديث أهالي سفح التلّ. ففي غضون أيّام قليلة، أحسست بالقيل والقال من حولي، وفي صباح أحد الأيّام، شاهدت من نافذتي العمّة في حديقتي تنخس بعصاها نباتاتي على ما يبدو. وعندما خرجت إليها، تكلّمت على الزهور من فوق الخيار وأنّ الفاصوليا أتت عليها الكلاب الصغيرة، كما تحدّثت عن غزالة بوران التي اختفت عن الأنظار ساعتين قبل يوم أمس فانتابه القلق. وأحسست بالملل ونفاد الصبر من انتظاري لها حتى تدخل في صلب الموضوع، وفي تلك اللحظة، رفعت بصرها إلى السماء وكأنّها عازمة على الحديث عن الأمطار، وقالت:

ـ هل تعرفين الشابّة باهو ابنة غابو دوبي؟

لم أكن أعرف سوى غابو نفسه عامل المصبغة في البلدة. قلت:

ـ أتعنين تلك الشابّة الحسناء التي ترعى أبقاره وهي تحمل طفلاً رضيعًا ملفوفًا على ظهرها بوشاح؟

كنت أعرف الفتاة على أنّها راعية بقر وليس زوجة ابنه.

ـ نعم، نعم، هي بعينها. أتدرين؟ ذلك الرضيع ليس ابن زوجها، فقد قضى زوجها نحبه منذ سنين وكانت شابّة في مقتبل العمر يومئذٍ، مثلك تمامًا. لقد أضحى ذلك الرضيع وهو ثمرة ذلك الزواج في سنّ الثانية عشرة اليوم. وما إن توفي زوجها حتى راحت تعاشر شقيقه ـ الناس يسمّونها غوديا لأنّها تشبه دمية من زجاج. كان ذلك الشقيق

يهيم بها حبًّا حتى عندما كان زوجها على قيد الحياة، ولمّا توفي الزوج لم ينتظر الشقيق ـ الذي كان الناس يسمّونه ڤيكي ـ حتى يبرد الرماد، فبدأ يغوي زوجة شقيقه، وسرعان ما حلَّ محلّه في السرير! تلك الفتاة التي تتّخذ مكانها عند حنفيّة الماء العموميّة طوال النهار من دون عمل سوى الغيبة والنميمة على العالم كلّه، وكأن لا شغل يشغلها عن ذلك؟

قلت:

ـ إذًا، انتهت الأمور نهاية طيّبة. صحيح؟ فالفتاة تبدو سعيدة في زواجها الآن.

قالت العمّة ضاحكة:

ـ آه، ولكنّهما لم يتزوّجا، هل فهمتِ؟ لا، لا، فإنّ ڤيكي ثاقب الفكر، فطِنٌ لا يقدم على مثل هذا الزواج. فقد كان زوج غوديا ساعيًا في دائرة من دوائر منطقة هالدواني، وعندما وافته المنيّة، بدأت غوديا تتقاضى مرتّبًا تقاعديًّا ضخمًا ـ وقد طرق سمعي أنّه يبلغ الآن زهاء الألفي روبيّة. فهل تظنّين ڤيكي سوف يترك مثل هذا المال يتبخّر من بين يديه؟ آه، لا. فهو يعلم أنّ النساء الأرامل يتقاضين وحدهنّ المرتّب التقاعدي. ولهذا السبب اصطحب غوديا إلى أحد المعابد وقال لها:

ـ أنا وأنتِ متزوّجان أمام الله، ولكن إذا ما طرح عليك أيّ شخص سؤالاً، عليكِ أن تخبريه أنّك أرملة.

وبهذا كانت تذهب كلّ عام إلى مصرف الولاية وتبصم بإبهامها على وثيقة تحلف عليها اليمين بأنّها لم تتزوّج، وبذلك يمنحونها المرتّب التقاعدي للعام التالي. وكان موظّفو المصرف أنفسهم يعلمون أنّها كاذبة، ولكن ما عساهم يفعلون؟

قلت:

ـ ثم ماذا؟ كلّ الناس تخرق القوانين!

ـ كيف تثقين بإنسان يبلغ من الجشع حدًّا فلا يعير اهتمامًا إذا ما ظلّ الناس يطلقون على زوجته أرملة؟ والآن انظري إلى صاحب ديوان. فهو رجل عجوز ويملك ذلك المنزل والمال. انتظري وسوف ترين الطيور الكواسر تحوم من حوله حتى يقضي نحبه. ثمّة ناس لم يهتمّوا به أبدًا. من ذا الذي يهتمّ به طوال هذه السنين؟ أنتِ وأنا وهمت. لكن انتظري وسوف ترين ما الذي سيحدث. إنّ كبار السنّ من الرجال يظهر من حولهم أقرباء بأسرع من ظهور الحشائش الضارّة بعد سقوط المطر. ليس سهلاً الوثوق بأيّ شخص. هل النساء وحدهنّ؟ إنّنا لا نعرف أبدًا عندما ـ هل أخبرتك عن تلك الفتاة التي تقطن في قريتنا؟ لقد وضعت يدها داخل علبة صفيح لتقيس مقدار الأرزّ كدأبها في كلّ يوم، ولكنّها سرعان ما راحت تصرخ وترتجف من فوق الأرض وثمّة أفعى ـ غليظة مثل ذراعي ـ وقد أطبقت فكّيها على يدها.

أعرف أنّ ڤير والعمّة لم يرق أحدها الآخر بالدرجة نفسها. ففي مساء يوم ما، تحوّل نقاش عن غزالة بوران إلى جدل سقيم عندما أصرَّ ڤير على صاحب ديوان أن يتخلّص من العمّة وأسرتها.

ـ ما الغرض إذا كانت تخرّب كلّ تلك البقعة، وتجعل الفلّاحين يحوّلونها إلى حيّ قذر تفرز فيها ماشيتهم قاذوراتها ويأتي الذباب على كلّ بوصة من الحديقة؟

وعندما حاولت أن أهدّئ من روعه قليلاً، قال:

ـ أنت لا تعرفين شيئًا عن تلك المرأة وأسرتها الملعونة. لقد

عرفتها منذ أن كنت طفلاً صغيرًا. كانوا يملأون هذا المكان كلّه، وكأنّه ملك لهم. فالابن السكّير كان يتنمّر عليّ عندما كنت أزور المنطقة لقضاء أيّام إجازاتي. وكان يسرق من عمّي، وضرب زوجته ضربًا مبرّحًا على بعد عشرة أقدام من منزلك ـ ما رأيك بذلك؟ وحضر رجال الشرطة، وحدث احتجاج عام وعنيف، وكادت التهمة أن تُلصق بعمّي لا لشيء محدّد سوى أنّه مالك العقار، وإن لم يكن على مقربة من البيت عندما وقع الحادث. لم أكن قد ناهزت سنّ العاشرة بعد، ولكنّني لم أنسَ قطّ صوت المرأة وهي تصيح وتستغيث. ولبثت على مدار السنين أقنع عمّي أن يجد له سببًا يخرجهم من البيت، وكان في وسعه أن يدفع لهم المال لكي يتخلّوا عن البيت، ولكنّ الرجل العجوز كان مثل البغل.

ولمّا استفحل الأمر، لم تعد ثمّة حيلة. فأنا لم أرغب في إبعاد العمّة عن البيت مثل صاحب ديوان تمامًا، كما أنّني لن أجادل ڤير في الموضوع. قلت:

ـ ما دمت تتحدّث عن البغال، هل اكتشفت أنّ للبغال أحذية؟ وكذلك الفيلة والثيران المخصيّة؟ والحمير الوحشيّة والظبيان الكبيرة؟ ربّما تتمكّن من مناقشة هذا الموضوع في طريق عودتنا إلى بيتي.

ثم شبكت أصابعي بأصابعه ومضينا.

* * *

لم تكن العمّة وحدها التي ينبغي التخلّص من أشواكها. فالكلّ كانوا يجادلون في أمري وأمر ڤير. فالسيّدة شوهان رمقتني بنظرة تنمّ عن معرفتها، عندما التقيتها في مول رود في مساء أحد الأيّام، وقالت:

ـ آه يا مايا ممصاحب، تبدو ملامحك أصغر سنًّا بعشر سنوات! أخبريني ما سرّ ذلك؟ وسوف أشتريه أنا بدوري.

كانت عبارة مايا ممصاحب اسم شريط سينمائي هندي مقتبس عن رواية مدام بوفاري التي تدور عن امرأة متزوّجة يملأ حياتها السأم والضجر، فتقضي وقتها بإقامة سلسلة من علاقات غراميّة. ونبّهتني السيّدة شوهان إلى لوحة كان زوجها قد ثبّتها قبل وقت قصير، وعليها عبارة: «إخماد الحرائق مهمّتنا». فقرأتْها في صوت عالٍ وضغطتْ على يدي في قوّة ومضت في سبيلها وهي تكتم ضحكة. وكانت للجنرال نظرته أيضًا. ففي صباح أحد الأيّام، توجّهتُ إلى المقبرة لأتجاذب أطراف الحديث مع مايكل، وهو ما دأبت عليه من حين لآخر. فجلست عند شاهدة قبره وأسندت ذقني على ركبتيّ ورحت أنزع الحشائش القريبة من قدميَّ، وأنا شاردة الذهن، منشغلة البال. وفي تلك اللحظة، جاء الجنرال لزيارة قبر أنجلينا، فشاهدني وقال:

ـ آه، هذه أنت يا مايا! ظننت أنّني لن أشاهدك هنا بعد الآن... فقد مضى زمن طويل، وأنت شابّة لا ينفعك الاستغراق في تفكير كئيب في الماضي. هيّا، أسرعي، حان الوقت للقيام بعمل ما.

أمّا ردّ فعل صاحب ديوان فقد أثار دهشتي. ظننته سيكون سعيدًا بخصوصي أنا وڤير، ولكنّه لاح ممتعضًا على نحو غريب. وفي عصر أحد الأيّام، ذهبت لإحضار جريدته من محلّ ناجي، فأخبرني صبيّ المحلّ أنّ صاحب ديوان وجَّه بعدم تسليم الجريدة لي، وأن تسلَّم إليه مباشرة. وعندما سألت صاحب ديوان مستفسرة عن سبب تغيير هذا الأسلوب الذي مضى عليه زمن طويل، اكفهرّ وجهه وقال:

ـ ولِمَ لا؟ عندما تنسين المجيء بين يوم وآخر، يمكنني أن أبقى

من دون صحبتك المهيبة، ولكنّني في حاجة إلى جريدتي.

وراح يراقب حركاتي وسكناتي، ملاحظًا أنّني لا أنفق وإيّاه إلّا وقتًا قصيرًا جدًّا. وإذا ما رآني متأنّقة تأنّقًا أفضل من المعتاد، يقول في نبرة ساخرة:

ـ أين الشعر الأشعث الذي يتخلّله قلم رصاص؟ أنتِ الآن أشبه بسيّدة من سيّدات المجتمع، متألّقة وممشّطة الشعر.

وعندما لبست قميصًا جديدًا ذات مرّة، قال للسيّد قريشي:

ـ وردتنا البرّيّة في الهملايا راحت تتحوّل إلى سيّدة.

وفي يوم آخر، كان فيه منتشيًا بنبرة تنمّ عن تفكير عميق:

ـ لو أنّك رحت تتسلّقين الجبال يا مايا، فسوف تعرفين أنّ الأراضي غير المطروحة بحاجة إلى الحيطة والحذر. خطوة واحدة كلّ مرّة، وقدر كبير من الاستطلاع.

وبغتة، لاحت الرحلات الاستكشافيّة تشغل حيّزًا واسعًا من الحديث. وعندما قادتنا همساتنا ـ أنا وفير فوق البساط المفروش في الغابة ـ إلى الحديث عن المستقبل، قال في نعومة بال:

ـ الحياة رحلة أيضًا. صحيح؟ فأنت تصادفين الناس في دربك، وتنفقين أيّامًا وإيّاهم من تحت الخيام، وينتهي وقتك، ولكنّك لا تتوقّفين عن السير في ذلك الدرب، بل ينبغي لك الاستمرار فيه. انظري إلى نفسك: إنّك أصدق مثال على ما أقول.

ما الذي يحاول أن يقوله لي؟ لست متأكّدة أنّني أرغب في معرفة ما يريد، فصداقتنا حديثة العهد وهشّة، أضعف من أن نعرّض أنفسنا لضوء النهار في الوقت الراهن. لا يهمّني نمط الحياة التي كان ڤير يحياها في الماضي. كلّ ما أعرفه هو أنّني لم أعد قادرة على الاستغناء

عنه. صحيح أنّ عدم استحسان العمّة كان حقيقة مقرّرة، ولكن ما الذي كان يعنيه صاحب ديوان بقوله عن التسلّق والحذر؟ ليست لديّ فكرة إن كان قد عرف بدوره عن علاقتي بعد أن راح يعبّ من الخمرة على نحو غير معقول كلّ يوم.

لم يكن في وسعي أن أفكّر في أيّ شيء سوى ڤير: فهو يرافقني كلّ دقيقة. وبمرور الوقت، ازداد شرود ذهني وانشغال بالي أثناء التعليم في صفوفي. وفي صباح أحد الأيّام، ضربت الآنسة ولسون ممسحة سبّورة سوداء على منضدتي، وقالت:

ـ لقد بلغ السيل الزبى يا مايا! لقد أخبرتك مرّتين بالأمس أن تبلّغي السيّد شوهان أنّ المدرسة لن تُستخدم مركزًا للتصويت. ألا تسمعين ما أقول؟ والآن اذهبي وبلّغيه! لقد وصل توًّا رفقة عدد من المنسّقين لاختيار بعض الصفوف.

وكنت في أحيان أخرى أحرّك وعاءً كبيرًا مملوءًا بالمربّى في المعمل، فأستمرّ على ذلك التحريك في حين يكون عقلي وبدني في مكان آخر بعيد، تحت مخرّمات شجرة أرز الهملايا في الغابة، إلى أن تهتف بي إحدى الصبايا قائلة:

ـ سيّدة مايا؟

ثم تأخذ المغرفة الطويلة من بين يديّ.

وكنت أجبر نفسي على ألّا أقحمها في عمل ڤير أثناء النهار، حيث يكون منهمكًا في متابعة بريده الإلكتروني وهاتفه فأقترح عليه نزهة في سيّارته الجيب، بل كنت أنتظره حتى يفرغ من عمله ويتنبّه إليَّ. وعندما يكون بعيدًا عنّي، كنت أنتظره بفارغ الصبر وفي كلّ لحظة كي يعود إلى البيت.

كانت أيّام ڤير غير متوقّعة، فقد كان يشتغل في غرفة من غرف لايت هاوس. وكان في بعض الأحيان يوصد الباب من ورائه، فلا يترك أثرًا يدلّ على وجوده سوى صوته الخفيض من وراء الهاتف. وفي أيّام أخرى، لا يؤدّي أيّ عمل بل يلبث جالسًا في الشرفة يتجاذب أطراف الحديث رفقة صاحب ديوان وسيّد قريشي، أو يذهب إلى السوق ليأتي ببريده وخزن الطعام استعدادًا لرحلة مرتقبة، ويتسكّع صحبة الناس الذين يصادفهم في طريقه. وكان ابن صاحب دكّان الصوف، وهو سياسي حديث العهد بالسياسة، قد أصبح صديقه. وثمّة مدير فندق في السوق يأخذ بتلابيب ڤير ويحاول إقناعه أن يأتي بزبائنه إلى فندقه لقضاء بضعة أيّام للاسترخاء بعد إنجاز رحلتهم، غير أنّ ڤير كان يراوغ ويماطل موضحًا أنّ الفكرة رائعة، ولكنّه لم يأتِ بزبائنه إلى رانيكهت قطّ، بل كان يستقبلهم من نهاية خطّ سكّة الحديد في كاثغودام والتي كانوا يذهبون منها مباشرة إلى أيّ منطقة يودّون أن يبدأوا بها رحلتهم. لم تكن لديّ سوى فكرة باهتة عن عمله، وإذا طرحت عليه أسئلة تخصّ الدروب التي يسلكها أو الزبائن الذين يصطحبهم، أجده يجيب مبتسمًا:

- أتفكّرين في الالتحاق بإحدى الرحلات؟ الرحلة القادمة إلى جبل بنداري الجليدي. المعكرونة الجاهزة ذات النوعيّة الفاخرة مضمونة.

أحيانًا، كان القلق يستبدّ بي لغيابه أسابيع طويلة، فلا أعثر على من يملك وسيلة يخبرني بها عنه باستثناء كلام عام عن مكان وجوده. وبعد إحدى الرحلات التي ذهب فيها إلى دلهي في بواكير شهر تمّوز، دخلت غرفته لأمر ما، فوجدت أنّه قد ترك ثيابه الوسخة على الأرض بجانب حقيبته. وشاهدت بطرف عيني أنّ أحد قمصانه كان ملطّخًا.

وعندما أنعمت النظر فيه، رأيت أنّ لون القميص الأزرق كان ملطّخًا بالدماء، وكانت البقع الكبيرة من الدماء حديثة العهد، ما تزال حمراء وربّما رطبة. لم أرغب في لمس القميص كي أعرف السبب، ولكنّني ذعرت ذعرًا شديدًا، فجلست على كرسي في غرفته ورحت أتفحّصه من بعد كي لا أتصوّر أنّه حبر أو طلاء وليس دمًا.

كان ڤير قد رجع في صباح ذلك اليوم وخرج إلى الشرفة، بعد أن غيَّر من ثيابه وارتدى بنطالاً نظيفًا من الجينز وقميصًا قطنيًّا فضفاضًا رمادي اللون، وجلس فوق كرسيّ واطئ وبجانبه كوب من الشاي. كان حافي القدمين يصفّر لحن «هه يا جودي» ويحدّق إلى شاشة حاسوبه. وعندما خرجت إليه وسألته:

ما هذا الدم الذي يلطّخ قميصك؟

وهنا اكتسى وجهه بمسحة انزعاج جعلتني أجفل في مكاني. ثم تغيّرت ملامحه ورقَّت على نحو بهيج، وابتسم لي ابتسامة وجدتها لا تقاوم، وقال:

ـ ينبغي لي أن أعترف بشيء ما، فهل تغفري لي؟ لقد ارتكبت جريمة قتل.

ثم جال ببصره من حوله ليتأكّد من عدم وجود أحد يختلس النظر أو يسترق السمع، وقرصني على خدّي قرصة سريعة واسترسل في كلامه:

ـ انظري إلى وجهك: هل صدّقتني؟ لا، بل حدث شيء آخر. لقد أمضيت ليلة في فندق في كالادهونغي. مكان غريب، إذْ لبث الناس في الفندق يغيّرون من أماكن الأثاث المعدنيّة في غرفة في الدور العلوي، يروحون جيئة وذهابًا، ويسقطون عصا أو ما أشبه على

الأرض من فوق رأسي. ثم ران صمت مطبق، وصكّت سمعي الأصوات من جديد. جوف الليل البهيم في وسط الغاب ـ وفكّرت إن كانت ثمّة أشباح في الدور العلوي. في تلك اللحظة راح أحدهم يطلق عقيرته بالغناء ـ أغاني شعبيّة في صوت بالغ الجمال، لكن كانت تلك القشّة التي قصمت ظهر البعير لأنّني لم أعد قادرًا على النوم من بعد ذلك، فما كان منّي إلّا أن غادرت المكان في الساعة الثالثة فجرًا. أنت أدرى بتلك الغابة العميقة التي تضطرين إلى اجتيازها إذْ يساورك شعور في أنّ النمور قد تثب عليك من بين الأدغال في أيّ وقت. كان بعض الرجال يقفون في الظلام في منتصف الطريق ومعهم مصباح وجثّة رجل ميت على الأرض ـ وكانوا قد وضعوا غصن شجرة في عرض الطريق لإيقاف السيّارات. ظننت أنّهم سوف يسرقونني ويقضون عليَّ، ولكنّهم كانوا لا يريدون سوى مساعدتهم في نقل الرجل إلى المستشفى. وتبيّن لي أنّه لم يكن ميتًا بل فاقد الوعي، وقائد جند ينزف دمًا غطّى جسده كلّه. وتمكّنت من فرش بساط على المقعد الخلفي، ولكن أثناء حمل الرجل داخل السيّارة، فإنّ قميصي... يجب ألّا أعطيه لغابو دوبي لأنّ الظنون سوف تذهب به أيّ مذهب...

ثم توقّف عن الكلام وأضاف بعد هنيهة:

ـ مثلما ذهبت بكِ!

لا أعرف من أين واتتني الفكرة ولم أستطع الحيلولة من دون التفوّه بهذه الكلمات التي سمعت نفسي أنطق بها:

ـ إلى أين ذهبت عندما كانت الطائرتان المروحيّتان تحلّقان من فوق رانيكهت؟ أتتذكّر ذلك؟ لقد شاهدتني على الطريق، ولكنّك لم تتوقّف، وبقيت غائبًا أسابيع. ولم يعرف أحد أين كنت.

قال ڤير:

ـ ماذا تقولين؟

بدا عليه الذهول عندما طرحت عليه السؤال.

ـ أعني بقولي ذلك اليوم من أيّام شهر آذار عندما كانت المروحيّتان تحومان في الجوّ طوال النهار، وتلقّيت مكالمة هاتفيّة، فمضيت من دون أن تخبر أحدًا بشيء. ماذا حدث؟

ـ يبدو أنّك اعتدائيّة جدًّا. لماذا؟ إنّني لا أقدر على إخبارك بكلّ شيء، ولكن هذا لا يعني أنّني كنت أدبر أمرًا مريبًا. على أيّ حال، ما تظنّين أنّني فاعل؟ ألا تثقين بي؟

ـ يمكنك أن توليني ثقتك أيضًا وتخبرني بكلّ شيء. ففي معظم الأحيان لا أعرف إلى أين تذهب أو ماذا تفعل أو من تقابل ـ لا أعرف شيئًا أبدًا.

لم أدرك حتى تلك اللحظة التي طرحت فيها عليه الأسئلة أنّ ظنوني بخصوص ذلك الصباح كانت ما تزال تؤرقني، ولكن بعد أن بدأت توجيه الأسئلة، فإنّ كلّ ما كنت أتفوّه به راح يؤجّج من غضبي.

لم يقل ڤير شيئًا. وعندما أطبق شفتيه على النحو الذي أطبقهما الآن، وقلّص وجنتيه، ازداد وجهه نحولاً، واكفهرّ، ورنا إلى شاشة حاسوبه بدلاً من أن يرنو إليّ، وقال في صوت حادّ وجامد:

ـ كنت أساعد أفراد الجيش في عمليّة بحث اضطروا إلى القيام بها. وكنت أعرف المنطقة معرفة جيّدة، وسبق لي أن قمت بمثل هذه العمليّات، وهذا هو سبب استدعائهم لي.

لم يرفع بصره عن الشاشة ولم يضف شيئًا أكثر من ذلك.

لم أعرف ماذا أقول، غير أنّني عبثت بنبتة متسلّقة قرب الباب ورنوت إلى معزة تلوك نبتة صغيرة في الحديقة. كانت السماء قد أمطرت في صباح ذلك اليوم، فتألّقت كلّ ورقة من أوراق الشجر من تحت الضوء الصافي. وكان ماء المطر يسيل في ماسورة ويصبّ في طبل من صفيح، وبات لون العشب أخضر نضرًا، ولكنّني كنت أعرف أنّه أضحى الآن يخفي خيوطًا سودًا تنتفخ وتتحوّل إلى طفيليّات تمتصّ الدماء حيثما وجد بشرة دافئة. وكان في وسعي أن أشعر بإحدى هذه الطفيليّات على كاحلي، فانحنيت كي أبعدها لأنّ قشرة الجرح تثير الحكّة بضعة أيّام. وظهر بيجلي من مكان ما وهزَّ ذيله في اتّجاهنا ونبح نباحًا قصيرًا بضع مرّات مقترحًا نزهة، فما كان منّي إلّا أن ربتّ عليه وقلت إنّني سأصطحبه.

استدرت لأخرج، ولكنّني توقّفت مُحاولةً أن أصوغ بعض الكلمات معتذرة، ولكنّني لم أوفّق. وبينما كنت أخرج من الشرفة، تباطأت قدماي، فعدت أدراجي وقلت:

ـ آسفة. لقد أخطأتُ.

أعرف أنّني ما زلت أبدو حاقدة وأنّني غاية في الندم، لأنّني بدأت مشادّة وأفسدت بذلك نهارًا رائعًا، خاصّة بعد عودته من رحلة طويلة.

انتظرته كي يقول شيئًا ما ينمّ عن غفرانه، ولكنّه لم يرفع بصره عن حاسوبه.

وفي عصر اليوم التالي، وقفتُ أرنو إلى الجبال التي بانت للعيان من وسط السماء على أثر الأمطار الموسميّة. كانت السحب متراكمة في الأعالي، وعلىٰ مقربة بدت طافية في وسط الجوّ، منفصلة عن كلّ

ما هو أرضي. ثمّة شيء ما في الضياء جعل القمم تبدو نصف شفّافة، وكأنّ السماء الفضّيّة المنصهرة مرئيّة من خلالها. وفي اللحظات القليلة التي أعقبت ذلك، شاهدت سحابة غريبة برزت بغتة، وتراكمت من فوق القمم وراحت تكبر وتكبر ناشرة عباءة سوداء وهي تمضي في اتّجاهي في سرعة تبدو مثل صاروخ. وفي أقلّ من دقيقة واحدة، وصلت تلالنا وحوّلت ما بعد الظهيرة إلى غروب. وعندئذٍ بدأت الأمطار تهطل في غزارة.

هرعت إلى داخل المنزل ونفضت عن رأسي البلل، وفكّرت إن كان ينبغي لي أن أفسّر الغيمة على أنّها نذير. جلت ببصري من حولي باحثة عن شيء ما أفعله لأطرد الفكرة عن بالي، فشرعت أجذب الكتب فوق الرفوف وأضعها في كومة على الأرض، فخرجت من بين أوراقها دودة الكتب. كانت الكتب في مسيس الحاجة إلى من ينفض الغبار عنها ووضعها تحت أشعّة الشمس. ثم جذبت الرفوف واحدًا تلو الآخر وقد تملّكتني قوّة جبّارة وعزم لا يلين. قرّرت أن أرتّبها بحسب الحروف الهجائيّة ـ أو ربّما بحسب نوعها، وأن أتخلّص من كتب الإثارة البوليسيّة التي لن أطالعها مرّة أخرى، وكذلك الكتب التي كنت قد اشتريتها ولبثت أظنّ أنّني سوف أقرأها في الشهر المقبل. ما سبب امتلاكي أكثر من نسخة من كتاب «آكلو البشر في كوماون»؟ ومن أين جاء هذا الكتاب الخاصّ بالفنون والعمارة في بلاد الإغريق القديمة؟

أحسست بالإنهاك بعد برهة وجيزة من الزمان فافترشت الأرض، ورمقت أكوام الكتب المحيطة بي في يأس، لأنّني لن أتمكّن من إعادتها إلى موضعها فوق الرفوف الآن.

رحت أنظر إلى الكتب القريبة منّي التي يكفي أن أمدّ يدي إليها فأصلها من دون أن أضطرّ إلى النهوض: كتاب عن جريمة غامضة،

كتاب عن نباتات التلال، كتاب طيور التلال الهنديّة لسالم علي. ثم عثرت وسط صفحات مجموعة ضخمة من القصص القصيرة على نسخة قديمة ورقيقة من كتاب تي. إس. إليوت قصص واقعيّة، الذي أعطاني إيّاه مايكل منذ زمن بعيد. وكان خطّ يده المائل واضحًا على إحدى الصفحات البيض: إلى العنيدة المنحرفة التي تجذب معدة الرّم.

جذبت وسادة واستلقيت على البساط أحدّق إلى صفحات الكتاب المفتوحة، أتنشّق عبقه القديم.

لن أنظر إلى المستقبل، فقد انقلبت حياتي انقلابًا قاسيًا مرّة واحدة من قبل، فلم أعد قادرة على التفكير في أيّ شيء سوى اللحظة الراهنة، وسوف أجتاز صعوبات كلّ يوم وكأنّني أمتطي ورقة شجرة في جدول ماء: يكفيني أن أظلّ طافية، ولن أطلب أكثر من ذلك.

* * *

٧

موسم الأمطار في منطقة تلالنا هو موسم قصف الرعد وهزيم البرق وتدفّق المياه وهبوب الرياح التي لا حدود لها، حتى بات الموسم معروفًا بأنّه يدفع الناس إلى نوبات من الهيجان والغضب. وفي يوم ما، ولم يمض شهر بعد على الموسم، ضرب معلّم التايكوندو في إحدى المدارس تلميذين، فأغمي عليهما لأنّه ارتاب في سرقتهما آلة تصويره. وكان شاهدهما يروّجان لآلة مثلها في استديو بابيتا، فحطّم الاستديو أيضًا وهشّم صورًا بإطاراتها التقطت لناس متزوّجين حديثًا مستخدمًا مطرقة اشتراها من دكّان مجاور، وتطلّب الأمر قوّة مشتركة مؤلّفة من ثلاثة سائقي سيّارات أجرة وأحد رجال الشرطة كي يضعوا الأصفاد في يديه واقتياده إلى مخفر الشرطة. في أثناء ذلك، كان الصبيّان ينزفان دمًا، وكان استديو بابيتا في شذر مذر ـ لكن من ذا الذي سيدفع ثمن الأضرار؟ يستحسن الانشغال بالقيل والقال بدلاً من أن يكسِّر أحدهم عظام الآخر: هكذا ينفق معظم الناس وقتهم، يراقبون المطر ويحتسون الشاي وينهمكون في الغيبة والنميمة!

عندما اقتربت السحب أكثر فأكثر وحطّت رحالها من فوق تلالنا، فإنّها أزاحت الجبال الممتدّة على الجانب الآخر من الوادي وأزالت عن الأشجار البعيدة ألوانها البيضاء ـ الرماديّة. وبدت المنازل وبريّةً بما اكتست به من فطريّات ورطوبة. وصنعت المظلّات المطريّة بركًا من الماء أمام الأبواب، بينما اكتسبت التلال خضرة يانعة، نضرة، وتهدّلت نباتات سيف الغراب في كلّ مكان تحت وطأة العمر. وغطّت أرض الغابة سجّادة بنفسجيّة جميلة من الزهور، بدت كأنّها حديقة. أمّا الطرقات والشوارع، فقد استردّتها الطبيعة بعد أن دفنتها الانهيارات الأرضيّة وأغرقتها مساقط المياه، وانقطع التيّار الكهربائي وتعطّلت الهواتف، فتقطّعت السبل ببلدتنا وباتت معزولة تمامًا. وإذا كانت السحب قد فسحت المجال أحيانًا لغروب الشمس الشاحب بالظهور، إلّا أنّ ستائرها سرعان ما كانت تطبق علينا من جديد!

وفي شهر آب، لم أرغب في شيء سوى أن تبقى بلدتنا التي غمرتها مياه الأمطار سالمة ومتشرنقة ومعزولة عن العالم المهتاج من تحتنا. وبدلاً من ذلك، جاءتنا الصحف في رزم، متأخّرة مدّة يومين عن موعدها، وكانت صفحاتها ملتصقة بعضها ببعض بسبب الرطوبة، وعندما فتحتها وجدتها تحتشد بأنباء من أوريسا، حيث العنف يزداد يوميًّا: كنائس تُحرق، إرساليّات تبشيريّة تُطارد، ونصارى يُطردون من قراهم ليعيشوا في معسكرات لاجئين، امرأة شابّة تُغتصب ثم يُلقى بها وسط النيران لتحترق وهي على قيد الحياة.

لا أعرف إن كانت الآنسة ولسون تعمّدت في ترك الجريدة مفتوحة على الصفحة التي تنشر الأخبار الواردة من أوريسا، فقد راحت تتفرّس فيّ عندما جلست قبالتها في اجتماع الهيئة التعليميّة اليومي. كانت

الجريدة موضوعة في اتّجاهي كي لا أضطرّ إلى قراءتها بالمقلوب. وبدأت تقول:

ـ اعتدنا نحن النصارى تقديم التضحيات من أجل الربّ، وقد قدّمنا هذه التضحيات منذ أن حطّ القدّيس توما رحاله في كيرالا على أثر صعود السيّد المسيح إلى السماء. من يتولّى إدارة كلّ المدارس الجيّدة في الهند؟ من ذا الذي يهتمّ بشأن الفقراء؟

ثم توقّفت وقفة عاديّة لا مبرّر لها، وأضافت:

ـ نحن النصارى؟

كان للآنسة ولسون أخ في أوريسا يعمل في قناة تلفازيّة تُدعى «ديفاين لايت» وتهدف إلى جعل الديانة النصرانيّة مقبولة أكثر، وذلك بسرد قصص عن تحقيق انتصارات يوميّة على الجشع والشهوة والحسد وما أشبه، وأوضح مهتدون جدد بانت عليهم البهجة ـ والرفاهيّة ـ كيف أنّ يسوع غيَّر من مجرى حياتهم، وحثّوا الآخرين على أن يجدوا مثيلاً لهذا الدعم وهذه الفرحة. وكان كلّ برنامج يبدأ وينتهي بتقرير بعنوان «دعاء اليوم» يمسك فيه كلّ العاملين في قناة ديفاين لايت أيدي بعضهم بعضًا ويغمضون عيونهم، ويبدأون قراءة دعاء مكتوب. وكان الدعاء الذي يقدّمونه منذ بضعة أيّام هو: «دعونا نتخلَّ عن سلاح الكراهية والعنف ونتمسّك بدرع المحبّة. دعونا نتسامح ويطلب أحدنا المغفرة للآخر على ما اقترفه من خطأ بحقّ الآخرين، وأن يقترب أحدنا من الآخر بالحبّ».

وذات يوم، اعتصم جمع من المشاغبين والأفّاقين أمام مبنى القناة التلفازيّة يردّدون شعارات تطالب بإغلاقها. وقد حدّثتنا الآنسة ولسون عن الحادثة في اليوم التالي. إذْ حاولت الاتّصال بأخيها هاتفيًا، ولكنّ

الخوف عقد لسانه، فلم يستطع الكلام على حدّ تعبيرها، إذ تعرّضوا للتهديد بالقتل، وبدت مهمومة، منشغلة البال وقلقة، تهمس في هاتفها بين حين وآخر. ولم تحضر إلى الصفوف لتنقر على مناضد الكتابة بعصاها الخيزرانيّة وتصيح في صوت عالٍ «هدوء!»، ولم تدرك أنّ أجراس المدرسة راحت تقرع متأخّرة عن موعدها لأنّ الحارس كان يسكر حتى الثمالة في تلك الأيّام. كلّما ذهبتُ لأكلّمها في غرفتها، وجدتها تقلّب الأوراق أو تعبث بشيء ما من فوق منضدة كتابتها كي تتجنّب النظر إليّ.

بازدياد سوء الأوضاع في أوريسا، ازداد حجمًا وطغى على كلّ شيء ذلك الإحساس الخطير اللامرئي الذي حاولت أنا والآنسة ولسون أن نأخذ جانب الحذر منه طوال هذه المدّة. فعلى الرّغم من زواجي والتغيير الذي طرأ على اسم أسرتي التي أنتمي إليها، إلّا أنّني لم أعتنق النصرانيّة. وكان والدا مايكل قد ذكرا أنّهما سوف يقبلان بي إذا ما اعتنقت الدين النصراني، غير أنّ مايكل لم يقبل بذلك مثلما لم يقبل كاهنه. وقال الأب جوزيف إنّه سوف يوافق على ذلك إذا ما جاء اعتناقي على نحو طبيعي وعندما يحين الوقت الملائم. وفي الأسابيع التي أعقبت وفاة مايكل، سألني بضع مرّات إن كنت راغبة في رؤية والديْ مايكل، وقال إنّ هذا الحزن العظيم سيكون وقتًا للغفران والشفاء. ولكنّني فكّرت أنّهما قد يوجّهان إليّ لومًا أشدّ عنفًا الآن على السنوات التي أنفقها مايكل بعيدًا عنهما. وأخبرت الأب جوزيف أنّ عهد الصداقة قد مضى وانتهى. وفي الأسبوع التالي، قدّم الأب جوزيف طلبًا آخر منها مفاده أنّهما يريدان شيئًا ما من حقيبة ظهر مايكل ليكون تذكارًا من آخر رحلة قام بها ولدهما، شيئًا ما من أيّامه الأخيرة. في ذلك الوقت، كنت مشتّتة الذهن على نحو يكفي لأن

أعطيهما الحقيبة كلّها، وكلّ مقتنياته، كي أحول بينهم والاستمرار في إزعاجي. غير أنّ الأب جوزيف أوقفني مرّة أخرى، وقال:

ـ لا ضرورة للعجالة. امنحيهم شيئًا ما في وقت لاحق عندما تستطيعين إلقاء نظرة على حاجياته، عندما يحدث ذلك على نحو طبيعي. سوف تكونين مستعدّة يومًا ما وليس الآن!

لم تكن الآنسة ولسون تملك شيئًا من حكمة الأب جوزيف. فمنذ البداية، أوضحت أنّني في حين أملك وظيفة، فإنّ ثمّة معلّمات نصارى ما زلن بلا وظيفة، وأنّني المستفيدة عن غير استحقاق من تأثير الأب جوزيف ونفوذه في الكنيسة ممّا لا يترك أمامها أيّ خيار سوى تحمّلي. والآن، ها هو العالم الخارجي البعيد يزيد من تعقيد الأمور، فيجعلنا نحيا في شدّة وضيق. يُضاف إلى ذلك، بدا وكأنّ ثمّة مؤامرة، إذ كان هذا هو الوقت المناسب تمامًا للحملة الانتخابيّة في رانيكهت كي تبحث الأحزاب السياسيّة عن مواطن مفعمة بالمتاعب كي تؤجّج من سعيرها.

* * *

وفي منتصف شهر آب، لاح السوق وكأنّ مهرجان الأضواء (ديوالي) قد جاء مبكرًا. واكتسب الشارع الرئيس الضيّق سقفًا برّاقًا مخرّمًا من أشرطة برتقاليّة وخضراء وفضّيّة وذهبيّة اللون، وتدلّت شعارات الحزب منها.

وفي كلّ يوم، راحت الأقمشة الملوّنة تفقد رونقها وانسجامها تحت المطر والريح، وانزلقت الملصقات الورقيّة عن الجدران بسبب الرطوبة، ما جعل وجوه المرشّحين تبدو أشدّ ميلاً وانحرافًا.

كانت الانتخابات وطنيّة تشمل عموم البلاد، ولها أهمّيّة بالغة لبلدتنا على وجه الخصوص، لأنّ ابن تاجر الصوف، وهو مواطن من

البلدة نفسها وصديق ڤير الجديد، قرّر أن يرشّح نفسه. وإذا ما فاز في الانتخابات، فإنّ رانيكهت لن تظلّ بعد اليوم منطقة نائية وراكدة، بل ستضحي في مركز سياسة أوتارخان، وستحصل على منح، ويتدفّق المال العامّ عليها. وكان اسم تاجر الصوف هو آنكيت راوات، وتبنّى كرة صوف حمراء اللون لتكون رمزًا له. أمّا شعاره فهو: «الدفء والأمان وانتفاء العوز/ هذا هو قانون آنكيت راوات».

أمّا السيّد راوات العجوز الذي يملك دكّانًا في السوق، فقد علّق كرة صوفيّة حمراء على مدخله، وكانت كبيرة بحجم عدّة كرات قدم، وكان الناس طوال القامة ميّالين إلى صدم رؤوسهم بها وهم في طريقهم إلى الدكّان. وانتشرت في أنحاء البلدة ملصقات مثقلة بالرطوبة تمثّل وجه آنكيت الشابّ الذي يتألّق عزمًا من وسط كرة صوف حمراء. لم أشاهده إلّا من وراء نضد في دكّان أبيه عندما باعني قمصانًا قطنيّة وجواريب وكنزات. وكان والده قد قال:

ـ يتعيّن عليَّ الآن أن أوظّف مساعدًا لي.

ثم أشار نحو الدائرة الحمراء وحبّات الرمز على جبينه وأضاف:

ـ كلّه من نِعَم الله وإرادته.

شقّ مؤيّدو آنكيت راوات، ومعظمهم أصدقاء شبّان من أيّام الدراسة في الكلّيّة، السوق ومول رود على ظهور درّاجاتهم الناريّة يردّدون في صوت عالٍ شعاراته الانتخابيّة مستخدمين مكبّرات صوت، ويخبرون الأهالي عن مكان التصويت وموعده، ويحثّون الناس وسط تهليل أصحاب الدكاكين والأهالي في الشوارع ومزاحهم:

ـ أرسل ولدك إلى دلهي! أوتارخان في حاجة إلى رجل من رانيكهت في المركز.

واستبدل آنكيت بنطاله الجينز وستراته بقمصان طويلة بيضاء اللون ووشاح أحمر يتهدّل من رقبته عندما كان يمرّ في جلبة رفقة موكبه المؤلّف من الدرّاجات الناريّة. ولمّا كان محاطًا طوال الوقت بفيلقه، فقد اكتسب هالة نجوم الغناء الشعبي التي تجعل الناس يرغبون في أن يشدّوا انتباهه. كان حسن الشكل، طويل القامة، وعندما وقف بجانب قرويّات مسنّات بلا أسنان أو بجانب حمّالين أو مزارعين احدودبت ظهورهم على أثر سنوات من الانحناء، قال الأهالي إنّه يبدو مثل أمير. وصادف أن مرَّ من أمام بيت العمّة في مساء أحد الأيّام وهو في طريقه للقاء عامّة الناس ومناقشة مشكلاتهم. وفي وقت لاحق، قالت العمّة تصف ما حدث لكلّ من أراد أن يستمع لها:

ـ جلس على ذلك الكرسي في فناء الدار خارج كوخنا، مثل أيّ رجل اعتيادي. ولم يكن في منزلي أيّ طعام سوى بعض الحلوى السكّريّة والشاي، وكنت ملطّخة بالطين والوحل لأنّني كنت قد رجعت من فوري من الحقول. وأخبرني أنّه لم يذق في حياته مثل هذا الشاي حلو المذاق، ووعد بتزويدنا بكمّيّة مضاعفة من الماء، وأنّ الكهرباء لن تنقطع مستقبلاً.

كان منافس آنكيت رجلاً من ناينيتال فاز بالانتخابات مرّة تلو الأخرى، قاطعًا الوعود على خدمة القضيّة الهندوسيّة. وقيل إنّ أوميد سنغ محارب محترف وسياسيٌّ شديد الحيطة والحذر، واعتاد أن يطلق على آنكيت عبارة «الطفل الصغير». وقال لصحافي من ناينيتال استخدم الوصف عنوانًا لمقالته في الصحيفة: «ومع هذا، فإنّه ينبغي تشجيع كلّ طفل، وعلى الأطفال تعلّم سير العمل». غير أنّ أوميد سنغ لم يأت لبدء حملته الانتخابيّة في رانيكهت: في الماضي، لم يكن محتاجًا للمجيء. أمّا هذا العام، فالأمر مختلف!

كان الأب الذي اتّخذ له مقرًّا في المعبد قرب كوخي المفضّل لتناول الشاي قد تسبّب في حدوث جلبة واضطراب عندما ظهر للعيان في السوق، حيث نُصبت خيمة كبيرة برتقاليّة وحمراء، وحيّاه المطربون ضعاف البصر الذين عرفوا بخشونة الصوت من كثرة الغناء طوال الليل، التي كانت تتردّد في الجانب الآخر من الوادي من طريق مكبّرات الصوت. وكانت المناسبة متمثّلة في أوّل زيارة لأوميد سنغ يدشّن بها حملته الانتخابيّة في رانيكهت. وأنعم عليهم ببركاته وعلى حملة أوميد سنغ الانتخابيّة. وقرأ أحد مساعديه أكفّ النساء ووزّع التعاويذ التي تضمن إنجاب الذرّيّة لنساء لا يلدن، فلا يفوق عدد الهندوس في السنوات المقبلة أولئك الذين يسمح لهم باتّخاذ أربع زوجات.

وظهر على المسرح من بعد ذلك أوميد سنغ، ولكنّه لبث صامتًا لا يتفوّه بكلمة دقائق طويلة، تاركًا الجماهير حتى تهدأ والترقّب حتى يشتدّ. وعندما بدأ الكلام، جاء صوته ثقيلاً جدًّا تكتنفه وقفات محسوبة بقي أثناءها يحسب مزاج جمهوره الذي حبس أنفاسه منتظرًا حِكَمه المأثورة. وقال إنّ الأوان قد آن لتحرير التلال تحريرًا نهائيًّا من الإمبرياليين الأجانب الذين احتلّوها في عهد البريطانيين، وشيّدوا محلّ المعابد الموغلة في القدم كنائس ومساجد. وقال إنّ الهندوس اتّهموا ظلمًا وعدوانًا بالعنف، في حين أنّ كلّ ما كانوا يبغون هو الاحتفاظ بنمط حياتهم ضدّ الإرهاب وضدّ محاولات تحويل أبناء شعبهم إلى ديانات أخرى، وحان الوقت لإعادة التوازن، وهذه مهمّة لا ينبغي تركها للأطفال الذين باعوا الصوف قبل أسبوع، وانطلقوا الآن لقلب العالم رأسًا على عقب.

قلتُ لصاحب ديوان:

ـ ماذا الآن؟ أما زلت تعتقد أنّ المقبرة عَبَث بها فتيان أفرطوا في الشرب ـ وليس هؤلاء؟ إذا شاء أوميد سنغ، فإنّ في وسعه إثارة المشكلات أمام أغنس دبليو، فيضيف بذلك مقدارًا من التوابل لحملته.

قال صاحب ديوان:

ـ الآن أغنس دبليو. صحيح؟ من وراء ظهرها؟ الأمر هو نعم آنسة ولسون، لا آنسة ولسون. مديرتك المحبوبة! كوني محترمة قليلاً، ماذا تقولين عنّي عندما أكون بعيدًا؟

* * *

٨

لم يكن السوق المكان الوحيد الذي يطرأ عليه التغيير بفعل موسم الرياح الموسميّة. وكان موعد السيّد شوهان النهائي المتمثّل بإعادة توحيد الكتيبة شاخصًا في الأفق، إذ كان في وسعنا مشاهدة الدليل على قدرته في كلّ مكان: فقد وُضعت كمِّيّات هائلة من التراب والحصباء في منعطفات الشوارع، فسالت بسبب المطر إلى الطرقات وانزاحت هنا وهناك بكمِّيّات قليلة. وصاح بعض الأطفال الذين وجدوا كومة من هذه الأكوام بالقرب من كوخهم مسرورين فرحين، يرشق أحدهم الآخر بكرات مرصوصة من التراب، واندفع والدهم خارج المنزل حاملاً دلوًا ووبّخهم على صنيعهم قائلاً:

ـ لا تهدروه! فقد نحتاج إليه. هيّا، لنملأ الدلو به.

ولاح للعيان العمّال كلّ أربعة أو خمسة معًا بدلاً من واحد أو اثنين، وتوزّعوا على الحواجز وراحوا يطرقون عليها مستخدمين مطارقهم في همّة فاترة. كان المقرّر إزالة هذه الحواجز الصخريّة

القديمة التي تعلوها نباتات السرخس اليانعة والزنابق الورديّة الصغيرة، وبناء حواجز أخرى إسمنتيّة أكثر جمالاً. وكانت الحادلات في طريقها إلى المنطقة، إذْ ما إن يتوقّف هطول المطر حتى يُعاد إكساء الشارع الذي تكثر فيه النقر حتى مول رود مرورًا بمقارّ الضبّاط وانتهاءً بمنزل السيّد شوهان. وكانت أوعية النباتات المعدنيّة المعلّقة على أذرع الصلبان الإسمنتيّة على امتداد مول رود قد حُرمت من أزهارها، إذْ مُلئت الآن بتراب جديد وزُرعت فيها فسائل ابنة الراعي. وجيء بالمصاطب الحديد من هالدواني ونُصبت في أماكن مهمّة، ولكن ثلاثًا منها اختفت في غضون أيّام.. فقد اختفت إحداها من قرب لايت هاوس، وفي صباح اليوم التالي، جاء ضابط من المنطقة العسكريّة وسألنا عن الأشجار الميتة والأغصان التي ينبغي تهذيبها، وإذ هو يسير في حديقتنا، رنت عيناه إلى المنعطفات وإلى أسفل السفوح.. وعرض عليه صاحب ديوان أن يشرب شايًا، قائلاً:

ـ اجلس، اجلس. ربّما لا نملك مصاطب معدنيّة، ولكن لدينا كراسي. هل نتبرّع بها إلى الجيش؟

بات السيّد شوهان وجهًا مألوفًا الآن في الشوارع والطرقات، يسير من تحت مظلّة مبلّلة بالمطر يحملها له مراسل يتبعه إلى كلّ مكان فيزداد بللاً. كما حضر مسؤولون إداريّون آخرون في سيّاراتهم ـ الجيب المزمجرة. من آن لآخر، كان السيّد شوهان يقول لنا:

ـ لكنّني أنا الآمر هنا، مضطرّ إلى أن أكون في الجبهة الأماميّة، أتحقّق من الموقف على الأرض، فلا أكتفي بقبول التقارير من أصحاب الرتب الصغيرة!

واصل السيّد شوهان جولاته التفتيشيّة، وحثَّ العمّال المنهمكين

في تكسير الحواجز القديمة والطرقات على الكتل الصخريّة. وظهرت للعيان لوحات جديدة وعلامات دلالة تؤشّر على المناطق التي يُمنع فيها وجود البقر والجاموس، وبهذا تعود الأشجار والأدغال التي أتت عليها الحيوانات للحياة من جديد.

وفي صباح أحد الأيّام، أبصر السيّد شوهان الفتى بوران الذي كان يربط بقرته إلى أحد الأعمدة الحديد التي تنتصب من فوقها لوحة. فما كان من السيّد شوهان إلّا أن أزاح مظلّته وجذب الحبل من يد بوران وضرب على الكتابة المدوّنة على اللوحة من فوقهما بعصاه وصاح:

ـ ليس هنا، ليس هنا! الأبقار محظورة هنا!

وظل يضرب بعصاه على القطعة المعدنيّة بقوّةٍ، ما دفع غابو دوبي إلى أن يخرج من منزله مهرولاً ليتبيّن حقيقة الأمر. ثم رمى السيّد شوهان بالحبل في وجه بوران وصاح من جديد:

ـ ليس هنا، أيّها القروي الجاهل والأحمق! سوف تُغرّم، وسوف يُزجّ بك في الحبس!

ابتعد بوران مثل حيوان خائف وأطلق ساقيه للريح. كان يحتذي نعالاً من المطّاط منذ أن أحرق رجال السيّد شوهان حذاءه العسكري. وكان كاحلاه العاريان ينزفان دمًا بسبب الطفيليّات التي تنمو فيهما وتقتات عليهما. وانزلق نعاله على سفح التلّ المبلّل بالماء، فاندفع وسط الأعشاب والحشائش الطويلة، وتوارى عن الأنظار رويدًا رويدًا في وادٍ كانت نباتاته الواطئة النضرة تخفي من تحتها الأشواك والثعابين والعقارب والطفيليّات الكثيرة. لم يكن بوران يلتفت لكلّ هذه الأمور لما استبدّ به من ذعر لا يوصف! سار وسارت من خلفه أبقاره وماعزه

إلى أسفل الوادي، وصولاً إلى البقعة التي كان السيّد شوهان قد أشار إليها على أنّها محظورة، أو وطأت حوافر الحيوانات على عديد الشتلات الجديدة التي كانت غُرست هناك قبل أسبوع.

وفي وقت لاحق، دخل السيّد شوهان بيته مبلّلاً ومنزعجًا، وعندما خاطبته زوجته في صوت ملؤه القلق وانشغال البال قائلة:

ـ كيف أصبت بكلّ هذا البلل؟

صاح:

ـ على خطّ الواجب! لقد أصبت بالبلل على خطّ الواجب!

كان السيّد شوهان قد نسي أن يخلع حذاءه الملطّخ بالوحل قرب الباب، فترك آثارًا من فوق السجّادة الجديدة عندما بدأ يتّجه نحو حجرة النوم، ويجذب في عنف قميصه المبلّل من تحت حزامه. رنت السيّدة شوهان إلى السجّادة وضربت جبينها متذمّرة.

ثم اتّصلت هاتفيًّا بشقيقتها في لوكناو من أجل السلوى، وقالت لها:

ـ آه، ماذا كنت أقول؟ بات الكلام مستحيلاً في هذا المنزل، حتى وإن كان سؤالاً بسيطًا. إنّ وظيفته الشاقّة بدأت تهدّ حيله حقًّا. فهو لا يعرف طعم الراحة، لا ليلاً ولا نهارًا، ولا حتى دقيقة واحدة. والآن، أجدني مضطرّة لإرسال السجّادة إلى مصبغة الغسيل. ما من مصبغة هنا ولا حتى في هالدواني رأت مثل هذه السجّادة الكشميريّة الحقيقيّة!

طرق سمع السيّد شوهان كلامها وهو في حجرة النوم، فجلس على السرير واضعًا رأسه بين يديه، وظهرت بقعة رطبة من حوله، تنزّت من ثيابه المبلّلة. ضغط بأصابعه على وحمة الولادة الشبيهة بقارّة أستراليا، فوجدها تنبض وفق دقّات قلبه المضطربة. أخرج علبة سكائر

مخفيّة وأشغل سيكارة بعود ثقاب ظلّ يهتزّ في يده، ووطّد عزمه على أنّ الوقت حان ليلقّن بوران درسًا لن ينساه.

* * *

لم تعد شارو تتذكّر في خضمّ مشاغلها الجديدة التي أثقلت عليها أن تسرق الحبوب من مخزن العمّة وإعطائها لغزالة بوران. فاضطرّ بوران بدوره إلى الانتظار صباح كلّ يوم حتى تخرج أمّه بضع لحظات من المنزل، فيسرق مقدارًا من حبوب الدجاج من وعائها المعدني، مقدارًا قليلاً جدًّا كلّ يوم، فلا تتنبّه العمّة له. كانت هذه الكمّيّة من الحبوب توفّر، هي والفواكه والخضراوات الفاسدة التي كانت تأتي بها شارو عند عودتها من السوق لإطعامها لأبقارها، الطعامَ الرئيس لغزالته الصغيرة التي نمت وكبرت في الأشهر الخمسة الماضية ولم تعد مخيفة. وعندما كان يأخذ الطعام إلى السقيفة ويهمس: راني، راني، فإنّه يرى إلى عينيها الواسعتين المتألّقتين قليلاً تتّجهان نحوه، ولكنّها لم تنهض من مكانها إلى أن يضع الحبوب والفاكهة في المكان المخصّص لها ويبتعد قليلاً.

وفي عصر أحد الأيّام من شهر آب، وبينما كان ينادي راني على أثر عودته من رعي الماعز، لاحظ ثمّة بقعة خالية في المكان الذي اعتادت عيناه أن ترنوا إليه في السقيفة. كانت السقيفة صغيرة، ولكنّه على الرّغم من ذلك، اندفع في وجل وكأنّ الغزالة متوارية عن الأنظار من تحت أكوام التبن والخيش المنتشرة على الأرض. سبق للغزالة أن تاهت مرّتين فاضطرّ إلى الخروج بحثًا عنها بين التلال، وهو كمن مسّه الجنون ولم يهدأ له بال إلّا بعد أن عثر عليها وعاد بها إلى السقيفة فرحًا مسرورًا. ولمّا لم يجدها في السقيفة في عصر ذلك اليوم، هرع إلى السفح حيث اعتاد اصطحابها لترعى الكلأ وتشاهد عالم العوام.

وفكّر أنّها لا بدَّ قد خرجت من دونه مرّة أخرى، وشعر أنّ قلبه تحوّل إلى صخرة باردة وثقيلة عندما خطر بباله النمور وبنات آوى والثعالب والكلاب وكلّها تنتظر الانقضاض عليها وافتراسها.

سار بوران من فوق السفوح ينادي راني بصوته الجهوري والأجشّ والعميق إلى أن سمعت شارو نداءاته، فجاءت تستطلع ما حدث. وصلت السفوح والمنحدرات رفقته، ثم سارا في اتّجاهين مختلفين والتقيا من جديد، وسأل أحدهما الآخر:

ـ هل رأيتها؟

ثم افترقا مرّة أخرى وتوغّلا في أعماق الوادي المؤدّي إلى دوبي غات، وسلكا كلّ درب وسط غابات الصنوبر الممتدّة شمالاً وغابات البلّوط المترامية الأطراف شرقًا، وراحا من بعد ذلك يفتّشان طريق الغابة المؤدّية إلى السوق.. وتسلّقا في جهد جهيد الجلاميد القريبة من غدير الماء الذي يقطع الطريق المختصر المؤدّي إلى السوق؛ ولمّا اقتربا من الجسر الضيّق الممتدّ فوق غدير الماء، شاهدا حارس القرية جوشي، الذي قال لهما:

ـ إنّ غزالتك في مخفر الشرطة. ألا تعرف أيّها الأحمق بوران أنّك تنتهك القانون باحتفاظك بهذه الغزلان في المنزل؟ ماذا تظنّ؟ إنّها غزالة وليست كلبًا أليفًا أو معزة. لقد أصدر صاحب شوهان أوامره بنقلها إلى حديقة الحيوان في ناينيتال.

لم ينتظر بوران ولا شارو حتى يفرغ من كلامه، بل هرولا صاعدين السفح الذي كانا قد انحدرا منه قبل قليل واجتازا الطريق المختصر المؤدّي إلى مول رود حيث يقع مخفر الشرطة، وكان صوت حارس الغابة يرنّ صداه في آذانهما:

ـ لا تذهبا إلى هناك، لأنّه سيضعكما في حديقة الحيوان أيضًا، فثمّة حدائق حيوان للبشر المجانين أيضًا في نايتيتال!

كان مخفر الشرطة يقع فوق هضبة صغيرة على مول رود، وهو مبنى أصفر اللون يتألّف من حجرتين وسقف أحمر. ولا يحتوي إلّا على سجن محلّي بدائي لا يشغله في بعض الأحيان إلّا السكارى عادة الذين يضطرّون إلى النوم للتخلّص من حالة الثمالة. وكان مأمور المخفر شرطيّة فارعة القدّ، حادّة الملامح، متحدّرة من منطقة السهوب، طبقت شهرتها الآفاق بسبب معاملتها الغليظة أصحاب الدرّاجات الناريّة الخارجين عن القانون ولصوص الماء. وكانت تشدّ شعرها في كعكة وتحمل عصا قويّة ولامعة تلوّح بها في وجه العابثين، ولم يسبق لأحد أن شاهدها ترتدي ثيابًا بخلاف البزّة ذات اللون الخاكي والمؤلّفة من ثوب ساري تثبّته بدبّوس من الأعلى وكأنّه غطاء مائدة مطوي في عناية ودقّة.

وصلت شارو وبوران باب مخفر الشرطة، ولمّا أطراف شجاعتهما ليجادلا مسؤولة المخفر، ولكنّهما لم يجدا إلّا الحارس الذي كان جالسًا في الشرفة يقشّر البصل. وكان في وسعهما أن يشاهدا من الحجرة الرئيسة قضبان الحبس، فما كان من بوران إلّا أن هرع إليه على الرّغم من صيحات الحارس:

ـ آه يا بوران.

ثم نهض مسرعًا لإيقافه ومنعه من الدخول، ولكن بوران جلس على عجيزته أمام القضبان في سرعة خاطفة.

كانت الغزالة راني وراء القضبان تذرع الحبس جيئة وذهابًا، وفي ما كانا يراقبانها، زلّت قوائمها مرّتين من فوق الأرضيّة اللمّاعة وارتطم

رأسها بالجدار في الجهة المقابلة. أمسك بوران بالقضبان وهزَّها إلى الأمام وإلى الخلف، وانبعث من أعماقه صوت كان مزيجًا من الأنين والنشيج سرعان ما تحوّل إلى عويل.

توسّلت شارو من الحارس:

ـ دعها تذهب! دعها تخرج، فسوف تموت.

رفسها الحارس وهتف في صوت عالٍ ملؤه الوعيد لكليهما:

ـ كيف تتجرّآن على هذا العمل؟ هذا مخفر شرطة وليس منزلكما الذي تدخلانه وتخرجان منه كما تشاءان. نحن الشرطة. ماذا تعتقدان؟ هل لدينا الوقت كلّه ننفقه مع رعاة بقر مجانين؟

جلس بوران بجانب قضبان السجن متألّمًا ومناديًا اسم راني. كان يحتفظ ببعض الحبوب في جيوبه، فنثرها على أرضيّة السجن، غير أنّ الغزالة لم تعره اهتمامًا وبدت وكأنّها لم تره، وارتعشت وارتجفت في نوبات ملؤها الخوف والهلع، فجذب بوران القفل المثبّت على الباب ودقّه على القضبان الحديد في محاولة لكسره. وهنا أمسك به الحارس من ذراعه وجذبه جانبًا وصاح به:

ـ يا ابن الزنى، هذا مبنى حكومي، ماذا تظنّك فاعلاً؟

أدركت شارو أنّها تواجه قوّة لا طاقة لها بها. ما الذي يجعل الشرطي الحارس ـ الأقلّ مرتبة من مأمور المخفر ـ يتنبّه لها؟ وفكّرت في الشخص الوحيد الذي تعرف أنّ في وسعها اللجوء إليه لأنّ كلامه مؤثّر في أوساط الشرطة التي تطيعه. فهرعت إلى بوران وشرحت له، ثم خرجت وسلكت كلّ طريق مختصر في ما انزلق نعالها المطّاطي الوردي من قدميها وتدحرج من على الصخور المكسوّة بالطفيليّات الموسميّة.

* * *

٩

لا فائدة من محاولة إكمال قراءة الصحيفة، فقد جاءت العمّة معلنة أنّ مانغيش، الذي يشتغل عند السيّدة غراسي، قد عمد إلى إيداعها واحدًا من تلك الدور المخصّصة للعجزة واستولى على منزلها تمامًا. أمّا زوجته «المدعوّة عائشة التي لا بدّ أنّك رأيتها ـ الفارعة والنحيلة مثل عمود خيزراني وصوت يصل الوادي المجاور حتى إذا كانت تهمس وتظنّ أنّها حسناء فاتنة ـ فقد سحرت بقرتي راتنا التي لم تعد تدرّ حليبًا بعد اليوم». في هذه الأثناء، حوّلت العمّة كرة من التبغ كانت ماضية في مضغها من أحد فكّيها إلى الفكّ الآخر وهي تتكلّم، وجلست تتأوّه على درجات السلّم المؤدّية إلى شرفة صاحب ديوان.

زمجر صاحب ديوان فيَّ وفي العمّة ونهض من فوق كرسيّه، واتّجه إلى صفّ من أشجار الزينة الزرقاء التي تفصل حديقته عن الأعشاب الشوكيّة المنتشرة من تحتها. لاحظت أنّ يديه تعبثان وتفتّشان قرب خاصرته، وبعد توقّف دام برهة وجيزة، سمعت صوت ماء يقطر فوق العشب. كان الصمت مطبقًا بخلاف صوت نقّار الخشب الذي

كان يشقّ طريقه إلى أعلى جذع شجرة قريبة. تنهّدت العمّة، وقالت:

ـ إنّه نصف معتوه، يتبوّل على الأدغال مثل أيّ فرد من عامّة القرويين، ويتردّد عنه أنّه كان أميرًا من قبل. وهو يحتسي كمّيّات كبيرة من الخمرة تدفعه إلى أن يسقط باستمرار أثناء سيره. هل سمعت أنّه سقط بالأمس أيضًا؟ وقد أخبرني همت سنغ أنّ كتفه يحمل علامة سوداء كبيرة.

كان صاحب ديوان متواريًا عن الأنظار من وراء الأدغال والشجيرات، وتناهى إلى سمعي صوت شخص وكأنّه يطرق على السجّاد، ثم صوت صاحب الدار وهو يصيح:

ـ آه يا أخي! هل يمكنك أن تسمعني؟ ماذا تفعل؟

فتوقّف صوت الطرق الرتيب من تحت فترة دقيقة قبل أن يبدأ من جديد. تعثّر صاحب ديوان أسفل السفح وتشبّث بنطاق بيجامته وهتف:

ـ اترك الأعشاب وشأنها أيّها الحمار!

وهنا تمكّنّا من رؤيته من خلل فجوة في أشجار الزينة عند حافّة المنحدر، وبدا وكأنّه يوشك أن يتعثّر ويتدحرج أسفل التلّ في الخطوة المقبلة.

نهضت قليلاً، ورحت أصيح:

ـ على رسلك!

لكنّني توقّفت، لأنّه كان يمتعض ممّا يسمّيه «قرق الدجاج». وتناهى إلينا صوت رجل من تحت:

ـ إنّها أعشاب شوكيّة لا أكثر، وأنا لا أقطع أشجارك الثمينة. صحيح؟

ثم ضرب بعصاه على الشجيرات، فوقفتُ لألقي نظرة، فرأيت أنّ الرجل قد طرق أعدادًا كبيرة من الشجيرات والأعشاب العالية التي ازدادت نموًّا عن حدّها، فأصبحت أشبه ببسط خضراء اللون، رطبة ومفروشة على الأرض. كانت الأعشاب الشوكيّة قد شكّلت حاجزًا من حول البيت تحميه من الطريق على بعد بضعة أمتار. وكلّما صعب اقتحامها ازداد صاحب ديوان غبطة وبهجة لأنّها تحول دون اقتراب المتطفّلين.

وكان من شأن هذه الأعشاب أن تعاود النموّ في غضون شهر واحد، لهذا لا فائدة من الجدال، ولكن إذا ما انزعج صاحب ديوان فإنّه لا يستطيع التفكير، بل يردّ صائحًا:

ـ أنا الذي زرع هذه الأعشاب!

ـ آه، نعم. من يزرعها؟ أعشاب قذرة، كريهة الرائحة! يقول إنّه يزرعها.

ثم بدأت عصا الرجل تطرق من جديد على الشجيرات وفي قوّة أكبر هذه المرّة. وكلّما هوت العصا على الشجيرات والأعشاب، جفلت، متخيّلة الرجل ورائي وأنا في طريق غابة وحدي وقد تسلّح بهذه العصا. وسمعنا الرجل يصيح في صوت جهوري:

ـ عجوز أحمق لا نفع فيه. سانكي مجنون! يقول إنّه يزرع النباتات الشوكيّة!

صاح صاحب ديوان:

ـ أنت لست في مقتبل العمر. هل لاحظت كم عمرك؟

عاد صاحب ديوان أدراجه إلى الحديقة وقال:

ـ هل رأيت كم عمره؟ وقد بلغت به الصفاقة حدًّا وصفني أنّني عجوز!

انتصب شعر رأسه الأشيب من حيث مزّق قبّعته في عجالة. وكان مبذله يخفق عن كاحليه. عاد بأسرع ممّا ينبغي، تتلاحق أنفاسه فيعقبها صوت صفير. انحنى وفتّش عن قدح لا بدَّ أنّه قذف به إلى الأدغال في وقت مبكر من ذلك الصباح، ثم مسحه بقميصه وصبّ له فيه شراب الرّم من زجاجة موضوعة على المنضدة القريبة منه، وجلس في كرسيّه وبدأ يضحك حتى تحوّل ضحكه إلى سعال متقطّع جافّ.

قال وهو يتنفّس في جهد:

ـ ثمّة من كان يعتدي على النباتات منذ أيّام، وإذا كنت لم أضبط المعتدي متلبّسًا من قبل، غير أنّني عرفته اليوم، وهو حارس الغابة المتقاعد. يقول همت إنّه فقد رشده.

قالت العمّة:

ـ لِم لا؟ طالما ظلّ يأخذ مناجلنا وفؤوسنا، زاعمًا أنّنا نسرق الحطب، وكان يبيع فؤوسنا سرًّا في السوق. وقد صببنا عليه اللعنات مرّات ومرّات حتى جُنَّ جنونه.

قال صاحب ديوان وهو يمسك بعلبة سكائره:

ـ لماذا لا تصبّين لعناتك على هدف يستحقها أكثر منه مثل شوهان، أو حتى ذلك السياسي الذي يثير الاضطرابات؟

قلت:

ـ يُستحسن بك ألّا تدخن لأنّ أداءك التمثيلي يصادف في الأسبوع المقبل، ولا يمكنك قضاء الوقت كلّه بالسعال. لذا، توقّف...

لكنّني لم أكمل عبارتي لأنّه أشعل سيكارته.

كان صاحب ديوان يتمرّن منذ شهور، واقترب يومه التمثيلي في مدرسة القدّيسة هيلدا. كان من دأبه أن يتحدّث عن حرفة الغاب وكان يقلّد أصوات الحيوانات والطيور. وأحيانًا يخبر التلاميذ بقصص عن الرحّالة في جبال الهملايا، القدامى والجدد مثل فرانك سمث أو إدموند هيلاري أو بيل أيتكن.

سألته:

ـ ماذا ستقدّم في هذا العام؟

ـ هذا العام؟

على حين بغتة اكتسى وجه صاحب ديوان بحمرة الخجل وقال:

ـ سوف أخبرهم في هذه السنة عن التوفيق الذي يحالفهم، وكم هم محظوظون. أريد من أطفالك الصغار المزعجين أن يفهموا ذلك.

قالت العمّة:

ـ محظوظون؟ نصفهم ليس لديه ما يأكل بما يكفي، ولن يحصلوا على وظيفة بعد أن ينهوا تعليمهم في المدرسة. كلّ هذا التعليم مضيعة للوقت!

رمقتني بنظرة تأنيب شديد. فقبل يوم واحد، حدثت مشادّة بينها وشارو بشأن الوقت الذي تقضيه في منزلي لتلقّي دروسها.

تجاهلها صاحب ديوان وقال:

ـ سوف أخبرهم أنّهم يجب أن يضعوا آذانهم على الأرض والصخور كي يسمعوها تتنفّس، لأنّ الصخور هنا في رانيكهت تتنفّس حقًّا. وسوف أخبرهم أن يصغوا ثانية واحدة وهم في طريقهم وسط

الغابة ونحو المدرسة إلى صوت النسغ المنبعث من الأشجار، وأن ينفقوا يومًا واحدًا يرسمون القمم البيض التي لم يزعجوا أنفسهم بالنظر إليها قبلئذٍ. إنّها تشبه البشر المولودين في أسر ثرِيّة، الذين لا يعرفون معنى المال إلّا بعد أن يزول.

قالت العمّة:

ـ أنا شخصيًّا أفضّل أن يكون لديّ بعض المال وليس الجبال وحدها، لأنّك لا تستطيع أكل الجبال.

تململت في مجلسها وكأنّها عازمة على الانصراف.

أمّا صاحب ديوان، فكان مستغرقًا في التفكير، فلم يتنبّه لحركتها واستأنف كلامه:

ـ سوف أخبرهم أنّهم يعيشون في منطقة من العالم ما تزال فيها الوحوش المفترسة حرّة طليقة. وإذا ما كانوا يلعبون مساءً وسط الأشجار، فإنّهم قد يسمعون حركة في النباتات الواطئة ويشاهدون طائر التدرّج يبتعد صحبة رفيقته. أين تمارس هذه الطيور والحيوانات كلّ هذه الأشياء الاعتياديّة مثل الدروس والتعليم والألعاب ثم تعود إلى بيوتها عندما تسمع نداء الثعالب ونعيق البوم!

قلت في عبارات حذرة:

ـ طبيعي أنّها لا تتنبّه لنعيق البوم ونداء الثعالب لأنّها كبرت وإيّاها، مثلما لا يتنبّه أطفال المدن لضوضاء السيّارات...

رمقني صاحب ديوان بنظرة تنمّ عن ذعر:

ـ نعيق البوم يشبه ضوضاء سيّارة؟ هل فقدتِ عقلك؟

وهنا استبدّت به نوبة سعال أخرى عندما دخلت شارو مسرعة. لم

تكن تكلّم صاحب ديوان من قبل وجهًا لوجه إمّا خشية أو خجلاً منه. أمّا اليوم، فاتّجهت نحو كرسيّه وأمسكت بذراعه لاهثة، وقالت في صوت مرتعش وجهوري:

ـ ينبغي لك أن تنقذ بوران. لقد ألقوا القبض على غزالته.

* * *

غيَّر صاحب ديوان من ملابسه وارتدى قميصًا أبيض اللون وسترة رماديّة فضفاضة ومجعّدة تفوح منها رائحة كرات العثّ. وقال وهو يخرج بثيابه غير المميّزة:

ـ لا يمكن التعامل مع الشرطة، ومع ذلك الأحمق شوهان، وأنا في مبذلي!

كنّا مضطرين إلى السير في سرعة أبطأ من المعتاد، لأنّه كان كثير السعال ويضطر إلى التوقّف في أغلب الأحيان ليلتقط أنفاسه. وفي منتصف الطريق، ازداد رذاذ المطر كثافة ورشقت الريح قطرات الماء في وجوهنا، وشدّت العمّة ثوبها الساري بركبتيها وبحثت عن الكيس البلاستيكي الذي كانت تحتفظ به داخل حزامها لمثل هذه المناسبات. وتسلّل شعرها الأبيض من تحت غطاء رأسها في حين شمّرتُ عن ساقيْ بنطالي الجينز. ولدى وصولنا مخفر الشرطة، كنّا نشعر بالبرودة بعد أن تبلّلنا بالمطر وتشبّعنا به.

اندفعنا داخل مخفر الشرطة وسط صياح الحارس واتّجهنا نحو قضبان الحبس، ولكنّنا لم نشاهد الغزالة بل شاهدنا بوران بدلاً منها، محبوسًا من وراء القضبان. كان جالسًا في ركن يتأوّه ويتألّم، يحكّ رأسه ويضرب على فخذيه فيما فاضت عيناه بالدموع وتلطّخ بالمخاط وجهه. كانت الحجرة معبّقة برائحة المطر المنهمر من ثيابه النتنة.

كانت مأمورة المخفر تجلس من وراء منضدتها، منزعجة، وتنادي على الحارس كي يشعل بعض البخور. وقالت مخاطبة العمّة:

ـ ماذا تظنّين؟ أن أحتفظ به في هذا المكان؟ إنّني أريد أن أرمي به خارج المخفر، فرائحته النتنة تكفي لجعلي أرغب في جدع أنفي.

بدت العمّة خائفة، دامعة العينين لدى رؤية ولدها سجينًا. لم يسبق لي أن رأيت العمّة وقد فقدت قدرتها على الكلام. فجلست على عجيزتها ووضعت رأسها بين يديها من دون أن تخلع غطاء رأسها وكأنّه قارب مقلوب. أمّا شارو فانتصبت في وقفتها، ممسكة بقضبان الحبس، متجمّدة الوجه من شدّة الغضب عندما سمعت كلمات مأمورة المخفر، وتظاهرت بالغطرسة والتزمت الصمت.

لم تطلب مأمورة المخفر من صاحب ديوان الجلوس، فظلّ واقفًا بجانب منضدتها وهو ما يزال مبهور الأنفاس، محنيّ الظهر من فوقها معتمدًا على يديه. أخذ نَفَسًا مشوبًا بآهة، وراح يشرح لها الموقف في كياسة تنمّ عن غاية في الجهد والعناية، وقال إنّ بوران يختلف قليلاً عن الآخرين، وأنّه غير قادر على الكلام مع الأهالي، ولكنّه قادر على أن يكلّم الحيوانات التي كانت تثق فيه. وكانت الثعالب تأتي إليه إذا ما ناداها، والطيور تحطّ على عتبة بابه إذا ما أُصيبت بجروح طلبًا للعلاج. وكانت الكلاب الكسيرة القوائم تجد طريقها إلى زريبة أبقاره.. ومن الضروري أن يحظى بمعاملة مختلفة لأنّه لا يقدر على فهم مثل هذه الأشياء قدر فهمه قوانين الحياة البرّيّة.

قوطع صوت صاحب ديوان الجهير بنوبات سعال، ففتّش في جيوب بنطاله الذي لم يلبسه منذ زمن طويل عن منديل، وهنا ناولتُه منديلاً من المناديل الورقيّة، في حين نقرت مأمورة المخفر بقلمها

الرصاص من فوق المنضدة، ثم راحت تدوّم قطعة نقد معدنيّة من فئة خمس روبيّات مرارًا وتكرارًا وانتظرت في كلّ مرّة حتى تتوقّف.

استأنف صاحب ديوان كلامه في صبر موضحًا أنّ بوران لم يكن يربّي الغزالة حتى يأكلها، وإنّما كان قد أنقذها من الغابة، ولو لم ينقذها لكانت التهمتها حيوانات أخرى. . .

قاطعته مأمورة المخفر قائلة:

ـ ذلكم هو قانون الغاب. والغزالة حيوان برّي.

قال صاحب ديوان:

ـ بالتأكيد، وأنتِ على حقّ تمامًا لو كان الوضع غير هذا الوضع، ولكن بوران حالة خاصّة. هل علمتِ أنّ. . .

وهنا اكتسبت نبرته مسحة من التملّق والمداهنة، فأنا لم تسبق لي مشاهدته منحنيًا على النحو الذي أشاهده الآن. ثم ابتسم لها وكأنّه يحاول أن يسترضيها.

بيد أنّ مأمورة المخفر قاطعته مجدّدًا، وقالت أن لا حيلة لها، وراحت تقلّب أوراقها وملفّاتها، ثم قلّبت النظر في صاحب ديوان بازدراء واضح. فهي لم توفد إلى رانيكهت إلّا قبل بضعة شهور ولا تملك فكرة عن هويّته، ووجدته مثل أيّ رجل عجوز من رجال بلدة صغيرة مبلّل بالمطر! صحيح أنّه متعلّم. . ولكن لا وقت لديها لمثل هذه الرقّة والدماثة والكياسة البليدة. فشدّدت من أسلوبها الجافّ، وبدت فظّة، حادّة اللسان، ولمّا كانت شرطيّة، فقد رأت أنّ وضعها يحتّم على من يقابلها أن يخشاها بدلاً من أن يحبّها. هذه الأشياء كلّها مدوّنة على جبينها. وكان في وسعها أيضًا أن تشمّ رائحة شراب الرّم من أنفاس صاحب ديوان على وجه التوكيد. وارتعشت يداه الكبيرتان

حتى عندما كانتا تستندان إلى المنضدة تلك الرعشة المألوفة لدينا، ولكنّها ظنّت أنّها عارض آخر من أعراض سكره. نظرت إلى قدميه. صحيح أنّه كان يرتدي قميصًا وبنطالاً وسترة، ولكنَّ قدميه كانتا متورّمتين تورّمًا شديدًا فلم يتّسع لهما حذاؤه، ولهذا انتعل الحمام البنفسجي. ورنت إلى النعال المبلّل والملطّخ بالوحل ثم رفعت بصرها إليه وقالت:

ـ القانون هو القانون. ولديّ عمل يقتضي منّي إنجازه، كما أنّ القانون يحظّر على الناس إيواء الحيوانات البرّيّة في بيوتهم سواء أكان الغرض من ذلك هو أكلها أم تربيتها. وهو لا يختلف عن بقيّة الناس في نظر القانون.

ثم عادت إلى ملفّاتها ولم ترفع بصرها ثانية.

كان السيّد شوهان قد أصدر تعليماته بحبس بوران إذا جاء ينشد الغزالة، إلى أن يتمّ نقلها في أمان إلى حديقة الحيوانات في ناينيتال، ولا يطلق سراحه إلّا بعد مرور بضعة أيّام ليلقّنه درسًا بذلك. وأصدر السيّد شوهان أمرًا يفيد بإخبار كلّ من يفتعل ضجّة حول الموضوع أنّ هذه المخالفة غير خاضعة للكفالة بحسب قانون حماية الحياة البرّيّة، وأنّ على بوران أن يقضي مدّة معقولة في الحبس لأنّه عمد إلى تسمين غزالة بهدف ذبحها وأكلها. وقال السيّد شوهان في تعليماته لمأمورة المخفر:

ـ وبما أنّك عاكفة على أمر المخفر، فإنّني أطلب نزع هذه الملابس العسكريّة عنه وحرقها حتى تتحوّل إلى رماد هذه المرّة.

وبعد أن أصدر السيّد شوهان تعليماته، سافر إلى بهيمتال.

* * *

عاد بوران إلى البيت بعد ثلاثة أيّام مرتديًا ثياب شخص آخر، وتوجّه إلى سقيفته المهلهلة ولم يخرج منها ولو حتى لتناول الطعام. وورد إلينا عن أحد الأصدقاء في نايتيتال أنّ الغزالة راني كانت ثابتة في قفصها الجديد، مستغرقة في تفكير عميق وكئيب رافضة الماء والكلأ. ولبثت طوال النهار واقفة من دون حراك تقريبًا في إحدى زوايا قفصها على الرّغم من إلحاح طبيب الحديقة البيطري. وبعد مرور أسبوع، نصح الطبيب باتّخاذ إجراء ثوري وطلب إحضار بوران إلى نايتيتال قائلاً:

ـ ذلكم هو الأمل الوحيد، فقد تأكل الغزالة إذا ما أطعمها بنفسه.

وبدأت محاولة للحصول على إذن من السيّد شوهان، الذي سرعان ما وضع سمّاعة الهاتف في قوّة في مكانها قائلاً:

ـ أنا هنا، وهذا أد... من خائن هذه المدينة.

ثم ضرب بقلمه على منضدة كتابته، وأضاف:

ـ يريدونني أن أمنح وقتي كلّه لهذه القضايا السخيفة.

إذا أصدر موافقته على إرسال بوران إلى نايتيتال، فتلك أكبر إهانة تلحق به، لهذا لم يطق سماع ذلك، واستقلّ سيّارته الجيب التي توهّجت بقعتها الحمراء اللون، ومضى لتفتيش موقع حديقة الألعاب الجديدة التي تمثّل مشروعه العملاق الذي أزيلت بسببه غابة بلّوط. وكان يردّد أنّ من العبث الذي لا طائل من ورائه حثّ السيّاح على المجيء لمجرّد الاستمتاع بالهدوء والطبيعة، بل ينبغي للبلدة رانيكهت أن تكون ذات مواقع سياحيّة ويتعيّن عليها أن تدرّ أرباحًا طائلة شأنها شأن بهيمتال ونايتيتال. هذا ما قرّره السيّد شوهان. وإذا ما اتّخذ قرارًا

في شأنٍ من الشؤون، فإنّه يبدأ بتطبيقه من فوره. لهذا، فالوقت ليس وقت حديث لا معنًى له مع المجانين والغزالة. فأصدر تعليماته لسكرتيره أن يبلغ من يتّصل به من حديقة الحيوان أنّه مشغول في اجتماعات طوال النهار.

وفي اليوم الثالث عشر، نفقت الغزالة بسبب سوء التغذية والجفاف والحزن. ونشر عنها خبر صغير في الصحيفة المحلّيّة، وجاء صحافي لإجراء مقابلة مع بوران بغية إعداد تقرير «إنساني المنحى». وشعرت العمّة بالتحمّس والاهتياج لمّا عرفت أنّ الصحيفة ستنشر تحقيقًا عن ابنها، فأطلعت الصحافي على سقيفة الأبقار التي لجأ إليها بوران. تقدّم الصحافي نحو السقيفة في حذر شديد مثل لقلق في مستنقع، وانتظر كي يظهر له بوران بعد أن غاص في الوحول والروث. لكن على الرّغم من طرقات العمّة وتوسّلاتها وتوبيخها ولعناتها، فقد ظلّ بوران داخل السقيفة ولم يكلّم أحدًا.

* * *

في مساء تلك الزيارة الفاشلة التي قمنا بها إلى مخفر الشرطة، ذهبتُ إلى لايت هاوس. وكنتُ معتادة أن أذهب إلى هناك في غياب ڤير لتناول الشراب، وأحيانًا الطعام بعد أن أجلس قرب نار مدفأة صاحب ديوان قبل العودة إلى البيت وإلى دفاتر تماريني. عندما دخلت حجرة المعيشة نصف المظلمة في ذلك اليوم، رأيته متكوّرًا بجانب المدفأة، يغذّي نيرانها من حزمة أوراق كانت بالقرب من قدميه. وكان يضع مجموعة تلو الأخرى، فكانت النار توشك أن تخمد عند وضع كلّ مجموعة من الورق فوقها لتعود متوهّجة بعد أن تحترق المجموعة الجديدة منها. لم أكن مضطرّة لأن أطرح على صاحب ديوان سؤالاً عمّا كان يفعل، إذْ كان في وسعي أن أشاهده يحرق سنوات من

الجهد، جهده وجهدي، مختلف النسخ من كتاب كوربيه. وكانت يداه تهتزّان كلّما امتدّتا إلى اللهب ثم إلى النار. وكان محنيّ الظهر من فوق ألسنة اللهب بما يكفي لأن أشمّ رائحة شعره وقد لفحته النار قليلاً. وشاهدت أيضًا أنفه يقطر بالمخاط اللامع من تحت ضوء النهار، فمسحه بكمّ يده، واستأنف عمله. وبعد أن أصبحت المخطوطة كلّها في النار، نهض واقفًا على قدميه وهو ما يزال يحدّق في اللهب المتصاعد. ثم بدا وكأنّه تذكّر شيئًا آخر. فرنا إلى صورة كلاب صيده الذهبيّة المؤطّرة والمعلّقة فوق المدفأة، فوثبت للتوّ إلى أمام وصحت في صوتٍ عالٍ، ولكنّني كنت متأخّرة، فلم أستطع الحيلولة دون رميه الصورة في الوهج المتّقد، فتهشّم زجاجها وهي تسقط على قطع الخشب في المدفأة، وسرعان ما احترق إطار الصورة المصنوع من خشب قديم، وشاهدت الصورة تلتوي عند الحافّات وتأتي عليها النار.

* * *

١٠

لم يكن في وسعي أن أجد تفسيرًا على المستوى العقلاني لموت الغزالة، ولكن بعد موتها، راحت الهواجس تملأ عقلي وتشير إلى تغيير، إلى تحوّل عميق وصعب التفسير في آن، تشوبه الخرافة أكثر ممّا يشوبه المنطق. كنّا أشبه بمن يقف أمام مساحة واسعة من المياه الراكدة، والإحساس يساورني في أنّ ثمّة سمكة قرش تمخر عبابه من تحت السطح وتتّجه نحونا. وراودني شعور في الأيّام الساطعة وكأنّ زاوية مياه ضحلة تقترب منّا بوصة فبوصة على نحو غير محسوس، حتى لم تعد زاوية بل تحوّلت إلى ظلمة سرعان ما سوف تمحو وجودنا في الوقت المناسب.

وعظم هاجس التفكير عندي بشأن ما حدث لجثّة راني في حديقة الحيوان التي يطلقون عليها حقًّا كلمة «جثّة». وتذكّرت كلب جارنا في حيدرأباد ـ الكلب الإلزاسي الجميل الباسم ذا الذنب الطويل الذي لم تكلّمه الأسرة ولم تدلّله لأنّها كانت تعدّه كلب حراسة، لا ينبغي لمسه بسبب خطورته. وكنت أنا أحكّ رأسه أثناء خروجي إلى المدرسة.

وفي أحد الأيّام، شاهدت رجلاً يقود درّاجته في الطريق من أمام بيوتنا ويجرّ كيسًا من الخيش مربوطًا بحبل طويل بالمقعد الخلفي من ورائه. وكان الكيس يمسح الدرب الترابي أثناء مروره من فوقه، في حين مال الرجل إلى أمام وقاد درّاجته في جهد على النحو الذي يجهد فيه من يقود درّاجة تنوء بحمل ثقيل. وعلمت في وقت لاحق أنّ الكلب نُفق وأنّ الأسرة وضعته في كيس خيش مربوط بتلك الدرّاجة كي يُلقى به في مكبّ نفايات البلديّة.

وفكّرت إن كانت جثّة راني تتحلّل وتفسد في مكبّ النفايات مع غيرها من القمامة، أو إن كانت الجرذان مزّقتها إرْبًا إرْبًا. ربّما قدّمت حديقة الحيوان جثّتها طعامًا لنمورها في الأقفاص، لكن لا يمكن أن تكون عظام ذلك البدن الرقيق المتضوّر جوعًا مكسوّة بلحم وفير. وقلت لنفسي إنّ الطبيب البيطري الذي سعى إلى إنقاذ حياتها قد نقل جثّة راني إلى غابة كتلك الغابة التي كانت ولدت فيها، وتركها هناك حتى تعود إلى التربة من جديد. وحاولت أن أقنع نفسي بأنّ هذا هو المصير الذي آلت إليه.

* * *

في صباح يوم التمثيل السنوي الذي يؤدّيه صاحب ديوان في مدرستنا، سقطت أمطار خفيفة وغارت في خضرة النباتات من قبل أن تلامس الأرض. حدث ذلك بعد يوم أو يومين من نفوق راني. وكان صاحب ديوان قد أصيب بنزلة برد منذ ذلك النهار الذي أُصيب فيه بالبلل في الطريق إلى مخفر الشرطة. وفكّرت إن كان يملك من القوّة ما يكفي لأن ينهي ساعة من الحديث وتقليد أصوات الحيوانات أثناء إصابته بنوبات من سعال وعطاس في كلّ بضع دقائق. وتقرّر أن يقلّنا السيّد قريشي بسيّارته إلى هناك، لأنّ صاحب ديوان لن يكون قادرًا

على قطع المسافة إلى المدرسة سيرًا على قدميه. كانت شارو تتطلّع في شوق إلى ذلك اليوم وإلى ركوب السيّارة، ولكنّها كانت تتجنّب لقاءنا من بعد وفاة راني، وكأنّ اللوم يقع علينا لعدم قدرتنا على إنقاذ بوران والغزالة. وفي ذلك الصباح، قالت العمّة:

ـ ليست شارو على ما يرام، ولن تذهب.

وفي المدرسة، جلس الأطفال على أرضيّة قاعة الاجتماعات بحسب الصفوف والطول. كانت تبدو زرقاء وبيضاء وحمراء بسبب بزّات التلاميذ وأربطة العنق. وكان الأطفال الصغار الجالسون في الصفوف الثلاثة الأولى ولا تزيد أعمارهم عن الخمس أو الستّ سنوات في عهدتي. كان أحدهم يلكز الآخر ويتجاذبون أطراف الحديث عند دخولنا، وتخلّى اثنان عن مكانيهما، وكانا من المشاكسين، واتّجها نحوي راكضين للإمساك بيدي في محاولة لإظهار حقّي في تملّكهما، ما جعل الآنسة ولسون تزمجر:

ـ انظري إلى هذين! كانا جالسين طوال الوقت في انضباط، لكن سرعان ما حلّت الفوضى بعد وصولك مباشرة.

ولمّا هدأ الأطفال، وفُحصت لاقطة الصوت، وجيء بزجاجة ماء وقدح، واتّخذ صاحب ديوان مجلسه، اتّجهت الأنظار كلّها إليه. وكان الأطفال قد راهنوا على أن يبدأ حفل هذا العام بتقليد صوت النمر، فتشبّث بعضهم بأيادي البعض الآخر متوقّعين أن تسري في أبدانهم رعشة خوف تثير السرور.

أطبق الصمت، فقدّمت إحدى المعلّمات لاقطة الصوت من صاحب ديوان، وانساب إلى الأسماع صوت أحد ما يتكلّم في الصفوف الخلفيّة من القاعة، فما كان من الآنسة ولسون إلّا أن زمجرت:

ـ هدوء! فنحن نوشك أن نبدأ!

لكن صاحب ديوان لم يبدأ، وساورني قلق من أن يكون قد نسي السبب الذي جيء به إلى هنا. بدأ الأطفال يتململون، فدنوت منه وهمست:

ـ ابدأ.

كان صاحب ديوان قد تضاءل وانكمش على نفسه منذ مواجهته مأمورة مخفر الشرطة، ونادرًا ما كلّم أحدًا منذ ذلك الوقت. واحدودب كتفاه وكأنّه قد تكوّر على نفسه، وبدت نظراته الثابتة وكأنّها متّجهة إلى مكان بعيد عندما كان يحدّق إليَّ. ولم يسبق له أن أطلق نكتة ولم يسخر منّي قطّ.

ثم راح يتكلّم، ولكن لم يستطع أحد سماع صوته، فهرع الصبيّ المكلّف بمتابعة الأجهزة الصوتيّة وعدّل من وضع لاقطة الصوت التي استقرّت بها بعد أن أصدرت صفيرًا، وصاحت الآنسة ولسون من مكانها في المقعد الأمامي:

ـ عالٍ جدًّا، عالٍ جدًّا.

فبات الصوت واطئًا غير مسموع. أمّا صاحب ديوان، فقد استرسل في الكلام، مهملاً شأن لاقطة الصوت. كان صوته واطئًا، وأحيانًا لم يخرج عن كونه بضع غمغمات.

كان يقول:

ـ لا أعلم كم عدد الحاضرين في هذه القاعة يعيشون في منطقة السوق، وكم عددهم في القرى البعيدة وكم عددهم في المنطقة العسكريّة. كم ميلاً تقطعون عند مجيئكم إلى المدرسة؟ أنتم تنهضون

مبكرين في صباح كلّ يوم، فجرًا. وعلى كبار السنّ منكم ملء الدلاء بالماء من غدران الماء قبل القيام بأيّ عمل آخر. ويتعيّن على بعضكم الآخر إشعال النيران لمساعدة أمّهاتكم في إعداد وجبة طعام قبل الذهاب إلى المدرسة، وعليكم صعود سفوح التلال الشديدة الانحدار حتى تصلوا إلى هنا، وتصابون بالبلل في كلّ يوم من أيّام سقوط الأمطار الموسميّة أثناء سيركم إلى هنا. وفي وقت العصر تتسبّبون في توقّف حركة المرور في السوق عند خروجكم من المدرسة وسيركم في الطريق وأنتم تهذرون بالكلام مثل قردة. . .

وهنا حاول أن يقلّد صوت سعدان ولكنّه راح يسعل، فرشف رشفة كبيرة من الماء، واستأنف حديثه:

ـ لقد نظرت إلى وجوهكم عندما كنتم تخرجون من المدرسة ـ مشرقة ومتألّقة وتبشّر بنبوغ في المستقبل، وراودني التفكير في كلّ وقت: أيّ مستقبل أمامكم؟ ماذا ستفعلون في تعليمكم؟ وما العالم الذي سوف أتركه أو تتركه معلّماتكم لكم؟ في ركن واحد من أركان رانيكهت ـ كم منكم يعرفها؟ ـ في ركن واحد، في الطريق المؤدّي إلى معبد جهولا ديفي ثمّة طريق في غابة يتجه نحو الجانب الآخر، ويقود إلى هضبة صغيرة. وإذا ما سلكتم الطريق المؤدّي إلى الهضبة، فسوف تجدون أمامكم فسحة من أرض تحيط بها أشجار باسقة. في الزمن الذي عاش فيه أجدادنا، ربّما كانت ثمّة عقبان ذهبيّة في الهملايا تبني أعشاشها في تلك الأشجار وفي تلك الصخور. إنّها طيور نادرة فريدة من نوعها، ولم يسبق لأحد أن رآها هنا. ولكن من يرفع منكم بصره إلى السماء الآن، سوف يرى عقبانًا فوق ملعب الغولف تحوم باحثة عن فريسة. هذه هي عقبان السهوب التي تأتي إلى هنا في كلّ موسم شتاء قادمة من صحارى منغوليا وكازاخستان. وكان من دأبي أن

أجلس على الهضبة وأراقب العقبان التي كانت تجثم على تلك الأشجار الباسقة.

في ما مضى من الزمان، كان هذا هو أسلوب صاحب ديوان لبثّ الخوف في نفوس الأطفال. وكان يقول: كانت تلك العقبان كبيرة وفي وسعها أن تلتهم صغار الأطفال، ثم يتمطّق بشفتيه. أمّا اليوم، فلم يقل سوى:

ـ لها من القوّة ما يمكّنها من قتل حتى الثعالب وصغار الماعز والغزلان. ومع هذا، فإنّ عقبان السهوب نادرًا ما تُصدر أصواتًا وهو شأن العقبان الذهبيّة أيضًا. هل يمكنكم أن تصدّقوا أنّ نداءها لا يخرج عن كونه صيحة ضعيفة تشبه عواء كلب صغير. تصدر العقبان الذهبيّة الكبيرة صوتًا من مقطعين «كي ـ يب» في سلسلة بطيئة ومحسوبة. أمّا صغارها، فنداؤها صوت ثاقب فيه إصرار» سي ي ي ي ي ـ كيك أو «كيكيكي».

أفلح صاحب ديوان في إصدار هذين الصوتين من دون سعال، ولكنّه لم يستردّ عافيته ويشعر بالقدرة على الكلام من جديد إلّا بعد برهة وجيزة.

قال:

ـ إنّ أنف الجبل يرنو إلى قممنا الثلجيّة. وقد ثبّت الحُجّاج في العصور الغابرة أعمدة ثبّتوا عليها أعلام الأمل من حول فسحة الأرض. ربّما لا يعرف الكثيرون منكم ما عمود الأمل. حسنًا. إنّه يؤشّر على الآمال التي ذهبت أدراج الرياح ـ لقد ثبّت البوذيّون هذه الأعلام. من يعرف متى ثبّتوها؟ وعندما اكتشفتُ أمرها، كانت مهلهلة وفي حال يُرثى لها. ثم رحت أتردّد على ذلك المكان لأنّكم إذا

جلستم على أنف الجبل، فسوف ترون بعد برهة وجيزة أنّ الحيوانات سوف تنسى أمركم وتخرج من الغابة...

اعتدل الأطفال في جلستهم، وبدأ صاحب ديوان يقلّد صوت كلّ حيوان يأتي إلى أنف الجبل، ويسود القاعة مزيج من أصوات الفرح وصيحات الابتهاج.

قال صاحب ديوان:

ـ لكنّ الحيوانات لا تأتي اليوم إلى أنف الجبل، فالشاحنات تروح وتجيء، ويحتشد المكان بالأخشاب القادمة من الأشجار التي قطعت من الغابات المحيطة. هل سمعتم صوت شجرة تقطع وتُنشر بالمنشار، فينقسم جذعها إلى قسمين وتهوي على الأرض؟

توقّف صاحب ديوان عن الكلام ولم يقلّد أيّ صوت وكأنّه يسمع الصوت في رأسه. وقال:

ـ إنّهم يشيّدون بيتًا خشبيًا على أنف الجبل لكي يستمتع به البيروقراطيّون. كما أنّهم يشيّدون بوّابة خشبيّة عظيمة من أخشاب تلك الأشجار المعمّرة. وقد قطعت الأشجار التي كانت تؤوي العقبان أيضًا، ولا أحد يعرف إلى أين اتّجهت بعد أن قُطعت تلك الأشجار. هذه هي الغابة اليوم ـ إنّها متنزه، إنّها ما يدعونه المورد أو المعمل، ولا تعود ملكيّتها الآن للناس الذين كانوا يملكونها سابقًا ولا للحيوانات والنباتات التي كانت تعيش فيها. ظننت أنّني سوف أحدّثكم عن مدى الحظّ الذي يحالفكم وأنتم تعيشون في هذا الجزء من العالم وأنتم محاطون بصخور تتنفّس وحيوانات ينادي أحدها على الآخر. أنتم تريدون منّي أن أردّد نداءاتها على مسامعكم، ولكنّني نسيت أصواتها اليوم. بل لم يعد لديها أيّ صوت بعد الآن. ولهذا لا

أستطيع ترديد أصواتها.

وهنا دفع صاحب ديوان كرسيّه إلى الخلف ونهض وأردف:

ـ لم يعد في إمكاني ترديد أصواتها بعد الآن.

وراح يجرّ قدميه جرًّا نحو الباب ووصل إلى الممرّ وهو يسعل مبهور الأنفاس، قبل أن أتمكّن من النهوض من المقعد الذي كنت أجلس فيه وأصل إليه.

ساد جوّ من الارتباك والذهول في القاعة، ولم يصفّق الأطفال ولم يتحرّكوا من أماكنهم. ووجم بعضهم ولبث صامتًا وبدا عليهم الاستغراق في التفكير. وقال أحد الصبيان الكبار للآخرين أنّ تمثيل صاحب ديوان في السنة الماضية كان رائعًا وأنّ تمثيله في هذا العام قصير ومرتجل. أمّا الآنسة ولسون، فكانت مهتاجة، وقالت عندما جاء فتى الأجهزة الصوتيّة مطالبًا بأجره ويناولها قائمة أتعابه:

ـ يا له من مضيعة للوقت... كما أنّنا انهمكنا في إعداد الترتيبات الكثيرة.

ثم وجّهت كلامها لي بعد أن أخذت القائمة:

ـ هذه هي آخر مرّة يا مايا. لقد بلغ من الكبر عتيًّا، بل هو خرف اليوم. ما هذا الكلام الفارغ؟ إنّنا إذْ ندعوه لهذا الغرض ونهيّئ كلّ هذه الاستعدادات، فإنّه ينبغي له أن يلتزم بها، ولكنّه لم يلتزم.

* * *

١١

بدأت حرارة صاحب ديوان بالارتفاع في ذلك المساء، وظلّ طريح الفراش في غيبوبة أثارت في نفسي من القلق ما جعلني أستدعي له طبيبًا، قال لي بعدئذٍ:

ـ اسقيه سوائل، ولكن ليس من النوع الذي يشربه عادة.

سهرت الليالي واضعة كمّادات باردة كالثلج على جبينه عندما كانت الحمّى تزداد، ومرّرت يديَّ على شعره الناعم القليل لأجعله يستسلم للنوم، ولكنّه استرسل في هذيانه عن أناس وأشياء لا علم لي بها:

ـ فرحة وليست شار باغ... نلتقي في أمامبارا... فرحة، هل يمكنك الحضور... النائب بحاجة إلى ساعة، لا يملك ساعة... الرسائل، وصيّتي... ڤير... أحضر الصندوق... أحضر الصندوق، اذهب، خذه بعيدًا عنّي!

عانى في شدّة وهو يتنفّس، واضطررت إلى رفعه وتدليك ظهره

لتهدئة أضلاعه المؤلمة التي حاول فركها في نومه المضطرب. وأدركت أنّه تضاءل وهزل أكثر ممّا تصوّرت، فقد برزت أضلاعه من تحت جلده وبات جسده نحيلاً ونحيفًا، وعلى حين بغتة ساورني إحساس بالشفقة والرقّة، مؤلم وغير متوقّع، فخرجت من حجرته ورحت أذرع الشرفة جيئة وذهابًا برهة من الزمان كي أتمالك رباطة جأشي. أعرف أنّه كان يمتعض من الأحاسيس العاطفيّة وأنّه سوف يفهم مشاعري بلمحة خاطفة يلقيها على وجهي سواء أكان محمومًا أم غير محموم.

وبعد أن انخفضت درجة حرارته، أضحى كثير المتطلّبات، سيّئ المزاج، ورفض مساعدتنا نحن الذين كنّا بجانبه، بيد أنّه أبدى ملاحظات لاذعة عن غياب ڤير في وقت الضيق. وعندما جاء آنكيت راوات يبحث عن ڤير في يوم ما لمساعدته في حملته الانتخابيّة، قال:

ـ الموهبة تكمن في ألّا ينتقص أحد من قيمتك، والفنّ في الابتعاد عن المكان الذي ثمّة جهد ينبغي بذله فيه لإنجاز عمل من أجل الآخرين. ممّا لا ريب فيه أنّ الشابّ سيعود أدراجه في الوقت المناسب لكي تلقي فيه خطاب فوزك.

دفع جانبًا الطعام الذي أعدّه همت سنغ، وقال إنّه يريد يخنة الدجاج بنبتة إكليل الجبل. ليست لديّ فكرة عن طريقة إعداد مثل هذه اليخنة، ولكنّني فتّشت في كتاب طبخ نادرًا ما استعملته وأعددت قائمة بالمقادير المطلوبة التي سوف أحتاجها. كما أنّني قطفت حفنة من إكليل الجبل من الشجيرات المزروعة حول المنزل، واشتريت دجاجة وبعض الخضراوات المناسبة التي أمكنني العثور عليها في ذلك الوقت من موسم السنة وهو وقت يصعب فيه العثور على أيّ خضراوات لذيذة. وكانت اليخنةُ تحتوي على البطاطس والفاصولياء وحبّات البصل

الصغيرة التي أضحت بعد طبخها كرات شفّافة إلى حدٍّ ما. تناول صاحب ديوان لقمة واحدة، وقال إنّ طعمها يشبه طعم الوحل، فطهوت له سمكة في اليوم التالي، ولكنّه قال إنّ رائحتها نتنة. أحيانًا كنت أنزعج انزعاجًا شديدًا بسبب حبّه للمشاكسة، فلم أذهب إلى بيته. وفي المرّة التي شاهدني فيها من بعد ذلك، خاطبني بقوله:

ـ مشغولة جدًّا، صحيح؟ إنّك تديرين معملاً ضخمًا، فأنت سيّدة التعاونيّة.

غير أنّه لبث صامتًا ولم يقل شيئًا ولم ينظر إليّ طوال المساء، فجلست وإيّاه نصف ساعة ازداد فيها غضبي بمرور الدقائق، نهضت بعدها وانصرفت من دون كلمة وداع.

وبعد عشرة أيّام، تحسّنت حالته الصحّيّة بالقدر الذي مكّنه من الجلوس في كرسي، ولكنّه لم يعد يخرج للجلوس تحت شجرته البيسيّة. وعندما رجعت من المعمل حاملة الصحف كسابق عهدي، لزيارته زيارة قصيرة، وجدته جالسًا قرب المدفأة، وإن كان الوقت منتصف ما بعد الظهيرة. وكان يرتدي كنزة صوفيّة وقبّعة صوفيّة بنّيّة اللون، بشعة المظهر.

قال في نبرة اعتدائيّة:

ـ يزداد المرء برودة بتقدّمه في السنّ.

كانت الحجرة التي يتخذ مجلسه فيها مظلمة عالية السقف. أمّا رفوف كتبها، فقد ازداد من فوقها الغبار وعليها كتب بأغلفة ورقيّة قديمة تتفكّك عند أوّل لمسة. كان صاحب ديوان يجلس في ذلك المكان يحتسي «شراب البراندي الطبّي» ويذكي النار بملقط معدني طويل الذراعين. لم نتكلّم على مخطوطته قطّ، ولكنّني لم أقدر على

النظر إلى المدفأة من دون أن أتذكّرها وهي تحترق فيها. كانت للجدار القائم من فوق المدفأة بقعة شاحبة اللون، محدّدة بخطوط من غبار توضح مكان صورة الكلاب المستطيلة التي كانت معلّقة عليها، وكأنّني توقّعت أن تظهر الصورة القديمة في هذا المكان بسحر ساحر.

انعكست ألسنة اللهب على وجه صاحب ديوان، فبرزت عظام وجنتيه. وكان قد توقّف عن تهذيب لحيته، فطالت أكثر من ذي قبل، وبدا مثل ناسك، غير أنّ عينيه احتفظتا ببريقهما. وإذا كان منشرح النفس إذْ يراني، فإنّه يقول:

ـ أجمل فتاة في رانيكهت! سوداء كالفحم، فتضيء غرفتي!

وفي يوم من الأيّام، قال للسيّد قريشي عندما دخلت منزله:

ـ لو كنت أصغر سنًّا لعملت على تدفئة يديَّ في وجنتيها.

فما كان من السيّد قريشي إلّا أن أشاح بنظره جانبًا وأشغل نفسه بالبحث عن شيء ما لم يعثر عليه.

كانت الأمطار تهطل في كلّ مساء على سطح الصفيح، وإذا ما هطلت في غزارة، كنّا نضع الدلاء والأواني داخل المنزل وتحت الأماكن التي يتسرّب من سقفها ماء المطر. وفي أحيان أخرى، كان صوت المطر لا يزيد عن كونه همهمة ناعمة من فوق رؤوسنا. وإذا ما توقّفت الأمطار، يخيّم الصمت والهدوء، فنجلس ونصغي للماء يتساقط من مجاري مياه المطر المثبّتة على امتداد السطوح.

تجاذبت أنا والسيّد قريشي أطراف الحديث طوال الوقت في محاولة لتبديد الكآبة المخيّمة على المنزل، وأخبرنا صاحبَ ديوان بآخر ما لدينا من أخبار: فقد أفرط شوهان في شرب الخمرة قليلاً في حفلة أُقيمت في موقع الضبّاط، وتباهى بردّة فعله وهو يحاول الآن أن يعالج

الموقف. أمّا الآنسة ولسون، فقد تذمّرت من عدم قدرتها على النوم لأنّ أوميد سنغ قطع عهدًا في خطبه الانتخابيّة على أن يحوّل كلّ أراضي الكنيسة في رانيكهت إلى المصلحة العامّة إذا ما وصل دفّة الحكم. أمّا بوزو، فقد تشاجر مع بيجلي وكاد أن يفقد أذنه، ولهذا السبب لم يعد الجنرال يصطحبه في نزهاته سيرًا على الأقدام من أمام منزلي. وفي الأيّام القليلة الماضية، تناهى إلى الأسماع صوت بوران يناجي مناجاة عذبة بومة اتّخذت من زريبة أبقاره مأوًى لها. ربّما كان هذا يعني أنّه يوشك أن يخرج من حزنه على موت راني.

وكلّما تملّكنا الصمت أثناء حديثنا المتقطّع، فإنّ كلّ ما كنّا نسمعه هو صوت المطر، وتصدّع الحطب في نيران المدفأة، وسعال صاحب ديوان المصحوب بالبلغم الذي لم تفده أيّ كمّيّة من شراب الرّم الساخن.

بعد تلك الأمسيات الطويلة التي كنت أقضيها رفقة صاحب ديوان، كنت أرجع يوميًّا إلى بيتي وأجلس منهكة صحبة فنجان قهوة في محاولة كي أبقى مستيقظة وأتفرّغ لإنجاز تصحيح الدفاتر المدرسيّة وتدقيق السجلّات الحسابيّة. كنت غاية في التعب والإنهاك، خائرة القوى على نحو لا يفيد معه أيّ مقدار من النوم، غاية في السأم من العمل الذي لا نهاية له ومن مرض صاحب ديوان وتقلّب مزاجه، ضجرة الضجر كلّه من الرتابة الصارمة التي أعيش في خضمّها. فأنا لم يرقني هدر الأماسي الكئيبة واحدة تلو الأخرى بجانب مدفأته أردّد الحكايات اليوميّة نفسها. وبدأ افتقار بلدة رانيكهت لوسائل الراحة والمتعة التي تتّصف بها المدن ينخر فيَّ: لماذا لا توجد فيها دار عرض سينمائي واحدة جديرة بالاحترام؟ ولا مكتبة واحدة لبيع الكتب الجيّدة أو مكتبة عامّة لإعارة الكتب؟ وتمنّيت لو كان في وسعي أن أستقلّ

حافلة وأمضي إلى نايْنيتال لقضاء يوم واحد فيها، أتناول پيتزا في وجبة الغداء وأتجوّل في المتاجر وأتناول المرطّبات، غير أنّني لا أقدر حقًّا على الذهاب ما دام صاحب ديوان مريضًا.

وهذا ما دفعني إلى أن أستشيط غضبًا بسبب غياب ڤير، إذْ كيف يمكنه أن يكون بعيدًا على هذا النحو في وقت نحن أحوج ما نكون إليه؟ ما فائدة ارتباطنا إذا لم يكن حاضرًا أبدًا؟ ومضت بي الأفكار إلى إحساس بالألم الممضّ بسبب فقدان أمّي. فقد كان وجودها في قيد الحياة يبعث في نفسي الطمأنينة حتى في أعوامي الأولى التي أنفقتها في رانيكهت من دون أصدقاء، إذْ كنت أتلقّى منها رسالة بين حين وآخر أسمع صوتها عبر الهاتف. قلت لنفسي إنّ الغلطة غلطتي لأنّني لم أستطع عقد صداقات حقيقيّة على إثر مغادرتي مدينة حيدرأباد. وكانت تصل مدرستنا معلّمة جديدة بين آونة وأخرى، فتبعث في نفسي الأمل لأنّنا نتكلّم اللغة نفسها ونضحك من الأشياء نفسها، ولكن سرعان ما يتسرّب الملل إليهنّ في رانيكهت فيغادرن مدرسة القدّيسة هيلدا إلى مكان آخر. ولم أعثر على شخص أنفق وإيّاه وقتي في البلدة إلى أن ظهر ڤير.

وفي ليلة من تلك الليالي التي عيل فيها صبري وكنت نصف نائمة من فوق منضدتي ورأسي مستند إلى السجلّات الحسابيّة، صكّت سمعي أصوات منبعثة من منزل شارو، أصوات لا سبيل لي إلى الاستدلال عليها. فما كان منّي إلّا أن أطفأت الأضواء وأسدلت الستارة تمامًا إلّا من فجوة صغيرة. فشاهدت العمّة خارج المنزل، تمسك بعصا وتكلّم السقيفة المشيّدة من الصفيح الكائنة أمام منزلها. ثمّة شخص ما يبكي وينوح داخل السقيفة، وطرق سمعي أحيانًا صوت عالٍ غريب ملؤه الغيظ والنقمة، ولكنّني لم أتبيّن تمامًا إن كان صوت رجل أم صوت

امرأة. ورأيت مصباح النور الوحيد والمجرّد من كلّ غطاء المعلّق على غصن شجرة خارج المنزل يتأرجح تحت نسمة الهواء، فتتقافز الظلال وتهدأ، ثمّة شيء غريب جدًّا يوحي به المشهد جعل فرائصي ترتعد من أركان بيتي الصغير المظلمة.

وفي صباح اليوم التالي، سألت العمّة:

ـ ماذا جرى في منزلك البارحة؟

قالت وقد لاحت اعتدائيّة منذ البداية.

ـ استدعيت الأوهجا، إذْ كنت في حاجة إليه.

كانت العمّة تستدعي الأوهجا بين حين وآخر لطرد الأرواح الشرّيرة من أبقارها، أو لفكّها من نطاق السحر الذي تظنّ أنّ جيرانها الخبثاء أوقعوها فيه. ولم يكن أوضح دليل ليجعلها ترى أنّه ليس سوى دجّال. وكان من دأب الأوهجا أن يأتي عصرًا ويؤدّي طقوسه ويجلس على كرسي في الفناء يدخّن ويحتسي الشاي. وبعد أن يقبض الثمن من مال العمّة، يروح ويندب إخفاقه في شغله، ولكنّ العمّة تبدأ بسرد التغيّرات المدهشة التي حدثت على إثر انصرافه. وتعترف أنّه لم يتمكّن من إنقاذ غوري جوشي، لكن ذلك هو إخفاقه الوحيد، وقد حدث ذلك لأنّ أجَل البقرة جاء وأنّ عدوّ غوري هو الموت نفسه.

قلت:

ـ هل استدعيتِ الأوهجا من أجل الأبقار؟

قالت:

ـ كلّا. ليس من أجل الأبقار.

أبعدت إحدى الدجاجات عن طريقها ومالت لتلتقط شيئًا ما من

على الأرض، وأخبرتني عن صبيّ صغير سقط في بالوعة مفتوحة الغطاء في مول رود وخرج منها مغطًّى بالقاذورات، وأوضحت أنّها لبثت تهتمّ بالرجل العجوز صاحب ديوان وكأنّه والدها في وقت كان يحتاج إلى أقربائه الذين لم يأتوا لزيارته البتّة. ولمناسبة الحديث عن الأب والابنة سألتني، إن كنتِ لاحظت كيف ذهبت ابنة جاناكي المراهقة التي لا تعرف الحياء في نزهة على ظهر درّاجة ذلك الفتى المسلم الناريّة؟ الكلّ يعرف أنّ ثمّة شيئًا يدور بينهما غير أنّ جاناكي غير مبالية تمامًا.

ولم تنظر إليّ مباشرة عندما قالت أخيرًا:

ـ لقد استدعيت الأوهجا من أجل شارو. إنّني أبذل قصارى جهدي من أجل تزويجها، ولكنّها تحبط مساعيَّ دائمًا، وقد وقعت في براثن روح شرّيرة.

ولمّا رأت نظراتي مستغربة، رفعت من صوتها، وقالت:

ـ تظنّينني امرأة عجوز حمقاء لأنّني أؤمن بالأرواح الشرّيرة.

ثم هزّت عصاها باتّجاه السحابة الرماديّة المتّجهة إلى شمالنا. كانت قمم الجبال الشاهقة ضائعة وسط الضباب، وأردفت:

ـ لو أنّكِ قلتِ لشخص غريب إنّ ثمّة قممًا ثلجيّة كبيرة في تلك البقعة من السماء، فهل يصدّقك؟ ما الذي في وسعه أن يشاهده غير سماء يوميّة اعتياديّة يجدها في كلّ مكان؟ لكنّنا، أنا وأنت، نعرف أنّ القمم شاخصة هناك، تحيط بنا أشياء لا سبيل لنا إلى فهمها ولا نعرفها.

رنت إليّ بعينيّ المنتصر وأنزلت عصاها إلى أسفل، وقالت:

ـ أنتم أهل المدن تظنّون أنّكم تعرفون كلّ شيء.

كان يطيب للعمّة أن تذكر هذه العبارة لأنّها لم تفشل في إثارة ثائرتي قطّ.

قلت:

ـ الأمر مختلف. إن كانت شارو عازفة عن الزواج، فالسبب ليس الأرواح الشرّيرة بل سبب جوهري.

كاد السبب البسيط الذي لا صلة له بالأرواح الذي تتذرّع به شارو من أجل رفض كلّ العرسان أن يندّ عن شفتيَّ. كنت أعلم أنّ للعمّة من الشكوك ما يكفي من دون حاجة لأيّ تشجيع منّي، ما زاد في الاستعجال في بذل جهودها في تزويجها. ومن شأن كوندان سنغ الطبّاخ، القادم من منطقة شرقيّة مجهولة ومن طبقة اجتماعيّة غير واضحة المعالم أن يبدو لها متّصفًا بأيّ صفة سوى أنّه مناسب. كانت تفتّش في أوساط العشائر وتقيس العرسان المرتقبين، ولكنّها رفضت معظمهم، إمّا لأنّ أسرة العريس تطالب بمهر ضخم أو أنّ العريس عجوز أو عاطل عن العمل أو بلا مستقبل أو «سيّئ العادات». كنت أتلقّى بين وقت وآخر تقارير بنبرة يشوبها الاحتقار:

ـ يقولون إنّه يوشك أن يحصل على وظيفة، غير أنّني أعرف أفضل فلا أصدّق.

أو:

ـ يُقال إنّه يدير مطعمًا في المورا، وقد ذهب لقمان بسيّارته إلى هناك ليستطلع الأمر، ولكنّه لم يعثر على شيء باستثناء سقيفة مغطّاة بالتبن لبيع الشاي على قارعة الطريق، ولا تحتوي إلّا على قرميدتين

اثنتين للجلوس من فوقهما ووعاء واحد مكسوّ بالدخان والحرق لإعداد الشاي.

لم يصل أحد من أولئك العرسان الذين ضاعت الجهود عليهم هباءً، مرحلة يسمح فيها لأقربائهم بإلقاء نظرة إلى شارو. وقد رأيت المشهد مرّتين وهو مشهد حشد من أسرة العريس المرتقب، تعاين الفتاة كما يعاين التجّار الجياد. وقد أخبرتني العمّة عن قصص تنبئ بعذابها الشديد عندما عُرّضت إلى المشهد نفسه. وقالت تنصحني بنبرة من تملك عقلاً راجحًا:

ـ لا ينبغي السماح لأسر كثيرة بمشاهدة الفتاة العروسة، لأنّه أسلوب غير صحيح.

في الأشهر القليلة الماضية، قلّلت من أعداد العرسان المرشّحين حتى بات عددهم اثنين، أحدهما موظّف في دائرة حكوميّة في هالدواني، واعترفت أنّه داكن البشرة، قائلة:

ـ لكن من يبالي بملامح عريس المستقبل؟ إنّ طبعه هو الأهمّ، وهذا الفتى يتّصف بحسن الطباع.

وكانت إحدى محاسنه أنّه لا يريد مهرًا. وأفادت شبكة معلوماتها أنّه لا يملك عادات سيّئة، فهو لا يدخّن ولا يحتسي الخمرة ولا يلوك التبغ ولا حتى أيّ نبتة مخدّرة. يضاف إلى هذه المزايا، أنّ أسرته صغيرة، وبهذا فإنّ شارو، بوصفها الكنَّة، لن تموت من كثرة العمل. وتتكوّن الأسرة من أختين وأبوين وجدّة عجوز، قالت عنها إنّها غير ذات أهمّيّة.

كان الفتى، الذي وضعت العمّة عينها عليه، معاونًا في معمل أدوية في بهيمتال، وقال عنه الناس إنّ مستقبله يبشّر بالخير وإنّه، فضلاً

عن ذلك، أصغر سنًّا من الموظّف الحكومي، ولا يكبر شارو إلّا ببضع سنين. واعترفت أنّ هذا الشابّ الذي فضّلته له كرش كبير، إلّا أنّها ترى أنّه من أسرة تستطيع بما تملك من مال من تناول وجبتيْ طعام رئيستين يوميًّا. وكان هذا الفتى أبيض البشرة، وقد أرسل صورة شخصيّة له وهو أمام تاج محل راكبًا درّاجة ناريّة حمراء من طراز كاواساكي يستخدمها استديو التصوير للدعاية.

كانت شارو غير مكترثة بشأن هذا البحث الدؤوب عن عريس، فقد ظلّ الحديث يدور عنه زمنًا طويلاً ما دفعها إلى عدم إعارته أيّ اهتمام، ولكن عندما أعلنت أسرتا هذين العريسين المرتقبين عن نيّتهما في الحضور لمعاينة عروسة المستقبل، ووافقت العمّة على الزيارتين، انتاب القلق شارو.

جاءت أسرتا العريسين المحتملين للزيارة في وقتين مختلفين يفصل أحدهما عن الآخر شهر واحد. وفي الحالتين، أخرجت العمّة ما تملكه من مال احتياطي وطهت طعامًا يُعدّ في نظرها غاية في البذخ، ورمت بمقدار من المال إليَّ في أحد الأيّام قائلة:

- عندما ترجعين من عملك، أحضري معك قالب حلوى بالكريما الورديّة من مخبز بيشت، على أن يكون بالحجم الصغير.

ثم أضافت:

- إنّ أسرة العريس بدرّاجة كاواساكي تتحدّر من مدينة بهيمتال، وهي معتادة طعام المدن، ولن يؤثّر فيها تأثيرًا كافيًا طبق مهلّبيّة الرزّ المنكّه بالمكسّرات والهال.

وكان سبب استدعاء الأوهجا أنّ كلّ جهود العمّة وإنفاقها ذهبت أدراج الرياح، إذْ ارتابت الأختان في أنّ شارو بلهاء وربّما صمّاء.

قالت العمّة:

ـ هكذا تصرّفت الشقيّة أمامهما، وطرحتا عليها أسئلة بسيطة، ولكنّها ظلّت تتفرّس في ملامحها وكأنّها عبيطة وتردّد: «ماذا؟ ماذا؟» وكأنّها ببغاء.

ولاحظت العمّة أنّ شارو تصرّفت أمام الأسرة الثانية تصرّفًا غريبًا مفتعلة الحول في عينيها معتقدة أنّ جدّتها منشغلة عن النظر إليها. ولمّا طلبت منها تقديم شراب الكوكا كولا الذي اشترته لتقديمه للضيوف، راحت تعرج في مشيتها عند ذهابها إلى المطبخ ورجوعها منه، وكأنّ إحدى ساقيها أقصر من الثانية، وسكبت نصف كأس من الشراب الثمين على الأرض.

وقالت العمّة متألّمة:

ـ سرعان ما تنتشر مثل هذه الأشياء بين الناس، ولن أقدر على العثور على أيّ فتى إذا ما واظبت على سلوك مثل هذا المسلك. أعرف أنّها تريد إبعادهم وهم يعتقدون أنّها صمّاء ومخبولة ومعاقة. أخبريني، ما خطبها؟ هل أخبرتك بأيّ شيء؟ ألا يهمّها مستقبلها؟ ألا تهمّها سمعتي؟

قال الأوهجا إنّ الفتاة بحاجة إلى جلستين أو ثلاث جلسات إذا كانت الروح التي تسكن فيها روحًا انتقاميّة وعنيدة، وهو ما يميل إلى الاعتقاد به. واشتغل ليلاً، وهو الوقت الذي تكون فيه الأرواح الشرّيرة التي تسكن البشر في أقوى حالاتها وفي سقيفة متقلقلة مصنوعة من ألواح حديديّة مموّجة. وفي اللحظة التي يُشاهدون فيها ثعبانًا أو عجلومًا أو عقربًا يغادر تلك السقيفة، فمعناه أنّ شارو تحرّرت من تلك الأرواح. هذا ما وعدَ به.

عندما رأيت شارو في صباح ذلك اليوم بعد الجلسة الأولى من التطهير، ظهرت بعينين حمراوين وكأنّها كانت مسهدة، وشعر أشعث، تجرّ قدميها جرًّا وهي في طريقها إلى رعي البقر والماعز في مرعاها المعتاد على السفوح الممتدّة أسفل بيتها، غير أنّها ارتقت التلّ من أسفل السفح عندما شاهدت ساعي البريد متّجهًا نحو منزلي، وباتت أمام الباب بعد أقلّ من دقيقة واحدة على مغادرته، مبهورة الأنفاس، حمراء العينين منتظرة إيّاي لأقول لها إنّ رسالة وصلت من كوندان.

* * *

١٢

أضحت الأمطار ظاهرة ثابتة في حياتنا، شأنها شأن الهواء الرطب والفطريّات على جدراننا، ولا تتوقّف إلّا لكي تستردّ أنفاسها، فيخرج بوران ويتوغّل في أعماق الغابة ليقتلع الفطر وبعض النباتات الطريّة، وهو ما دأب على عمله في كلّ موسم من مواسم سقوط الأمطار على قدر ما يتذكّر، لأنّ صاحب ديوان كان يحبّ تناول هذا الفطر البرّي والسرخسيّات، من دون أن يعرف أحد أين يمكن العثور عليها. غير أنّ صاحب ديوان لم تعد لديه أيّة رغبة في وجبات الطعام، إذْ ظلّ ساهرًا طوال الليل محاولاً أن يستعيد أنفاسه، واحدًا تلو الآخر، على الرّغم من أنّه كان أثناء النهار يدخّن ويسعل ويدخّن من جديد. وعاد الطبيب، فوجد أنّه مُصاب بالتهاب رئوي، فأوصى له بمضادّات حيويّة أقوى. وبعد يومين من تناول هذه الأدوية، بدأ صاحب ديوان يتقيّأ، وتورّمت قدماه وأصبحتا مثل وسادتين حتى لم يعد في إمكانه الوقوف عليها.

تباحثت أنا والسيّد قريشي، وقرّرنا أنّ السبيل الوحيد أمامنا هو

نقله إلى المستشفى، بيد أنّ صاحب ديوان عارض قرارنا معارضة شديدة وضجَّ وعجَّ معتقدًا أنّه بذلك يخفي هلعه، وقال:

ـ لا أحد يخرج حيًا من ذلك المستشفى العفن! الحقّ، لم يخرج أحد أعرفه حيًّا من أيّ مستشفى! لقد شُيّدت المستشفيات لحماية الأصحّاء من المرضى. لم لا تتركاني أنتما أرقد في سلام في بيتي؟

قال لي السيّد قريشي وهو ينطلق بصاحب ديوان وهمت سنغ:

ـ إنّه يخشى أن يمنعوا عنه الشراب والتدخين في المستشفى، والمستشفى هو أشدّ ما يحتاج إليه في هذه اللحظة.

وبعد أن توارت السيّارة عن الأنظار، عدت أدراجي إلى حجرة صاحب ديوان ورحت أرتّبها. فرفعت الأقداح والأطباق التي احتشدت فوق منضدة سريره ووضعتها في المطبخ، كما نظّمت الأدوية المتراكمة من فوق صندوق أمتعة بجانب السرير، وعثرت على سكائر مخفيّة بعيدًا عن الأنظار في كلّ زاوية: تحت الفراش ومن وراء الكتب والأوراق. أعدت ترتيب السرير كي يكون جاهزًا له لدى عودته من المستشفى، وجلست عليه وصعَّدت زفرة تنمّ عن تعب وإرهاق. لاح المنزل قوقعة تردّد الصدى من دون سعال صاحب ديوان وتأوّهاته، ومن دون ضجيج همت سنغ ولعناته التي لا نهاية لها في المطبخ. وأدركت أنّني طوال مدّة إقامتي في رانيكهت، لم أعهد منزل لايت هاوس خاليًا ـ فأحد الرجلين حاضر على الدوام، مُحدثًا الهمهمة التي يتعذّر نطقها والمتأتّية عن حضور شخص آخر في البيت.

مرَّ وقت طويل قبل أن أتمكّن من طرد أفكاري التعيسة التي استبدّت بي ورجعت إلى ترتيب المكان. ثمّة أوراق وعليها كتابة في كلّ مكان، في رزم أو متفرّقة أو في ملفّات. وراودني أمل مفاجئ في

احتمال أن يكون جزء ما من مخطوطة كوربيت قد نجا من الحرق. فبدأت أجمع الأوراق وأضعها على المنضدة. حاولت أن أفكّ مغاليق خطّ صاحب ديوان على ورقة عثرت عليها تحت السرير عندما تناهى إلى سمعي صوت سيّارة في الطريق من جديد، فرفعت بصري في هلع وذعر. هل عادوا بهذه السرعة؟ هل سقط مغشيًّا عليه في الطريق إلى المستشفى؟ لم أرغب في معرفة ما حدث.

سمعت صوت باب السيّارة يغلق بقوّة. مرّة واحدة. ثم سمعت صوت وقع أقدام على أرضيّة حجرة المعيشة الخشبيّة، أسرع بكثير من صوت وقع خطوات صاحب ديوان أو السيّد قريشي. لقد رجع ڤير من رحلته.

قال:

ـ سمعت وأنا في مول رود إذْ أخبرني ناجي، فذهبت مباشرة إلى المستشفى. وهو أفضل الآن. يقولون إنّه يعاني في كليتيه اللتين لا تتحمّلان تلك المضادّات الحيويّة ـ لكنّه ليس في حال سيّئة جدًّا. وقد أرسلوا في طلب مصل الدم من ناينيتال، وإذا لم يصل، فسوف أذهب بنفسي هذا المساء لإحضاره. سيكون على ما يرام.

جال ببصره في أرجاء الحجرة ورنا إلى الأدوية على صندوق الأمتعة، وقال:

ـ أيّتها المسكينة! لقد اضطررتِ إلى العناية بالعجوز وحدك. وقد تأخّرت كثيرًا في هذه المرّة بعد أن ظننت أنّ الرحلة لن تنتهي. لقد بدأت أنسى.

جلس إلى حافّة السرير وطوّقني بذراعيه وقبّل جبيني ووجنتيّ وشفتيّ. ثم نهض وأقفل الباب وعاد إليَّ. وفي هذه اللحظة، انعكس

ضياء أخضر تشوبه زرقة على الستائر، وطرق سمعنا من مكان بعيد صوت العمّة تنادي على ديكها الذي ابتعد عن منزلها في ذلك الصباح. نزع ڤير نظّارتي الطبّيّة ووضعها على زاوية صندوق الأمتعة القريب من السرير. ثم نزع الدبّوس الخشبي الطويل المزوّد بشرَّابة والذي يعمل على تماسك شعري في عقدة ونفضه حتى انساب إلى أسفل. تناهى إلى سمعنا خوار بقرة من أبقار شارو على العشب خارج المنزل ورنّ جرسها. وسرعان ما امتدّت يدي وفكّت أزرار قميص ڤير من دون أن أدرك ما أنا فاعلة. وطرق سمعي في مكان ما صوت المجنون قرب العشب القرّاص من جديد، ولكنّني لم أعر الأمر أيّ أهمّيّة، فصاحب ديوان لا يقدر على الخروج في أثره في هذا الجوّ الماطر. وسقطت ثيابنا في كومة على الأرض على مقربة من زجاجات صاحب ديوان الفارغة وكتبه ذات الصفحات المطويّة وأقلامه الجافّة المهملة وقشور برتقالة ذاوية. وانبعثت من النافذة رائحة زهور بيض من نباتات متسلّقة كانت تغطّيها. كانت يدا ڤير تمتدّ إلى كلّ مكان ولسانه في كلّ مكان أيضًا. كنّا فوق السرير، ثم استلقينا على الأرضيّة الخشبيّة، لنعود بعد ذلك إلى السرير من جديد. قبّلت أذنه المشوّهة وأصابع يده اليسرى الأربع، إصبعًا تلو إصبع. أغمضت عينيَّ وسمعت صوت طائر يخفق جناحيه من تحت ستارتي المسدلة محاولاً الخروج. وصدرت عنّي شهقات لم أستطع فعل أيّ شيء للحيلولة من دون خروجها. وسمعت صوت مايكل يرنّ في أذنيّ:

ـ لن تنتظري حتى أموت كي تجدي لك رجلاً آخر.

بعد لحظات تمكّنّا من فصل جسدينا أحدهما عن الآخر، ونهض ڤير وارتدى ملابسه، وقال:

ـ عليكِ الذهاب لتأخذي قسطًا من النوم، فشكلك يوحي أنّك

سوف تستسلمين للنوم واقفة.

غادرت الحجرة ولكنّني لم أغادر المنزل، لأنّني لم أرغب في الابتعاد عنه بمثل هذه السرعة، فجلست في الشرفة، نصف نائمة، نصف صاغية للأصوات التي بدأت في داخلي برهة وجيزة من الزمان. ولمّا ترامى إلى مسامعي صوت شيء ما يتهشّم، وثبت من محلّي لمعرفة ما حدث، فوجدت ڤير جالسًا على الأرض أمام صناديق صاحب ديوان المفتوحة ينظر في داخلها. وبدا وجهه غريبًا تمامًا، وقال عندما رآني:

ـ الأطبّاء بحاجة إلى تقاريره الطبِّيّة، ولكنّني لا أستطيع العثور عليها.

ثم قطّب جبينه واسترسل في كلامه:

ـ ألم تذهبي؟ ظننتك سوف تذهبين إلى منزلك. أنا في حاجة إلى قضاء بعض الوقت هنا. وسأزورك في بيتك لاحقًا.

لا بدَّ أنّني بدوت خائفة ذاهلة، لأنّ ملامح وجهه رقّت بعد ذلك ونهض في حركة سريعة وجذبني إليه وقبّلني وهمس في أذني. وداعب كلّ جزء من أجزاء جسدي وجده عاريًا. كنت أستريح بين ذراعيه، ذقني على رقبته، تهدّئني يداه، ولكنّه سرعان ما تغيّر مزاجه وابتعد عنّي ودفعني قليلاً، وقال:

ـ إنّك تشتّتين انتباهي. اذهبي. ينبغي لي أن أبحث عن ذلك التقرير الطبّي، فهم لا يملكون أيّ فكرة عن تاريخه المرضي، ويتعيّن عليهم معرفة الأدوية التي تسبّب له حساسيّة.

جلست في تلك الليلة رفقة حسابات معمل المربّى، أحسب كلّ ما أنفقناه على الزجاجات والعلامات اللاصقة والفاكهة والمرتّبات وما

أنواع المربّيات التي بيعت. كان ينبغي لي أن أكون سعيدة ومرحة، فقد عاد ڤير أدراجه، وإذا كان مشغولاً بتقارير صاحب ديوان الطبّيّة، فالأمر لا يستدعي قدرًا كبيرًا من الانشغال. المؤكّد أنّني لم أتوقّعه أن يكون مراهقًا متعطّشًا للحبّ، لا يرى بعقله أو بعينيه أيّ امرأة غيري. غير أنّني كنت، على الرّغم من ذلك، في حالة اضطراب وقلق عجيبين. فأنا لم أستطع أن أفهم السبب الذي دفعني إلى أن أكون مضطربة على هذا النحو، عندما رأيت التغيّرات التي طرأت على مزاجه في عصر ذلك اليوم. لقد اعتدت ذلك، وهو ليس الوحيد، بل اعتدت عمّه أيضًا. وقد امتعضت من هذه الحالة في بعض الأحيان، الحالة التي أنوء من تحتها وأنا طيّبة السريرة على الدوام.

حاولت أن أشغل نفسي بالحسابات، غير أنّ أفكاري لبثت تحوم من حول ما عثر عليه عمّي في حجرة أمّي بعد وفاتها. وقد بلغ به الاضطراب حدًّا جعله يكتب رسالة إليّ مستفسرًا. فقد أنفقت والدتي الشطر الأعظم من أواخر أيّام حياتها، وحتى قبل مغادرتي المنزل، لا تشاطر والدي الفراش. ونادرًا ما سمحت لأحد غيرها بدخول حجرة نومها، فكانت تنظّفها بنفسها وتحرسها وكأنّها ملجأ لا يجوز دخوله، تمامًا مثلما أنظّف بيتي اليوم وأهتمّ به. ولم يدخل حجرتها أحد من بقيّة أفراد الأسرة إلّا بعد أن اشتدّ عليها المرض، وعندئذٍ أماطوا اللثام عن كلّ أسرارها الصغيرة، مثل احتفاظها بعلبة لمضغ التبغ كانت زعمت أنّها قد تخلّت عنه، ورسائلي التي أرسلتها إليها، والكتاب المصوّر الذي يحتوي على صور طفلي الذي أراد أبي إتلافه. وقال عمّي إنّه عثر في حجرتها على سكّين رقيقة مقوّسة وقاتلة قادرة على أن تغور في الجسم بالسهولة نفسها التي تغور بها في ثمرة مانغو ناضجة. وكتب إليّ عمّي مستفسرًا إن كنت على علم بها أو إن كانت قد ذكرتْ

أمرها لي، وما السبب الذي كان يدفعها إلى وضعها تحت وسادتها؟ ما تزال هذه الأسئلة تؤرّقني حتى اللحظة ولن أعرف جوابًا عنها.

* * *

ازداد انشغالي بمرور الأيّام، وكان وقتي موزّعًا بين المستشفى وفير والمدرسة والمعمل. وكان الشيء الثابت الوحيد المتكرّر لدى عودتي إلى المنزل هو رؤيتي وجه شارو المتطلّع إليَّ في الجوار: لعلّ ساعي البريد جاء وترك رسالة من تحت أصيص زهور، أو ربّما مرَّ بي في الطريق وسلّمني رسالة. ولكن في الأعمّ الأغلب، لم يحدث أيّ من هذين الأمرين. ومنذ بواكير شهر آب، مرّت أيّام طويلة من دون وصول أيّ رسالة، وكانت شارو تذرع المكان من بعد ظهر كلّ يوم منتظرة ساعي البريد، ولم تتوقّف عن ذلك إلّا بعد أن تناهى إلى سمعها صوت رعاة بقر آخرين ينادون على حيواناتهم كي تعود من أعماق الغابة عند غروب الشمس، وكنت أرى مظلّتها المطرّزة بالورود والمبلّلة بالمطر تعلو وتهبط وهي تعدو باتّجاه غدير الماء لتجمع قطيعها. كانت تضع نعالاً من المطّاط في قدميها صيفًا أو شتاءً، وفي الأمطار الموسميّة كانت تنفق لدى عودتها إلى الدار ربع ساعة جالسة على الدرجات المؤدّية إلى بيتها تذرّ الملح على قدميها وساقيها المبلّلة لإبعاد الديدان عنها بعد أن كانت قد التصقت بها. في هذه الأثناء كنت أراها واجمة ومنهكة: فقد كان نهارها يبدأ بأمل ولكنّه ينتهي بخيبة أمل مثيرة للقنوط.

لم تكن أيّامها سهلة. ففي ذلك الشهر، باعت العمّة بنكي إلى القصّاب، بعد أن قالت لشارو التي ناشدتها ألّا تبيعها:

ـ لم أكن مضطرّة إلى بيع معزتك الغالية لو لم تكلّفيني مالاً كثيرًا.

كانت العمّة مضطرّة إلى تمويل المأدبتين اللتين أقامتهما للعريسين المرتقبين فضلاً عن دفع المال للأوهجا. وقالت:

ـ ليس الماعز كلابًا صغيرة. لماذا تظنّينني أحتفظ بها؟

كان مصير الماعز كلّه ينتهي دومًا بالمجزرة، وكان يباع إلى أحد القصّابين في السوق بعد أن يكبر حجمه. وقد سبق لشارو أن مرّت بهذه الحالات من الفراق، وينبغي أن تكون قد اعتادتها، غير أنّ الألم كان في كلّ مرّة يتجدّد، ولا يطاق. ففي النهار الذي جاء فيه القصّاب لأخذ المعزة، لبثت شارو داخل المنزل، مكوّرة في أحد الأركان، واضعة وسادة من فوق رأسها، متشبّثة بالجرس الذي كانت قد علّقته برقبة بنكي، عندما كانت المعزة صغيرة وفرحة في وثوبها هنا وهناك، إلى أن تسقط على الأرض من جديد. شاهدتُ القصّاب الأعجف من نافذتي بعد أن انتقلت النقود بين الأيدي، وجذب حبل بنكي وجعل يحاول توجيهها إلى السوق، محاولاً أن يغريها بأوراق شجر البلّوط. وعندما أخفق، ضربها على كفلها بعصا، ولكنّ بنكي تسمّرت في مكانها وحشدت كلّ قواها ضدّه. لم يستطع إزاحتها من موضعها. وعندما فشلت كلّ مساعيه، أرسلت العمّة بوران لمساعدته. وفي مثل هذه الأوقات، كانت تشعر بالارتياح بسبب بلاهة بوران الذي لم يدرك العلاقة بين اختفاء الماعز بين حين وآخر والرجل الذي يطعمها أوراق شجر طريّة. ولدى وصول بوران، أصدرت المعزة ثغاءها في ارتياح، فراقبتهم وهم يتوارون عن الأنظار، بعد أن امتثلت بنكي للأمر وراحت تخطو من وراء بوران، وكأنّها تظنّ أنّه يصطحبها إلى الكلأ مثل أيّ يوم آخر.

وفي عصر اليوم التالي، وجدتُ نفسي أثناء تناولي وجبة الغداء رفقة ڤير، أُبعد عنّي طبق لحم الضأن بالكاري بعد أن شعرت بالغثيان.

ولمّا أخبرته بالذي جرى، رنا إليّ وهو يبتسم ابتسامة لطيفة وكأنّه يتساءل: ألم أتناول اللحم قبل اليوم أو أعرف مصدره؟

قلت:

ـ الأمر مختلف اليوم، فأنا أعرف المعزة التي أخذها القصّاب بالأمس، لها اسمها وشخصيّتها.

لقد تغيّر كلّ شيء بعد أن حضرت المشهد: الأسلوب الذي وثّقت فيه المعزة ببوران والقصّاب والأسلوب الذي خُدعت به. قلت لڤير إنّني لن آكل اللحم بعد اليوم، فما كان من ڤير إلّا أن قرص خدّي وقال:

ـ أنتِ بحاجة إلى أن تكوني صلبة، إذ يسهل جدًّا إقلاق مزاجك.

كان ذبح الحيوانات عملاً يؤدّيه أحد أعمامه، وكان يذهب في العطلات المدرسيّة للعمل في مزرعته في بعض الأحيان. قال ڤير:

ـ ظنّني العمّ جبانًا، وكان على حقّ، فأنا لم أطق إلحاق أقلّ أذًى بأيّ شيء. وكنت أطلق ساقيَّ للريح وأتوارى عن الأنظار عند حدوث أيّ شجار، وكنت هدفًا للأشقياء في المدرسة الداخليّة الذين جعلوني أسير في ممرّاتها مرتديًا تنّورة، لأنّني كنت أخشى الانضمام إلى المسابقة في الملاكمة. كنت رعديد المدرسة.

ودفعه العمّ إلى كسر عنق دجاجة في اليوم الأوّل، ثم سلخها، وتنظيفها وتقطيعها ومشاهدتها أثناء عمليّة الطبخ. لأنّ عليه أن يأكلها في وجبة الغداء. وكان درس الأسبوع التالي معزة صغيرة بيضاء. وكان على ڤير أن يضرب عنقها بالساطور وهو في سنّ الثانية عشرة. ولم يعد طوال مرحلة صباه بعيدًا عن الأنظار عندما كانت الأرانب الوحشيّة

وطيور التدرّج المصطادة في رحلات الصيد والقنص يُنتف ريشها وتُسلخ وتُنظّف. قال فير:

ـ وماذا عن صاحب ديوان؟ لقد اصطاد طيورًا أكثر من أيّ شخص آخر. أمّا هذا الحديث الذي لا معنى له عن حفظ النوع والبيئة الذي يتشدّق به اليوم، فهو تحوّل جديد.

مرَّ أسبوعان على عودة ڤير، وكان المزمع أن يغادر رانيكهت من جديد في وقت قريب، وكان هذا الغداء هو غداء الوداع، من هنا يكتسب لحم الضأن بالكاري أهمِّيّته الخاصّة. وأتى ڤير على التهام حصّتي من الطعام أيضًا، وراقبته يمصّ مخّ العظم حتى فرغ منه وألقى به إلى بقيّة العظام في طبقه.

قال:

ـ تذكّري أنّني سأتضوّر جوعًا في الأسابيع القليلة المقبلة، لهذا ينبغي لي أن آكل حتى أشبع الآن.

قلت:

ـ لم أعرف أنّك تتضوّر جوعًا. أَوَ لم تقرأ عن المعزة التي أسماها فرانك سمث بالاسم بارتولوميو، التي ارتقت وإيّاهم الطريق كلّه المؤدّي إلى وادي الزهور؟ كانت المعزة صديقة لهم، وفي يوم ما تحوّلت إلى طبق طعام، والتهموها قطعة فقطعة.

ضحك ڤير ومرّر أصابعه في شعري عندما نهض، وقال:

ـ آن أوان الرحيل كما أظنّ، وسوف أعثر على بارتولوميو في طريقي، وأحتفظ بأحد أسنانها تذكارًا لكِ.

كان ڤير يصطحب فريق رحّالة ألمانيًّا إلى وادي الزهور الذي يتألّق

كثيرًا أثناء الأمطار الموسميّة. ولم يكن ثمّة من يستطيع أن يحلّ محلّه في مثل هذا الوقت القصير. هذا ما قاله لي عندما اعترضت قائلة إنّ صاحب ديوان ما زال مربوطًا بالأوكسجين في المستشفى، وإنّ المرض شديد عليه، فلا يجوز إهماله.. وأضاف:

ـ سوف أُحيل المهمّة إلى شخص آخر إن كان ذلك ممكنًا، فأنا لا أريد التخلّي عن العجوز في هذا الوقت، ولكنّني في الوقت نفسه لا أقدر على خذلان الفريق، إذْ كانوا يخطّطون للرحلة منذ عام، وهو تصرّف يفتقر إلى المهنيّة. يضاف إلى هذا، أنتِ هنا، صحيح؟

* * *

١٣

في الأسبوع الأخير من شهر أيلول، وصلت الرسالة التالية من كوندان سنغ، وكانت داخل مظروف هذه المرّة. وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يرسل فيها رسالته داخل مظروف ممّا يكلّف مبلغًا أكبر بكثير ممّا لو أرسلَ رسالة داخليّة. كما أنّه استخدم المظروف في هذه المرّة ليضع بداخله صورة له بقميص أبيض مكويّ، وبدا عابس الوجه مقطّبًا على نحو جعله يبدو أحول العينين، وكان شعره مدهونًا وممهّدًا. رنت شارو إلى الصورة دقيقة واحدة ضمّتها بين كفّيها، إذْ بدت خجولة لا تستطيع أن تنظر إليها نظرة مناسبة، خاصّة وأنا بجانبها، وسوف تأخذها إلى مخبأ من مخابئها وتدرس فيه كلّ بوصة منها في اللحظة التي تسنح لها الفرصة.

اتّخذت مكانها فوق كرسيّها المألوف وانتظرتني كي اقرأ لها الرسالة، غير أنّني كنت منشغلة بأمور أخرى يتعيّن عليّ إنجازها، وقد فرغت منها أثناء انتظارها لي وهي تنقر الأرض بإصبع قدمها. وأخبرتها أنّني لن أنفق وقتًا طويلاً في قراءة الرسائل لها، معتقدةً أنّ هذا هو

الأسلوب الوحيد الذي من شأنه أن يجعلها تدرس في جدّ مرّة أخرى ـ إذْ بدت تميل إلى الكسل.

كنت في المنزل على درجة بالغة من الوهن والضعف جعلت قوائم الكهرباء والماء غير المدفوعة تتراكم عندي، كما أنّ الكراسي ناءت بوطأة الثياب من فوقها.. وممّا لا ريب فيه أنّ حليب الصباح يفسد إن لم أسرع بغليه على النار. أنجزت أعمالي المنزليّة، وعندما جلست إلى منضدتي أحرّر الصكوك لأدفع بها القوائم المترتّبة عليَّ، تنبّهت لصوت ضعيف لا يكاد يتجاوز التنفّس: إنّه صوت شارو تهمس همسًا منخفضًا، ولكنّني قادرة على سماع الأصوات الصفيريّة والصائتة الممتدّة عندما تتوقّف في منتصف كلمة من الكلمات تحاول إكمال قراءتها. لبثت جالسة من دون حراك متظاهرة أنّني مستغرقة في عملي ومفكّرة إن كانت شارو تقرأ في نفسها! أخيرًا، تحوّلت الحروف الأبجديّةِ المكتوبة على الصفحة وفي رأسها إلى كلمات يمكنها أن تفهمها. اختلست نظرة إليها ورأيتها ترنو إلى الورقة، وتحرّك شفتيها أثناء قراءتها الكلمات. وكانت أصابعها تتابع السطر الذي تقرأ فيه. وازداد عمق الصمت في الحجرة بسبب همساتها. كلّ شيء ساكن، وربّما الطيور كذلك خارج المنزل.

لم أحرّك ساكنًا ولم أرمقها بنظرة أخرى، لأنّني كنت أرغب في أن تستمرّ على القراءة وألّا تحاول التوقّف، غير أنّ غطاء غلّاية الماء بدأ يئزّ بغتة وراح الماء المخصّص للشاي يغلي. وهنا وثبت من مكانها وعادت إلى وعيها، وقالت:

ـ دعيني أعدّ الشاي، أمّا أنتِ فما عليك سوى الفراغ من عملك.

جلسنا وأمامنا الشاي والرسالة. وكما هو شأن كوندان في كلّ رسالة، فقد استفسر بداية عن صحّة الآخرين وأبلغ شارو بحالة الطقس في دلهي، وكتب عن أشياء حدثت في منزل مدير الفندق وزيارته إلى القلعة الحمراء، حيث شهد فيها وقوع حادثة. ولم نصل إلى جوهر الرسالة إلّا في الصفحة الأخيرة. فأرباب العمل الذين يشتغل عندهم كوندان كانوا يبحثون عن فرص عمل خارج البلاد، وأنّ الصناعة الفندقيّة تدرّ أرباحًا طائلة، وسيحصلون على أعمال في سنغافورة حيث يحصلون على أرباح تفوق أرباحهم في دلهي بخمس مرّات وأنّ الحياة في ذلك البلد أفضل بكثير من دلهي. وعبّروا له عن رغبتهم في اصطحابه معهم وأبلغوه أنّهم لا يريدون أن يفقد مورد رزقه. كنت أعلم جيّدًا أنّ أرباب عمل كوندان كانوا يريدونه أن يبقى وإيّاهم بسبب مهاراته المطبخيّة، وإن كان المؤكّد أيضًا أنّهم كانوا يعتقدون بأنّه رجل نزيه ويمكن الاعتماد عليه ـ وهذا شيء يبعث الاطمئنان في نفسي لجهة شارو. وقال كوندان إنّهم أسمعوه كلامًا طيّبًا وإنّه شعر بسعادة غامرة، وأخبروه أنّ مورده المالي سيرتفع كثيرًا وأنّه سيتمكّن من دفع قرض أبيه في أسرع وقت ويوفّر مهر زواج شقيقته، وأنّه سيرجع مرّة في العام، فالبلد ليس بعيدًا، وأنّهم رأوا في سنغافورة بلدًا يمكنهم العمل فيه مدّة عامين اثنين لا أكثر، قائلين: إنّنا لا نحلم بالعيش بعيدًا عن الهند، وإنّ سنغافورة ستوفّر مالاً سريعًا لكلّ فرد، وإنّهم سيجدون فيها فرصة لمشاهدة معالم جديدة، وإنّ كوندان لن تتوافر له مستقبلاً فرصة مماثلة، وسوف يسافر بالطائرة، وسوف يقطنون في منطقة تطلّ على البحر، ولن يشعروا بالحرارة لأنّ سنغافورة مدينة مكيّفة الهواء ما يعني أنّ الطبّاخين أنفسهم يعيشون في بيوت مكيّفة الهواء.

هذا هو تفسير الصورة: فهي نسخة من الصورة التي سوف تثبت

على جواز سفره، وسوف تحتاج جوازات السفر إلى مدّة طويلة لإنجازها، ستّة أشهر في الأقلّ، ولهذا يستحسن البدء بعمليّة تقديم طلب الحصول عليها منذ الآن. وقد تركوا له الخيار في السفر من عدمه، فهو إنسان راشد وقد بلغ سنّ العشرين.

لم تأتِ الرسالة على ذكر أشياء أخرى. ولم تذكر شيئًا عمّا قرّره أو فكّر فيه، أو عن شارو. لم تذكر الرسالة شيئًا عن الحنين إلى تلال بلدة رانيكهت، ولا الحنين إلى عبق نيران حطب الصنوبر أو العشب المجزوز. بدا كوندان مختلفًا وكأنّه تحوّل إلى شابّ نفعي من أهل المدن. كان قد مضى أكثر من ستّة أشهر على آخر لقاء بينهما.

عندما كنت أقرأ الرسالة، رأيت وجه شارو وقد اكتسى بسكون جامد يخلو من أيّ تعبير، وهو ما كانت تلوذ به عندما تنزعج. وطلبت منّي أن أتوقّف مرّتين أثناء القراءة مستفسرة عن معنى المعبر القوسي من فوق طرق المرور السريعة وعن موقع سنغافورة، وسألتني إن كانت بعيدة مثل جايبور أو رامبور. وبعد أن فرغت من ذلك، نهضت لتمضي في سبيلها. كانت مطأطأة الرأس وتعثّرت بالسجّادة إذْ لم تكن تنظر أمامها، وذكّرتها أن تأخذ رسالتها منّي، فعادت إليَّ وأخذتها؛ ولكن بينما كانت في طريقها للخروج، شاهدتها تجعّدها هي والصورة معًا.

* * *

لبثت ساهرة وأنا مستلقية في تلك الليلة منشغلة الفكر بالأحلام.

فكّرت بأحلام أرباب عمل كوندان الخاصّة بالحصول على أموال أكثر وتغيير أكبر، وسفر وفي البحر أيضًا، وفي أنّ أحلامهم لها من القوّة ما يغيّر أحلام كوندان، وستحظى حياة أسرته بحياة أفضل إذا حصل على مال أكثر، غير أنّ طموحاته الجديدة ستقضي على آمال شارو.

فكّرت في ڤير: هل أنّ نجاح شركته المتخصّصة في الرحلات هو الذي جعله يحلم بطرق جديدة وفرق جديدة يسافر وإيّاها، وقمم جديدة وجبال جليديّة؟ ما الذي يفكّر فيه في ساعاته التي يخلو بها إلى نفسه؟ بمن يفكّر عندما يستيقظ من نومه. وتساءلت إن كان قد فكّر فيَّ مرّة واحدة وهو بعيد عنّي. لم نكن نتحدّث هاتفيًّا عندما يكون مسافرًا، لأنّه قال: «عندما أكون في حالة تسلّق، فإنّني أحبّ أن أكون في كوكب آخر، وأخرج من كوكبي».

وصاحب ديوان؟ لقد مضى على رقوده في المستشفى قرابة الشهر. أحيانًا يبدو الطبيب واجمًا بشأن بقائه حيًّا، وسألني كم يمكن لأقربائه أن يستغرقوا من أجل الوصول إلى جانب سريره وهو يحتضر. ثم يأتي مرّة أخرى يتنفّس في جهد ويسعل سعالاً يكتنفه بلغم أصفر. وكان طوال الساعات التي يستلقي فيها على ظهره لا يفعل شيئًا سوى رفع بصره إلى أعلى ويرنو إلى الشقوق ونسيج العناكب في رقائق سقف غرفة المستشفى الزرق والصفر. وإذا ما شعر بقدر من التحسّن في صحّته يمكّنه من الاعتدال في جلسته من فوق السرير، فإنّه يحدّق من وراء كمّامة قناع الأوكسجين إلى خارج النافذة المطلّة على واد أخضر يلفّه الصمت والهدوء. وكانت الطيّارات الورقيّة والعقبان تحلّق في السماء التي تؤطّرها تلك النافذة.

طرح صاحب ديوان ذكريات الماضي العظيم وعاش حياة مستوحدة ومنعزلة بوصفه أحد الأهالي غريبي الأطوار. وفي محاولته الأخيرة لتوكيد سلطته التي أهانتها مأمورة مخفر كان من شأنها أن تنحني له بالتحيّة وتقدّم له فروض الاحترام في الأيّام الخوالي التي كان فيها صاحب ديوان سوراجغاره. لم يرزق بأطفال، وأحرق سنوات عمله في لحظة غضب، وها هو مكمّم، لا يقدر على الكلام بسبب

الأنابيب والأقنعة، وفي منطقة الوصول إليها أصعب من الوصول إلى منطقة ڤير. عندما جلست بجانبه وكلّمته، تغيّر أحيانًا بريق عينيه، ولكنّه في أغلب الأحيان كان يغمضهما ويشيح بناظريه جانبًا، وكأنّه لا يطيق من يذكّره بالعالم الكائن خارج نطاق قفصه.

فكّرت في أمّي وهي تعيش أيّامها الأخيرة وفي تلك السكّين من تحت وسادتها، وفي جهودها التي بذلتها لكتابة آخر رسالة لي. وذكرت في أسطر الرسالة الثلاثة أنّ الشيء الوحيد الذي كان يستحوذ على تفكيرها الآن هو أن تلقي نظرة خاطفة إليَّ، وتقضي نحبها من بعد ذلك.

فكّرت في العمّة التي جاءت عديد المرّات لزيارة صاحب ديوان في المستشفى. وقد سارت على قدميها مسافة خمسة أميال كاملة لأنّها كانت تريد أن توفّر الروبيات الستّ التي يكلّفها النقل بسيّارة جيب. وعندما دخلت الحجرة تربّعت مثل عمود خيزران على حافّة كرسي، وكأنّ الجلوس متّكئة في ارتياح غير لائق. وأشاحت ببصرها عندما دخلت الممرّضة لقلب صاحب ديوان إلى الجهة الأخرى أو للعناية بقناع الأوكسجين. كانت في ذلك الوضع غريبة، قرويّة نحيلة فارعة القدّ، مرتدية أفضل ما لديها من ثياب، مدهونة الشعر، مصفّفة إيّاه في كعكة إلى مؤخّر الرقبة. كانت ملامح وجهها محافظة على الرسميّات ومتشامخة بعض الشيء. وعلى العكس ممّا كنت تفعله في المنزل، فقد غطّت رأسها بطرف ثوب الساري ونادرًا ما تكلّمت. وكانت العمّة قد شقّت طريقها في الحياة طوال هذه السنين على نحو جهيد وغير واضح المعالم، تحمي كرامتها وشرف شارو في قوّة لا تلين بأمل أن تحظى باحترام أخير يأتيها من صهر يعمل موظّفًا حكوميًا، إذْ ما من أحد يعرف ماذا سيحدث عندما تكتشف أمر كوندان.

وأنا؟ يا لطول المسافة التي قطعتها بعيدًا عن منزلي البعيد في ديكان! فتاة متألّقة العينين، بنِّيّة البشرة، طويلة الضفائر، تزيّن شعر رأسها بالزهور تمارس البهاراتناتيام، مرتدية نصف ساري باللونين الأصفر والوردي، وتتعلّم كيف تطحن مسحوق كعكة مؤلّفًا من الرزّ والعدس من منطقة بني عمِّه مستخدمة طاحونة حجريّة عظيمة، على سبيل المزاج لا غير. إنّ فتاة متحرّرة من أسرة ثريّة كأسرتي ما من شأنها أن تكدّ وتشقى من فوق طاحونة تطحن أيّ ماديّ. بماذا كنت أحلم في تلك الأيّام؟ لا أستطيع أن أتذكّر. وبعد أن التقيت مايكل راودتني أحلام موغلة في الخيال - بدايةً، بضع ساعات وحيدة في رفقته، ثم يوم بأكمله، ثم ساعة في كلّ يوم. الأفكار المألوفة عن الأطفال وصغار الكلاب والبيت والعمل ذهبت كلّها أدراج الرياح عندما لقي حتفه. ما الذي أحلم به الآن، إن كان ثمّة حلم؟ إنّني أخشى أن أعرف ما هو!

* * *

١٤

ثمّة وسيلة واحدة للأهالي كي يسافروا من بلدة رانيكهت: الطريق البرّي. فالحافلات التي تقطع مسافات طويلة تغادر البلدة من محطّتي ركوب الحافلات في السوق. وتنتشر من حول محطّة الحافلات الحكوميّة مجموعة من الدكاكين، مثل باعة الفواكه ودكّان الحلّاق وعدد من المطاعم الصغيرة مكسوّة بالسخام نتيجة لموقعها منذ سنوات قريبة من حافلات مهلهلة تبعث الأبخرة السود الممزوجة بالزيوت. هذه المحطّة هي الأحسن مظهرًا ما دام أنّ موظّفي الحافلة الحكوميّة لا يشعرون أنّهم مضطرّون للشجار من أجل الحصول على أيّ رسوم، لأنّهم يتلقّون مرتّباتهم بغض النظر عن عدد الركّاب الذين يسافرون وإيّاهم. وفي الطرف الآخر من السوق، ثمّة محطّة حافلات أهليّة حقيرة، كثيرة الضوضاء اعتدائيّة، وتجد موظّفيها يدفعون الأهالي في خشونة لركوب الحافلات وهم يطلقون شتّى الوعود الكاذبة مثل: «سننطلق بعد دقيقة! هالدواني، رودرابور، رامبور، مراداباد، دلهي سننطلق بعد دقيقة!» وما إنْ تشتري تذكرتك وتتّخذ مجلسك في الحافلة

حتى تضطرّ إلى الانتظار ساعة كاملة، في حين يصرخ السائق في وجه المارّة طالبًا منهم أن يستقلّوا الحافلة. وفي غضون تلك الساعة، يلقي الناس محاضرات عليك لشراء البرتقال والموز لتناولها أثناء الرحلة، كما يستقلّ السكارى الحافلة ويترجّلون منها وهم يشحذون من المسافرين.

ثمّة مجموعة من سيّارات الجيب وسيّارات الأجرة بالمشاركة لنقل المسافرين إلى بلدات التلال القريبة. لم يسبق لشارو أن سافرت من بلدة رانيكهت، باستثناء مرّة واحدة أو مرّتين عندما ذهبت إلى قرى بعيدة واقعة في الجبال لحضور حفلات زفاف أو مهرجانات. ولم تذهب وحدها قطّ، البلدة الوحيدة التي تعرفها هي رانيكهت. وسألت كوندان سنغ عندما أزفت ساعة سفره: ما حجم مدينة دلهي؟ أهي أكبر من رانيكهت بأربع أو خمس مرّات؟

في تلك الأيّام، لم تكن سوى محبّة للاستطلاع. أمّا اليوم، فقد أضحت قضيّة حياة أو موت. وقد أفهمتها رسالة كوندان سنغ الأخيرة أنّ الأوان قد آن كي تتوقّف عن المضي في أحلام يقظتها، وأنّ ساعة الجدّ قد أزفت. فإذا كان كوندان لا يظنّ أنّه سيرجع إلى رانيكهت قبل سفره إلى سنغافورة، فإنّها سوف تضطرّ إلى الذهاب إليه.

لم تكن لدى شارو أيّة فكرة عمّا تتوقّع حدوثه أو عن طريقة العثور على كوندان سنغ إذا ما وصلت حقًّا مدينة دلهي. كلّ ما تملكه هو رسائله الداخليّة التي دوَّن على ظهرها عنوانه، فأرسلت له برسالة وهي الأولى التي تكتبها في حياتها، ولم تخبره إلّا باليوم وهو الثاني عشر من تشرين الأوّل، وأنّ عليه الحضور إلى محطّة حافلات دلهي للقائها. ووطّنت عزمها على أن تسافر في مساء يوم ما تكون فيه جدّتها خارج المنزل، وهو خروج بات منتظمًا في هذه الآونة بعد أن أضحت

العمّة تزور صاحب ديوان في المستشفى في أغلب الأحيان. واختارت شارو يوم الجمعة من الأسبوع التالي، وكان يتعيّن عليها الانتظار حتى يستسلم بوران للنوم، ثم تستقلّ حافلة ليليّة وتغادر البلدة.

في كلّ ليلة كانت فيها العمّة تشخر بجانبها وبيجلي يئنّ في نومه، كانت شارو مستلقية لا يغمض لها جفن في الظلام مفكّرة في الأساليب التي تمكّنها من الفرار من دون أن تثير الانتباه، غير أنّ موقف الحافلة كان يمثّل مشكلة لها، لأنّها كانت تنقل الحليب إلى السوق كلّ يوم وكان أحد زبائنها هو محلّ حلويات ناندا ديفي القريب من محطّة الحافلات الحكوميّة، لهذا فالأهالي يعرفونها في تلك المنطقة. أمّا في محطّة الحافلات الأهليّة، ففيها بيملا بائع الخضراوات النيبالي الذي كانت شارو تجمع من دكّانه الخضراوات الفاسدة يوميًّا لإطعامها لأبقارها. فإذا ما أرادت تجنّب هؤلاء المعارف الفضوليين، يحتّم عليها تفادي الذهاب إلى السوق وإلى كِلا محطّتي الحافلات.

في الدقيقة التي غادرت فيها العمّة إلى المستشفى في الحادي عشر من تشرين الأوّل، راحت شارو تطوف في غرف بيتها بحثًا عمّا قد تكون في حاجة إليه. فوضعت بعض حاجيات أخذتها من صندوق جدّتها في محفظة مصنوعة من القماش وربطتها برقبتها وارتدت قميصها. أمّا الحقيبة القماشيّة التي كانت تستخدمها في ذهابها إلى السوق، فقد دسَّت فيها بعض أرغفة الخبز الفطير البائت التي كانت ادّخرتها للأبقار. وأضافت بعض الحلويات السكّريّة وقطعًا من السكّر الأسمر ومجموعة من الثياب ومشطًا. وحشرت فيها أيضًا رسائل كوندان بعد أن ربطتها بشريط مطّاطي. وبعد تفكير قليل، وضعت أصغر منجليها الاثنين وارتدت ثيابها ونعالها المطّاطي كما هو شأنها في كلّ يوم.

وفي حين كانت تستعدّ للخروج، لمحت بيجلي ينظر إليها بعينين مشرقتين بالفضول ويهزّ ذيله متوقّعًا أن يعدو عدوًا رشيقًا في ساعة متأخّرة وسط الغابة، فنهض من مكانه ونفض بدنه، فاهتزّت أذناه ووقف بجانب الباب على أهبّة الاستعداد للخروج. قالت شارو:

ـ ليس الآن، بل في وقت لاحق.

ثم جمعت حفنة من فروه بين يديها وراودها الإحساس في أنّها لن تقدر على الذهاب، ولكن سرعان ما أقفلت الباب من ورائه وارتقت الطريق المؤدّي من منزلهم إلى سقيفة الأبقار لتتنفّس رائحتها ولتلمس خطومها المبلّلة للمرّة الأخيرة. واستطاعت أن تشاهد في ركن قصيّ عمّها بوران نائمًا، ففاضت عيناها بالدموع وفكّرت: من ذا الذي سيهتمّ به؟ كيف ستتمكّن العمّة من حلْب راتنا التي كانت لا تسمح إلّا لشارو بلمسها. وقبل أن تنظر راتنا في اتّجاهها انسلّت خارجة من السقيفة وهرعت إلى السفح مبتعدة عن لايت هاوس وأرضه الواسعة المحيطة به.

التزمت سفوح التلال المكسوّة بالأشجار، متجنّبة السير في الطرقات إلّا بين الفينة والفينة عندما كانت تبغي عبورها لتنتقل بعدها إلى سفح آخر. ولكي تتفادى المرور في مول رود حيث يحتمل أن يشاهدها أحدٌ ما، فإنّها مضطرّة إلى الابتعاد عنه والمضيّ قُدُمًا في الاتّجاه المعاكس على الرّغم من أنّه يوفّر عليها المسافة إلى الطريق الرئيس إضافة إلى أنّه أقصر وأكثر أمانًا. عليها أن تمرّ من أمام معبد جهولا ديفي، حيث في استطاعتها أن تسلك طريقًا مختصرًا يمرّ بالغابة وينحدر نحو سلسلة التلال الغربيّة ويفضي إلى الطريق الرئيس. وقرّرت أنّ الأفضل لها لو تمكّنت من أن تستقلّ الحافلة خارج البلدة، وبهذا ينبغي لها أن تواصل سيرها على امتداد الطريق الرئيس حتى تصل

أبراري ـ تلك القرية الصغيرة التي تبعد مسافة سبعة كيلومترات، حيث تتوقّف الحافلات لنقل المسافرين.

كان الظلام قد راح يرخي سدوله، وتألّق زجاج النوافذ المربّع الشكل في البيوت المشيّدة على ارتفاعات عالية ومنخفضة، ودبّت الحياة في الأضواء المثبّتة في منعطفات الشوارع. وعلى امتداد مساحة الوادي الكبير بدأ بالوميض نور، فنوران ثم عشرون نورًا من فوق تلّ ناءٍ راح ضوء النهار المتلاشي يبتعد عنه. كانت الطرقات مهجورة، وازدادت برودة المساء، وأضحى الأهالي داخل بيوتهم في هذه الساعة، فلفّت شارو رأسها بوشاحها وغطّت به نصف وجهها كي لا يستدلّ عليها أحد. لم يبق أمامها سوى بعض المناطق القليلة المحفوفة بالخطر. ففي البيت الأصفر الذي يشبه صفاره لون زهرة الماريغولد الذي تمرّ من أمامه الآن، تسكن إحدى الفتيات العاملات في معمل المربّى. وعلى مسافة أبعد منه بقليل، ثمّة فتاة تعرفها شارو، وفي بعض الأحيان كانت أبقار الفتاتين تختلطان معًا أثناء الرعي. كانت والدة الفتاة في تلك اللحظة تنادي على كلب.

غير أنّها سرعان ما مضت في سبيلها واجتازت المنزلين، وراحت تغذّ خطاها حتى تحوّل سيرها إلى عدْوٍ.. ومرّت من أمام معبد جهولا ديفي وهنا التفتت إلى الوراء مدفوعة بهاجس. كان كشك الشاي المجاور مغلقًا، والمكان قفرًا، فمزّقت قطعة صغيرة من وشاحها وربطتها بالسياج. كان في وسعها أن تشاهد صورة الآلهة المعتمة من خلل المدخل الصغير المؤدّي إلى المعبد. ووضعت رأسها فوق الدرجات الباردة المؤدّية إلى الداخل، وقالت:

ـ ليس لديّ جرس كي أربطه يا جهولا ديفي، ولكن أرجوك أن ترعاني.

أشعلت عود ثقاب في غصن صنوبر ليكون مشعلاً يرشدها إلى الطريق في الغابة بعيدًا عن المعبد. كان سفح التلّ شديد الانحدار، كثير الأخاديد غير آهل بالسكّان، ولم يسبق لشارو أن وصلت إلى هذه المنطقة، وراودها إحساس بأنّها تطأ أرضًا موغلة في بدائيّتها وكأنّ بشرًا لم يسلك منحدراتها الصخريّة. ورأت الجلاميد الصخريّة بحجم الروابي تميل عليها، وشاهدت الصنوبر والكاكتي ناميًا من بين شقوقها، وتذكّرت الأهالي وهم يقولون إنّهم رأوا حيوانات ـ كالنمور وصغار بنات آوى ـ تتشمّس على تلك الصخور. وكانت تعلم أنّ سيّارة صاحب ديوان الزرقاء القديمة مرميّة فوق ذلك المنحدر وأنّها أضحت مأوًى للثعالب اليوم.

عثرت شارو على الممرّ الضيّق داخل الغابة وراحت تنحدر أسفل التلّ، قلقة القدمين فوق الحجارة، وكانت أشواك الصنوبر والأشجار والأدغال تلامس وشاحها وشعرها. وصكّ سمعها صوت حفيف، وشاهدت ثعلبين واقفين يحدّقان إليها من دون خوف أو وجل قبل أن يمضيا في سبيلهما. وسقط الوشاح عن رأسها وتناهى إلى مسامعها صوت أنفاسها، خشنة ومبهورة، وتمنّت ألّا ينزلق نعالها من قدميها ويتدحرج بعيدًا.

كان غصن الصنوبر المحترق تنبعث منه رائحة أماسي تبعث على الراحة والطمأنينة في المنزل، وفي لحظة من الزمان، فكّرت في التخلّي عن مشروعها المغامر والعودة من حيث أتت، فهي لم تكن قد قطعت بعد مسافة طويلة ولن يفتقدها أحد حتى هذه اللحظة.

ولكنّها شاهدت في هذه الأثناء مشاعل متوهّجة تندفع إلى أعلى أسفل الممرّ، وفكّرت أنّ القرويين يسلكون طريقًا مختصرة وسط الغابة بعد يوم من العمل في رانيكهت. حثّت خطاها في اتّجاههم محاولةً أن

تبعد وهج النار المنبعث من غصن الصنوبر الذي تحمله بعيدًا عن شعرها وثيابها. وقرّرت أن تظلّ منحدرة أسفل التلّ محافظة على مسافة معقولة وراء القرويين. مرّة أخرى غطّت وجهها بوشاحها.

لا بدَّ أنّ نصف ساعة قد انقضت وإن بدت لها أطول من ذلك، بل بدت عمرًا بأكمله حتى شاهدت طريقًا متعرّجًا ومسفلتًا ينحدر إلى أسفل ويبعد ثلاثين قدمًا. كان الطريق الرئيس يتمعّج ويدور لولبيًّا من حول سفوح التلال وهو ينحدر إلى أسفل حتى يظهر مستويًا ومستقيمًا ويزداد عرضًا عندما يلتقي بالسهول. وكما هو شأن كلّ الدروب في التلال، فإنّ هذا الطريق لم يكن عريضًا بما يكفي لأن يصبح باتّجاهين. وكان في وسع شارو أن تشاهد الأضواء الساطعة الأماميّة لمركبة كبيرة تبدّد ظلمة الطريق. كانت الأضواء قادمة من جهة نهاية الطريق القادم من رانيكهت والمتّجه إلى السهول. فما كان منها إلّا أن أسرعت تهبط التلّ ومرّت باثنين من القرويين. إلى أين تمضي الحافلة؟ لا تدري، غير أنّ الطريق الرئيس لاح شديد الظلمة، موحشًا إلى أبعد الحدود، ولم تظنّ أنّها قادرة على السير كلّ تلك المسافة حتى تصل أبراري. سارت على غير هدًى سيرًا حثيثًا وتوقّفت عند عجلات الحافلة بعد أن لوّحت لها بغصن الصنوبر المشتعل كي تتوقّف.

صرَّت العجلات، فرأت شارو أمامها شاحنة وليس حافلة ركاب، فتراجعت إلى الخلف في خيبة أمل وسقط الغصن المشتعل من يدها. ابتسم سائق الشاحنة كاشفًا عن أسنان بنّيّة اللون، وقال:

ـ اصعدي، وسأقلّك إلى حيث تذهبين.

وضحك مساعده، وقال:

ـ آه! إنّنا نقلّ الناس إلى أماكن لم تخطر على بالهم.

كان وجهاهما غير واضحيْ الملامح، يميل لونهما إلى الأحمر المزرقّ بسبب الضياء المنبعث من لوحة أجهزة القياس داخل الشاحنة. وبدا الرجلان وكأنّهما من أهل السهول وكان صوت المذياع عاليًا، ينبعث منه صوت أغنية تخدش الأذنين. فما كان من شارو إلّا أن غطّت وجهها بالوشاح، وقالت:

ـ انتظرا بضع دقائق! إنّ أبي وأخي يريدان الركوب أيضًا.

فزمجر سائق الشاحنة، وقال:

ـ لم نقل إنّنا سنقلّ ثلاثة مسافرين.

ثم زاد من سرعة دوران المحرّك ومضى في طريقه.

كان غصن الصنوبر قد انطفأ عندما سقط من يدها، كما أنّها أضاعت علبة الثقاب في مكان ما أثناء هبوطها الطريق المنحدر، ولم يعد في وسعها رؤية أيّ شيء بعد أن تبدّد نور الشاحنة، فأغمضت عينيها كي تعتاد الظلام واكتشفت بعد هنيهة أنّ الضوء المنبعث من القمر والنجوم كان كافيًا لكي ترى إلى أين تمضي في طريقها.

راحت تسير في اتّجاه أبراري، وقالت في نفسها: تشجّعي وسوف تصلين. إنّ الحيوانات المفترسة تأكل الكلاب وليس البشر. كانت الطريق المسفلتة والمستوية مبعث ارتياح لها بعد سيرها الشاقّ في الغابة. ودندنت في صوت خفيض أغاني كانت تنساب إلى سمعها من المذياع في معمل المربّى. وعندما شعرت بوطأة الحقيبة على كتفها، حوّلتها إلى كتفها الآخر. كما بدأت معدتها تقرقر من شدّة الجوع، ولكنّها أبعدت عنها فكرة الطعام لأنّها لا تعرف كم من الوقت ينبغي للخبز والحلويات أن يستغرقا في هذه الرحلة. ورأت الطريق يرتفع إلى جهة اليسار ليتحوّل إلى جرف صخري نمت عليه الأعشاب اليابسة

والأشجار المنحنية. أمّا إلى جهة اليمين، فكان ينحدر باتّجاه الوادي الذي امتدّت على الجهة الأخرى منه قرًى نائية لا تعرف لها اسمًا. ولم تقع عيناها على ومضة نور على الطريق. وكانت تشاهد السيّارات والدرّاجات الناريّة أحيانًا وهي تنطلق من أمامها، ممزّقة الطريق إلى قسمين بأنوارها الكاشفة وضجيجها ودخانها، والتي كانت تمضي سريعًا فلا تتنبّه لعابري السبيل. ولم تظهر أيّ حافلة على الطريق.

في الساعة الثامنة، وصلت بيلكهولي وجلست في كشك الشاي منهكة القوى، ولم تعد تهتمّ إن كان أحد الناس الذين تعرفهم يراها.

وسألت:

ـ كم ثمن الشاي؟

فقيل لها:

ـ ثلاث روبيّات لكِ، وأربع روبيّات للآخرين.

فطلبت قدح ماء وأكلت قطعة من الحلويات واستأنفت سيرها من جديد.

مضت نصف ساعة أخرى وهي ما تزال تقطع الطريق المؤدّي إلى أبراري. وشاهدت أضواءً ساطعة متّجهة نحوها مرّة أخرى، فتوقّفت ولوّحت بذراعها مؤمّلة أن تخفي الأضواء الأماميّة حافلة هذه المرّة وليست شاحنة.

وكانت حقًّا حافلة، وترجّل منها الجابي هائجًا، وقال:

ـ ماذا تظنّين أنّك فاعلة؟ تقفين في وسط الطريق مثل بقرة! من سيزجّ به في السجن بحسب رأيكِ إن لقيتِ حتفك؟

سألت في صوتٍ مرتعش مشوب بالبكاء:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ مهما كانت الجهة التي نتّجه إليها، فلن نأخذك معنا أيّتها الفتاة المجنونة. كما لا توجد مقاعد شاغرة.

قالت:

ـ يمكنني أن أجلس على الأرض. يمكنني أن أقف.

كان كتفاها ينوآن تحت ثقل الحقيبة الصغيرة.

قال الجابي:

ـ ليس في هذه الحافلة.

ثم وضع قدمًا على الدرجة السفلى من الحافلة وأمسك بالحاجز ليدفع بنفسه داخل الحافلة، ثم ضرب على الحافلة مرّتين بكفّه المنبسطة ليعلم السائق بالانطلاق من جديد. وفي ما كانت الحافلة تتأهّب للانطلاق، ضرب على جدار الحافلة مرّة أخرى. فزمجر به السائق:

ـ ماذا تفعل بحقّ الجحيم؟ هل نذهب أم نتوقّف؟

كانت نبرة الجابي تنمّ عن مزاجه السيّئ وتذمّره، ولكنّه قال:

ـ هيّا، اركبي. أسرعي وادفعي ثمن التذكرة. ليس الركوب بالمجان في هذه الحافلة.

استقلّت شارو الحافلة التي كانت تتّجه إلى ناينيتال التي تبعد ساعتين اثنتين وأرشدوها إلى مقعد خلفي، وكان الرجل الجالس إلى جوارها يمدّ رأسه خارج النافذة ويتقيّأ طوال الطريق، في حين كانت الحافلة تهتزّ وترتجّ وهي تنعطف وتميل من فوق الطرقات الملتوية وسط التلال.

* * *

١٥

في ذلك الأسبوع الأوّل من شهر تشرين الأوّل، ظننت أنّني قادرة على سماع صوت الكرة الأرضيّة وهي تصدر صريرًا من فوق محورها المتأرجح، متحرّكة قليلاً في الاتّجاه المعاكس كلّ يوم، نحو أشهر أشدّ برودة. كانت الحركة غاية في البطء، ولكنّها كانت تتحرّك، أمّا السماء المبلّلة الرماديّة والصلبة التي هبطت لتسكن من حول البيوت وقمم الأشجار في شهور المطر، فقد أضحت أرقّ ممّا كانت عليه لتكشف بذلك عن زرقة مركّزة. وقفتُ خارج المنزل أستمتع بنور الشمس لا أسمع سوى صوت حشرات زيز الحصاد. كان المرج ينتهي عند قدميّ وينزلق بعيدًا نحو غابات لا حدود لها. وإلى أسفل، كانت خضرة الغابة مزدانة بحمرة الخريف الوهّاجة. لا بدَّ أنّ الديناصورات ارتقت هذا السفح يومًا ما وسحقت الأشجار من تحتها كي تتشمّس على الجلاميد الصخريّة العملاقة المكسوّة بالطحالب الخضر والتي توزّعت في هذه الأجزاء من الغابة. أمّا القمم المكسوّة بالثلوج التي تحيط بالأفق فقد توهّجت بالضياء، ولم يكن في وسعي رفع بصري

إليها والسماح لتوهّجها بالتغلغل في عينيّ.

كان الضياء الذهبي الذي أعقب الأمطار الموسميّة، والمروج الورديّة ذات الزنابق البرّيّة ونباتات القسموس وصفاء الجوّ البارد الجافّ، قد تغلغلت في كلّ شيء مثل تيّار كهربائي. وكان الأهالي منهمكين بطلاء منازلهم بماء الكلس وبالأصباغ وترميمها في عجالة وإصلاحها من الضرر الذي لحق بها جرّاء هطول الأمطار، استعدادًا لمهرجان ديوالي الخاصّ بالأضواء الذي يجري الاحتفال به في عموم الهند. وعُرّضت الفرش والحشايا لأشعّة الشمس بعد شهور من الرطوبة، وانهمكت النساء في قطع الأعشاب وخزنها لأشهر الشتاء. أمّا في السوق، فقد ظهرت ملصقات انتخابيّة جديدة من فوق الملصقات التي بلّلها المطر ورفعت رايات جديدة في كلّ مكان. وبدأت أشغال الطرق، وزادت رائحة براميل القطران التي ينبعث منها الدخّان من رائحة نبتة صريمة الجدي المعترشة. كان رجال السيّد شوهان منتشرين في كلّ حدب وصوب حاملين علب الأصباغ. لم يبقَ على حفل الاتّحاد سوى شهر واحد.

وفي المعمل، كنّا في خضمّ لصق العلامات على مئات زجاجات المربّى الذي أعددناه من فاكهة الصيف. وهذه مهمّة أخرى ينبغي لنا الفراغ منها قبيل حلول مهرجان ديوالي كي يصل المربّى إلى دلهي متزامنًا مع عمليّات البيع أثناء المهرجان. ونسيت الجرائد نصارى أوريسا وراحت تنشر أخبارًا أخرى، ووهبت قناة تلفاز ديفاينلايت نفسها مرّة أخرى لإنقاذ الأرواح. وهدأت الآنسة ولسون. وعندما اقتحمت من جديد حجرة صفّي لتدقّ عصاها الخيزرانيّة من فوق المنضدة مطالبة بالتزام الصمت والهدوء، عرفت أنّ الحياة عادت لمجرياتها. وفي حجرة المعلّمات، أخبرتني بعد صباح يوم عاصف قائلة:

ـ كم سنة مرّت عليكِ وأنت تمارسين التعليم؟ خمس سنوات. انظري إلى جويس يا سيّدتي، فهي لم تبدأ المهنة إلّا قبل ثلاثة شهور، ولكنّ التلاميذ يجلسون أمامها خائفين كالفئران. هل تعلّمت يومًا ما كيف يمكنك السيطرة على التلاميذ؟ هل ثمّة تحسّن؟ لا، صفر.

كان يروقها أن تتلفّظ بكلمة «صفر» على نحو ساحر[1]. وكانت تصنع دائرة بسبّابتها وإبهامها وتضعها من فوق عينها وكأنّها تنظر إليَّ من خلال نظّارة أحاديّة الزجاجة.

أخذت حالة صاحب ديوان في التحسّن بصفاء الجوّ وراح يطالب بتوفير شراب الرّم له، بل وصل به الأمر حدًّا أن طلب علبة سكائره التي تحمل صورة رولز رويس لتكون إلى جانبه. وقال موضحًا: «طالما أبدو مثل شبح فضّي». وقال للأطبّاء وللممرّضات ولي أيضًا، في صوت غير عال اكتنفته نوبات سعال متقطّعة جافّة، بأنّهم متسلّطون عليه أكثر ممّا ينبغي. وطلب جريدة وجعلني أجلس بجانبه لأقرأ له الأخبار الغريبة التي أعلم أنّها ستبعث السرور في نفسه مثل: خطوط سكّة الحديد الغربيّة لا تغسل بطّانيّاتها إلّا مرّة واحدة في الشهر، ولصّ أوكراني يسطو على مصرف ويلجأ إلى سرقة سيّارة شرطة كي يلوذ بالفرار، ومحاولة جمل صغير في أستراليا مضاجعة امرأة تملكه ولكنّه تسبّب في قتلها أثناء المحاولة. وتحوّلت حجرته في المستشفى بدرجات لا يمكن تصوّرها إلى امتداد للايت هاوس، وتراكمت من حوله في فوضى مألوفة الزجاجات والكتب والحبوب والجرائد.

---

(١) في الأصل الإنكليزي هي كلمة zero التي تشير المؤلّفة إلى أنّ الآنسة ولسون تلفظها لفظًا ساحرًا على النحو الآتي: zee-row وzed-ee-ar-oh وzee-row. وهذه الطريقة في اللفظ يصعب ظهورها بالعربيّة لأنّ كلمة «صفر» تختلف عن مرادفتها الإنكليزيّة من حيث عدم وجود حروف علّة فيها تساعد في مدّها (المترجم).

وكان السيّد قريشي يزوره يوميًّا، في حين زاره الجنرال بين حين وآخر. أمّا همت سنغ فقد أقام وإيّاه، ونام في حجرة صاحب ديوان بعد أن هيّأ لنفسه ركنًا فيها ووضع فيه فراشه وبطّانيّاته. وكلّما صدرت عن صاحب ديوان آهة أو صوتًا ما، وثب همت سنغ على قدميه ليتأكّد من تلبية ما يحتاج إليه. أمّا في بقيّة أوقات النهار، فكان يتجاذب أطراف الحديث رفقة أصدقاء جدد أو يغفو تحت أشعّة الشمس قرب النافذة. وكان قد سطا على زجاجة من شراب الرّم وراح يرشف منها كلّما وجد إلى ذلك سبيلاً. وقد ضبطته متلبّسًا في يوم من الأيّام وهو ينزع قناع الأوكسجين عن فم صاحب ديوان ليعطيه رشفة. فحاولت أن أذهب إلى المستشفى يوميًّا لأمنع ما حدث. أمّا العمّة، فقد كانت تذهب لزيارته مرّتين أسبوعيًّا في الأقلّ، وفي بعض الأحيان، كنّا نعود من المستشفى معًا في سيّارة أجرة من طراز جيب. كان المساء قد أضحى أطول والظلام يهبط من دون سابق إنذار، ولهذا كنّا نغذّ خطانا عائدتين بعد أن تقلّنا سيّارة الأجرة إلى نقطة الوقوف في مول رود ومن هناك، نهرع إلى لايت هاوس، وقد امتلأ قلبانا رعبًا وهلعًا خشية أن تداهمنا النمور الكامنة وراء كلّ شجرة معتمة.

وفي مساء اليوم الحادي عشر من تشرين الأوّل، وبعد أن عدنا من المستشفى، وأغلقت الباب على إثر وصولي المنزل مباشرة، خرجت العمّة وصاحت:

ـ هل شارو في منزلك؟

لم تكن في منزلي. ولم تكن في زريبة الأبقار أيضًا. فتّشنا عنها في أنحاء المنطقة حاملين المشاعل والعصيّ بأيدينا. وكانت العمّة تولول باكية:

ـ أين الفتاة؟ هل سقطت في مكان ما وكسرت أحد عظامها؟ هل هاجمها أحد النمور؟ إنّ المصائب لا تأتي فرادى.

ودخلت غرفتها في حالة مضطربة. أمّا بوران الذي كان في السقيفة، فخرج يترنّح من نومه، وأضاف صراخه على صراخنا مناديًا شارو وكأنّه ينادي بقرة ضائعة. وسمع الموظّف الحكومي أصواتنا، فخرج من منزله ورمقنا بنظراته، وهتف:

ـ ماذا حدث أيّتها العمّة؟ لماذا توقظين الطيور من سباتها؟ سقطت عينا العمّة على الصندوق الخشبي الذي كانت تحتفظ بداخله على حاجياتها الثمينة. لا يفترض بأحد أن يعرف مكان الصندوق ولا محتوياته. ولكن ها هو، واضح وضوح الشمس، أمام الأنظار، مكسور القفل، مقلقل الغطاء. وكانت النقود قد سُرقت منه فضلاً عن قطعة واحدة من الجواهر، وهي حلقة الأنف العائدة لزفاف والدة شارو الراحلة. وكانت الحلقة في حجم سوار ذهبي يحتوي على حبّات خرز ذهبيّة ولؤلؤيّة، وهي أثقل من أن ينوء بها أنف فتاة في ليلة زفافها، لكن على الرّغم من ذلك، فهي حلقة لا يمكن لزفاف فتاة قرويّة من أهل التلال أن يتمّ من دونها.

ولمّا لاحظت العمّة أنّ حلقة الأنف مفقودة، رفعت إصبعها إلى أنفها من دون وعي حيث كانت حلقة مماثلة قد اخترقته وتركت فيه ثقبًا خلوًا من أيّ قطعة معدنيّة أو حجر. وفركت أنفها وكأنّها تتذكّر كلّ الحلقات والحليّ التي كانت تزيّنه يومًا ما، ثم وضعت في رفق صندوقها وأغلقت غطاءه كي تحول من دون أن يشاهد محتوياته الموظّف وزوجته اللذان ظهرا للعيان في تلك اللحظة.

قال الموظّف:

ـ سوف أستدعي لقمان، وسوف نذهب بسيّارته ونلقي نظرة إلى الجوار. لا بدّ أنّها في مكان ما. لعلّ أحد حيواناتها ضلّ طريقه، فراحت تفتّش عنه. أخي بوران، اذهب والقِ نظرة. وتأكّد من أنّ كلّ الأبقار والماعز داخل الزريبة.

نظرت العمّة نظرة مباشرة إليّ، نظرة توغّلت في أعماقي، فلم أستطع مواصلة النظر إليها. قالت:

ـ ماذا تقولين أيّتها المعلّمة؟ هل نستدعي سيّارة؟ قلت متلعثمّة بالكلمات:

ـ أخبرتني أنّها قد لا تحضر للدراسة في هذا اليوم لأنّها مضطرة إلى الذهاب لرؤية صديقة سوف تتزوّج من فتًى في دلهي. ظننت أنّك تعرفين ذلك.

جعلني الخوف أزداد ضعفًا ووهنًا، وكنت محتاجة إلى الجلوس، فأمسكت بالباب كي أستند إليه. إنّ شارو لا تملك أيّ فكرة عن المدن الكبيرة، ما الذي جعلها تلجأ إلى مثل هذا السلوك من دون أن تخبرني؟ وإذا حدثت لها مشكلة، فإنّني لن أغفر ذلك لنفسي، ولن تغفر العمّة لي.

قالت العمّة بعد هنيهة ملؤها التفكير العميق:

ـ وهل الفتى إنسان طيّب؟ على أيّ حال، إنّ والدة صديقتها لن تزوّجها لمحتال خبيث. في مدينة بعيدة. إيه أيّتها المعلّمة؟

حاولت أن أبعد الارتعاشة عن صوتي وأنا أقول:

ـ إنّه فتى طيّب. هذا ما أخبرتني به شارو.

ثم فكّرت في الانطلاق بحثًا عنها. فأنا في الأقلّ كنت حكيمة

عندما دوّنت عنوان كوندان في مكان ما، ولا بدّ أنّها سافرت إليه، وإلّا إلى أين يمكن أن تكون قد هربت؟

وقالت العمّة:

ـ وهل أسرة عريس الصديقة من أسرة طيّبة؟

ـ من أسرة لا تريد شيئًا غير الفتاة. وقالت شارو إنّ الأسرة لم تطلب مهرًا. كما أنّه ثريّ، ولديه وظيفة محترمة وجيّدة، وأنّ مستقبله يبشّر بالخير ويوشك أن يسافر إلى بلدان أجنبيّة ويجني أموالاً تزيد عمّا يجنيه أيّ فرد هنا بخمس مرّات.

قال الموظّف:

ـ أيّتها العمّة! كفّي عن الحديث عن صديقة شارو، فهي ستتزوّج بمن تريد الزواج. ما شأننا نحن؟ هل أستدعي سيّارة أجرة أم لا؟ أعتقد أنّنا يجب أن نذهب من أجل البحث عن شارو، وإذا ما تلكّأنا، فسوف يفوتنا الوقت.

قالت العمّة:

ـ لنترك اليوم وشأنه. أظنّها ستعود أدراجها، وأظنّها أخبرتني أنّها ستذهب إلى بيت هذه الصديقة ولكنّني نسيت أمرها. إنّ معلّمتنا تعرف دومًا أين شارو.

* * *

١٦

استيقظت شارو في صباح اليوم التالي في أحد ممرّات مستشفى ناينيتال بعد أن أمضت ليلتها فيها لعدم عثورها على أيّ مكان آخر تنتظر فيه الحافلة الصباحيّة التي ستقلّها إلى دلهي. وكانت الرائحة النتنة المنبعثة من البول وروائح الموادّ المطهّرة قد أفلحت في سدّ شهيّتها، ولبثت طوال الليل يقظة مصغية إلى المرضى يئنّون ويشكون في الردهة العموميّة المفتوحة النوافذ. وفي الليل، تحوّلت هواجسها إلى أشباح: ماذا تفعل لو أخفقت في العثور على كوندان؟ هل لديها ما يكفي من المال إذا استغرقت وقتًا طويلاً في البحث عنه؟ ماذا تفعل لو أخبرها أنّه لم يعد راغبًا فيها؟ ما الذي دفعه إلى أن يكتب لها في رسالته الأخيرة كتابة تنطوي على عدم الاهتمام بها؟ ما الذي سيحدث لها لو عادت إلى رانيكهت بعد رحلتها الفاشلة؟ سوف ترمي بها العمّة خارج المنزل بالقسوة نفسها التي أظهرتها تجاه والد شارو. العمّة لم تغفر للناس، وتظلّ تتذكّر الأذى والإثم سنوات طويلة. ربّما ستقاتل مايا من أجلها، وتؤويها بضعة أيّام، فهي الأخرى تزوّجت من رجل لا ينتمي

إلى طبقتها الاجتماعيّة ولا إلى ديانتها، كما أنّها خسرت أسرتها.

أغمضت عينيها وحاولت أن تهدّئ نفسها بالتفكير في كوندان: كم ستكون دهشته كبيرة عندما يراها أمامه يوم غد! ولم تقدر على جعل نفسها تصدّق أنّها سوف تراه حقًّا من جديد، وتلمسه وتشمّ رائحة جسده مرّة أخرى، وتتحسّس شفتيه ـ بعد يوم واحد، وبعد بضع ساعات.. ما قيمة ساعات قليلة بعد كلّ تلك الشهور التي أمضياها بعيدين عن بعضهما؟ غير أنّ هذه الساعات القليلة الباقية راحت تمتدّ وتمتدّ لتصبح أطول من الأسابيع ومن الشهور.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وبينما كانت تتمشّى بالقرب من بحيرة ناينيتال بُعَيْد الفجر، لاحظت أنّ في وسعها مشاهدة فقّاعات في الماء تغذّيها ينابيع من تحت الأرض. وفكّرت أنّ وقوفها قرب البحيرة من دونه لا يبدو صحيحًا وأنّه كان ينبغي أن يكون بجانبها ليريها إيّاها. كان الماء يحيط بها بكمّيّات كبيرة لم يسبق لها أن شاهدت مثلها. وفكّرت أنّ المحيط المؤدّي إلى سنغافورة لا يمكن أن يكون أكبر حجمًا بكثير من هذه المياه، فثمّة عشرات القوارب الراسية عند الشاطئ تتأرجح تحت نسيم الصباح. وتذكّرت أنّ كوندان سبق له أن وعدها يومًا ما، بعد زيارة أدّاها إلى ناينيتال رفقة ربّ عمله ومشاهدته البحيرة أوّل مرّة قائلاً: «سوف نذهب بقارب إلى منتصف البحيرة». وقبّل تلك المنطقة الرقيقة والناعمة من وراء أذنيها، وهمس وهو يداعب نهديها: «لن يكون أحد في القارب إلّا أنا وأنت». ثم رنت إلى الجانب الآخر من الماء وتخيّلت نفسها رفقة كوندان في وسطه، على ظهر قارب أحمر وأزرق بمجذافين أبيضين طويلين.

كانت الشمس تدنو حَثيثًا من كبد السماء، وكانت شارو قد فقدت الإحساس بالزمن وهي ترشق الماء بنظراتها، إذْ لم تكن تملك ساعة!

وتملّكها الذعر والهلع، فهرولت من شاطئ البحيرة إلى منطقة وقوف الحافلات، ولكنّها تاهت في الطريق، فسألت رجلاً يقود جوادًا أجرب عن موقف الحافلات ثم جرت في الاتّجاه الذي أشار إليه. كانت حقيبتها تتأرجح فوق ردفيها، وشاحها يتطاير من على رأسها وأنفاسها مبهورة ومرتعشة.

وصلت مدخل موقف الحافلات، وكان السائق والجابي قد وصلا قبل قليل، ووقفا بجانب الحافلة يتبادلان الأحاديث ويدخّنان. وكان المسافرون المبكّرون في الرحيل قد وصلوا بدورهم ينتظرون تنظيف الحافلة. أسرعت شارو إلى السائق، وسألت كي تتأكّد من عدم ارتكابها أيّ خطأ:

ـ أهذه هي حافلة الساعة السادسة المتوجّهة إلى دلهي؟

قالا:

ـ نعم، وسوف تفتح الأبواب بعد برهة وجيزة.

ابتعدت قليلاً وانتظرت ترنو إلى الرجال وإلى الحافلة بعينين متنبّهتين من دون أن تجازف بأيّ شيء. وفي تمام الساعة السادسة إلّا خمس دقائق، كانت أوّل الواقفين أمام باب الحافلة في حين راح بقيّة المسافرين يتخلّفون عن الركب بسبب انشغالهم بحقائبهم وأمتعتهم وكان النعاس واضحًا عليهم. استقلّت الحافلة وجلست في الصفّ الثاني مختارة مقعدًا قرب النافذة. كانت الشبابيك متصدّعة وبقايا الستائر الزرق اكتست بطبقة سميكة من القذارة، فدفعت شارو ستارتها جانبًا لتلقي نظرة أخيرة إلى البحيرة، ووضعت حقيبتها في حضنها. وفكّرت أنّها سوف تمشّط شعرها لدى وصولها دلهي، وقبل أن تلتقيه سوف تحاول العثور على مكان ترتدي فيه سروالاً وقميصًا أجمل من

ثيابها الحاليّة كانت قد أحضرتها معها، وسوف تغسل وجهها وتضع قليلاً من الكحل في عينيها. وابتسمت ابتسامتها الغامضة المعهودة وعدّلت من حلية أنفها الفضّيّة. ثم أخرجت قطعة خبز قديمة وقطعة من الحلويات وراحت تقضم فيهما طعامًا لوجبة فطورها.

* * *

تستغرق الرحلة من ناينيتال إلى دلهي ثماني ساعات تقريبًا من طريق البرّ. وفي الجزء الأوّل من الطريق، تنحدر الحافلة من التلال وتتّجه نحو ممرّ ضيّق لولبي الشكل تحفّ به الأدغال من كِلَا الجانبين. وكانت الغابة تقلّ كثافة أحيانًا، فترنو شارو إلى القمم الثلجيّة من بين فجوات الأشجار. إنّها الجبال نفسها التي كانت تشاهدها من بلدة رانيكهت! مالت برأسها من نافذة الحافلة الرثّة وسرحت بأفكارها.

تقدّمت الحافلة في سيرها، وكانت سرعتها في المنعطفات تسبّب لشارو الغثيان، وكان السائق يبدو شديد الانفعال والنشاط، وجهه أشبه بجمجمة يتأرجح يمينًا ويسارًا وهو يصارع عجلة القيادة. وكان يخرج رأسه من النافذة ليصرخ في الشاحنات القادمة في الاتّجاه المعاكس:

ـ أخي الأستاذ، هل ثمّة ازدحام في حركة المرور؟ هل الطريق سالك؟ هل أواصل تقدّمي؟

وإذا لم يمدّ رأسه من النافذة فإنّه ينفجر ضاحكًا ويطلق عقيرته بالغناء. وإذا ما غنّى أغنيات شعبيّة، فإنّ صوته جهوري ملؤه الزهو والعجب، يردّد أغاني أشرطة سينمائيّة عاطفيّة يتحوّل بين حين وآخر إلى زعيق مفاجئ ولعنات يصبّها على السيّارات في طريقه: أيّها الأوغاد، يا أولاد الزنى!

ثم ينحرف في اتّجاه سيّارات كبيرة ليوقع الرهبة في نفوس السائقين.

كانت عيناه البارزتان في المرآة متألّقتين، وعندما نظرت شارو عن غير قصد إلى المرآة، التقت عيناها بعينيه، وشاهدته يغمز لها، فأشاحت بوجهها جانبًا، نحو امرأة جالسة على مقعد قريب هزّت لها رأسها من فوق طفل رضيع بين ذراعيها، ابتسم لشارو ابتسامة عريضة كشفت عن ثلاثة أسنان؛ ثم مدّ يده وأمسك بشعرها وجذبه بكلّ ما يملك من قوّة، فشهقت شارو، ما دفع أمّه إلى أن تصفعه صفعة قويّة وتقول:

ـ قلت له مرارًا وتكرارًا ألّا يجذب الشعر ولكنّه لا يصغي.

ثم ارتفع صوتها وعلا فوق ضجيج الحافلة وأضافت:

ـ يا له من طفل شرّير. إنّه ليس ابني وإلّا لقّنته درسًا أو درسين. إنّه ابن سلفتي التي ستدمّره بكثرة ما تغدق عليه من حبّ، وقد رزقت به بعد ثلاث بنات. ما الذي في وسع المرء أن يفعله؟

ثم قرصت ذراع الطفل، وقالت له بلهجة آمرة:

ـ قل مرحبًا للأخت الكبيرة أيّها الولد الشرّير.

أطلّت شارو من النافذة، فرأت أنّ الحافلة تمرّ بشلّال ماء، وتمنّت لو كان في وسعها أن تغسل قدميها تحت فورانه؛ وسمعت المرأة تسترسل في كلامها:

ـ أحيانًا يتقيّأ لأنّه يشعر بالدوار في هذه الطرق التي تتوغّل في التلال، ولو منحته مقعدك المجاور للنافذة لأصبحنا كلّنا في أمان.

وهنا بكى الطفل وكأنّه تلقّى إشارة، فقالت المرأة في صوت

يوحي باللائمة على شارو وكأنّها هي سبب بكائه:

ـ كلّ ما يريده هو أن يطلّ من النافذة.

قالت شارو:

ـ إنّني اعتدت بكاء الأطفال، ولا يشكّل ذلك أيّ فرق عندي.

ثم أشاحت بوجهها جانبًا واستطاعت أن تحسّ بنظرات المرأة الخبيثة، ولكنّها كانت معتادة مثل هذه المواقف.

ثم مالت برأسها على حاجز النافذة وأغمضت عينيها.

توقّفت الحافلة في موقفين اثنين كي يشتري المسافرون طعامًا ويشربوا شايًا ويلبّوا نداء الطبيعة. وفي كلا الموقفين ترجّلت شارو من الحافلة واستقلّتها من جديد خشية أن تفقد مقعدها، وأكلت آخر ما تبقّى لها من الخبز الفطير والحلوى وأنفقت روبيّتين لشراء كأس من الشاي، وكان كأسًا صغيرًا من البلاستيك، وأمسكت به في صعوبة بالغة نظرًا لسخونته غير أنّ الشاي كان مركّزًا وحلوًا، وشعرت بالانتعاش على أثر الرشفات القليلة التي كان يحتويها الكأس.

بعد أن خلّفت الحافلة التلال من ورائها، اندفعت في سرعة عظيمة، إذْ أضحت الطرق أعرض من سابقتها وإن كانت ما تزال كثيرة المطبّات، تحفّ بها الحقول من كِلَا الجانبين وعلى مدّ البصر. لم يسبق لشارو أن رأت مثل هذه الأرض المستوية التي لا نهاية لها. ففي وسع المرء أن يواصل السير طوال النهار من دون أن يضطرّ إلى ارتقاء سفح أو الهبوط منه. وفكّرت في الشعور الذي قد ينتابها إذا ما فعلت ذلك.

عندما مرَّت الحافلةُ بواحدة من البلدات الصغيرة المنتشرة في

كثافة على امتداد الطريق، لم تشاهد شارو أيّ حقول، بل غبارًا أبيض. كما شعرت أنّ الشمس سوف تحرق بشرتها. وكان كلّ منزل مربّعًا كئيبًا من الخرسانة، وكانت المياه المصرّفة على جانبي الطريق تطفح برواسب متخلّفة مكسوّة بالزيوت ولاحت أشدّ قذارة وبؤسًا من أكثر مناطق سوق رانيكهت قذارة وفقرًا. وتساءلت في نفسها: كيف يمكن للناس أن يعيشوا هذه العيشة؟ ورأت الذباب الكبير الحجم يطنّ من فوق أطعمة تُباع في عربات يد مكشوفة. كان الغبار والبول منتشرين في كلّ مكان. ونفثت الحافلة وحلاً أسود اللون وهي تشقّ طريقها وسط حشود الأهالي.

توغّلت الحافلة مرّة أو مرّتين في ميادين الأسواق، ورنت عينا شارو إلى كلّ ما يمكنهما أن ترنوا إليه أثناء تأرجح الحافلة بين صفوف الباعة الجائلين، الذين فرشوا بضاعتهم فوق أكياس من خيش مربّعة الشكل على قارعة الطريق: أكوام من الفلفل الأحمر المجفّف وكمّيّات كبيرة من الطماطم وقمصان تي - شيرت بمئات الألوان وأثواب ساري برّاقة الألوان وجذور كركم مجفّفة وأكداس من يقطين دورقي الشكل وأحذية مطّاطيّة. وشاهدت أيضًا جرّارات محمّلة بمحصول قصب السكّر وعجول صغيرة تُباع في سوق الماشية وسيّارات وشاحنات مشوّهة متروكة بعد تعرّضها لحوادث مؤسفة مؤخّرًا، وكانت عجلاتها ما تزال متّجهة نحو السماء.

توقّفت الحافلة أمام بوّابات دفع مكوس العبور، فهرع الصبيان إلى النوافذ لبيع قناني الماء البلاستيكيّة والحمّص المحمّص وشرائح الخيار وجوز الهند. وأخرجت شارو روبيّتين من روبيّاتها الثمينة واشترت مقدارًا من الحمّص الحارّ والحامض المنكّه بالبصل والطماطم. لبثت برهة وجيزة من الزمان ممسكة به وهي جالسة تاركة

رائحته تتغلغل فيها حتى سال لعابها. وأخذت المرأة الجالسة بجانبها بضع حبّات من الحمّص وقذفت بها في فمها، وقالت:

ـ لذيذ! إنّه لذيذ!

فثارت ثائرة شارو، لأنّ المقدار كان قليلاً، وها قد تبخّرت منه كمّيّة لا بأس بها. وقبل أن تمدّ المرأة يدها لتأخذ مقدارًا آخر، دفعت شارو به بعيدًا عنها وأخفته بينها وبين النافذة، وراحت تلتقط حبّة واحدة في كلّ مرّة وتمتصّها.

عبرت الحافلة جسورًا واجتازت طرقات محتشدة بالمركبات، وعندما بدأت بعبور نهر الكانج في منطقة غاره موكتشوار، خفّضت من سرعتها حتى توقّفت نهائيًّا من جرّاء الازدحام. وطلب عدد كبير من المسافرين أن تظلّ الحافلة متوقّفة على الجسر كي يتمكّنوا من الترجّل منها ورمي بعض النقود المعدنيّة في الماء المقدّس، غير أنّ السائق هدّدهم صائحًا:

ـ سوف نخلّف وراءنا كلّ من تسوّل له نفسه بالترجّل من الحافلة.

ومالت المرأة الجالسة بجانب شارو من فوقها، وأطلّت من الشبّاك محنيّة الرأس وراحت تضربه على الحافّة مرّات ومرّات قائلة:

ـ يا إلٰهي! يا إلٰهي!

وامتلأت خياشيم شارو برائحة عرق المرأة النتنة، وتذكّرت أنّ ما من أحد تنبعث منه مثل هذه الرائحة الكريهة في منطقة التلال.

بدا النهر ضحل المياه وإن كان عريضًا. ثمّة ناس كانوا قد نزلوا فيه، فلم تصل المياه إلّا إلى خصرهم. وكانت ثمّة درجات واطئة تصل الماء بضفّتيه اللتين كانت تنتشر عليهما صفوف من معابد تمتدّ على

مدى البصر. وكانت الدرجات تحتشد بالنسّاك والكهنة والمصلّين، وثمّة ساعة تعلو برجًا طويلاً في أحد المعابد ومعطّلة عند الساعة الخامسة والدقيقة العشرين. أمّا الماء الممتدّ إلى الأسفل، فكان راكدًا.

قالت شارو وكأنّها تحدّث نفسها:

ـ الماء في التلال يجري في سرعة كبيرة، ويمكن له أن يجرف البشر..

ابتعدت المرأة قليلاً، وقالت:

ـ هذا هو نهرنا العظيم، نهر الكانج، ليس نهرًا صغيرًا من أنهر التلال.

ثم كرّرت:

ـ يا إلٰهي!

وصلت الحافلة أخيرًا إلى دلهي بعد أن اجتازت في مشقّة زحامين شديدين للسيّارات، وكان الوقت أواخر العصر.

* * *

كانت شارو قد ساورتها الظنون بأنّ المدينة الكبيرة سوف توقع الهلع في نفسها، ولكن على امتداد الرحلة وقبل الوصول حقًّا إلى دلهي، وجدت نفسها معتادة رؤية المباني الشامخة والطرقات التي تشبه خمسة أنهر من سيّارات اتّحدت في نهر واحد. وتملّكها إحساس أنّ المكان مألوف لديها، إذْ سبق لها أن شاهدت مثل هذه الطرق والشوارع من خلال شاشة التلفاز. وأدركت أنّها تعرف المدن الكبيرة من مشاهدة الأشرطة السينمائيّة وصور المجلّات.

إلّا أنّ الشيء الذي لم تكن مهيّأة له كان يتمثّل بالرائحة التي تزكم الأنف. فالمكان معبق بروائح المياه المصرّفة القذرة والبلاليع والمطّاط المحترق والدخان المنبعث من المصانع. وكانت هذه الرائحة تتغلغل من نوافذ الحافلة، وهي منتشرة في كلّ الأنحاء، ووجدت صعوبة بالغة في التنفّس من دون سعال. كما أنّها لم تكن مهيّأة للسماء؛ إذْ كانت تعتقد أنّ السماوات زرقاء اللون في كلّ مكان مثلما أنّ العشب أخضر أو الورود الحمر حمراء اللون. غير أنّ السماء في هذه المدينة تلوح رماديّة بلوح الصفائح المعدنيّة المستعملة في سطوح القرى، بل أشدّ قذارة بكثير. ولا يمكن للبصر أن يمتدّ بعيدًا جدًّا، بل إلى أعمدة المباني العالية والقريبة لا غير والمنتصبة بالقرب من بعضها بعضًا، وكأنّها جدران ذات ثقوب مربّعة الشكل. بدت كلّها متشابهة، كأنّها توشك أن تهوي في أيّ لحظة. ولاح في الوقت ما يشبه سحابة دخان. وسألت نفسها:

ـ ما نمط البيت الذي يقطن فيه كوندان. أهو من هذا النمط؟

أخبرتها المرأة التي كانت بجانبها أنّها سوف تترجّل في منطقة تدعى محطّة حافلات أناند فيهار، وسألت شارو:

ـ إلى أين ستذهبين؟

غير أنّ شارو تجاهلت السؤال لأنّها لا تثق بالغرباء. وظلّت تتحسّس تلك المنطقة من صدرها حيث الحقيبة القماشيّة متوارية من تحت وشاحها وفيها نقودها وحلقة أنف والدتها. وأضحت الآن أكثر خوفًا وأشدّ قلقًا من أيّ وقت مضى طوال الرحلة. ولمّا دخلت الحافلة محطّة الحافلات، أمست غرابة المدينة الجديدة أمرًا واقعًا يثير الرعب والهلع.

وترجّل المسافرون خشودًا من الحافلة التي كانت تسير متباطئة،

وراحوا يجرون على امتدادها، يضربون بأيديهم عليها ويصيحون. وتشبّث بعضهم بقضبان النوافذ وتعلّقوا بها وضغطوا وجوههم على الشبابيك. وصاح أحدهم:

ـ سيّارة، سيّارة!

وصاح آخر:

ـ عربة ركشة؟ في عجالة؟ إلى أين؟

قلّبت شارو عينيها بين الأشياء القليلة التي كان في وسعها رؤيتها وراء جموع الرجال المحتشدين على النوافذ والأبواب. كان موقف الحافلات منطقة فسيحة مترامية الأطراف مبلّطة بالإسمنت وتحتوي على صفوف من الحافلات، الواحد تلو الآخر، من مختلف الولايات. وكانت كلّ الحافلات القادمة من منطقة التلال تتوقّف أمام الرصيف ذي الرقم ١٢، وكانت حافلة شارو تتّجه إليه. وفكّرت أنّها قد تشاهد في أيّ دقيقة ذلك الوجه المألوف الحبيب الذي سوف يظهر من بين الجموع ويلتقط صرّتها ويصطحبها إلى البيت. وسوف يتشبّث بيدها في السيّارة.

ترجّلت من الحافلة، شديدة الارتباك والاضطراب لا تقدر على قول «نعم» أو «لا» لسائقي السيّارات الذين كانوا يسيرون بمحاذاتها ويسألونها: «سيّارة أجرة بالمشاركة؟ إلى أين؟» وتعثّرت في مشيتها، محاولة أن تجد موطئ قدم تستطيع أن تقف فيه وتنتظر كوندان. ثمّة امرأة منحرفة الملبس، وعليها ثوب ساري أخضر اللون، برّاق، وتتزيّن بأقراط طويلة تتنقّل من شخص إلى آخر، تلكز هذا وتغازل ذاك من أجل أن يتصدّقوا عليها بمبلغ من المال. ووخزت شارو في خاصرتها وقالت:

ـ أتريدين تأسيس محلّ تجاري؟

فوثبت شارو إلى الوراء مذعورة، وهنا أمسك بها رجل عجوز وانتزعها من طريق حافلة ترجع إلى الوراء وهتف بها:

ـ أأنت عمياء؟

رشقت شارو وجوه حشود الناس بحثًا عن وجه يبدو أرقّ من وجوه الآخرين، غير أنّ الناس لم يكن لديها وقت تضيّعه في الوقوف، فقد كان الناس من حولها في عجالة، أمّا يستقلّون الحافلات أو يترجّلون منها أو يبحثون عن عربات أجرة أو يتطلّعون إلى مشاهدة أقربائهم، أو يشترون تذاكر من أشخاص يلحّون عليهم بالشراء تحت طائلة الوعيد. أمّا الآخرون، فكانوا يعرفون ما يفعلون وإلى أين يذهبون. لمّت أطراف شجاعتها وسألت إحدى النساء:

ـ هل يمكنك أن تخبريني...

بيد أنّ المرأة دفعتها جانبًا لتلحق بحافلة راحت تزيد من تدوير محرّكها وتغادر المحطّة. الضجيج يملأ المكان، هو مزيج مضطرب وهائل من الأبواق والأصوات وصراخ الباعة الجائلين ودمدمات المحرّكات. وأدركت شارو أنّ كلّ الوجوه التي عرفتها في الحافلة وأضحت مألوفة لناظريها أثناء الساعات الثماني الماضية من طريق الرحلة المشتركة قد تبخّرت. شعرت أنّها مستوحدة على نحو لم تعرفه حتى في أشدّ سفوح التلال وحشة أو في أكثر الغابات عمقًا.

كانت واقفة لا تعرف ماذا تفعل عندما تقدّم منها رجل، نحيف الخاصرة، برميليّ الصدر، يرتدي بنطالاً أسود لمّاعًا وحزامًا مزيّنًا بمسامير. وكان قميصه مفتوحًا حتى سرّته، وفي رقبته سلسلة متألّقة، شعره كتلة من فوق رأسه وفي معصمه ساعة بلاستيكيّة كبيرة مربّعة

الشكل. رنا إلى الساعة وقال:

ـ استدارت شارو وفكّرت أنّ رسالتها ربّما تاهت، ولهذا لم يأتِ كوندان. ورأت أنّها مضطرة إلى البحث عن منزله بمفردها.

سأل الرجل:

ـ كم؟

نظرت شارو إليه في وجل. كانت شفتاه حمراوين تميلان إلى الاسوداد، الأسنان التي تظهر من ورائهما في ابتسامة صفراء اللون. وكان في وسعها أن تشمّ رائحة المخدّرات تنبعث منه. كانت مرتبكة، فكرّرت سؤاله:

ـ كم؟ ماذا تعني بكلمة «كم؟».

قال:

ـ آه، فهمت:

ثم بدا عليه التفكير قليلاً، وأضاف:

ـ لديّ درّاجة سكوتر، وفي إمكاني أن أصطحبك في مشوار قصير. ليس بعيدًا، مسافة قصيرة، ولكن إذا شئت أن تذهبي إلى مسافة أبعد، فيمكنني أن أقلّك إلى أيّ مكان تشائين.

انتاب شارو رعب ودقّ في أعماقها جرس إنذار، فأسرعت بالابتعاد عنه، ولكنّه لحق بها وقال:

ـ ما خطبك؟ كلّ ما أعرضه عليك هو متعة الركوب!

جرت في سرعة بيد أنّه ظلّ يلاحقها، واتّجهت نحو سيّارات الأجرة الواقفة عند مدخل محطّة الحافلات. اقتربت من السيّارات ولاحظت أنّ السائقين كانوا يرتدون جميعًا قمصانًا وبنطالات رماديّة

اللون، وكأنّهم جيش من الجيوش، وكانوا يقفون في انتظار الزبائن. وعندما تقدّمت منهم، ران عليهم الصمت. أمّا الرجل الذي كان يلاحقها، فقد ارتدّ على عقبيه ومضى في سبيله. وهنا سألها أقرب سائق وصلته:

ـ إلى أين؟

أخرجت شارو واحدة من رسائل كوندان من الحزمة، لتطلعه على العنوان، وقالت:

ـ هذا هو العنوان.

أمسك الرجل الرسالة، وقال:

ـ إيه؟ من يستطيع قراءة هذا الخطّ؟

قال السائق الواقف بجانبه:

ـ أعطني إيّاها... سوندار ناغار.

صفّر بعض السائقين الواقفين، وقال أحدهم:

ـ امرأة ثريّة. كم ستدفعين؟ أنت تعلمين أنّ الأجرة إلى سوندار ناغار ليست رخيصة لأنّها بعيدة جدًّا.

ردّت شارو من دون أن تعرف ما تقول:

ـ مهما كانت الأجرة فسوف أدفعها.

ضحك الرجل وضرب على فخذيه:

ـ تقول إنّها ستدفع مهما كانت الأجرة!

تجمّع بقيّة الرجال من حولها، ونظروا إليها نظرات تعجّب واندهاش، وقال أحدهم للآخر:

ـ من هي؟ من يرغمها على الركوب معه؟

وفي غمرة تشوّش شارو وارتباكها، فقد نسيت أن تتشبّث بحقيبتها في قوّة، وهنا شعرت بمن يجذبها منها ويحرّرها من على كتفها. فصرخت في ذعر ووثبت في الاتّجاه الذي رأت فيه الحقيبة تمضي. وهنا امتدّت يد خشنة وأطبقت على يديها وجذبتها بعيدًا عن حشود الناس. وقبل أن تدرك ماذا حدث، كانت حقيبتها قد ألقي بها في سيّارة أجرة ودفع بها من ورائها. مال السائق وراح يدير محرّك السيّارة، لكن عبثًا. فهرع إليه سائقان من سواق السيّارات وصرخا به:

ـ أيّها النغل! إنّها لنا!

حاول الرجل الذي أمسك بشارو أن يدير محرّك السيّارة من جديد، وفي هذه المرّة دار المحرّك، فانعطف بها في انعطافة حادّة وزاد من سرعتها، ومرّ من أمام الرجال الذين كانوا يزعقون من ورائه. تكوّرت شارو في المقعد، متجمّدة من شدّة الخوف. تشبّثت بحقيبتها وراحت تتضرّع إلى جهولا ديفي، وهي تكرّر مرّات ومرّات:

ـ سوف أربط جرسًا إذا ما أبقيتني في مأمن. سوف أربط جرسًا كبيرًا أشتريه بخمسين روبيّة.

بعد أن ابتعدت السيّارة عن محطّة الحافلات وأصبحت في طريق عام وفسيح، اضطرّت إلى التوقّف أمام أضوية المرور المثبّتة عند تقاطع طرق. كان الأطفال يركضون من سيّارة إلى أخرى، يشحذون المال. أشاحت شارو بنظرها بعيدًا، تخشى أن يطلبوا المال منها في حين أنّها لا تملك شيئًا تنفحه إيّاهم. أنعمت النظر في الشعر الأسود الخشن في مؤخّر رأس سيّارة الأجرة، ولاحظت أنّ أذنيها مثقوبتان. وكانت اللوحة المثبّتة من فوق الرأس تحمل ثلاث كلمات باللغة

الهنديّة وباللون الأحمر. حدّقت إلى الكلمات وحاولت أن تقرأ الحروف واحدًا واحدًا، فاكتشفت أنّ العبارة هي: «جاي غولو ديفتا»، وكان كلّ سواق التلال يتضرّعون إلى غولوديفتا أن يكون طريقهم آمنًا. وراحت تشعر ببارقة أمل تداعبها. والتفت السائق إليها، الذي ما إن رأت وجهه حتى غمرها إحساس بالارتياح، ولكن على الرّغم من ذلك، لم تستطع أن تكون واثقة تمام الثقة.

سألته وهي تدرك من ملامحه أنّه قد يكون من أهل التلال:

ـ أأنت باهاري؟

ـ ماذا ظننتِ؟ هل ظننتِ أنّني أهرع لإنقاذ كلّ فتاة يتحرّش بها هؤلاء الرجال على هذا النحو؟

لم تقل شيئًا، ولكنّها لم تستطع منع نفسها من أن تبتسم ابتسامة مشرقة، فقال:

ـ لماذا أنت وحدك؟ كان في وسعهم أن يجعلوك تختفين ويسرقوك قبل أن تدركي ماذا حدث لك.

قالت على سبيل تغيير دفّة الحديث من جهة، وحبًّا للفضول من جهة أخرى:

ـ إنّني في زيارة بعض الأقرباء. من أين أنت؟ كوماون أم غارهوال؟

سطع الضوء الأخضر، فأطلقت السيّارة بوقها وتوانت في سيرها وسط ضجيج السيّارات والحافلات والدرّاجات. وانكمشت شارو من خلف ظلّة النافذة المتحرّكة كلّما مرقت سيّارة بجانبها، وكأنّها سوف تتعرّض للدهس إذا ما تجرّأت سيّارة الأجرة على الوقوف في طريقها.

ومرّت الحافلات العالية تنفخ بوقها لتواني السيّارة في سيرها. ولمّا كان النسيم يهبّ من الجانبين المفتوحين للسيّارة، والضجيج يملأ الطريق، فإنّ شارو نادرًا ما سمعت كلمة واحدة من بين كلّ عشر كلمات يتفوّه بها السائق. لكن ردّه الذي جاء في صوت عالٍ كان:

ـ إنّني من قرية قريبة من المورا. وأنت؟ من أين؟

كان في وسعها أن تبكي أو ترقص من الفرح. المورا! إنّها القرية الأقرب إلى بلدتها، حيث تعرف فيها عددًا كبيرًا من الناس، وحيث قيل لها إنّ ثمّة من سيأخذها إلى هناك. المورا، القرية المشهورة بحلوياتها السنغهوريّة التي تذوّقتها، الحلويات التي كانت تأتي منفردة ومغلّفة بورق شجر أخضر طازج.

لفظت عباراتها في صوت يداعب اسم البلدة المألوف.

ـ رانيكهت. إنّني من بلدة رانيكهت.

* * *

١٧

خرج صاحب ديوان من المستشفى في نهاية شهر تشرين الأوّل بعد أن رقد فيها أكثر من شهر. وقد لفّه ڤير الذي جاء توًّا من وادي الزهور بدثار سميك وحمله على الدرجات القليلة التي كان ينبغي له أن يقطعها حتى يصل إلى سيّارة الجيب المتوقّفة عند مدخل المستشفى. وفي حين كان من دأب ڤير أن يقود السيّارة على الطرق الملتوية بين التلال، وكأنّه في طريق رئيس ومستقيم استقامة السهم، فإنّه قادها اليوم في حيطة وحذر من فوق كلّ قطب ونقرة، يزحف زحفًا في كلّ منعطف وانحناءة.

واستعدنا بعضًا من بهجة الأيّام الخوالي، وكان صاحب ديوان هشًّا رقيقًا مثل ورقة شجرة جافّة، غير أنّه كان منتعشًا بما يكفي لأن يعود أدراجه إلى شرب الجن في الصباح وإلى شراب الرّم في المساء. كان متعطّشًا لسماع كلّ الأخبار عن سفح التلّ. ولمّا ترامى إلى أذنيه نبأ هروب شارو وزواجها، غرق في الضحك إلى أن داهمه السعال وضحك من جديد، وأخبرني أنّني فعلت الشيء الوحيد الصحيح في

حياتي. وأصرَّ على سماع الحكاية نفسها من العمّة أيضًا، وضحك في سرّه على ما أضافته لها من تزويق. واستأنفنا مجلسنا وجلستنا من حول الصحف، وأضحى السيّد قريشي مرّة أخرى عنصرًا ثابتًا ودائمًا في لايت هاوس، يحتضن كأسه المعدني ويهزّ رأسه عندما يفكّر في اليوم الذي نقل فيه صاحب ديوان إلى المستشفى وقال:

ـ لم أصدّق قطّ أنّني سأصل المستشفى في الوقت المناسب. الحقّ أنّني ظننت صاحب ديوان سوف...

أراد صاحب ديوان منّا أن نكون قريبين منه طوال الوقت، وكأنّه لا يقدر على إضاعة دقيقة واحدة. وكان يقول لي:

ـ لماذا تذهبين إلى بيتك الصغير؟ حسبك أن تحتلّي إحدى غرف هذا البيت.

لم يرفع ڤير بصره من فوق حاسوبه، ولكنّه أضاف بنبرة منخفضة:

ـ خذي غرفتي.

ثم وجّه كلامه إلى صاحب ديوان في صوت عالٍ:

ـ لقد أرسل معسكر الجيش ملاحظة يبيّن فيها أنّ إيجار هذا المنزل يحتاج إلى تجديد. دعْونا نبحث عن الأوراق الرسميّة وسوف أنجز المعاملة أثناء وجودي هنا، إذْ قد تفقد البيت ويضيع منك إذا لم نبدأ الإجراءات الآن.

قال صاحب ديوان:

ـ يا لها من كفاءة. أنت تجعلني أشعر أنّني عجوز ومرهق. لماذا أنا مضطرّ إلى تجديد الإيجار؟ ما تزال أمامي بضع سنين لذلك، وإذا ما استطعت منع قريشي من نقلي إلى المستشفى ثانية بسبب سعال

بسيط، فإنّني أتمنّى ألّا أكون مضطرًّا إلى تجديد أيّ شيء.

وجاء الجنرال الآن لزيارة صاحب ديوان أكثر ممّا كان يزوره في سالف الأيّام، وقال إنّه أدرك أثناء مرض صاحب ديوان أنّ ما من أحد غيره في بلدة رانيكهت كان قريبًا منه طوال تلك السنين، على الرّغم من أنّ صاحب ديوان البالغ من العمر سبعة وثمانين عامًا ليس سوى صبيٍّ مراهق في عيني الجنرال. وأضاف:

ـ ومع هذا يا صاحب ديوان، من ذا الذي يتذكّر انضمام الولايات الأميريّة إلى الهند غيري وغيرك؟ والأسلوب الذي اتّبعه نهرو في انتزاع جوناغاده وحيدرأباد وغوا من أنياب العدوّ؟ ـ وكلّها بمساعدة الجيش الهندي، وكيف بنى رجال من جيلنا هذا الوطن، والتضحيات التي قدّمناها؟ أنا وأنت وحدنا نعرف ذلك يا صاحب ديوان:

جعلت الذكريات الجنرال جهم الوجه منقبض الأسارير أكثر من أيّ وقت مضى بسبب الحاضر، فصبّ له مقادير من شراب الرّم أكبر من المقادير السابقة، إذْ لم يشعر بالسرور بسبب ما كان يراه. وقال معلّقًا على الانتخابات التي لم يبقَ على موعد انطلاقها سوى أسابيع قليلة:

ـ لا يا سيّدي، لا شيء يجعلك تبتسم. فمن جهة أولى، ثمّة صبيّ ما يزال يعاقر الخمر وراء الكواليس، ومن جهة أخرى، محتال عجوز يعتقد أنّ الأسلوب الوحيد للحصول على الأصوات إنّما هو جعل الهندوس يكرهون كلّ ما عداهم. لا يوجد رجال دولة الآن، من النمط الذي أرغب أنا وأنت في العمل والموت من أجلهم. صحيح يا صاحب ديوان؟ إنّني على استعداد للموت بملء إرادتي إذا ما أرسلني

نهرو للقتال. لكن الآن؟ ما سبب هذا الانحطاط يا صاحب ديوان؟ قل لي: ما السبب؟

كان بوزو مستلقيًا قرب قدميه وندَّت عنه آهة عندما سمع السؤال المألوف، فراح الجنرال يربت عليه ويتمتم:

ـ ليس أنت يا ولدي، فأنت أملي الوحيد.

طاف أنكيت راوات في السوق وكأنّه رجل قد حقّق الفوز وانتصر. وتكلّم على المنجزات التي سوف يحقّقها في الأيّام المئة الأولى التي سيقضيها في البرلمان. الواضح من الجماهير المعجبة التي كانت لقاءاته واجتماعاته تجذبها أنّ ثمّة فرصة طيّبة في أن يلحق الهزيمة بالسياسي المخضرم من نانيتال الذي لم يسبق له أن خسر في أيّ انتخابات. كان حزب أوميد سنغ يبذل قصارى جهده ليحوّل الأنظار عن مسيرة النصر التي يخطّط أنكيت للاتّجاه بها إلى دلهي وإلى البرلمان. وجرى تنظيم مسابقة في الغناء، ونصب خيمة قُدِّم فيها الطعام مجّانًا على الفقراء، ووزّعت الكنزات الصوفيّة الرخيصة على أطفال القرى.

ولم يمض وقت طويل حتى ترامى إلى آذاننا أنّ ثمّة من علم بأمر خيمة الطعام. فقد كانت بينا وميتو صديقتا شارو منذ أيّام الطفولة، وهما توأمان زرقاوا العيون، تلميذتين من تلميذات مدرستنا اللواتي يشملهنّ برنامج الأعمال الخيريّة. كان والدهما سكّيرًا لا يقدر على دفع أجور دراستهما، ولا تتمكّن والدتهما الصمّاء البكماء من إعداد وجبتيْ طعام إلّا بشقّ النفس من عملها في تنظيف البيوت وغسل ثياب الأهالي. وفي بداية ذلك العام، وعندما بلغت الفتاتان سنّ الخامسة عشرة أرسلتهما المدرسة على نفقة الكنيسة إلى دير للرهبنة في

فاراناسي، حيث تنتظم فيه فتيات معوزات ومعاقات للدراسة والتدريب على المهارات العمليّة. وقد ذهبت الفتاتان في شهر آذار ومعهما ثلاثة أطقم جديدة من الثياب إضافة إلى كتب جديدة، دفع معظم تكاليفها صاحب ديوان.

وعادت البنتان إلى رانيكهت في أوّل إجازة لهما في شهر تشرين الأوّل، وكانت الاثنتان قد اعتادتا في الدير الحصول على كمِّيّة أكبر من الطعام، لهذا كانتا تشعران بالجوع طوال مدّة إقامتهما في البيت، حيث لا تتوافر فيه سوى وجبة طعام بائسة في الصباح ووجبة أخرى عندما تأذن الشمس بالمغيب. وفي أحد أيّام الآحاد، كانت الفتاتان تتجوّلان في السوق عندما غشيتهما رائحة الخبز والبطاطس المقليّة، فسارتا في أثرها مسحورتين.

في ذلك الوقت، كان الجنرال في الخيمة ينتظر خطبة أوميد سنغ القادمة لأنّه كان يؤمن باستطلاع العدوّ مباشرة. ولاحظ الفتاتين تدخلان الخيمة وتجلسان في ركن من أركانها وتلتهمان الطعام التهامًا سريعًا في عزم وإصرار. وقال في وقت لاحق لصاحب ديوان: «الطريق إلى قلب الفقير هو معدته الجائعة حتمًا». وكان مشهدهما مثيرًا لأولئك الذين لا يعرفونهما، ولهذا سرعان ما تنبّه جمع الناس، وراحوا يحدّقون إليهما. كانت الفتاتان متشابهتين شبهًا عظيمًا وملامحهما متشابهة أيضًا: وكانت جدائلهما المتشابهة في الطول تؤطّر وجهيهما. ولمّا كانتا من أبوين مختلطين، فقد منحاهما بشرة ذات لون خفيف، وكان شعر رأسيهما كستنائيًا وليس أسود، إضافة إلى عيونهما الزرقاء والمشرقة.

وتنبّه إليهما الزعيم السياسي أيضًا، فتوقّف ليربت على رأسيهما ويكلّمهما وهما تتناولان الطعام. وابتهج لمّا رآهما لا تقدران على

الكلام، بل تبتسمان وتومئان برأسيهما ردًّا على ما يتفوّه به أو تشيران إليه إشارات لم يفهم معناها كلّ من في الخيمة. وأعلن في كلمته أمام الجماهير أنّه سيمدّ لهما يد العون مؤكّدًا أنّ حزبه لا يهب نفسه إلّا لقضيّة الجماهير الفقيرة التي لا حول لها ولا قوّة في المناطق الريفيّة. وردّدت مكبّرات الصوت المثبّتة على أعمدة الكهرباء حديثه على امتداد الشارع. وأمر أحد العمّال أن يذهب ويفتّش عن والديْ الفتاتين وأن يأتي بهما إلى خيمته، قائلاً:

ـ سوف نجعلهما يدركان أنّ متاعبهما قد انتهت إلى غير رجعة، فإمّا النصر أو الهزيمة، وأنّ عمل الخير الذي خطّطنا له سيبدأ الآن، ويتواصل من دون توقّف إلى ما لا نهاية، وأنّنا سنتولّى أمرهما منذ هذه اللحظة.

في تلك اللحظة، تنحّى به أحد الرجال جانبًا وأخبره هامسًا بشأن دير الرهبنة في فاراناسي.

وقال أوميد سنغ في كلمته التالية إنّ مدرسة دير القدّيسة هيلدا تحاول أن تنصّر فتاتين أمّيّتين معاقتين لا تفقهان أيّ شيء. وأشار وهو يتوقّف عن الكلام بين الفينة والفينة إلى أنّ سلطات المدرسة ربّما تمارس تجارة الرقّ، وصاح بصوت هادر:

ـ من يعرف ما الذي تتمرّن عليه هاتان الفتاتان؟ لماذا يُرسل أطفال الآباء الهندوس إلى أديرة بعيدة، لا يعرف أحد إن كان هؤلاء الأطفال يُستخدمون عبيدًا أو خدمًا أو في أعمال أسوأ بكثير؟ إنّ هؤلاء الأطفال سوف يعتنقون النصرانيّة ـ وهذه مؤامرة عالميّة ولا بدّ من إنقاذهم.

تلقّينا بعد الخطاب مباشرة مذكّرة من الآنسة ولسون تدعونا فيها

إلى عقد اجتماع طارئ للهيئة التعليميّة، ووقفتْ عند رأس الطاولة ورسمت علامة الصليب قبل أن تبدأ الكلام. كان صوتها خفيضًا ووقورًا، وهي تقول إنّ الوقت قد حان لأن نخضع للاختبار، وإنّ دورنا قد جاء لنثبت كيف نتعامل إزاء الاستفزاز والعداء اللذين نواجههما، وإنّ معلّماتها وتلميذاتها مهدّدات بإلحاق الأذى البدني بهنّ، وإنّها لا يمكن أن يهدأ لها بال ما دام هذا التهديد قائمًا. وأوضحت مؤكّدة أنّ المدرسة هي طفلها وأنّنا أسرتها، وأنّها وهبت حياتها من أجل الربّ ومن أجلنا، وأنّنا كلّنا موضع اهتمامها ورعايتها.

تبادلت المعلّمات النظرات لدى سماعهنّ هذا الكلام، ووصفتها المعلّمات الشابّات من وراء ظهرها أنّها الدكتاتور الكبير، كما أنّ إحداهنّ رسمت شاربًا غليظًا ورديًّا لصورة الآنسة ولسون المعلّقة على جدار حجرة المعلّمات بجانب ملصق لمّاع يمثل العذراء منتحبة فوق جثمان المسيح. وتطلب إزالة الشارب عن زجاج الصورة مزيل إصبع الأظافر. كما بدأت جويس، وهي آخر المدلّلات وأحدث المعلّمات سنًّا، تقلّد الأسلوب الذي دأبت فيه الآنسة ولسون على تنبيهنا من غفلتنا: «لا أريد أعذارًا، ولا أقبل أيّ عذر سوى عذر الموت!».

كانت جويس وغيرها من معلّمات مدرستنا ينظرن إلى بينا وميتو على أنّهما من بين عديد الأطفال الذين نجحوا في الدراسة؛ أمّا الآنسة ولسون[1] فكانت ترى في الأمر قضيّة إداريّة تبعث على القلق

---

(١) أوردت المؤلّفة، خطأً كما نعتقد، عبارة مسز ولسون Mrs Wilson بدلاً من Miss Wilson في هذا السياق، ونعتقد أنّه خطأ غير مقصود فأثرنا الالتزام بعبارة الآنسة ولسون ولم نستخدم عبارة السيّدة ولسون، فاقتضى التنويه (المترجم).

والانزعاج. أمّا أنا فالقضيّة مختلفة من وجهة نظري، إذ أتذكّر تلك السنوات الأولى الموحشة التي أمضيتها في رانيكهت عندما كنت أنتظر وصول الفتاتين رفقة شارو ليلعبن لعبة رمي الحصوات إلى أعلى، فيملأ صوتها منزلي الفارغ. وكانت اللعبة تنتهي على الدوام بتناول كعكة من مخبز بيشت أو الشاي، أو البيض المسلوق، الذي كنت أعدّه لهنّ فيأتين عليه في سرعة خاطفة من دون توقّف للمضغ أو التنفّس من شدّة الجوع. وكنت قد وطّدت العزم على ألّا تعاني الفتيات مثل هذا الجوع والحرمان مستقبلاً.

كان ضابط اللواء عالي المرتبة، فلم أستطع الحصول على موعد معه. لهذا توجّهت إلى السيّد شوهان لمقابلته بخصوص الموضوع. هل يمكنه أن يوفّر الحماية للمدرسة إلى أن تنتهي الانتخابات؟ وهل في وسعه تخفيف حدّة خطابات الزعيم السياسي قليلاً؟

كان السيّد شوهان قد منحني موعدًا في الساعة الرابعة، ولكنّه لم يكن موجودًا لدى وصولي، بل وجدت زوجته بدلاً منه وهي امرأة جميلة، معتدلة الظهر أنيقة الضفيرة، ترتدي ثوبًا من الشيفون وعلى ثغرها ابتسامة ثابتة. كانت تجلس في حديقتها تحت ممشى تظلّله الورود، وتصيح أحيانًا، على طفليها الصغيرين اللذين يلعبان بالقرب منها أو توبّخهما. وراحت الفراشات تعلو وتهبط من فوق الأزهار المحيطة بنا، في حين قدّمت لنا الخادمات الشاي والبسكويت بالشوكولا والكريما، وكنت قد التقيت إحدى هذه الخادمات وهي راعية بقر في أثناء نزهاتي. وأخبرتني أنّ السيّد شوهان سيتأخّر قليلاً، مضيفةً:

ـ إنّه كثير المشاغل في هذه الأيّام، وقد ذهب اليوم رفقة اللواء الذي أراد أن يطّلع على العمل الذي أنجزه زوجي بخصوص الاتّحاد.

ثم مدّت يدها إلى يدي، فشعرت بها ناعمة وطريّة مثل زهرة عندما لامست يدي المتصلّبة من كثرة العمل.

ثم أردفت مظهرة ابتسامة خبيثة:

ـ وهذا يمنحنا نحن النساء فرصة للحديث في هدوء. صحيح؟ إنّني أعيش حياة زوجيّة تقبض الأسارير، فأخبريني عن حياتك، فهي زاخرة بالأحداث!

وبعد وقفة قصيرة اكتشفتْ أثناءها أن ليس لديّ ما أقول، راحت تتحدّث من جديد.

قالت إنّ زوجها منهمك في العمل، وإنّ واجباته لا أوّل لها ولا آخر، فهو يتولّى مسؤوليّة إدارة منطقة المعسكر برمّتها. وسألتني إن كنت قد تنبّهت إلى مدى تحسّن الطاقة الكهربائيّة، وإنّ ذلك يرجع إلى جهود السيّد شوهان التي لا تكلّ ولا تهدأ من أجل جعل بلدتنا سويسرا الهند. كما أنّه منهمك في إعادة إكساء الطرق وصبغ الحواجز ـ وما أشبه، يضاف إلى ذلك كلّه هذا الموعد النهائي الخاصّ بوحدة الكتائب والذي يتطلّع إليه اللواء بتوق شديد. كما أنّ الخطّاطين غالبًا ما يرتكبون هفوات في تهجية الكلمات التي يخطّونها على العلامات، وقد لاحظ اللواء واحدة من هذه العلامات وقد كتبت عليها الكلمتان «Streaking Route» (طريق مخطّط)، وأوضحت السيّدة شوهان أنّ الخطّاط كتب كلمة «Treaking» بدلاً من كلمة «Trekking»،[1] ثم جاء مشاغب وأضاف إلى بداية الكلمة الحرف S بعد أن رأى مدى نجاح الرجل في عمله، يدوّن شعارات أفضل ويفكّر في أساليب جديدة

---

(١) أي أنّ العبارة النهائيّة ينبغي أن تكون على الوجه الآتي: Trekking Route وتعني طريق الرحلات (المترجم).

لتحسين حياة الجماهير، وأكّدت:

ـ إنّه يشبه السيّد لي كوان يو في سنغافورة. هذا ما يردّده زوجي ويؤكّد أنّ لي كوان يو بطل آسيوي.

وقالت إنّ ثمّة صعوبات تكتنف الحياة مع أديب. فالسيّد شوهان يلبث أسير غرفته صباحًا، وإذا جاء البستاني يسأل: هل أطلب سمادًا إضافيًّا أيّها السيّد؟ فإنّ السيّد شوهان يلوح بيده له كي ينصرف من دون أن يردّ عليه وبهذا يتوقّف عمل البستاني. وكان الهاتف يرنّ أحيانًا، فيهتف السيّد شوهان في حدّة: «نعم؟» من دون أن يكلّف نفسه عناء معرفة من المتكلّم في الجانب الآخر من الخطّ. وفي يوم من الأيّام كان المتكلّم هو اللواء نفسه وشعر بالإهانة من نبرة السيّد شوهان الجافّة، من دون أن يعلم أنّ السيّد شوهان كان في لحظة إلهام آنئذٍ، وكان اللواء قد قال في صوت مقتضب إنّه يريد أن تصبغ الأسيجة وأن تزرع أشجار البرتقال في الجهة الخلفيّة، وأضاف: «اطلب لي بعض الفسائل، أعتقد أنّ هذا الوقت مناسب». ثم أنهى المكالمة الهاتفيّة ما اضطرّ السيّد شوهان إلى إعادة الاتّصال به مستفسرًا.

كان عقلي تائهًا، فحدّقت إلى وجه السيّدة شوهان في محاولة لأن أركّز في كلماتها، ولكنّني بدلاً من ذلك تخيّلت رأسها وعليه تلك الباروكة الغامضة من الشعر التي عثر عليها السيّد شوهان في صندوق سيّارة. كانت جالسة مرتدية ذلك النمط من الثياب الذي كانت تفضّله زوجة الجنرال الراحلة، وعليها باروكة شعر ملتفّ، أحمر اللون وفيه ماسكتان اثنتان زرقاوان. وكانت تدخّن سيكارة، وتكرع من كوب شاي أحيانًا مقدارًا من شراب الرَم الساخن.

تنبّهت السيّدة شوهان إلى نظراتي البعيدة، وضحكت وقالت:

ـ إلى أين سرحتِ بأفكارك يا مايا؟ هل أنتِ مستغرقة في التفكير؟ أخبريني!

قلت:

ـ آه، لا. كنتُ مصغية وأنت تتحدّثين عن اللواء الذي ما برح يقاطع ما يكتبه السيّد شوهان.

كانت ثائرة زوجها تثور إذا ما قاطعه أحد، ولكن من أين للسيّدة شوهان أن تعلم أنّ زوجها قوطع في عمله؟ فعندما نادته لتناول وجبة الغداء بعد مكالمة اللواء الهاتفيّة بوقت قصير، كان جافًّا في ردّه عليها عندما، قال:

ـ ألا ترين أنّني منهمك في الكتابة؟ ألا يمكن للأديب أن يحظى بشيء من الهدوء في هذا البيت؟

كان السيّد شوهان منهمكًا في تأليف كتاب إضافة إلى كتابة الشعارات. وقالت السيّدة شوهان وهي تخفض من صوتها:

ـ إنّه عاكف على كتابة مذكّراته.

وأردفت أنّه استغرق وقتًا طويلاً في التأليف، وأنّها انتظرت حتى بَرَد الطعام في ذلك اليوم. ثم مدّت يدها لتمسك بيدي مرّة أخرى وقالت:

ـ لذا لا تسيئي الفهم يا مايا بسبب تأخّره اليوم. فهو يجعلني انتظره أيضًا. وهنا ابتسمت مضيفة:

ـ ربّما كان هذا قدر النساء!

انقضت أربعون دقيقة قبل أن يهبط السيّد شوهان إلى الدور الأرضي لتناول طعام الغداء في ذلك النهار، ووجد السيّدة شوهان

متحلّقة حول المائدة ومحاطة بطعام بارد وأطباق وأوانٍ وملاعق معدنيّة ومناديل حمراء. ولم تكن قد تناولت طعامها بدورها، وقالت:

ـ إنّني لا أقدر على تناول الطعام قبله إلّا إذا كان خارج البلدة.

وفي مساء ذلك اليوم، اصطحبها في نزهة بالسيّارة إلى ميدان الغولف لمشاهدة الشمس تأذن بالغروب ويكتمل غروبها.

وابتسمت وقالت:

ـ يقول الناس إنّني محظوظة، فهو ما يزال رومانسيًّا بعد كلّ هذه السنين وبعد أن رزقنا بولدين.

وهنا، توقّفت بغتة كأنّها أدركت أنّ من غير اللياقة مناقشة السعادة الزوجيّة مع أرملة. فنهضت واقفة على قدميها وساورها قلق مفاجئ وقالت:

ـ ربّما في وسعك إخباري بالموضوع الذي جئت من أجل مناقشته وإيّاه. إنّني لا أظنّه يملك الوقت لمقابلتك في الأسابيع القادمة، وهو منهمك في العمل. أو ربّما كان في وسعك أن تحرّري طلبًا وسوف أرسله إلى مكتبه.

عدت وأخبرت صاحب ديوان عن محاولاتي الفاشلة لمساعدة الآنسة ولسون، فقال:

ـ ها أنت متعدّدة المواهب، ولو أنّ كوربيت اختار شوهان ليكتب سيرته لكان الكتاب قد كُتب ونُشر مرّات ومرّات في هذا الوقت.

ثم أضاف:

ـ زارني أحد الأشخاص أثناء غيابك. إنّه الجنرال من جديد. ولم يسبق له أن زارني هكذا في الماضي.

في عصر ذلك اليوم، قال صاحب ديوان إنّ الجنرال زاره وأرسل همت سنغ ليعدّ له شايًا، ووجد صاحب ديوان في نهاية الأمر متحرّرًا من كلّ رقيب: فقد ذهب ڤير إلى دهرادان، ولم يعد السيّد قريشي بعد تناول مشروب الجن في الصباح، وكنت أنا في منزل شوهان. وانتظر حتى غادر همت سنغ الغرفة قبل أن يتكلّم.

قال صاحب ديوان إنّ الحديث جرى في البداية عن مواضيع مطروحة ومألوفة، إذْ أورد الجنرال خبر التطوّرات الأخيرة في انتخابات رانيكهت، وعبَّر عن شعوره بالأسى لما آلت إليه الأوضاع في البلاد. وقال صاحب ديوان إنّ الدهشة استبدّت به لأنّ رجلاً تباهى وازدهى في السابق بأنّه لم يقرأ في حياته أيّ صحيفة باستثناء العناوين الرئيسة، أضحى اليوم منشغلاً بالقضايا السياسيّة. ولمّا أبدى صاحب ديوان ملاحظة في هذا الشأن، أوضح له الجنرال بنبرات يائسة أنّ إحساسًا راوده بكارثة محدقة عندما كان يراقب في الأشهر الماضية المستوى الذي انحدرت إليه الحملة الانتخابيّة، وأنّ ثمّة فسادًا مستفحلاً في الهند. ففي رودرابور الواقعة في منطقة السهول ولا تبعد إلّا قليلاً عن رانيكهت، ألقى أحد الملالي كلمة مفعمة بروح الكراهية، ثم جرى من بعد ذلك ذبح خنزير وأُلقي به في المسجد. واليوم، يقتل فيه الناس بعضهم بعضًا على الرّغم منه. لم يسبق أن حدثت تظاهرات في رانيكهت، ولكن كلّ شيء ممكن اليوم: فالكراهية والفوضى جراثيم سريعة الانتشار، والبلد في أيدي عصابات شرسة لا أخلاق لها ولا يردعها أيّ رادع يقف في وجه مصلحتها. المؤسّسة الوحيدة الجديرة بالاعتبار والباقية حتى اللحظة تتمثّل في الجيش. ألا يوافق صاحب ديوان على ذلك.

ازداد الجنرال هذرًا وهو يتكلّم في إسهاب، وشعر أنّ على عاتق

الحرس القديم ـ ومن أكبرهم سنًّا في رانيكهت هو شخصيًّا وصاحب ديوان ـ تقع مهمّة ما يمكن القيام به من أجل الأمّة، أمّا غيرهما فما من مكترث، وأنّ البلد يعتمد عليهما.

وتساءل صاحب ديوان: ما السبب على وجه الدقّة؟ ما الذي ينبغي له أن يفعل من أجل البلد، وهو المصاب بالسعال والداء والعائد توًّا من الموت ـ والذي ربّما لن يطول بقاؤه حتى يعود إليه من جديد؟

قال الجنرال إنّ الخدمات الاجتماعيّة ينبغي أن تبدأ من البيت، وفي وسع الأهالي التبرّع بممتلكاتهم كما كان الحال في الأيّام الوطنيّة العظمى. فبزّته القديمة أضحت من مقتنيات المتحف الآن، وكذلك الصور القديمة. وأنّه على استعداد للتخلّي عن ماله وعن أوسمته ويسلّمها إلى الجيش، وتساءل عن عدد العسكريين الذين ما زالوا على قيد الحياة اليوم وكانوا قد التحقوا في الماضي بالخدمة تحت الحكم البريطاني وحكم نهرو. وأوضح أنّ لديه ما يكفي لكي يثبت للمؤرّخين العسكريين أنّه لا يقوَّم بثمن، وأنّ مثل هذه الأشياء ستكون تذكارًا نافعًا لشبّان اليوم الساخرين عن ذلك الزمن المثالي.

وكان صاحب ديوان قد قال آنئذٍ:

ـ يا لها من فكرة نبيلة!

ثم لوّح بذراعه مشيرًا إلى جميع أرجاء حجرة الجلوس الرثّة:

ـ أنت تدري، ليس في هذه الحجرة الرثّة ما يصلح لأن يضعه جنرالاتك وألويتك في المتاحف.

فانضضّ عليه الجنرال في انتصار:

ـ لكنّك على خطأ يا صاحب ديوان في هذه النقطة تمامًا.

فصاحب ديوان هو الذي امتلك حقًّا أكثر من أيّ شخص آخر ما يُعدُّ ملكًا للأمّة بكاملها: الوثائق التاريخيّة. رسائل ذات صلة بانضمام سوراجغاره إلى الهند. محاضر اجتماعات بين نائب سوراجغاره والمسؤولين في الحكومة الهنديّة، يوميّات صاحب ديوان القديمة وسجلّات ورسائل أدوينا. وقد ذكر الجنرال موضوع الرسائل وكأنّه تذكّره من فوره، وألمح إلى خطورة وقوع هذه الرسائل الخطيرة في أيادٍ لا تستحقّها ـ ومن ثم يستخدمها أصحابها لتحقيق أهداف سياسيّة مقيتة. لهذا فإنّ الواجب ملقًى على عاتق ديوان، على حدّ تعبير الجنرال، في تسليم ما يملكه.

عندما سمع صاحب ديوان كلمة «الواجب»، اعترف أنّه فقد أعصابه وقال:

ـ قلت للجنرال أمرًا أو أمرين، وهو أنّني كنت يومًا ما أحظى باهتمام في أوساط الجيش لأنّهم كانوا يعرفون أنّ لديّ أصدقاء من ذوي المكانة الرفيعة، وأنّ الجنرال نفسه ـ وكان يومئذٍ عقيدًا ثم بات لواءً ـ كان غالبًا ما يزورني طالبًا منّي معلومات، مناشدًا إيّاي أن أنوّه عنه بكلمة هنا أو هناك، وها هو قد رجع إليّ اليوم لأنّه يريد أوراقي. ولكن في الوسط؟ الجيش لا يظنّني أهلاً للثقة في أيّ شيء. فقد حضر إلى هذه البلدة مولانا بهاشاني وأمضى فيها أسابيع متواصلة ولم يخبرني أحد بذلك. الواضح أنّ صاحب ديوان كشمير السابق لجأ إلى هنا بعض الوقت ولم أعرف بذلك. لقد نسوا أمري وكأنّني عجوز أبله أفل نجمه ولم تعد له صلة بشيء، وها هم اليوم يعظونني أن أنفّذ واجبي. ينبغي لي أن أطبق شفتيّ لأكتم ضحكتي على مشاكسته ونكده لهذا الأمر التافه. وقطّبت جبيني تقطيبة شديدة في محاولة لكي أبدو، وقد ثارت ثائرتي، مثله تمامًا.

واسترسل صاحب ديوان:

ـ على أيّ حال، عندما هدأ روعي، كنت مقتنعًا تقريبًا، وعندئذٍ لعب ورقته الرابحة. يا له من أحمق! كان لذلك مغزاه، ولكنّه أحمق. أتعرفين بماذا ألمح بعد كلّ هذا التردّد والمراوغة في الكلام؟ قال لي إنّه سيخبرني بشيء ما من دون أن يعني ذلك أنّه سوف يؤثّر فيَّ، وفحواه أنّ السلطات العليا متفهّمة أنّ إهداء الرسائل من شأنه أن يسهّل الطريق أمام تجديد عقد إيجار لايت هاوس من الجيش.

أصابت الضحكة صاحب ديوان بغصّة وهو يحتسي شراب الرّم، فهرعتُ إليه لأربت على كتفيه.

ـ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ربّما ستجري مراسيم تشييع عسكريّة لجنازتي مكافأة لي. إحدى وعشرون إطلاقة مدفع عندما ألتحق بكوربيت في مناطق صيده السعيدة، شريطة أن أسلّم أوراقه أيضًا؟

ثم تأوّه وابتسم أثناء نوبة سعاله، وأضاف:

ـ لا يستطيع بعض الناس الانتظار حتى النهاية، ولكن ينبغي لكِ أن تعبّري عن إعجابك بإحساس الرجل بالهدف العامّ. ففي سنّه، ما يزال الرجل على استعداد لخدمة الجيش. هل من شأنك يا مايا أن تُظهري قدرًا من الاهتمام وأنتِ في بواكير السنة المئة من عمرك؟ أنا شخصيًّا لن أهتمّ حتى وأنا في سنّ السابعة والثمانين من شبابي بما يحدث للأمّة. فما دامت الأمّة تتركني في هدوء وسلام، فإنّ ذلك الحمار شوهان في وسعه أن يدمّرها على سبيل المتعة التي هي بغيتي الوحيدة.

* * *

١٨

وبعد أسبوع واحد، زال الخوف الذي اجتاح الآنسة ولسون وعموم المدرسة، وعاد أوميد سنغ ليقود الحملة، وبدأ في منطقة السوق، وعلى وجه التحديد في السرادق الذي كان الأب يعقد اجتماعات على مدى بضعة أيّام في الأسبوع. وتحدّث عدد من تابعي الزعيم السياسي قبله وأُطلقت الأغاني الهندوسيّة وأغاني الأشرطة السينمائيّة الشعبيّة. وعندما اعتلى الرجل الرئيس المنصّة لإلقاء كلمته، توقّف الكلام وبدأ يتحدّث عن الشؤون البلديّة، وانتقل من بعد ذلك إلى موضوع البيئة، ثم الدين قائلاً:

ـ لماذا لا تدعم الحكومة زيارة الحجيج لمعبد ديو بهومي فتساعد بذلك في دعم اقتصاد منطقة التلال؟ إنّ هذه التلال موطن الآلهة الهندوسيّة، وإنّ الهند هي ملاذ الهندوس الأخير في نظام عالمي جديد يهيمن عليه الإرهاب والبعثات الإرساليّة النصرانيّة. ثمّة حرب سهلة وأخرى صعبة!

وهنا توقّف أوميد سنغ طويلاً قبل أن يستأنف كلامه من جديد:

ـ وفي حين تخطّط طالبان لشنّ هجمات على مدننا بالقنابل والمدافع، فإنّ الأناجيل تهاجم المناطق القبليّة النقيّة في الهند.

وانطلق أوميد سنغ من هذه النقطة للحديث عن التهديدات التي يواجهها الهندوس في مختلف أنحاء العالم حتى باتوا يخشون خطر الإبادة والهلاك ونقصان عددهم وارتدادهم عن ديانتهم. وبين هذه النقطة والارتداد الديني في مدرسة القدّيسة هيلدا، لا توجد سوى خطوة واحدة. وأضاف:

ـ الخطر كامن هنا في هذه البلدة، ولا بدّ من البحث فيه.

وانطلق أتباعه إلى درّاجاتهم وسيّاراتهم واندفع زئيرهم في موكب. كان الزعيم السياسي قد أخبر الجموع الحاشدة عن التلميذتين المصابتين بالصمّ والبكم اللتين جعلتهما المدرسة تتحوّلان إلى راقصتين نصرانيّتين وترتّلان وتسبّحان في المعمل طوال النهار. وأضاف:

ـ علينا أن نكتشف بأنفسنا ما حقيقة كلّ هذه الأمور.

مضى الموكب إلى المدرسة الكائنة في السوق أوّلاً، لكن كان ذلك اليوم عطلة، من دون تلاميذ، لاحت بيتا على تلّ وسطحه من الصفيح الأحمر وجدرانه صفراء وأبوابه زرقاء ونوافذه مغلقة. وكانت تقع على قطعة من الأرض سوِّيت تحت أقدام التلاميذ فأضحت قطعة مربّعة الشكل من التراب الذي يكنسه حارسنا، الذي فغر فاه في دهشة لمّا شاهد موكب الحملة الانتخابيّة. وهنا عاد الزعيم السياسي ورجاله بعد أن أصيبوا بخيبة أمل، وعندئذ تذكّروا المعمل، فانطلقت السيّارات والدرّاجات باتّجاه المنطقة العسكريّة.

صكّ سمع إحدى الفتيات العاملات في المعمل، وهي في أعلى

التلّ، صوت الموكب وجَلَبَتُه فأسرعت تستطلع ما يجري. كنت آنئذ أجلس من وراء منضدة كتابة في غرفة داخليّة أضغط على أرقام حاسبة، نصف مصغية إلى النسخة الهندوسيّة من «Swing Low Sweet Chariot» التي بدأت تنبعث من جهاز تسجيلنا. كنت في ذلك الوقت أجمع المصاريف وأحاول أن أجعلها تبدو معقولة في أرقامها استعدادًا لتحرير تقريرنا السنوي. وفي الغرفة الخارجيّة، ثمّة عدد من الفتيات يثبّتن العلامات التجاريّة على مئات زجاجات مربّى المشمش والخوخ والإجّاص الذي صنعناه في فصل الصيف. وكانت العلامات التجاريّة قد وصلتنا متأخّرة من دلهي، وكنّا في عجالة من أمرنا الآن حتى تغدو الزجاجات جاهزة للإرسال. وكنت قد طلبت عاملات - أيّ عاملات يمكن الحصول عليهنّ، وكانت بينا وميتو تأتيان كلّ يوم وتجلسان للعمل على امتداد ساعات، ولا تنهضان من مكانيهما إلّا لكي تقضما الفول السوداني المشوي أحيانًا أو لإعداد الشاي وتمطيا أكتافهما المؤلمة.

سمعت الموسيقى وقد تبدّلت، فدفعت أوراقي جانبًا كي أنهض وأؤنّب الفتيات لأنّني ضقت ذرعًا بالأسلوب الذي كنّ يعرّضن فيه سلطتي للإهانة، فقد بدأت أغنية من شريط سينمائي بصورة فتاة هامت في دنيا المخدّرات وتعدّد الأزواج لأنّها عقدت صداقات مع شبّان من الهيبيين، وطاف أخوها في الشريط السينمائي في أنحاء البلاد بحثًا عنها، حتى وجدها بعد جهد جهيد في منطقة قريبة من دار جيلنغ تراقص عددًا من الهيبيين على أنغام أغنية كانت تشدو بها بشفتين اشتهرتا بأنّهما الأكثر جاذبيّة في عقد السبعينيّات، وكانت الأغنية ذات لحن يشدّ الآذان.. وهي أغنية قديمة حتى عندما عرفتها، ولكنّها كانت من أغاني حفلات الكلّيّة التي كنت أذهب إليها أنا ومايكل. واليوم

أسمعها في توزيع جديد وإيقاع سريع. عدت إلى كرسيي وجلست، وراحت قدماي اللتان كانتا قد رحلتا إلى حلبة رقص من أيّام ذكرياتي، تنقران متزامنتين مع الإيقاع. كانت يدا مايكل على خصري، وكان يدور بي في أنحاء الغرفة، وكنت أقول:

ـ إنّك تصيبني بالدوار.

أمّا هو فيقول:

ـ وهذا ما أسعى إليه.

وصل أوميد سنغ وبطانته إلى المعمل، فوجدوا حجرة محتشدة بالفتيات وقد انهمكن في العمل. وكانت بينا وميتو قد فرغتا توًّا من إعداد الشاي وراحتا تبتسمان وتومئان برأسيهما إلى الزوّار وإلى صفّ الأقداح الصغيرة فوق الصينيّة في محاولة خجول لإظهار حُسن الضيافة. وتمكّنتُ من الاستدلال على ديباك في وسط جماعة الزوّار، وكذلك الرجل الذي كان يرافقه عندما حاولت الآنسة ولسون إقناعهما بإبعاد سيّارتهما عن الأرض المحيطة بالمدرسة طوال الأشهر الماضية. كان الرجل الثاني قصير القامة، بدينًا، له منكبا رافعي الإثقال. احتفظ بنظّارته على عينيه حتى وهو داخل الحجرة، والتفت نحو البنتين التوأمين عندما مالت إحداهما من فوقه وهي تدنو منه لتقدّم الشاي، في حين أتت البنت الثانية بالبسكويت المحلّى. وانعكست على النظّارة صورة الفتاتين وهما تنتقلان بالصينيّة من شخص إلى آخر. أمّا بقيّة الفتيات، فقد ألقين بالتحيّة وعِدنَ إلى أعمالهنّ وهنّ يكتمن ضحكات تنمّ عن المشاركة. استمرّ صوت الأغنية يتهادى إلى سمعنا، وكانت العبارة المتكرّرة فيها هي: هاري كريشنا هاري رام.

غادر أوميد سنغ خائب الأمل، ولحق به رجاله متظاهرين أنّهم جاؤوا يؤدّون زيارة اعتياديّة التماسًا لأصوات الناخبين وليس لضبطنا

متلبّسين في تراتيل تبشيريّة. وعلى الرّغم من صوت المغنّية الشهواني الذي يشي بتعاطي المخدّرات، إلّا أنّها كانت تأتي في غنائها على ذكر اسم اثنين من أقدس الآلهة الهندوسيّة.

في عصر ذلك اليوم، وبعد أن جرى تعبئة الزجاجات بالمربّى ولصق العلامات التجاريّة عليها وتعبئتها في الصناديق وأضحت أرضيّة الحجرة خالية، أعادت الفتيات تشغيل الأغنية من جديد. ورقصت أجرأ الفتيات على أنغامها، في حين راحت الفتيات القرويّات الأخريات يقهقهن ملء أشداقهنّ وانضممن إلى المغنّية في غنائها أحيانًا أو بدأن يتوارين من وراء أوشحتهنّ حياءً. وعندما دخلتُ الحجرة، أمسكن بيدي وجذبنها وتوسّلن إليَّ كي أنضمّ إليهنّ وهنّ يردّدن:

ـ يجب أن تنضمّي إلينا يا سيّدة مايا، إنّنا نفعل كلّ ما تطلبين منّا، والآن حان دورك.

ربطت وشاحي من حول ردفيَّ ورقصت أيضًا. لقد مضت عليّ خمس سنوات أو أكثر منذ أن شعرت أنّني بهذه الدرجة من الجذل وأنّني خالية من الهموم. فقد استردّ صاحب ديوان عافيته والتحقت شارو بكوندان وأكملنا تعبئة المربّى في الوقت المحدّد، ومضى السفّاحون الذين جاؤوا لترويعنا من دون إلحاق الأذى بنا. وانفكّت عقدة شعري وتطاير فوق وجهي. وجاءت من رفعت نظّارتي عن وجهي ورمت بها جانبًا، فهتفت الفتيات:

ـ مدام مايا تبدو وكأنّها نجمة سينمائيّة من دون نظّارات!

وأشارت بينا وميتو بأيديهما لتوضّحا لي الخطوات، تعلّمانني كيف أرقص مثلهما ـ أهزّ الكتفين والردفين، واليدان تقطعان الهواء كالنصل.

وكانت ثيابنا تنضح عرقًا عندما توقّفنا، وكنت مبهورة الأنفاس وفي منتهى السعادة.

بعد بضع ساعات، خرجت بينا من الوادي الممتدّ إلى أسفل، واتّجهت إلى فسحة الأرض خارج كوخها الذي يمكنني رؤيته من منزلي. أسنانها بادية للعيان، فاغرة فاها، تكاد تصرخ صرخة صامتة غير مسموعة، ثيابها نصف ممزّقة من منطقة كتفيها، كاشفة عن حمّالة صدريّة النهدين. ورفعت أمّها التي كانت تنظّف وعاءً خارج الكوخ من بصرها إلى أعلى، واندفعت ميتو من درجات السلّم حيث كانت تجلس هائمة في دنيا الخيال. جلست بينا في منتصف الفناء تؤشّر بيديها إلى أمّها وأختها إشارات سريعة ومتوتّرة، فلم أستطع فهمها.

كان كلامها أشبه بمسرحيّة صامتة من مسرحيّات الظلّ، صيحاتها أشدّ إثارة للهلع لأنّها ضجيج. ولمّا فرغت، اندفعت الأمّ نحو بينا وجذبتها من رأسها، فانتزعت حفنة من شعرها، ثم صفعتها مرارًا وتكرارًا على وجهها حيثما وصلت إليه يداها. وحاولت مينو أن تبعدهما عنها، فأخذت حفنة من التراب ورمتها في عينيّ أمّها وهربت، في حين تلوّت الأمّ من الألم ورفعت يديها إلى عينيها الدامعتين.

لم أكن أملك وسيلة لقراءة حركاتهنّ ولم يكن في وسعي معرفة ما حدث، غير أنّني واصلت النظر في هلع بعد أن سمعت صوت العمّة يرنّ في أذنيّ:

تقول بينا إنّها كانت عائدة من السوق، واجتازت طريق الغابة حيث تحرّش بها أحد رجال منطقة نانيتال، وكان قد جاء إلى المعمل اليوم. كان يرمقها بنظرات غراميّة بعد الظهر أيضًا عندما قدّمت الشاي. أمّا أمّها، فتقول إنّ الغلطة غلطتها لأنّها ترتدي ثيابًا ضيّقة

وتذهب للتجوال في السوق وتضحك للصبيان.

استدارت العمّة لترنو إلى المشهد وابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت:

ـ إنّ بينا قطّة متوحّشة. حسبك أن تنظري إلى الأمّ والابنة وتشاهدي كيف تتشاجران. ثم ضحكت ضحكًا متقطّعًا وحشرت قليلاً من التبغ في فمها، وأضافت:

ـ المشهد أشبه بصورة على شاشة تلفاز من دون صوت، وكلّما حدث شجار أخرج مسرعة لألقي نظرة!

وعندما لاحظت الاشمئزاز باديًا على وجهي، قالت:

ـ لماذا اشتدّ بكِ القلق؟ لم يحدث شيء للفتاة، فهي قويّة جدًّا، وعضّت خدّه ورفسته في بطنه وهربت. كما أنّ الأمّ خليعة وفاجرة في كلّ الأحوال، ولا تعير أهمّيّة لأيّ شيء. قلت:

ـ سوف أصطحبها إلى مخفر الشرطة إذْ لا بدّ لها من التبليغ عن الحادثة من دون تأخير، وفي وسع الشرطة إلقاء القبض على الرجل قبل أن يهرب.

قالت العمّة في صوت مستسلم:

ـ أيّتها المعلّمة: إنّ لاتي لن تسمح لك أبدًا اصطحاب ابنتها إلى الشرطة، كما أنّ بينا نفسها لن تذهب لأنّ ذلك سوف يزيد من متاعب الأسرة. وكلّما قلّ انتشار الخبر، كان ذلك أفضل للبنتين.

ثم اكتسب صوتها نبرته المعهودة، وهي تقول:

ـ ثمّة أشياء كثيرة لا أبوح بها، ولو فضحت كلّ ما أعرفه من أسرار هضمتها وخزنتها في معدتي، لذهب نصف سكّان سفح التلّ

وأغرقوا أنفسهم في دلو ماء.

ثم رمقتني بنظرة طويلة حافلة بالمعاني.

راودني في تلك الليلة الحلم نفسه الخاصّ ببحيرة الأموات في روبكوند، لكنّ الشيء المختلف في هذه المرّة هو أنّ رأسيْ بينا وميتو انضمّا إلى بقيّة الجماجم وكانتا تخربشان بأظافرهما الميتة طوفًا جليديًا في محاولة منهما للهروب من المياه. استيقظت وأنا أنضح عرقًا ورأيت أنّ غصن شجرة قد مال وبات شديد القرب من نوافذي، حتى بات في وسعي مشاهدة المخالب تنقر على الزجاج، في حين راحت الريح تشتدّ وتشقّ طريقها بين الأشجار. وندَّ عن المنزل صوت صرير وغمغمات، وسرعان ما تحوّلت قطرات المطر الأولى إلى قرع ثابت على السطح. وقرع جرس الرّيح الذي كنت علّقته على شجرة الخوخ قرعًا رتيبًا كاد يدفعني إلى أن أهرول من تحت المطر وأجذبه حتى يتوقّف الضجيج. وتلاشت كلّ سعادة ما بعد الظهيرة وكأنّ شيئًا لم يكن.

تكوّرت في وحدتي، وكان صاحب ديوان ضجرًا من الحياة والوجود عندما أخبرته أنّني أبغي الذهاب إلى مخفر الشرطة لشأن يخصّ بينا. وكان قد قال آنئذ:

ـ لن يتغيّر أيّ شيء، ولن يهتمّ أيّ شرطيّ بالأمر، ولا حتى أيّ سياسي جديد ولا أيّ انتخابات، ولن يحدث أيّ فرق.

كان قد تهاوى من فوق مقعده وراح في إغفاءة بعد برهة وجيزة، وهو ما دأب عليه في هذه الأيّام حتى وهو في خضمّ حديث. وكان ڤير في دهرادان، ومنها سينطلق في رحلة طويلة أخرى رفقة مجموعة أخرى من الزبائن. ولم يقدر على العثور على فسحة من الوقت أو المكان ولو لبضعة أيّام كي يلتمّ شملنا. ولم يبدُ عليه أنّه نادم على

فراقنا.. وعندما أخبرته غير مكترثة أنّني سوف أذهب وإيّاه إلى دهرادان حدث شجار آخر بيننا، وقال:

ـ أنت ترافقينني إلى دهرادان؟ مستحيل سوف أكون منهمكًا في العمل ولست في إجازة.

وحشر حاجياته في حقيبته ووضعها في سيّارته الجيب، وانطلق من دون أن يودّعني وداعًا لائقًا. ومنذ ذلك الوقت، لم يتّصل هاتفيًّا بي.

* * *

١٩

ينادي طائر البربيت الاستوائي شتاءً من مكانه الوحيد المتربّع من فوق شجرة جرداء من أيّ ورقة. صوته الواضح الرتيب هو صوت الوحشة والحزن. فقد غادر السوّاح، وغادر وإيّاهم زوّار الصيف. في هذا الوقت وحده، نشعر أنّ بلدتنا هي بلدتنا حقًّا وكأنّها أنقذت من المتطفّلين وأنّها رجعت إلينا. الأرض اكتسبت صلابة من شدّة البرودة، والهواء يلدغ الأذنين والعينين مسبّبًا سيلان الأنف؛ أمّا الدروب التي تزيد الأشجار من عتمتها وتلتفّ حول سفوح التلال فمهجورة، وليس ثمّة خشية من سيّارات السيّاح المسرعة من حول المنعطفات. البيوت الضخمة والقديمة في منطقة المعسكر خاوية من جديد. النادلون والطهاة يمارسون لعبة الكريكت على العشب في فنادقهم. ووضعوا ثلاث عصيّ مستقيمة لتكون أوتادًا. أحد النادلين، واسمه شاندان، يتعلّم ركوب الدرّاجة الهوائيّة، متمايلاً تمايلاً خطيرًا بعد أن يتخلّى عن عجلة القيادة ويعقد يديه ويقول وهو يمرّ بي:

ـ مرحبًا يا سيّدة مايا.

كنت قد علّمته وهو صبيّ في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة وهو إخفاق آخر من إخفاقاتي النسبيّة، لكنّه في الأقلّ تمكّن من إتقان الألفباء، كما أنّه تعلّم عمليّة الجمع وإن لم يتمكّن قطّ من إجراء عمليّتي الضرب والقسمة.

تشوب مول رود في هذا الموسم مسحة من الكسل. في الصباح، وعندما تكون الشمس مشرقة على الجهة الأخرى من الشارع، يتخلّى كلّ صاحب دكّان في صفّ الدكاكين الصغيرة من تحت فندق ميغهدون عن موقعه ويضطرّ الزبائن إلى البحث عنهم في الحاجز المقابل. ويحتسي الرجال الشاي في كوخ ناجي. ويجلس الأهالي على أعجازهم بالقرب من أعمدة الكهرباء، متحلّقين حول كانون يتوهّج بنار الفحم وهم يقضمون الفول السوداني، وتسير الكلاب متمهّلة في الجوار، ينبح أحدها في وجه الآخر. وعندما تأذن الشمس بالمغيب، تحلّق طيور السنونو وتشقّ عنان السماء في طريقها لتتربّع مكانها قرب محلّ بقالة تنيره الشموع.

ويتسلّق عدد من القرود دكّان خضراوات باندي ـ جي ويتمركزون من فوق سطحها المشيّد بالصفيح، وينقسمون فرادى ومثنى لمهاجمة سلال الخضروات من مختلف الجهات، فتطاردهم والدة باندي ـ جي، وهي امرأة تزيّن أنفها بحلية ذهبيّة وكعكة شعر كبيرة، حاملة عصاها وتصيح بأعلى صوتها. وينهمك جنديّان اثنان بتلميع لوحة برونزيّة برّاقة أصلاً تشير إلى أنّ المكان هو مأوى الضبّاط، مثبّتة بجانب بوّابة مهيبة، في حين يمرّ عشرات طلّاب الكلّيّة الحربيّة حليقي الرؤوس حتى الآذان في طريقهم إلى ثكناتهم البعيدة قليلاً.

في فصل الشتاء، الهواء نقيٌّ بما يكفي لتنشّقه، وفي وسع عينيك أن تبصرا على بعد مسافة مئات الأجيال حتى تصل خضرة التلال

القريبة وزرقة السماء المشوبة بلون رمادي، والقمم البيض البعيدة التي تشمخ في السماء متّجهة نحو الشمس، فتظلّ معلّقة في موقعها، أعلى ممّا يمكن تصوّرها، متغيّرة الألوان والشكل على امتداد النهار. وفي كلّ ساعة، تأتي كتل السحب مقتربة، واضحة، مدخّنة من فوق حافّاتها وبعد أن يكون آخر ضياء من نهار اليوم قد تلاشى وقت الغروب، تظلّ القمم تومض في العتمة التي راحت ترخي سدولها في بطء، وكأنّ بعض القطع الحادّة من القمر هوت إلى الأرض.

هذه أسرار مخفيّة عن أولئك الذين يهربون من الهملايا عندما تكون في أشدّ حالاتها اسودادًا: فالجبال لا تكشف عن نفسها للناس القادمين إليها لمجرّد الهروب من حرارة السهول. فهي تتوارى طوال فصل الصيف من وراء سديم. وتظهر القمم للعيان أمام أولئك الذين يهبون أنفسهم لها في أشدّ أوقات الشتاء برودة، وأكثر المواسم المطيرة. وقال صاحب ديوان في حالة استثنائيّة من حالات انفلاته العاطفي الذي يغذّيه الشراب أمام المدفأة، إنّ الجبال تعتقد أنّ الحبّ ينبغي اختباره أثناء المحن.

كان ذلك القول هو آخر ما تفوّه به إلى حدّ ما. فقد نهض لكي يذكي النار ويذهب إلى الحمّام، وقال:

ـ اسكبي لي كأسًا أخرى من الشراب من فضلك يا مايا.

ثم تعثّر عند عتبة الباب، فصاح:

ـ أشعلي النور! لماذا هذه العتمة، إنّني لا أستطيع الرؤية.

ولكن قبل أن أتمكّن من الوصول إليه، هوى من فوق ذراع أحد الكراسي وانزلق على الأرض. كان قد بلغ به الضعف والنحول حدًّا دفعاني إلى الاعتقاد أنّني سأقدر على نقله بسهولة إلى فراشه، ولكنّه

كان ثقيلاً جدًّا، يصعب تحريكه، كما أنّني لاحظت أن لا فائدة من ذلك.

* * *

أدركت في الليلة التي توفي فيها صاحب ديوان أنّني لم أعش تجربة الموت تجربة مباشرة. فأقرب شخصين إليَّ توفّيا بعيدين عنّي: فقد علمت بوفاة مايكل من طريق اتّصال هاتفي. أمّا وفاة أمّي، فقد علمت بها على النحو نفسه، ولكنّ الاتّصال الهاتفي كان في هذه المرّة من قبل عمّي. وقد منع أبي الاتّصال بي وإخباري بالوفاة إلّا بعد حرق جثمانها للحيلولة من دون أن أسرع بالمجيء إلى حيدرأباد لحضور جنازتها.

لم تكن لديّ أيّ فكرة عمّا ينبغي لي عمله، فعمدت العمّة إلى إجراء اللازم في إجراءات الوفاة، فأصدرت أوامرها إلى الحاضرين ومنهم همت سنغ ليؤدّي كلّ واحد مهمّته بما فيها أولئك الذين سيغسلون جثمان صاحب ديوان ووضعه على أرضيّة حجرة المعيشة، بعد إلباسه ثيابه الرسميّة التي لم يسبق لي أن رأيتها. كانت الثياب واسعة عليه، واختفى ذراعاه في الكمَّين، فرفع ساعي البريد منهما قليلاً إلى أعلى كي يمكن مشاهدة يديه بأظافرهما الطويلة المربّعة. كما حشوا منخريه بكرتي قطن، وغطّاه آخر بشراشف ذي ترابيع بنّيّة وحمراء داكنة، وجذب الغطاء حتى غطّى وجهه برمته. أمّا العمّة، فوضعت مبخرة فوق صدره وأشعلت نصف دزّينة من عيدان البخور.

سألتُ العمّة:

ـ لماذا لا يمكن إبقاؤه في سريره حتى الصباح؟

فقالت:

ـ ليست هذه عادة متّبعة هنا.

وجاء الناس من كلّ حدب وصوب، لا أعرف أكثرهم، إضافة إلى السيّد قريشي والجنرال وبوران وراميش والسيّد شوهان وزوجته. واتّخذت العمّة مكانها أمام جثمان صاحب ديوان حيث جلست ساكنة بلا حراك، مغطّية شعر رأسها بثوبها الساري بوصفها كبيرة الجالسين تتلقّى التعازي من القادمين. فإذا ما جاء قادم جديد تنهض من مكانها ملقية تحيّة بصوت عالٍ ووابل من الأسئلة، ولم تغيّر أيّ ابتسامة باهتة من ملامح الوقار الصارمة التي كانت ترتسم على وجهها. جلسنا في حلقة منقبضي الأسارير من حول جثمان صاحب ديوان طوال الليل على الرّغم من أنّ الرجال تناوبوا في الخروج إلى الحديقة المتجمّدة من شدّة البرد، ولبثوا واقفين متّشحين بلفاعات، ويدفّئون أيديهم من فوق كانون ينبعث منه الدخان ويحتسون الشراب. كان من شأن صاحب ديوان أن يشاطرهم في الشراب، بحسب اعتقادي، ويطلق النكات ويحتسي زجاجة كاملة من شراب الرّم. وعند انتصاف الليل، صكّ سمعنا صوت فرقعة مدوّية وتهشّم شيء ما وآهة مثل حشرجة موت هائلة، ثم صوت شيء يرتطم. وتبيّن لنا أنّها شجرة قديمة ومنخورة راح حطّابون ينشرونها بالمنشار على مدى الأيّام الثلاثة المنصرمة، فجاءت عاصفة مفاجئة بعيد منتصف الليل وضربتها فقصمت الجذع من أسفله. وانتاب العجب الرجال الواقفين خارج المنزل لهذه المصادفة، وقالوا:

ـ لقد أخذ صاحب ديوان الشجرة برمّتها معه، وها هي الغابة حزينة معلنة الحداد.

وبعد حرق جثمانه في الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي، شغلت نفسي بتنظيف غرفة صاحب ديوان، فرميت بالأدوية غير

المستعملة في سلّة نفايات، وعثرت على زجاجات شراب الرّم والجن من خلف الستائر ومن تحت الطاولة وأسفل سريره. أمّا الكتب، فكانت مرصوفة في كومة عالية فوق منضدة بجانب سريره، ترنّحت عند لمسها، ومختصّة في شتّى الموضوعات: الأنثروبولوجيا وفولكلور كوماون وتاريخ الهند ومجلّدات مجلّدة تجليدًا سميكًا تبحث في موضوع الحيوان والنبات في منطقة الهملايا، وسجلّات مواعيد في ولاية سوراجغاره الأميريّة. وثمّة مجموعة من الأشرطة التي سُجّلت عليها أصوات الطيور. ولن تكون ثمّة فواصل تمثيليّة يؤدّيها صاحب ديوان، وعلى التلاميذ اللجوء منذ الآن إلى تلك الأشرطة المسجّلة.

ومرّ في خاطري شريط من الذكريات: لعلّ أقرب الأقرباء إليه هو ڤير، ولكن كيف يمكننا الاتّصال به وهو في منطقة يتعذّر الاتّصال بها لأنّه في أعالي الهملايا؟ وفي ظلّ غياب الآخرين، تحتّم عليّ إنجاز المهامّ الشاقّة التي تعقب الوفاة. ولم أكن أعرف إن كانت لديه وثيقة تأمين طبّيّة أو إن كان قد ترك أيّ تعليمات تخصّ حساباته في المصرف. لعلّني كنت أحتاج إلى أن أكتب إلى شخص ما لإيقاف دفع مرتّبه التقاعدي. ثم هناك موضوع إيجار البيت الذي لم يجدّد عقد إيجاره في نهاية المطاف، وينبغي لي العثور على مكان ما تسكن فيه العمّة وبوران إذا ما تطلّب الأمر إعادة المنزل إلى إدارة المنطقة العسكريّة. ثم أين سأعيش أنا شخصيًّا؟ دارت الأفكار نفسها في رأسي مرّات ومرّات، ولكنّها كانت كلّها مفعمة بسؤال واحد لا ينتهي ويلحّ مثل نعيب بومة: أين علبة سكائر صاحب ديوان المزيّنة بصورة رولزرويس؟ فبعد أن رحل عن عالمنا، أضحى الحصول عليها حقًّا من حقوقي، لأنّ البيت لا يحتوي على شيء آخر غيرها يمكنني أن أقرنه بها. وعزمت على أن أقلب البيت رأسًا على عقب إذا تطلب الأمر من أجل العثور عليها.

لكن ينبغي لي أن أفرغ من حجرته. طويت بطّانيّات صاحب ديوان المستهلكة ووضعتها في الخزانة، ونزعت الأغطية عن السرير وامتدّت يدي إلى وسادته، وكان ذلك بعد أن رأيت أنّها ما تزال منبعجة على أثر وضعه رأسه عليها، كما شاهدت أيضًا بضع شعيرات بيض.

جلست فوق سريره الخالي من الأغطية، وفكّرت أنّني لم أفقد رباطة جأشي عندما وافته المنيّة ولا حتى في ساعة حرق جثمانه، على الرّغم من الورود الحمر التي كانت مرميّة على أرضيّة المحرقة، والطائر الذي واصل بإصرار صفيره مرافقًا بذلك دموع السيّد قريشي الرقراقة أو الطائرتين بألوانهما الحمر والزرق والصفر اللتين أدتّا استعراضًا جوِّيًّا من أجل الاحتفال باتّحاد الكتائب وحلّقتا من فوق دخان محرقة صاحب ديوان، وكأنّهما عصفوران ألوانهما زاهية.

وعندما رأيت تلك الوسادة وخصلات شعره، أضحيت مفكّكة الأوصال.

غادرت وذهبت إلى منزلي، فأحسست بجمود قاتل يخيّم عليَّ ومن حولي. ورحت أشعر بالنعاس طوال الوقت، فتوقّفت عن الذهاب إلى العمل. لم أعرف ماذا فعلت. فتعفّنت الأشياء وخيّم الغبار، وظلّت الساعة المنبّهة ترنّ السادسة من صباح كلّ يوم، ولكنّني لم أنهض من فراشي، ولم أكلّف نفسي عناء إيقاف صوت المنبّه، فيكف عن الرنين في الأيّام التالية. لعلّني خلدت إلى النوم. أظنّني تناولت شيئًا من الطعام أحيانًا، فأنا لا أتذكّر ذلك، ولا أتذكّر إن كنت قد بكيت، غير أنّني، عندما كنت أستيقظ في أوقات غريبة في منتصف الليل أو منتصف النهار، أجد وجهي مبلّلاً بالدموع. وكنت أرى في أحلامي أمّي ومايكل وصاحب ديوان وهم في مواقف صعبة ومخيفة.

ولم يستطع أحدنا العثور على الآخر في الأماكن المزدحمة. ثمّة شخص ظلّ منسيًا على ظهر قارب في عرض البحر. وكنّا في حجرات مختلفة في البيت نفسه. ناديتهم بأسمائهم ولكن ما من مجيب. وجاء طائر هائل مقوّس المنقار وحادّ المخالب وحطّ على ذراعي في أحد أحلامي، فجعلني أستيقظ في ذعر وهلع، ففركت البقعة التي حطّ عليها من ذراعي. وكان ڤير حاضرًا في أحلامي أيضًا، ولكنّنا في حجرات تحتشد بالرحّالة وبحقائب الظهر وبغرباء يرسلوننا إلى اتّجاهين مختلفين. وسمعت العمّة تناديني أو شارو تقول:

ـ هل جاء ساعي البريد؟ انظري. هذه رسالة مرسلة إليَّ، أرجو قراءتها لي بصوت عالٍ.

ولكن عندما فتحت عينيّ المغمضتين، عرفت أنّني كنت أحلم بأصواتهما.

في صباح يوم من الأيّام، طرق سمعي صوت طرْق متواصل، فبذلت قصارى جهدي كي أستيقظ حتى تمكّنت أخيرًا من الجلوس في سريري، وأدركت أنّ شخصًا ما كان حقًّا يطرق الباب، فاتّجهت متعثّرة إلى الباب، لأجد العمّة واقفة. وأخبرتني أنّها لبثت تناديني على مدى أيّام، وقالت:

ـ كنت اليوم على استعداد لأن أواصل الطرق حتى ينخلع الباب، وظننت أنّ المعلّمة سوف تقضي نحبها جوعًا إن لم يكن حزنًا وغمًّا، انظري إلى نفسك: هزيلة مثل عصا وعجوز، رأسك يشبه ثمرة جوز هند جافّة. لماذا؟ هل المتوفّى والدك؟ أو زوجك؟

مكثت واقفة من فوقي في حين رحت أغسل وجهي، ثم وضعت طبقًا معدنيًا على الطاولة. كان لديّ ثلاثة أرغفة من الدخن الأسود

مغمّسة بالدهن وملعقة من نبتة أحبّها يتصاعد البخار منها وبعض حبّات البصل والفلفل الأخضر الحارّ. تناولت الطعام من دون أن أنبس بكلمة وكأنّني لم آكل من قبل.

بعد أن فرغت من أكل الطعام، جلست أنا والعمّة في الشرفة حيث اتّخذت موضعها في مكانها المفضّل لديها على درجات السلّم، وقالت:

ـ كنتِ نائمة، ولكن ثمّة من كان ينهمك في العمل وأنت غائبة عن هذا العالم بكلّ ما في الكلمة من معنًى.

وهنا حشرت قطعة من التبغ في فمها لتتوقّف قليلاً عن الكلام، فتمنح الوقت الكافي لإحداث الأثر الدرامي لهذه الوقفة القصيرة. وقالت إنّ منزل صاحب ديوان في فوضى عارمة، وإنّ كلّ صندوق أو خزانة قد قلبت رأسًا على عقب، وإنّ ڤير عبث في صفحات كلّ كتاب من كتبه وتفحّصها بعناية. الواضح أنّه لم يتوقّف عن ذلك العمل حتى يستريح دقيقة واحدة. إنّه أشبه برجل ممسوس، اقتحم المنزل وسرق محتوياته وغادر في سيّارته الجيب من دون أن يعطي أحدًا تفسيرًا لما أقدم عليه.

سألتها في ذعر:

ـ كم أمضى من الوقت في البيت؟

أردت أن أسألها إن كان قد جاء إلى منزلي أو إن كان حاول العثور عليه أو إن كان سألها عنّي، أو كيف أمكنه الذهاب من دون أن يكلّمني. لكنّني لم أتمالك الجرأة على طرح هذه الأسئلة عليها، لأنّني كنت حقًّا بحاجة إلى أجوبة عنها.

قالت:

ـ جاء بعد يومين اثنين من حرق جثمان صاحب ديوان وظهر وكأنّ الريح قذفت به إلى هذه المنطقة، ولم يرغب في معرفة سبب وفاة عمّه ولا من الذي تولّى عمليّة الحرق أو ما أشبه، بل ظلّ يسأل: هل دخل أحد المنزل؟ هل بحث أحد ما عن شيء ما؟ فأخبرته أنّك دخلت المنزل ورتّبت حجرة نوم صاحب ديوان وأنّكِ لم تستغرقي في ذلك أكثر من نصف نهار.

ـ وبعد ذلك؟

ـ أخبرته أنّكِ جئتِ إلى بيتكِ، وأخبرته أنّني ناديتكِ مرّات ومرّات ولكنّكِ لم تخرجي، ولهذا ساورني القلق. أمّا هو، فلم يكن لديه الوقت ولا الأذنان لسماع أيّ شيء لا يخصّه.

وأضافت العمّة بعد برهة وجيزة:

ـ لا تنظري إليَّ هذه النظرة، فأنت عمياء وغير قادرة على الإبصار. لقد أقسم أغلظ الإيمان أن يحبّ عمّه وأن يعتني به، لكن من الذي اهتمّ بالرجل العجوز أثناء مرضه؟ هل جاء إلى هنا؟ آه، لا. إنّه لا يأتي إلّا بعد أن تنتهي الأحداث ليتأكّد من الأشياء التي سوف يحصل عليها. لقد لبث طوال تلك الأشهر يترك سكائره في أنحاء البيت، ويشجّع صاحب ديوان على السكر حتى الثمالة. ألا ترين كيف تدهورت صحّته بعد ظهور ابن أخيه أمامه من جديد؟

ـ ما معنى كلامك؟ هل فقدت رشدك؟ أتعرفين ماذا تقولين؟

ثم نهضتُ من مكاني في حركة عنيفة، اضطررت إلى أن أمسك بكرسيٍّ حتى أحافظ على توازني بعد أن شعرت بدوار في رأسي. لقد ألمحت العمّة إلى شكوكها من قبل، ولكنّها لم تكن سوى تلميحات لاذعة. أمّا الآن، وبعد أن فارق صاحب ديوان الحياة وراح ڤير يأتي

ويذهب من دون أن يلتقيني، فإنّها شرعت تتحدّث عمّا يدور في ذهنها وأنّ كلماتها تشوبها مسحة جليّة من العداء الذي تكنّه منذ زمن بعيد لڤير، لأنّ همت سنغ لم يكفّ عن إبلاغها بأيّ شيء مثير للاهتمام يطرق سمعه في لايت هاوس، ولهذا كانت تعرف أنّ ڤير عازم على إخراجها من البيت. وفكّرت في أشياء أخرى يمكن أن تكون على بيّنة منها. وهنا جلستُ على الكرسي من جديد، وما زلت أشعر أنّني في محنة.

قالت العمّة:

ـ انظري إلى نفسك. هذا ما يحدث عندما لا تتناولين الطعام أيّامًا. أمّا أنا فلم أفقد رشدي، وفكري غاية في الوضوح. من ذا الذي واظب على تزويد الرجل العجوز بعدد كبير من زجاجات الشراب؟ من الذي اشترى له كلّ هذه العلب من السكائر التي كان يراها حيثما وقعت عيناه؟ لقد أخبرتك من قبل، وها آنذا أخبرك الآن أنّ قرة عين صاحب ديوان لم يرجع إلى هنا إلّا لكي يرسله إلى الموت. أنتِ تدرين، ثمّة أساليب عديدة للقضاء على أرواح الناس.

في هذه اللحظة سمعتْ صوت رنين أجراس الأبقار، فهرعتْ وخرجت إلى حافّة التلّ، وراحت تصيح منادية بوران:

ـ أخي بوران؟ ألم تتنبّه إلى أنّ راتنا تلتهم فاصوليا ساهور جي؟ أيّها الحمار، الأحمق الذي لا نفع فيه! الهائم في دنيا خياله تاركًا القطيع يسرح ويمرح حسبما يشاء.

كانت مشرقة الوجه عندما جلست من جديد وهي تقول:

ـ كلّ الأهالي تقول إنّ بوران مجنون وإنّه أحمق وأبله. ما من شكّ في ذلك. عندما تفتح البومة عينيها ليلاً تبدو له وكأنّ الشمس قد

أشرقت. ولكن إذا ما أردتُ أن أعتمد في حياتي على شخص ما، فإنّني سوف اعتمد على بوران وليس على ڤير سنغ الذي لا يهتمّ إلّا بنفسه. إنّ أسنانك سوف تتكسّر بسبب حصاة كبيرة وسوداء عندما تأكلين ذلك الإناء من الطعام. صدّقيني. إنّني ألاحظ كلّ شيء، ولا شيء يفوتني.

ثم نظرت إليّ نظرة ذات مغزى وأردفت:

ـ إنّني ألاحظ كلّ شيء ولا أرتكب أيَّ خطأ. قد لا يهتمّ الناس لما تفكّر فيه امرأة عجوز. أمّا المتعلّمون والذين يفكّرون، فيعرفون ذلك كلّه.

* * *

مرّة أخرى، راودني ذلك الكابوس من جديد الذي سبق له أن استبدّ بي بين حين وآخر، مع تغيير طفيف في كلّ مرّة.

في هذه المرّة، كنت أتحدّث إلى شخص ما أستطيع سماع أنفاسه على بعد بوصة واحدة من أذني، وهي أنفاس رجل ولكنّه لا يقدر على سماعي. ولم أتمكّن من رؤية وجهه بسبب غطاء رأسه، ولكنّني كنت أعرف من يكون.

في الحلم، هتفت في إلحاح رهيب:

ـ «قف! تعال. إلى أين أنت ذاهب؟ إنّك ترغم قدميك الواحدة تلو الأخرى. إنّك تنزلق إلى أسفل أثناء صعودك. السفح المنحدر يتغيّر، والصخرة التي لاحت قويّة تنزلق وتسقط في الوادي المظلم من دون صوت على بعد مسافة قصيرة. قدماك مبلّلتان ودافئتان، بدمك! لكن ما سبب ذلك بعد أن تركت الطحالب من ورائك؟ أنت تنظر إلى حذائك الثقيل. الدم يطفح من فوق الحافّات. تتوقّف أخيرًا ومعك

الرجل الآخر الذي يقول: أنت كثير القلق. هيّا. انظر إلى هذا الجانب، يسارًا! ألا تراني أتوسّل إليك أن تلتفت إليّ؟ لم لا تسمعني؟ تبدأ قدماك بارتقاء السفح من جديد، وقلبك يدقّ مثل طبل يحافظ على إيقاع الزمان. الهواء بارد وجافّ، ينقب في منخريك. تتوقّف كلّ بضع خطوات، يهدّك التعب. الرجل الآخر يخز ظهرك ليحثّك على الاستمرار في السير. كلّ شيء من حولنا رماديّ اللون: صخور رماديّة، ثلج رمادي متّسخ، سماء رماديّة واطئة، شريط المنظار من حول رقبتك أنشوطة تستريح.

سوف أحملك مثل طفل رضيع وأبتعد بك نحو مكان آمن إن كان ذلك في مستطاعي. وسوف أنحشر أنا وأنت في حقيبة نوم واحدة، وألتفّ بك طوال الليل كي تتمكّن ساقاي من إذابة ثلج قدميك. وسوف أضغط يديك في أشدّ مناطق جسدي دفئًا حتى أزيل الانجماد من على أصابعك.

على بعد مسافة قصيرة، يقول الرجل الآخر:

ـ أبذل قصارى ما في وسعي لأرى وجهه. أعتقد أنّني سمعت صوته من قبل. حذاؤك الثقيل ينضح بالدماء التي امتلأ بها لتسقط من عمل الثلج الرمادي. يتساقط الدم قطرات حمراء على الحجارة. هل في وسعك أن تحسّ بأيّ شيء غير برودة قدميك اللزجة؟ لا شيء سوى الإعياء.. ماذا يمكنك أن تسمع؟ المنظار يرتطم بصدرك. الريح تشبه موجة محيط.

نصل القمّة. إنّها ليست قمّة مستوية لسهل أو قمّة تلّ، بل هي حافّة طاس مقعّر أبيض اللون يميل إلى الرمادي، تدور فيه الريح مثل دوّامة فتقلب الغبار الجليديّ والحصى الصغيرة في داخله. وإلى أسفل،

في قعر الطاس، يمكننا أن نشاهد صفحة الماء تعكس السماء وتكسر طبقات الجليد إلى أشكال هندسيّة غير منتظمة. وتنزلق جوانب منحدرة من حجارة رماديّة متراكمة بعيدًا عنّا وتتّجه نحو الطاس. يقول الرجل الآخر: هل سبق أن رأيت مثل هذا المشهد؟

انظر من خلال منظارك.

الصوت قادم من بعيد، صوت الرمل وهو يُغرف بمجرفة. سبق لي أن سمعت هذا الصوت، في زمن آخر وفي مكان آخر. يضع يده على كتفك، فإذا بإحدى أصابعها مفقودة.

ترفع المنظار إلى عينيك وتشاهد ما أظنّك تنتظره. حافّات البحيرة مأهولة. عظام وهياكل عظميّة بشريّة: عظام ترقوة وجماجم وعظام السيقان الكبرى وعظام السيقان الصغرى وعظام الفخذ. فكوك سفلى وأضلاع، سلاميّات أصابع الأيدي والأقدام، حلقات أصابع أقدام فضّيّة وحلقات أصابع أيدٍ ذهبيّة، ما تزال كلّها في مواضعها. قلائد ذات خرزات ذهبيّة مشتبكة في فقرات. بعض الهياكل العظميّة ما تزال لم يلحق بها أذًى تقريبًا، متجمّدة في قعر البحيرة، وبعضها الآخر متشبّث بالسفح في محاولة للتسلّق وإيجاد طريق للخروج. وثمّة جمجمة طافية في الجزء السائل من البحيرة.

تقول هذا هو الحال الذي سننتهي إليه كلّنا، فأسمع صوتك. وتلوح ابتسامة على وجهك مؤلمة في ذلك الطقس البارد.

لا تحصل على إجابة. فتنظر إلى يسارك، فلا تجد أحدًا. ولا أحد إلى يمينك أو إلى خلفك أو بعيدًا منك أو في الجانب الأسفل الممتدّ نحو البحيرة.. تهتف مناديًا اسمًا من الأسماء. أحاول أن أتبيّنه، ولكنّني لم أفهم مقطعًا واحدًا منه بسبب الريح. حذاؤك ثقيل بالدم، لا تكاد تقدرُ على رفعه بسبب ثقله. وتسقط قطرة، ثم تعقبها

قطرة أخرى من جليد مذاب من السماء المنخفضة. تتراجع عن حافّة البحيرة، فتفقد قدماك المثقلتان بالدماء والعاريتان على نحو يتعذّر فهمه، من موطئهما. أنت ترى الماء في البحيرة والهياكل العظميّة فيها. الجليد والسماء المثقلة بالسحاب في الماء، تندفع نحوك، وتشعر بخفّة هائلة ودوّامة وأنت تهبط محلّقًا نحو الخواء.

تصيح بصوت عالٍ، ولكن ليس باسم صديقك، بل إنّك تنادي: مايا، مايا».

مايا، وهمٌ من الأوهام، اسم امرأة، اسمي.

أستيقظ من النوم وإسمي يرنّ في أذنيَّ. وشاهدت من بين النوافذ الخالية من الستائر السفوحَ الشرقيّة من نادا ديفي وتريشول معلّقة بين الليل والنهار، مكسوّة بثلوج مزرقّة. سوف يكون الصباح مشرقًا وصافيًا، بهيّ المناظر، ولكنّني أردت أن أهرب: أن أدفع الغابة جانبًا وأهرب من البلّوط ومن ظلمة أشجار أرز الهملايا، وأن أسلك سبيلاً متّجهًا نحو السهول، وأن أهبط مسرعة وأبتعد عن برودة الطقس ورطوبته وأمطاره وثلوجه، وعن نعيق البوم ليلاً.

أردت أن أحظى بمشاهدة أشجار المانغو التي ترجع إلى أيّام طفولتي، وإلى حرارة شمس ما بعد الظهيرة المحسوسة، وإلى خضرة أشجار جوز الهند اليانعة اللزجة وإلى مائها العذب الشبيه بماء الينابيع.

قذفت بكتلة البطّانيّات التي كانت تغطّيني ووثبت من فوق سريري وتسلّلت من تحته حيث احتفظت بأشياء قد لا أحتاج إليها أبدًا: حقائب ثياب، حقائب اعتياديّة، صناديق كتب. ثم جذبت حقيبة وحرّكت ماسكاتها، ولكنّها لم تنفتح وانسدل شعري من فوق وجهي. كان الحلم ما يزال حيًّا، قلبي يدقّ عنيفًا بما أعرفه يقينًا. هبطت إلى

الدور السفلي وأخرجت صندوق مفاتيحي القديمة ووضعته على الأرض، ورحت أبحث وسط كومة من القطع المعدنيّة، وحاولت أن أجرّب المفاتيح، الواحد تلو الآخر، في الأقفال الصدئة المثبّتة على حقيبة الثياب التي لم يفتحها أحد منذ عهد بعيد. وبدأت أرمي المفاتيح غير الصالحة جانبًا من دون اكتراث إلى المكان الذي تسقط عليه. وعثرت على مطرقتي، فطرقت بها الأقفال مرّة ومرّتين وثلاث مرّات إلى أن انكسرت.

فتحت غطاء حقيبة الثياب المغبرّ فأصدر صريرًا، ثم جذبت الرزمة الثقيلة المغطّاة بمادّة بلاستيكيّة: حقيبة مايكل، وكنت قد تسلّمتها بعد مرور أسبوع من وفاته ولم أنظر إلى ما في داخلها قطّ. أمّا اليوم، وبعد أن فتحتها، فاحت منها رائحة عفن الفطريّات القديمة. ثم جذبت الكنزات الفضفاضة ـ الزرقاء التي تحمل صورة دولفين وكنت قد اشتريتها له قبل رحيله بأيّام، والحمراء التي تحمل صورة وجه جون لينون ـ كما أخرجت غير ذلك من الملابس المحشورة مثل كرات محكمة في هذه الأعوام الخمسة التي كنت أحتفظ بها فيها. ثم أخرجت علبة مغلّفة تغليفًا ينمّ عن عناية وحسن اهتمام، تحتوي كتابًا وتعويذة من التيبت لجلب الحظّ السعيد، ورسالة سبق أن كتبتها وأرسلتها من طريق رسول ينتظره في دهرادان لتكون مفاجأة له قبل أن ينطلق في رحلته.

فتحت الرزمة وشاهدت أوراقًا أخرى كان مايكل قد وضعها فيها ليحتفظ بها، ومنها بضع صفحات ممزّقة من دليل إسعافات أوّليّة وخارطتان وبضع صفحات مطبوعة تبدو وكأنّها أوراق رسميّة مرسلة من معهد تسلّق الجبال، وتحتوي على تفاصيل الرحلة: قائمة بالأشياء التي ينبغي للمتسلّق أن يحملها معه، ونقاط التجمّع والتقاء القطارات.

وعلى ورقة منفصلة، ثمّة ثلاثة أسماء وأرقام هواتف تخصّ المتسلّقين. وكما أوضح مايكل، فإنّ الأسماء الثلاثة كانت اسمه واسم شخصين آخرين، أحدهما متسلّق هائل، كما أخبرني في تلك الليلة قبل رحيله. في حين كان الاسم الآخر لأحد الحمّالين.

أغمضت عينيَّ. كنت واثقة ممّا سأرى.

كانت الأسماء المدوّنة على الورقة هي:

مايكل سيكوريا

رانڤير سنغ راثور

شامشير بها دور غورونغ

عدت بذاكرتي إلى زمن كنت قد استيقظت فيه من أحد الكوابيس مبهورة الأنفاس. وكان ڤير قد هدّأ من روعي بتطمينات همس بها همسًا خفيفًا. وتحدّثت إليه حتى بزوغ الفجر في شأن وفاة مايكل، وفي كلّ شأن آخر مررت به أثناء تلك السنة ـ وهي أمور لم أحدّث أحدًا بها من قبل ـ وكان ڤير قد قرّبني إليه ولم يقاطع كلامي ولو مرّة واحدة. ولمّا فرغت من حديثي، وصف لي المنطقة وصفًا دقيقًا يشبه دقّة رسّام الخرائط الجغرافيّة، ولكنّه لم يقل شيئًا لكي يلمّح إلى أنّه كان آخر رفاق رحلة مايكل. ولم يفكّر مليًّا في الخطأ الذي يمكن أن يكون قد حدث، ولم يذكر الاحتمالات الكثيرة المثيرة للهلع، مثل الموت بنتيجة قضمة الصقيع أو الموت بسبب السقوط أو بالإصابة بجرح أو بتلف الدماغ أو بالاستسقاء الرئوي. ولم أشكّ في الأشياء التي كان يخفيها صمته، ولذلك كنت ممتنّة لكلّ الأشياء التي لم يقلها.

ولم يقل لي أيضًا إنّه كان يعلم بأمر معهد مايكل الخاصّ بالتسلّق.

ولم يقل لي إنّ مايكل كسر كاحله.

ولم يقل لي إنّه تخلّى عن مايكل يكافح وسط عاصفة ثلجيّة بكاحله المكسور، وهما يعلمان أنّ ذلك معناه الموت الزؤام.

جلست على الأرض ممسكة بالأوراق ومن حولي بعض مقتنيات مايكل. ونُفخ في البوق في ثكنات الجيش لإيقاظ العسكريين كما هو الحال في صباح كلّ يوم، وتوهّجت الأضواء من وراء النوافذ المربّعة الواحد تلو الآخر، وتصاعد الدخان من النيران المتّقدة لتسخين ماء الصباح. وانطلقت الطيور تشدو أحدها للآخر على امتداد الأشجار والغابات، ودقّت مشاغل الصباح اليوميّة، التي تجعلني أنسلّ من فراشي يوميًّا، مسامير في فؤادي. وراودني إحساس شامل بالوحدة، فطوّقت ركبتيّ بذراعيّ وتمالكت نفسي، في حين راح بدني يرتعش من فرط النشيج وبكيت وكأنّ مايكل فارق الحياة يوم أمس. والتقطتُ مقتنياته الواحد تلو الآخر من حقيبته وقذفت بها نحو الجهة الأخرى من الحجرة في ثورة وهيجان. يا لسهولة الموت! لقد استبدّت الدهشة بالناس وهم يرونني أبني حياتي الجديدة في بلدة بعيدة على إثر وفاة زوجي، وقالوا يومئذ: يا لها من رباطة جأش، يا له من استرداد سريع للعافية. أمّا اليوم، فهو يبدو وكأنّني كشطت قشرة جرح بأظافري، وتركت الدم يسيل من تحته منذ سنين.

سبق لي أن حزنت حزنًا شديدًا لموت مايكل، واليوم سأعذّب نفسي إلى أن يأتي أجلي بسبب علاقتي الجنسيّة غير الشرعيّة مع ذلك الرجل، الذي تخلّى عنه في وقت كان في أمسّ الحاجة إلى العون والمساعدة. كيف سمحت لنفسي بحدوث ذلك؟ متى تخلّى ڤير عن لقبه واختصر اسمه الأوّل؟

كما أنّ صاحب ديوان نفسه لم يسمّه بغير الاسم ڤير. وأحيانًا كان يخاطبه بعبارة السيّد سنغ أو يقول عنه «المتسلّق العظيم سيّد سنغ»، إذا كان سيّئ المزاج.

إلى أين مضى الجزء الأخير من اسمه راثور؟

لعلّ ڤير لم يستعمله إلّا في الوثائق الرسميّة. هذا أمر ممكن، بل طبيعي، تمامًا مثلما هو الأمر في اختصار اسمه الأوّل.

أو لعلّه اختار أن يضيع أجزاء من اسمه في الثلوج من بعد إهماله مايكل وتركه حتى يفارق الحياة.

أردت أن أجلو بشرتي الدهنيّة بحجارة خشنة. أردت أن أنتف الشعر الطويل الذي همس فيه ڤير بعبارات الحبّ والوعود، متلاعبًا بأحاسيسي وعواطفي عندما سرد عليّ قصص طفولته المريرة المعذّبة، ومعاناته وتشرّده وبحثه عن هويّته. كنت أسيرة رقّته وهالته المحفوفة بالألغاز والمثيرة للاضطراب التي لا سبيل إلى معرفتها. الآن عرفت أنّ صمته لم يكن إلّا غطاء حاول أن يدفن من تحته صلته بموت مايكل.

* * *

٢٠

الوقت هو شهر كانون الأوّل في بلدة رانيكهت. ثمّة عُقابان يحلّقان وسط زرقة السماء التي لا تتوقّف. إنّهما يحلّقان من فوق ملعب الغولف، ويدوران حول المساعدين من ذوي القبّعات الصفر والكولونيلات والألوية، ومن هم أقلّ شأنًا منهم ممّن يسيرون سيرًا متمهّلاً وراء كرات بيض يضربونها بمضارب تخطئ التسديد فترسلها للتدحرج أسفل سفوح التلال ـ وينظر المساعدون إلى أعلى، في وقت تمرّ ظلال الأجنحة فوق وجوههم، فيلوّحون بمضارب كرات الغولف في اتّجاهها فتبتعد حتى تصبح نقاطًا بأسرع ممّا يمكن للعين أن ترى!

وعلى مقربة، يسير موكب من عجلات الجيش ذات اللون الزيتوني الغامق على امتداد الطريق، غير أنّه لا يستطيع التقدّم في سرعة بسبب ضغوط الأهالي، الذين كانوا يودّعون آخر مرّة أولادهم الشبّان مقصوصي الشعْر والمرتدين بزّاتهم العسكريّة والتي تحتشد بهم

الشاحنات التي تقلّهم. ثمّة تقارير عن متسلّلين عبر حدود الباكستان البعيدة والمكسوّة بالثلوج، وكانت الشاحنات تنطلق كلّ يوم محمّلة بالجنود إلى المنطقة المضطربة. في غضون أسبوعين اثنين تغيّر كلّ شيء، ولم يعد عبثًا تدريب الجنود الصباحي اليومي والهدف من تدريبهم وإقامة المعسكرات المموّهة في الغابات. هم يحاولون ألّا ينظروا إلى كلّ بيت وثكنة وبوّابة ودكّان، يعرفون كأنّهم يرونها آخر مرّة. كان غوبال في مكان ما في إحدى تلك الشاحنات يشقّ طريقه الملتوي إلى المتاعب. وكان الموظّف غاية في القلق لا يقوى على قول: «هكذا أخبرتك».

يطير العقابان من غير اكتراث فوق الشاحنات المحمّلة بشباب يفكّرون في هدوء. وإلى أسفل، عند مخبز بيشت، يتمشّى الأفراد تحت أشعّة الشمس في الفناء خارج المظلّة التي تظلّل الفرن، بعد أن قرّروا ألّا يخبزوا في ذلك اليوم لأنّ الخبز القديم ما زال متوافرًا. سوف يعود السيّاح في العام المقبل. وها هو عيد الكريسمس قد انقضى، وأضحت معجّنات الكريسمس يابسة وبائتة من وراء الواجهات الزجاجيّة. كانت عيون العقابين مسلّطة على لقمة سائغة، فهبطا على مكبّ نفايات على مقربة من السوق بعد أن شاهدا حركة: أرنبًا أو نمسًا. فيهرب الأهالي مذعورين، ويلتقط موظّف البلدة البيئي صورة، مستخدمًا كاميرا هاتفه الخلوي، ويقول إنّه سوف يرسلها إلى هورنبيل. فيسأله صديق: «ما معنى هورنبيل؟».

في أعلى تلّ ألما شديد الانحدار، وعلى بعد مسافة من السوق وفي جهة المنطقة العسكريّة، العقابان من فوق الكنيسة ومدرسة القدّيسة هيلدا. ثمّة نساء جلسن تحت أشعّة الشمس خارج مبنى الكنيسة يقشّرن الفاكهة المكوّمة أمامهنّ، برتقاليّة وصفراء. ويتناهى

إلى الأسماع صوت عزف موسيقى، وغناء البعض منهنّ. وفي ركن آخر، تصنع النسوة الأقراط والقلائد من حبّات الخرز، وهو منتج جديد في عملهنّ التجاري. الانتخابات انتهت، وعيّن أنكيت راوات في مدينة دلهي بوصفه أوّل نائب برلماني من بلدة رانيكهت، ولم يعد أحد يكترث لموضوع الإرساليّة النصرانيّة في المدرسة، في الأقلّ حتى يحين موعد الانتخابات القادمة. وعلّقت الآنسة ولسون صورة كبيرة لها على الجدار المواجه للصورة القديمة، كما أضافت لها صورة البابا الذي كانت تحلم برؤيته يومًا ما في الڤاتيكان، وقرّرت ألّا تمانع في سماع العاملات موسيقى الأشرطة السينمائيّة في المعمل، لأنّها كانت تستمتع بها، وأن لا تقرّها.

وفي مول رود، حطّ العقابان على قمّة شجرة أرز الهملايا ونظرا إلى الأهالي وهم يتشمّسون تحت أشعّة الشمس على الحاجز، في محاولة لخزن الدفء للأماسي الطويلة الباردة والمظلمة التي تنتظرهم. ويُشاهد هذان العقابان الرجل المنهمك في تحميص الفول السوداني وأصحاب الدكاكين وهم يطاردون القردة بالعصيّ لإبعادها؛ والفتيات الواقفات في الصفّ ينتظرن دورهنّ لملء الماء من صنبور مياه، وسيّارات الأجرة من طراز جيب وهي تنطلق ذهابًا وإيابًا. ثمّة قرد صغير وحيد على قارعة الطريق: له أذنان صغيرتان ورديّتان لا يزيد عن كونه قطعة صغيرة من اللحم والدم والحياة. يبسط العقابان أجنحتهما ويُفكّران في الطعام، لكن والديَّ القرد يظهران للعيان على حين بغتة بعد أن توجّسا شرًّا، فيأخذان صغيرهما بين أذرعهما ويثبان به فوق السطوح لوضعه في مكان أكثر أمانًا.

ويشعر أحد العقابين بالإحباط، فيتربّع من على ذراع التمثال الجديد، الذي أقامه السيّد شوهان في مول رود. في الشهر الأوّل،

كان تمثال بي. آر. امبركار مرتديًا حلّة ويضع نظّارات دائريّة على عينيه. وفي الشهر الثاني، وفي هدأة الليل، جرى طلاء الحلّة الزرقاء باللون الزيتوني ووُضع له حزام وقبّعة عسكريّة على رأسه. وفي صباح اليوم التالي، شهق أهالي رانيكهت في دهشة جماعيّة لأنّهم وجدوا سونهار شاندرا بوز بدلاً من الموقع الذي كان فيه امبدكار، وكأنّ التحوير حدث نتيجة سحر ساحر. ورأى السيّد شوهان ما لم يره غيره من احتمالات، فهو وحده الذي أدرك أن لا ضرورة لتغيير وجه التمثال ما دام أنّ وجهيْ الرجلين مستديران وأنّهما يضعان نظّارات متشابهة. غير أنّ السيّد شوهان لم يستطع الآن أن يظلّ صامتًا، ولا يخبر المارّة أنّه هو الذي ابتكر أوّل تمثال يمكن تبديله وتحويره في العالم، استعدادًا لأيّ مناسبة. ويظنّ أنّه بقليل من الجهد يمكن أن يحوّر التمثال ليصبح تمثال نهرو أيضًا، وإن كان رفع النظّارة سوف يحدث مشكلة، إذْ يقول:

ـ لكن إن لم تكن ثمّة مشكلات، فكيف نتوصل إلى الحلول إذن؟

ينقر أحد العقابين التمثال ويثب إلى رأسه ويبسط جناحيه ثم يحلّق. يطير العقابان إلى بداية مول رود وفوق البيوت القديمة التي ترقى إلى عهد الاستعمار. سبق لهما أن حطّا على هذه البيوت وأقاما عشّهما وربّما يكرّران ذلك. يطيران من فوق إسبين لودج وطريق الغابة ويتّجهان إلى فندق ويستفيو، ويمرّان فوق نهر يسير في الوادي المعتم القريب من فندق روزماونت، وفوق منزل غابو دوبي حيث ثياب الغسيل معلّقة كي تجفّ ويبهت لونها تحت أشعّة شمس الشتاء... فأفتح عينيَّ وأشعر بظلّ ينزلق من على وجهي. يمكنني أن أشاهد ريشهما ومخالبهما، فهما يطيران على ارتفاع جدًّا منخفض.

لم يسبق لي أن شاهدت عقبانًا، هذه الطيور الجميلة والخطيرة، في هذا الجزء من سفح تلي، فأحدّق إليهما وهما يدوران من فوقي. من أين جاءا؟ وإلى أين يتّجهان؟ هل جاءا إلى هذه البلدة بعد أن قطعا كلّ تلك المسافة من منغوليا أو كازاخستان؟ لو كان صاحب ديوان على قيد الحياة لأخبرني بكلّ شيء عنهما، ولنظرنا إليهما معًا مبهوتين. أجنحتهما ساكنة لا تتحرّك أثناء الطيران، ولدى سماعهما أدنى همسة، يشقّان عنان السماء في خطوط دائريّة غير متقطّعة تبدو مثل برتقالة. أراقبهما أطول مدّة ممكنة حتى يصبحا نقطتين سوداوين شاهقتين تبتلعهما أشعّة الشمس الساطعة التي تغشي الأبصار. أغمض عينيّ وأستمتع بأيّامي القليلة المتبقّية لي في لايت هاوس قبل أن يسترجعه الجيش. علينا كلّنا أن نبحث لنا عن مكان جديد نقطن فيه. العمّة تعتقد أنّها ستصطحب بوران وتعود إلى قرية أجدادها في أعالي الجبال، لأنّها لم تعد تملك أحدًا يسكن في رانيكهت على حدّ قولها.

جاءت شارو مرّة واحدة لزيارتنا وكانت قد تغيّرت، وأضحت امرأة متزوّجة. بدت كعروسة، ولم تعد منفوشة الشعر كسابق عهدها. وكانت الأساور تغطّي ذراعيها، وما تزال تزيّن أنفها بحلقة أمّها الذهبيّة واللؤلؤيّة.

كان مفرق شعرها أحمر اللون. بدت متشامخة وناضجة، وإن كانت ما تزال في سنّ الثامنة عشرة. أمّا العمّة، المرأة العمليّة دائمًا وأبدًا، فقد وبّختها مرّة لتبيّن لها أصولها.. وبعد ذلك انهمكت في أخبار أهل السفح بقصص رحلة شارو الشجاعة إلى دلهي بعد أن أضافت إليها قدرًا كبيرًا من التفاصيل المثيرة. وأطعمت شارو المهلّبيّة بحبّ الهال والمكسّرات يوميًّا، ولم تسمح لها بالقيام بأيّ عمل،

لأنّها لم تعد ابنة اليوم بل ضيفة قادمة من مكان آخر.

بعد مرور شهر على انقضاء زيارة شارو بلدتها، تلقّيت رسالة، فسارعت إلى العمّة وأطلعتها عليها قائلة:

ـ انظري! لقد تعلّمت ابنتك الكتابة!

السيّدة مايا،

هل أنت بخير. هل العمّة والعمّ بوران بخير؟ أنا بخير. وهو أيضًا بخير. سنغافورة بلد جميل جدًّا.

وقد شاهدت البحر.

مع أسمى اعتباري.

شارو.

أثبتت العمّة من جديد أنّ ما من امرأة في هذا الجانب من ناندا ديڤي أكثر مكرًا ودهاءً منها. فبعد أن قرأت رسالة شارو لها، دخلت بيتها وعادت إليَّ تبتسم ابتسامة تكشف عن أسنان بنّيّة اللون وتحمل رزمة مغلّفة، وقالت:

ـ لديّ شيء لكِ أيضًا. أعتقد أنّ هذه هي الرزمة التي كان يبحث عنها ابن أخ صاحب ديوان: والآن، وبعد أن رحل، فهي ملكك أنتِ وفي وسعك أن تفعلي بها ما تشائين.

ثم اتّسعت ابتسامتها والتوت. ولم تضف شيئًا آخر عندما تركتني ومضت في سبيلها.

فتحت الرزمة ورحت أقرأ محتوياتها والإحساس المزدوج بالدهشة وعدم التصديق يستبدّ بي، إذْ اتّضح في نهاية الأمر أنّ أسرار

صاحب ديوان الدفينة كانت موضع قيل وقال عظيمين في بلدتنا.
فالرزمة لم تكن مختومة، فهي يمكن أن تكون قد سرقت هذه الأوراق وأخفتها لكي تغيظ فُير! وقد يكون صاحب ديوان أعطاها إيّاها معتقدًا أنّ أوراقه ستكون في مأمن إذا ما وضعها بين يديّ قرويّة موثوق بها لا تعرف القراءة والكتابة!! حتى إن كانت تلك المرأة هي العمّة..

* * *

٢١

الرزمة بين يديّ، عصر هذا اليوم، وأنا مستلقية تحت أشعّة الشمس، مستغرقة في التفكير في هذا المنزل، الذي سرعان ما سيغدو مهجورًا فيحتفظ بأشباحه وقصصه للساكن الجديد. كلّ الكلام من حولي يدور عن المستقبل وعن الخطط. أمّا أنا، فلا أتحدّث عن أيّ منهما. إنّني لم أعد أخطّط لأيّ شيء، لا أعرف شيئًا سوى الحاضر، هذا اليوم، وهذه الساعة.

أفتح الرزمة السميكة، وكنت أقلّبها مرارًا وتكرارًا في غضون الأيّام القليلة المنصرمة. الآن أعرف أنّ صاحب ديوان لم يكن يمزح عندما دغدغ مشاعر الباحثين بإشاعات وأقاويل عن رسائل غراميّة تعود لعهد مضى. ها هي أمامي الآن: ثلاث صفحات من الورق الأصفر مكتوبة بخطّ يد مشهور وقديم، أعرفه من التواقيع التي أشاهدها مطبوعة مئات المرّات.

الرسالة مدوّنة على ظهر قائمة بأسماء الأطعمة في مأدبة أقيمت

لحزب الصيّاد وعليها الأحرف (إي. أم ـ إلى جي. ألـ. إن)* وهي مكتوبة بخطّ صاحب ديوان ومفادها:

عددنا هو ١٢ في عربة السيّدات، ولها شبابيك نوافذ تنسحب إلى الجانبين، وينبغي لنا أن نرتقي سلّمًا. هل تملك عربة صيدك سلّمًا أيضًا؟ أتعلم أنّ في عربتي حجرة سرّيّة. تقول لي إحدى سيّداتي الشابّات إنّ على المرء أن ينسلّ إلى الحجرة السرّيّة ويخرج خروجًا اضطراريًّا إذا ما هاجمه حيوان ما؟ لكنّني لا أفكّر إلّا في أنّني أحبّ أن أنفق رحلة الصيد برمّتها في حجرة سرّيّة صحبة رجل واحد في العالم أشعر وإيّاه بمنتهى الهدوء والسعادة.

أمّا جواب هذه الرسالة والمدوّن عليها (جي. أل. أن إلى إي. إم) فقد كُتب على ورقة، وفيها سطر مدوّن بالآلة الكاتبة يقول: نشرت أوّل مرّة في ١٩٣٥ من فوق الأسطر المكتوبة بالحبر وبخطّ اليد. وقد دُوّنت هذه الرسالة على ظهر صفحة عنوان اقتطعت من كتاب عن الهملايا، وفيها:

في مساء البارحة، كنت أنظر إليكِ في الجهة الأخرى من الغرفة لا أريد شيئًا سوى الحديث إليكِ ولكنّني كنت عاجزًا عن الاقتراب منكِ، وكانت لديّ فكرة شديدة الوضوح عن الأيّام المقبلة عندما ترحلين عن الهند نهائيًّا. أنتِ وديكي، تصافحان أيادي بضعة آلاف من الأهالي، مودّعين إيّاهم وتبتعدان أكثر فأكثر، في حين أرقب المشهد من بعيد وأرقب تلك المسافة وهي تكبر حتى تغيبي عن الأنظار، فأبتعد بدوري.

ثمّة رسالة ثالثة من (جي. أل. أن ـ إلى إي. إم) وفيها هذه الأسطر القليلة:

(*) الأحرف ترمز إلى أدوينا مونتباتن وجواهر لال نهرو كما هو واضح (المترجم).

ثمّة وردة ذات لون أحمر غامق على العشبة الثالثة تحت نافذة حجرة نومك. إنّها فوّاحة جدًّا. وفكّرت أنّك ربّما كنت ترغبين في النزول وشمّها بنفسك في هذه الليلة بعد المأدبة.

وثمّة حزمة أخرى من الأوراق: أوراق من مخطوطة كوربيت بعنوان «آكلو البشر في كوماون» وعليها تصحيحات. وثمّة مجموعة من الأوراق المدوّنة بالآلة ومنها: ماغي شقيقة كوربيت وهي تملي على صديقتها روبي بيتس، وهي أوراق وعدني صاحب ديوان بها عندما كان حيًّا، وإن لم أصدّق بوجودها في ذلك الوقت.

ما تزال ثلاثة أشياء في الرزمة. أعرف ماذا أتوقّع أن أجد، ولكنّني حتى في هذه الحالة، أشعر بغثيان وأنا أسحبها. ثمّة صورة ورسالة في مغلّف ووصيّة صاحب ديوان.

نظرت إلى الصورة مليًّا مرّات ومرّات حتى أصبحت أعرف كلّ مربّع صغير من مربّعاتها، صورة بالأسود والأبيض لمجموعة من نساء ورجال بثياب شاع زيّها في عقد الستّينيّات من القرن العشرين. وكانوا يجلسون على كراسٍ في الهواء الطلق. مضارب كرة المضرب من العالم القديم، أقداح وزجاجات منثورة على العشب. الشمس في عيونهم تدفع بعضهم إلى أن يغمض عينيه قليلاً. أمّا صاحب ديوان فمفتوح العينين، ينظر إلى عدسة التصوير، مرفوع الذقن، وعلى وجهه أمارات النصر. في عينيه ألق أعرفه معرفة جيّدة، أمّا خلاف ذلك، فهو يبدو إنسانًا مختلفًا تمامًا، إذْ لا أثر للتجاعيد في وجهه ولا لحية، قصير الشعر، مصفّفًا إيّاه إلى الوراء، رائق العينين، وسيمًا، نضر الملامح، وعلى ذراعه طفل صغير، أمّا اليد الأخرى فتستند إلى رأس كلب كبير ذهبيّ اللون.

ثمّة نساء ثلاث في الصورة يلبسن الساري وقمصانًا من دون أكمام. إحداهنّ لا تنظر مباشرة إلى عدسة التصوير بل إلى صاحب ديوان، والطفل الصغير الذي يحمل نظرات تنمّ عن جوع شديد يكاد يقفز خارج الصورة حتى بعد كلّ هذه العقود من الزمان.

أفتح الرسالة المرفقة بالصورة. عنوان المرسل إليه هو عنوان ڤير ومكتوب بخطّ يد صاحب ديوان، وأجد صعوبة في قراءته على الرّغم من أنّني أعرف كلماته.

عزيزي ڤير، عزيزي ڤير بكلّ ما في الكلمة من معنًى، ما لم أقدر على وصفك به في حياتي، سأصفك به بعد أن يكون الموت قد طواني: ولدي، لم يكن في وسعي أن أمتلكك ابنًا لي. وأقول لنفسي أنّ ثمّة أسبابًا لذلك. وكنت طوال السنوات الأخيرة أوشك أن أخبرك بذلك مرّات ومرّات، وأتوسّل إليك، بوصفك رجلاً بالغًا، أن تفهم السبب الذي دفعني إلى ذلك التصرّف. لكنّني لم أملك الجرأة، وبعد مثل هذه الجريمة، أيّ غفران أو تعويض؟ إنّ الأشياء تحدث والأعمال تنجز في حياة طويلة لا تفسير لها كي ترضي كلّ فرد. كلّ ما عدا ذلك هو مضيعة للوقت.

لكنّني على الرّغم من ذلك أطلب منك الغفران.

والدك الحزين

سوراج سنغ

الوصيّة مرفقة بمظروف. صاحب ديوان لا يكرّر في الوصيّة ما كشف عنه بخصوص ولده ڤير، غير أنّ الهدف هو إصلاح ذات البين، واتّخاذ خطوات من أجل رأب الصدع بمنح هديّة متمثّلة في بيت الأجداد الذي هو إرث من حقّ ولده. الوصيّة مكتوبة بخطّ يد صاحب

ديوان وتواقيع الشهود تمتدّ على أسفل الصفحة، وهي مؤرّخة بتاريخ محدّد، وتحتوي على كلّ ما يجعلها تملك المصداقيّة القانونيّة، وهي وصيّة مقتضبة وواضحة:

راي بهادور سوراج كيشان سنغ ديوان

سوراجغاره السابق، وصيّة، وشهادته الأخيرة.

يمكن الآن ملاحظة ما يأتي عقب وفاتي:

١. يؤول كلّ ما يتبقّى من مشروبات روحيّة إلى نجيب قريشي، ومعها أيضًا علبة سكائري المزدانة بصورة سيّارة رولزرويس التي طالما اشتاق إليها طوال السنوات التي عرف بها أحدنا الآخر. ولما كان عاشقًا للسيّارات، فإنّها من حقّه.

٢. تسلّم إضبارة قصاصات صحفي إلى الجنرال بيشت كي يتمكّن من البدء بالقراءة في أيّ وقت يشاء.

٣. ترث نزيلة بيتي السيّدة مايا سيكوريا الأوراق العائدة إلى إدوارد جيمز كوربيت، وترث أيضًا الرسائل المرفقة الخاصّة بأدوينا مونتباتن وجواهر لال نهرو.

٤. تقسّم أموالي المودعة في المصرف بالتساوي على همت سنغ وبوران سنغ وشارو وهارما ديفي.

٥. تنتقل ملكيّة ثيابي ومحتويات منزلي إلى همت سنغ، يبيعها أو يتخلّص منها أو يحتفظ بها بحسب مشيئته.

٦. تنتقل ملكيّة المنزل والأرض المحيطة إلى رانفير سنغ راثور شريطة أن يتعهّد بالسماح بإقامة كلّ من دهارما ديفي وولدها بوران سنغ وحفيدتها شارو ديفي في المنزل المشيّد على العقار من دون دفع بدل إيجار مدى الحياة. كما يتعهّد بالسماح لمايا سيكوريا في إشغال منزلها

قدر ما تشاء من الوقت. الحجّة الأصليّة مرفقة طيًّا وتظهر عليها حدود العقار الذي يرثه عنّي رانڤير سنغ راثور.

التواقيع والشهود

أرفع الوصيّة والرسالة لأظلّل بهما عينيّ وأرنو إلى ظلال الكلمات المختلطة من خلل ضوء الشمس. أتذكّر تلك الأحاديث المبكرة التي دارت مع ڤير عندما أخبرني بنبرات مريرة عن الأسلوب الذي تنقّل فيه من بيت قريب إلى آخر عندما كان طفلاً، موزّعًا وقته أثناء العطلات المدرسيّة بينهم، ولم يكن أحدهم يملك وقتًا يتفرّغ فيه إليه، وكيف أنّه نشأ وترعرع مرتبطًا بواحد منهم أو اثنين مؤملاً أن يجد من يصرّح بغتة أنّه ابنهم، وكيف أنّه سيعرف بقدرة ساحر من هما والداه وما منزله الحقيقي، وكيف قلّد صاحب ديوان النمور والطيور أمامه أحيانًا، ولكنّه كان يعود إلى شرابه ونسائه، وكيف تاق ڤير للعطف والحنان اللذين لم يعثر على أيّ منهما.

أنزل الأوراق إلى أسفل، وأشعر الآن بالحنين والاشتياق لأن أطمئن ڤير في وحدته تلك!

أستلقي من دون حراك وأصغي إلى طيور البربيت وهي تنادي. أراها تجلس على أشجار الدهلية تمزّق براعم الورود الكبيرة بمناقيرها وكأنّها مكسّرات تفرّقها فتنكسر لتأكلها وجبة خفيفة. ثمّة ليمون أصفر كبير الحجم يدفأ وينضج على سويقاتها. ما لم يعرف العالم الوصيّة، فإنّ كلّ هذه الأشياء ـ البيت والجدول ومنزلي وحديقتي والبلّوط ونباتات البيسّيّة والرودندرون وأرز الهملايا ـ كلّها ستنتقل إلى غريب، إلى لواء أو كولونيل لا نعرفه بعد أن لبثت صحبة أسرة صاحب ديوان على مدى جيلين.

لكن هذا هو حال المنزل، وقد فقدت أشياء كثيرة، فلم أعد أكترث. وسوف أعثر على منزل آخر وأجعل منه بيتًا لي من جديد.

قرأت الوصيّة مرّة أخرى.

إنّني متوازنة على حافّة سكّين. أنا السكّين. في وسعي أن ألحق الأذى.

يظهر وجه صاحب ديوان قبالتي، شعره الأشيب في حال يرثى له، لحيته طويلة أكثر ممّا ينبغي، ويقول: «هيّا. ماذا تنتظرين؟ أنت تعرفين ما سأفعل. الانتقام نوع من أنواع العدالة الوحشيّة».

أتذكّره جالسًا أمام مدفأته، يرمي بمخطوطته فيها، ثم يرمي صورة كلابه في ألسنة اللهيب ويراقب حياته تحترق.

أفكّر في مايكل وكاحله المصاب وهو فوق سفح متجمّد بالقرب من بحيرة مملوءة بالجماجم، يراقب صديقه وقد ابيضَّ تحت عاصفة ثلجيّة، يراه يبتعد، فيناديه، ويتوسّل إليه أن يمدّ له يد العون، ولكنّه يفقد قوّته على أثر كلّ صيحة مدركًا في الوقت نفسه أن لا شيء أمامه سوى موت بطيء.

قطع من الجليد ترنّ بين جوانب فؤادي. لو أنّني انقلبت ظهرًا لبطن لكان الصقيع والبرد في محلّ الدماء والعضلات.

أمسك الوصيّة ورسالة صاحب ديوان الموجّهة إلى ڤير بيديَّ الاثنتين وأمزّق الأوراق إلى نصفين، ثم أمزّق الأنصاف إلى أرباع. صوت تمزيق الأوراق يعذّبني وأتنبّه للقسم الذي يحتوي على الكلمات: «رانڤير سنغ راثور، شريطة أن يتعهّد. . .» فأمزّقها إربًا إربًا، إلى أن يضيع كلّ حرف من حروف الاسم.

وأرمي قصاصات الورق في الجوّ. القصاصات التي يرميها الهواء عليَّ يتعذّر تمييزها عن الفراشات البيض اللاتي يتربّعن من فوق الزهور البرّيّة في هذه الحديقة.

ما زال العقابان يراقبانني من فوق قمّة شجرة أرز الهملايا التي ترتفع إلى مسافة ميل. ومن حولهما، بدأ عصر وقت الشتاء يمضي سريعًا، وأشعّة الشمس الطويلة تنحدر في سهولة الآن ولم تعد تمنح الدفء. يتعيّن عليَّ أن أنهض من فوق الحشيش قبل أن يتغلغل البرد إلى عظامي.

يشعر العقابان بتغيّر الجوّ والضياء. العقاب الأوّل يستعرض مخالبه مثل رياضي وينشر جناحيه ويغادر غصنه. العقاب الثاني ما يزال ينظر باتّجاهي ولكنّه يشيح بنظره جانبًا ويلحق برفيقته. انقضى النهار وعلى العقابين أن يبحثا عن مأوى يتربّعان عليه ويستسلمان للنوم الآن. تيّارات الهواء تدفعهما عاليًا وهما يحلّقان تحليقًا دائريًّا ومنحنيًا، ويتّجهان نحو آخر تلّ في العالم.

شكر وتقدير

أسهم كلّ من دي. سي. كالا وأميت سين ورافي دايال في حلّ شفرات التلال لي. إنّ ثقافة هذه الشخصيّات وذكائها وتفرّدها وقدرتها على عقد الصلة بين الزهو والمتعة يجعل منها شخصيّات فريدة من أهل الهملايا، باتت منقرضة في هذه الأيّام.

وكانت أروندااتي غوبتا قد أطلقت شرارة هذه الرواية، وقرأت مخطوطتها الأولى مثلما قرأها كلّ من ميريام بيليهيغيو وشيلا روي وشروتي ديبي وبارثو داتا. وواجه روكان أدفاني معاناة شديدة وهو يجد أمامه مسوّدات لا تُعدّ ولا تُحصى: القدر الكبير من كتاباته وأفكاره متغلغل بين السطور. أمّا كريستوفر ماك ليهوز المعروف بعبقريّته الفريدة، فقد اشتغل على مختلف النسخ المتتابعة مثلما يشتغل في حديقة غير ممهّدة: مكان يسكن فيه ويزرع الأفكار حتى يصبح بمرور الوقت كتابًا.

أمّا أفكار مانجوْ آريا المعمّقة، فقد وفّرت قدرًا كبيرًا من المتعة

والتعلّم. وكانت أطروحة الدكتوراه لمهراج مهرا عن بلدة رانيكهت معينًا لا ينضب من المعلومات شأنه شأن الأحاديث التي جرت رفقة اس. راميش واكشاي شاه. كما أنّني استفدت من كتاب جانيت مورغان «أدوينا مونتباتن: سيرة حياتها»، وكتاب مارتن بوث «صاحب السجّادة»، وكتاب دي. سي. كالا «جيم كوربيت المتحدّر من كوماون»، وكتاب بي. أن. داهر «أنديرا غاندي: الطوارئ والديموقراطيّة الهنديّة». وثمّة متعة أخرى في كتاب أس. دي. بانت «الاقتصاد الاجتماعي لسكّان الهملايا» الذي فاجأتني دار نشر ماك ليهوز بإرساله إليَّ، وهو كتاب نموذجي لما يغدقه عليّ من فضل كلّ من كريستوفر وكوكلا وميسكا ماك ليهوز الذين يحطّمون كلّ قاعدة تخصّ الانحياز القاسي الذي يمارسه النشر المعاصر. وهذا ينطبق أيضًا على عدد كبير من الأشخاص في دار نشر ماك ليهوز وكويركوس، وبخاصّة كاثرينا بيلينبرغ وينشي براكا.

ويمثّل إسهام إيفان هوتنيك وتوماس أبراهام في هذا الكتاب ذروة المصادفات السعيدة لصداقات قديمة. هذا وسوف يوفّر كلّ من نسرين كبير ورادهيكا براكاش ومانيشيتا داس كعهدي بهم دائمًا، حماية أثناء نشره. . لهذا، فإنّني مدينة لكلّ واحد منهم دينًا كبيرًا.

المؤلفة

حين أصدرت أنورادا رُوي روايتها الأولى، **أطلس الحنين المستحيل**، نجحتْ في انتزاع إعجاب عشرات الآلاف حول العالم، وتصدّرتْ لائحة «أفضل كُتُب العام» في **الواشنطن بوست** و**السياتل تايمز**. واليوم تعود رُوي بتُحْفةٍ أخرى تستقطب اهتمامَ الجوائز العالميّة.

هذه الرواية تحكي عن شابّةٍ تباشر حياةً جديدةً عند التلال الواقعة على سفوح الهملايا، وسط إيقاعات القرية الصغيرة الوادعة، حيث يتعايش الناسُ بسلامٍ مع الطبيعة. إلاّ أنّها لا تلبث أن تكتشف أنْ لا مَهْربَ من العالم الحديث. وحين يهدّد السياسيّون الشرهون مجتمَعها الحبيب، تجد نفسَها عالقةً بين الحياة التي خلّفتْها وراءها والمجتمعِ الجديدِ الذي عزمَتْ على أن تحميَه بكلّ قوّتها.

تصميم الغلاف رعم الجندي

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-294-8
9 789953 892948